علي

رواية

البشير بن سلامة



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

عاطف

رواية

علي

البشير بن سلامة

عَـــــــلِي

روايَــــــة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

إِلَى رُوحِ وَالِدِي

هَـــذَا هُـــوَ الرُّكْـــنُ الثَّـــالِثُ مِـــنْ رُبَاعِيَّـــةِ " الْعَـــابِرُونَ " . وَهْـــوَ كَـــالأَوَّلِ وَالثَّـــانِي فِـــي " عَائِشَـــة " وَ" عَـــادِل " أَشْـــخَاصُهُ وَوَقَائِعُـــهُ مِـــنْ حَبْـــكِ الْخَيَـــالِ . وَكُـــلُّ شَـــبَهٍ بِأَشْـــخَاصٍ وَاقِـــعِيِّينَ ـــ إِلاَّ مَـــنْ ذُكِـــرُوا قَصْـــدًا لِوُجُودِهِـــمْ التَّـــارِيخِيِّ ـــ إِنَّمَـــا هُـــوَ مَحْـــضُ صُـــدْفَةٍ . طَالَمَـــا أَنَّ النَّـــفْسَ الْبَشَـــرِيَّةَ ، فِـــي تَعَدُّدِهَـــا وَتَنَوُّعِهَـــا ، مَعْـــدِنٌ فَـــرْدٌ وَطِينَـــةٌ وَاحِـــدَةٌ .

الْهُوِيَّةُ

1

فِي صَبَاحِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ جَانْفِي 1978 أَفَاقَ عَبْدُ اللَّطِيفِ حَفِيدُ عَلِي عَلَى صَوْتِ مُفَرْقَعَاتٍ وَضَجِيجٍ فِي الشَّارِعِ . وَهْوَ الَّذِي لَمْ يُغْمِضْ عَيْنَيْهِ الْبَارِحَةَ إِلاَّ قَلِيلاً بَعْدَ أَنْ سَهِرَ فِي بَيْتِ جَدِّهِ عَلِي إِلَى السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، لاَ لِيَسْمَعَ ، كَالْعَادَةِ ، حَدِيثَ مَنْ أَحَبَّهُ وَمَنْ جَعَلَهُ يَعِيشُ أَحْدَاثاً جِسَامًا حَلَّتْ بِوَطَنِهِ وَبِأُنَاسٍ عَصَفَتْ بِهِمْ الْحَيَاةُ عَلَى أَدِيمِ هَذِهِ الأَرْضِ أَوْ نَسِيَتْهُمْ فَعَبَرُوهَا شِبْهَ أَمْوَاتٍ بَلْ لِيُمْضِيَ أَقْسَى السَّاعَاتِ أَمَامَ جُثْمَانِ جَدِّهِ الْمُسَجَّى الَّذِي فَارَقَ الْحَيَاةَ قَبْلَ ذَلِكَ

كأنهُ شَمْعَةٌ إنطفَأتْ لِاحْتِرَاق مَا بَقِيَ فِيهَا مَنْ ذُبَالَةٍ .أَسْلَمَ الرُّوح هَادِئَ النَّفْسِ رَضِيَّ الْبَالِ كَأَنّهُ لَمْ يَخُضْ غَمْرَةَ هَذَا الْكَوْن : إضْطِرَابَ أَهْوَاء وَعُمْقَ أَوْتفاهَةَ هَوًى وَخواءَ هَواءٍ . وَالدُّنْيَا كَمَا يَقُولُ هَوَاءٌ فِي هَوَاءٍ سَوَاءٌ عَبَرَهَا الإنْسَانُ شَقِيّاً مُعْدَماً أَوْ عَمرَهَا رَافِلاً فِي الرَّاحَةِ وَالْغِنَى .

عَبَرَ الشَّارِعَ الْهَادِئَ فِي الْعَادَةِ وَفَهِمَ أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ لاَ يُشْبِهُ الأَيَّامَ الأُخْرَى . فَالنَّاسُ يُسْرِعُونَ الْخُطَى مُرْتَبِكِينَ وَأَعْوَانُ الشُّرْطَةِ فِي لِبَاسِ الطّوَارِئ يُطَارِدُونَ الّذِينَ أَحَلُّوا الْعُنْفَ فِي الْمَدِينَةِ مَحَلَّ الأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ .

قَالَ عَبْدُ اللّطِيفِ فِي نَفْسِهِ : إنَّ جَدِّي دَائِماً عَلَىمَوْعِدٍ مَعَ الأَحْدَاثِ الْجِسَامِ حَتَّى وَهْوَ مُسَجًّى لا يُبْدِي حَرَاكاً . وَجَالَتْ فِي ذِهْنِهِ الْعَرَاقِيلُ الّتِي سَتُوَاجِهُ الدَّفْنَ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمُضْطَرِبِ . وَانْدَفَعَ يَحُثُّ الْخُطَى مُبْتَعِدًا عَنِ الشَّوَارِعِ الْعَرِيضَةِ مَسْرَحِ الأَحْدَاثِ حَتَّى وَصَلَ إلى بَيْتِ جَدِّهِ .

وَكَانَ هَمُّ الأَهْلِ مُقَسَّماً بَيْنَ وَفَاةِ عَزِيزٍ عَلَيْهِمْ لا بُدَّ مِنْ إيفَائِهِ حَقَّهُ مِنَ الْمَرَاسِمِ وَبَيْنَ هَذَا الّذِي يَهُزُّ الْعَاصِمَةَ مِنْ شَغَبٍ وَعُنْفٍ وَاضْطِرَابٍ .

وَلَكِنَّ الأَبْنَاءَ وَالأَحْفَادَ ذَلَّلُوا كُلَّ الصِّعَابِ وَتَمَّ كُلُّ شَيْءٍ كَمَا رُسِمَ : الدَّفْنُ وَالْفَرْقُ الأَوَّلُ وَالثَّانِي وَالأَرْبَعُونَ . وَتَرَكَ الشَّيْخُ عَلِي فَرَاغاً لَدَى كُلِّ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ وَخُصُوصاً عَبْدَ اللطِيفِ .

نَعَمْ ،عَبْدُ اللَّطِيفِ الّذِي تَعَوَّدَ أَنْ يَقْدَحَ زِنَادَ الْفِكْرِ مَعَ جَدِّهِ فَيَضْحَكُ مَا شَاءَ لَهُ الضَّحِكُ أَوْ يَنْشَغِلُ ذِهْنُهُ بِتَجَارِبِ الْحَيَاةِ وَوَاقِعِهَا الْمُتَغَيِّرِ ، حُلْوِهِ وَمُرِّهِ .

إي وَاللَّهِ ، تَـرَكَ فَرَاغـاً لَـدَى كُـلِّ أَفْـرَادِ الْعَائِلَـةِ ، غَـيْرَ أَنَّ عَبْـدَ اللَّطِيـفِ لَـمْ يَنْهَـزِمْ أَمَـامَ هَـذَا الْفَـرَاغِ وَآلَـى عَلَـى نَفْسِـهِ أَنْ يَمْلَـأَهُ ، فَيَكُـونُ جَـدُّهُ دَائِـمَ الْحُضُـورِ، فَـإِنْ عَـزَّ ذَلِـكَ بِالْجَسَـدِ فَبِـالصَّوْتِ إِذَنْ . وَهَـذِي التَّسَـاجِيلُ الَّتِـي أَوْدَعَهَـا عِنْـدَهُ الشَّيْخُ عَلِي تُغْنِيـهِ عَـنْ التَّذَكُّـرِ وَالذِّكْـرَى وَفِيهَـا الْمَعْـرُوفُ لَـدَى سَـائِرِ الْعَائِلَـةِ وَلَكِـنَّ أَغْلَبَهَـا بَقِـيَ سِـرًّا لَـمْ يَكْشِـفْ عَـنْ خَبَايَـاهُ الْجَـدُّ وَتَرَكَ لِحَفِيـدِهِ حَـقَّ التَّصَـرُّفِ فِيـهِ .

وَانْشَـغَلَ عَبْـدُ اللَّطِيـفِ بِكُـلِّ هَـذِهِ التَّسَـاجِيلِ وَسَـمِعَهَا وَهْـيَ مُرَتَّبَـةٌ حَسْـبَ هَـوَى جَـدِّهِ : مَـا تُمْلِيـهِ الذَّاكِـرَةُ وَمَـا تَفْرِضُـهُ رُوحُـهُ الْقَصَصِيَّـةُ مِـنْ تَقْدِيـمٍ وَتَأْخِـيرٍ وَاسْـتِطْرَادٍ وَرَجْعَــةٍ . وَلَكِــنَّ خَيْـطَ الْقَصَـصِ لاَ يَنْقَطِــعُ ، وَتَفَـاصِيلَ الأَحْـدَاثِ لاَ تَغِيـبُ عَـنْ ذِهْنِـهِ الْمَكْـدُودِ ، وَتَعَـدُّدَ الأَشْـخَاصِ لاَ يَثْنِيهِ عَـنْ تَقَصِّـي أَخْبَـارِهِمْ وَمُحَـاصَرَتِهِمْ وَهُـمْ يُخْفُـونَ دَفَـائِنَ أَسْـرَارِهِمْ .

وَآثَـرَ عَبْـدُ اللَّطِيـفِ أَنْ يَكْتُـبَ مَـا سَـمِعَهُ وَ أَنْ يَقُصَّـهُ هُـوَ كَمَـا شَـاءَ ، لِـأَنَّ جَـدَّهُ مَنَحَـهُ هَـذِهِ الْحُـرِّ يَّـةَ وَأَوْصَـاهُ بِـأَلاَّ يَكْشِــفَ بَعْـضَ الأَسْـرَارِ ، وَ عَلَـى الأَقَـلِّ بِـأَنْ يَتَصَــرَّفُ فِيهَــا تَصَرُّفـاً ذَكِيًّـا . وَجَــرَّدَ الْحَفِيـدُ قَلَمَــهُ وَ شَــحَذَهُ وَكَتَـبَ هَـذِهِ الصَّفَحَـاتِ وَالْعُهْـدَةُ عَلَيْــهِ . وَفَكَّـرْتُ فِـي أَنْ أَضَـعَ مَـا كَتَبَـهُ عَبْدُاللَّطِيـفِ بَيْـنَ قَوْسَـيْنِ ، وَلَكِـنَّ ذَلِـكَ قَـدْ يَعْنِــي أَنَّـهُ فِـي إِمْكَـانِ الْقَـارِئِ الإِسْتِغْنَاءُ عَمَّـا دَوَّنَ ، ثُـمَّ قُلْـتُ لِنَضَعْهَـا بَيْــنَ مُعَقَّفَيْــنِ لِلتَّـأْكِيدِ عَلَـى أَنَّ مَــا صَدَرَ مِنْهُ إِنَّمَا هُـوَ بَعِيـدٌ عَـنِ الأَصْـلِ . فَأَنَـا بَـرِيءٌ إِذَنْ مِمَّـا خَمَّـنَ ثُـمَّ دَوَّنَ.

2

ز ـ يَا بِنْتَ عَمِّي ، يَا أُخْتَ أَخِيهَا ، الْيَوْمَ سَيَزُورُنَا ضُيُوفٌ مِنْ كِبَارِ الْقَوْمِ ؛ وَلَكِنْ نَحْنُ الضُّيُوفُ وَهُمْ أَرْبَابُ الْمَنْزِلِ . هَيِّئِي الْمَائِدَةَ الْكَبِيرَةَ ، وَافْرِشِيهَا بِالْغِطَاءِ الْمُطَرَّزِ ، ضَعِي الصُّحُونَ والصِّحَافَ الْمُذَهَّبَةَ ، زَيِّنِيهَا بالسَّكَاكِينِ وَالشَّوْكَاتِ وِالْمَلاَعِقِ الْفِضِّيَّةِ ، جَمِّلِيهَا بِالْمَنَادِيلِ الْحَرِيرِيَّةِ الْمُزَرْكَشَةِ ، ثُمَّ اِصْقِلِي الشَّمَعْدَانَاتِ وَأَوْقِدِي الشُّمُوعَ . الْيَوْمَ ، يَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمُ الْحِسَابِ وَ . . . الْيَوْمَ سَأَنْتَصِبُ قَاضِيًا بِأَتَمِّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ . . .هُنَا ...

لَنْ أَكُونَ الْعُضْوَ الأَوَّلَ بَلْ سَأَكُونُ رَئِيسَ الْمَحْكَمَةِ . . . ضَعِي الْكُرْسِيَّ الْكَبِيرَ لأَجْلِسَ عَلَيْهِ أَنَا ، وَ الْكَرَاسِيَّ الْبَسِيطَةَ لِلْمُرَاقِبِ الْمَدَنِيِّ

وَالْعَامِلِ وَوَكِيلِ الدَّوْلَةِ الْفَرَنْسِيِّ وَرَئِيسِ مَحْكَمَةِ سُوسَةَ الَّذِي سَأَعْزِلُهُ الْيَوْمَ وَكُرْسِيَّيْنِ صَغِيرَيْنِ فِي طَرَفَيْ الْمَائِدَةِ لِأَخِيكِ حَامِد وَأَخِي حَفَيِّظ . . . كُلُّهُمْ سَيَكُونُونَ أَمَامِي لِأُقَاضِيَهُمْ الْيَوْمَ . . .

قَالَ عَامِر هَذَا الْكَلاَمَ بِصَوْتٍ كَأَنَّهُ الرَّعْدُ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَقْصُورَتِهِ يَجُرُّ قَامَتَهُ الْبَدِينَةَ وَهُوَ لاَبِسٌ قَمِيصَ النَّوْمِ الْفَضْفَاض وَعَلَى رَأْسِهِ عَرَقِيَّةٌ بَيْضَاءُ ، وَالْعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ وَجْهِهِ ، قَدْ أَجْهَدَتْهُ حُمَّى أَلَمَّتْ بِهِ ، وَ أَصَابَهُ وَهَنٌ مُنْذُ يَوْمَيْنِ لَمْ يَقْدِرِ الطَّبِيبُ عَلَى تَدَارُكِهِمَا بِالدَّوَاءِ الْمُكَثَّفِ .

وَانْضَافَتْ إِلَى ذَلِكَ هَلْوَسَةٌ تَعَجَّبَ الطَّبِيبُ مِنْ ظُهُورِهَا لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مُجَرَّدَ هَذَيَان مَحْمُومٍ يُجْبَرُ عَلَى لُزُومِ الْفِرَاشِ بَلْ هِيَ تُمِدُّهُ بِطَاقَةٍ تَسْمَحُ لَهُ بِالنُّهُوضِ وَالْحَرَكَةِ وَالْكَلاَمِ كَأَنَّهُ فِي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ .

هَرَعَتْ " كِيمَة" مِنْ وَسَطِ الدَّارِ وَهْيَ تَتَعَثَّرُ فِي " مَلْيَتِهَا" وَتُسَوِّي" قُوفِيَتَهَا " عَلَى رَأْسِهَا . وَدَلَفَتْ إِلَى الْغُرْفَةِ ذَاتِ الْقَبْو وَالْمَقَاصِيرِ لِتَجِدَ زَوْجَهَا يُزَمْجِرُ وَيُعِيدُ مَا سَمِعَتْهُ أَصْدَاءً فِي الْمَطْبَخِ .

وَمَا لَبِثَتْ أُمُّهَا " لِلَّاهُمْ" أَنِ الْتَحَقَتْ بِهَا لِتَسْتَجْلِيَ الأَمْرَ ، ثُمَّ صَاحَتْ بِابْنَتِهَا قَائِلَةً :

ـ اِفْعَلِي مَا أَمَرَكِ بِهِ زَوْجُكِ .

ثُمَّ انْحَنَتْ وَهَمَسَتْ فِي أُذُنِهَا :

ـ أَلاَ تَرَيْنَ أَنَّهُ اخْتَلَطَ عَقْلُهُ بَلْ خَرَجَ مِنْهُ ، أَسْرِعِي وَامْتَثِلِي لِمَا قَالَهُ حَتَّى لاَ تَكْثُرَ الْجَلَبَةُ وَيَسْتَيْقِظَ الأَوْلاَدُ .

وَعِنْدَمَا رَأَى عَامِر أَنَّ زَوْجَتَهُ سَاعِيَةٌ لِتَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ ، اِنْتَصَبَ فِي الْقَبْوِ ، مُتَّجِهاً نَحْوَ وَسَطِ الدَّارِ كَأَنَّهُ عَلَى رُكْحِ مَسْرَحٍ وَطَفِقَ يُمَثِّلُ دَوْرَيْنِ أَمْلَتْهُمَا عَلَيْهِ قَرِيحَتُهُ الْمُشَوَّشَةُ.هُوَ مُولَعٌ بِحِفْظِ الأَدْوَارِ

التَّمْثِيلِيَّـةِ،بَـلْ جَـرَّبَ فِـي بَعْـضِ خَلَوَاتِـهِ الْحِـوَارَ الْمَسْـرَحِيَّ وَكَــانَ مَـعَ أَبْنَائِــهِ يَعْمَـدُ بسُـهُولَةٍ إِلَـى تَغْيِـير صَوْتِـهِ كَمَـا تَقْتَضِيـهِ الأَدْوَارُ الْمُتَخَيَّلَـةُ ،إِذْ سَـحَرَهُ مَـا يَقْـرَؤُهُ فِــي مَجَـلاَّتِ الْمَشْـرِقِ وَجَرَائِــدِهِ وَبَعْـضِ التَّــآلِيفِ عَــنْ هَــذَا الْفَــنِّ الْجَدَيدِ الَّذِي يُسَمَّى الْمَسْرَحُ :

جَسَّــاسٌ : أَهْـلاً بِــابْنِ الْعَــمِّ الْكَرِيــمِ أَمَــلِ الْقَــوْمِ وَمُخَلِّــدِ مَــآثِرِهِمْ

الشَّـاعِرُ : أَهْـلاً بفَتَـى الْمُسْتَقْبَلِ كَـمْ وَدِدْتُ أَنْ أَرَاكَ فِــي هَــذِهِ الأَيَّــامِ فَهَــلْ كَفَفْتَ عَنْ مُرَافَقَةِ الأَمْوَاتِ أَمَلاً فِي الْبَعْثِ الْقَرِيبِ؟

جَسَّاسٌ : الأَمْـوَاتُ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ الَّذِيـنَ يَعْقِلُـونَ . فَهُــمْ جُـذُورُ الْحَيَــاةِ مِنْهُــمْ تَنْطَلِـقُ فُـرُوعُ شَـجَرَةِ الْوُجُـودِ الأَعْظَـمِ مُحَلِّقَـةً فِــي أَجْـوَاءِ الأَبَـدِ الْكَبِــيرِ

الشَّاعِرُ: شَـجَرَةُ الْوُجُـودِ الأَعْظَـمِ ...الأَبَـدُ الْكَبِـيرُ ... جُـذُورُ الْحَيَــاةِ ... لَقَـدِ انْطَلَقْـتَ بـي يَـا ابْـنَ الْعَـمِّ إلى عَـالَمٍ جُــذُورُ الْحَيَــاةِ فِيـهِ مَيِّتَــةٌ وَأَجْـوَاؤُهُ مُتَبَخِّرَةٌ ، فَأَيْنَ مَكَانِي وَمَكَانُكَ بَيْنَ كُلِّ هَذَا ؟

جَسَّـاسٌ : نَحْـنُ كَـالْعَيْنِ إِنْ تَدَفَّـقَ مَاؤُهَـا شَـقَّ طَرِيقَــهُ غَـيْرَ عَـابِئٍ لاَ هَــمَّ إِلاَّ سَاعَةَ يَلْتَقِي بِالْخِضَمِّ .

الشَّاعِرُ: وَهَـلْ فِي اللِّقَـاءِ إِمْكَانٌ ؟ فَلَكَـمْ تَعَـثَّرَ السَّيْرُ وَامَّحَى الطَّرِيـقُ وَضَـاعَ فِي مُنْعَرَجَاتِ الْمَحْدُودِ .

جَسَّــاسٌ : هُـوَ سِـرُّ وُجُودِنَـا أَنْ نَحْيَـا بَيْــنَ مَــاضٍ أَفْـلَــتَ مِنَّــا بِــدُونِ رَجْعَــةٍ وَمُسْــتَقْبَلٍ تَــرَاءَى لَنَــا وَقَــدْ تَرَامَـــتْ فُرُوعُـهُ فِــي عَــالَمِ اللاَّمَحْــدُودِ

الشَّـاعِرُ : وَهَـلِ الْحَيَـاةُ فِـي أَوْسَـعِ مَعَانِيهَـا قَدْ أَفْلَتَـتْ مِنَّـا بِـدُونِ رَجْعَـةٍ حَتَّـى صِرْنَا نَعِيشُ وَلاَ حَيَاةَ .

جَسَّــاسٌ: لاَ هُــوَ كَسْــبُ الْبَشَـرِيَّةِ الْعَظِيــمِ انْ قَـدَرَتْ عَلَـى الإِفْـلاَتِ مِــنَ الْحَـاضِرِ الْمَقِيـتِ فَتَجَاوَزَتْـهُ بِـالأَمَلِ إِلَـى الْمَجْهُـولِ وَالْغَيْــبِ .

وَيَلْمَـحُ زَوْجَتَــهُ وَهْــيَ مُنْشَـغِلَةٌ بِتَهْيِــــئَةِ الْمَـائِدَةِ فِـي الْغُرْفَـةِ الْمُقَابِلَــةِ فَيَصِيحُ :

- أَسْــرِعِي إِنَّ الضُّيُــوفَ قَــادِمُونَ وَإِنَّ سَــاعَةَ الْحِسَــابِ آتِيَـــةٌ .

وَيَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ الأَوَّلِ فِي هَيْئَةٍ مَسْرَحِيَّةٍ أُخْرَى وَيَقُولُ :

الْمُهَلْهِلُ : أَتَذْكُرِينَ لَقَدْ أَحْبَبْتُكِ يَوْمَ سَخِرْتِ مِنِّي ... لَقَدْ ضَحِكْتِ ضَحَكَاتٍ مُسْتَرْسِلَةً ... إِنْفَتَحَ لَهَا قَلْبِي ... تَذَكَّرْتُ ضَحَكَاتِي الْخَفِيَّةَ ...حِينَ أَنْطَوِي عَلَى نَفْسِي وَأَضْحَكُ مِنْهَا ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَضْحَكَ مِنْ نَفْسِهِ فَقَدْ شَارَفَ إِنْسَانِيَّتَهُ .

الْجَارِيَةُ : نَعَمْ ضَحِكْتُ وَلَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا ؟ لَعَلَّنِي غُصْتُ فِي أَعْمَاقِكَ ... فَانْكَشَفَتْ لِي نَفْسُكَ ، نَعَمْ نَفْسُكَ فِي عُرْيِهَا ... بَشِعَةً ... قَبِيحَةً ...دَمِيمَةً ... قَمِيئَةً .

الْمُهَلْهِلُ : أَلَمْ تُعْجِبْكِ قَسَمَاتُ وَجْهِي وَوَسَامَتِي ... أَلَمْ تَسْتَهْوِكِ نَبَرَاتِي ... صَوْتِي ... فَصَاحَتِي ... وَشِعْرِي .

الْجَارِيَةُ : لاَ وَكَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ ... لِأَنَّنِي حِينَذَاكَ أَسْجُدُ لَكَ وَأَنْهَارُ ذَلِيلَةً خَاشِعَةً أَمَامَ إِلاَهِي .

الْمُهَلْهِلُ : أَلَمْ تُقَاسِمِينِي اللَّيَالِيَ الطَّوِيلَةَ ... حَيْثُ لاَ نَجْمَ وَلاَ نُورَ ... أَلَمْ نَشْعُرْ مَعاً بِنَشْوَةِ الأَمَلِ ... اللَّذَّةِ فِي مَرَارَتِهَا... وَشَرٌّ مَا فِيهَا ... الشَّرَّ أَلَمْ نَتَقَاسَمْهُ ظَامِئَيْنِ ...

الْجَارِيَةُ : لَمْ أَعْنِ هَذَا ... أَنْتَ تَتَحَدَّثُ عَنْ بَهِيمِيَّتِي وَبَهِيمِيَّتِكَ حِينَ تَنْهَارُ مُسْتَأْسِداً وَأَنْهَارُ ذَلُولاً . أَنَا أَقْصُدُ الإِنْسَانَ ... لاَ الرَّجُلَ الْفَحْلَ ...

الْمُهَلْهِلُ : أَنْتِ الذَّلُولُ ... لاَ ... أَنَا هُوَ عَبْدُكِ ... أَيَّتُهَا السَّيِّدَةُ لَقَدْ فُقْتِنِي تَجْرِبَةً فِي الشَّرِّ وَاللَّذَّةِ وَالأَلَمِ .

وَلَمْ يُتِمَّ هَذَا الْكَلاَمَ حَتَّى انْهَارَ عَلَى " بَنْكٍ " مِنَ الأَبْنَاكِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْغُرْفَةِ ، وَأَخَذَ يَلْهَثُ وَالْعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْهُ وَلَمَّا هَدَأَ تِلْكَ الْهَدْأَةَ جَاءَتْهُ "لِلاَّ هُمْ" وَهْيَ الْمَرْأَةُ الدَّاهِيَةُ الذَّرِبَةُ اللِّسَانِ الَّتِي عَجَمَتِ الدَّهْرَ وَعَرَفَتْ حُلْوَهُ وَمُرَّهُ وَقَالَتْ :

ـ مَا بِـكَ يَـا سَيِّـدِي ... هَـلْ أَلَـمَّ بِـكَ شَـيْءٌ ... نَحْنُ طَـوْعُ أَمْـرِكَ (مُلْتَفِتَـةً بِدُونِ أَنْ يَسْمَعَهَا) يَرَّاكِ إِمْقُلِّي فِي الدَّرْدِي .

ـ سَأُحَاسِـبُكُمْ جَمِيعـاً... هَـلْ هَيَّـأْتِ كِمِيَـةَ الْمَـائِدَةِ،سَأَسْـتَدْعِيكِ أَنْـتِ وَابْنَتَـكِ وَابْنَـكِ الْعَمَّـارِي كَشُـهُودٍ. لاَ بُـدَّ مِـنْ شُـهُودٍ عِنْـدَ الْمُقَاضَـاةِ .

ـ وَنَحْنُ مَاذَا فَعَلْنَا ؟

ـ كُلُّكُـمْ أَعْمَـالٌ ... أَتَظُنُّـونَ أَنِّـي لَسْـتُ مُطَّلِعـاً عَلَـى تَحَرُّكَـاتِكُمْ ...لاَ فَائِدَةَ فِي الْكَلاَمِ ... اِذْهَبِي يَا لِلاَّهُمْ وَلَسْتِ لِلاَّتِي،إِلَى غُرْفَتِكِ أَوْ عَلَـى الأَقَلِّ سَـاعِدِي اِبْنَتَـكِ عَلَـى تَهْيِئَـةِ الْجَلْسَـةِ .

ثُمَّ رَاحَـتْ تُحَـدِّقُ فِيـهِ وَصَـدْرُهُ يَعْلُـو وَيَـنْزِلُ وَوَجْهُـهُ مُحْتَقِـنٌ وَعَيْنَـاهُ حَمْـرَاوَانِ وَهْـوَ يَنْفُـخُ نَفْخـاً ؛ وَفُجْـأَةً غَفَـا ، وَهْـوَ جَـالِسٌ غَفْـوَةً اِنْحَنَـى لَهَـا رَأْسُـهُ وَشَـخَرَ شَـخْرَةَ اِسْـتِفَاقٍ مِـنْ جَرَّائِهَـا وَوَقَـفَ وَقْفَتَـهُ الأُولَـى وَقَـالَ :

ـ أَنَـا فِـي الصَّحْـرَاءِ وَهَـذِهِ خَيْمَـةٌ يَخْـرُجُ مِنْهَـا كُلَيْـبٌ وَالْجَلِيلَـةُ ...مَـنِ الَّـذِي جَاءَ بِكُمَا فِـي عَاصِفَـةِ الرَّمْـلِ هَـذِهِ ؟

وَيَتَقَمَّـصُ دَوْرَ كُلَيْـبٍ وَدَوْرَ الْجَلِيلَـةِ... وَيَضَـعُ كَفَّيْـهِ عَلَـى وَجْهِـهِ كَأَنَّـهُ يَتَّقِي ذَرَّاتِ الرَّمْلِ :

كُلَيْبٌ : أَيْنَ كُنْتِ ؟

الْجَلِيلَةُ : كُنْتُ عِنْد إِخْوَتِي .

كُلَيْبٌ : كَلِقَائِكِ عِنْدَمَا تَحِنِّينَ إِلَى بَيْتِ أَخِيكِ .

الْجَلِيلَـةُ : وَهَـلْ يَكُـونُ إِلاَّ اللِّقَـاءُ ؟ حَدِيـثٌ وَعِتَـابٌ . حَدِيـثُ الأُخْـتِ لأَخِيهَا .

كُلَيْـبٌ : أَنْـتِ تُخْفِيـنَ عَنِّـي شَـيْئاً كَبِـيراً . كُلَّمَـا حَدَّثْتُـكِ عَـنْ إِخْوَتِـكِ إِلاَّ اِنْقَطَعَ كُـلُّ شَـيْءٍ بَيْنِـي وَبَيْنَـكِ ... حَتَّـى إِنِّـي أَشْعُرُ بِهُـوَّةٍ عَمِيقَـةٍ تَفْصِـلُ بَيْنَنَـا وَتَمْتَصُّ كُلَّ ذَلِكَ الْحُبَّ الَّذِي أَعْرِفُ أَنَّكِ تُكِنِّينَهُ لِي .

الْجَلِيلَـةُ :أَنْـتَ وَاهِـمٌ ، وَكَـأَنَّكَ تُرِيـدُ أَنْ تَقْطَـعَ بَيْنِـي وَبَيْـنَ بَيْـتِ أَخِـي .أَنْـتَ

تَعْرِفُ أَنِّنِي أُحِبُّكَ حُبًّا لاَ مَثِيلَ لَهُ ، أُحِبُّكَ كَحُبِّي لِلإِلاَهِي . أَسْجُدُ لَكَ وَأُومِنُ بِشَجَاعَتِكَ وَقُوَّتِكَ .

كُلَيْبٌ : أَيَّتُهَا الْمُسْتَهْتِرَةُ بِحُبِّي ، الْمُسْتَكِينَةُ لِقُدْرَتِي وَقُوَّتِي ، أَنْتِ لاَ تُحِبِّينَنِي . لَقَدْ أَوْهَمْتِنِي ذَلِكَ أَوْ تَوَهَّمْتِ أَنَّكِ تُحِبِّينَنِي

الْجَلِيلَةُ : مَعَاذَ اللَّهِ . أَنْتَ تَتَجَنَّى عَلَيَّ . تُرِيدُ مِنِّي أَنْ أُحِبَّكَ إِلَى الْعِبَادَةِ ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى ذَلِكَ . فَهَلْ تَنْتَظِرُ مِنِّي أَنْ أَتَنَكَّرَ لِإِخْوَتِي وَأَنْ أَكْرَهَهُمْ مِنْ أَجْلِكَ . أَلَيْسَ فِي الأَمْرِ سَبَبٌ تُخْفِي مِنْ أَجْلِهِ شَيْئاً عَظِيماً

كُلَيْبٌ : بَلْ أَنْتِ الَّتِي تُخْفِينَ ... فَلَوْ أَنَّكِ تُحِبِّينَنِي لَكَشَفْتِ عَمَّا دَارَ بَيْنَكِ وَبَيْنَ هَذَا الْفَتَى الأَرْعَنِ الَّذِي أُكِنُّ لَهُ حُبًّا كَبِيراً مَعَ هَذَا

الْجَلِيلَةُ : الْفَتَى الأَرْعَنُ ؟

كُلَيْبٌ : أَكَرِهْتِ مِنِّي هَذَا الْقَوْلَ . إِنِّي أَرَى فَرَائِصَكِ تَرْتَعِدُ كَأَنَّكِ تَخَافِينَ أَمْراً عَظِيماً .

الْجَلِيلَةُ : إِنِّي أَخَافُ عَلَى شَبَابِهِ كَمَا أَخَافُ عَلَيْكَ .

كُلَيْبٌ : تَخَافِينَ عَلَيَّ مِمَّنْ ؟

الْجَلِيلَةُ : لَمْ أَقُلْ شَيْئاً إِنَّمَا الأَقْدَارُ غَاضِبَةٌ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ وَقُوَّةُ الآلِهَةِ مَشْغُولَةٌ بِهَذَا الْحَيِّ تَعْبَثُ بِهِ .

وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِيمَا تُمْلِيهِ عَلَيْهِ قَرِيحَتُهُ الْمُشَوَّشَةُ ، وَإِذَا بِهِ يُحِسُّ بِشَيْءٍ مِنَ الإِجْهَادِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ إِلَى وَسَطِ الدَّارِ وَبَدَأَ يَدُورُ عَلَى نَفْسِهِ كَمَا يَدُورُ الدَّرَاوِيشُ وَلَكِنْ بِبُطْءٍ ، وَقَمِيصُ النَّوْمِ يَنْفَتِحُ مِنَ الأَسْفَلِ بِالْهَوَاءِ رَاسِماً حَلَقَاتٍ كَامِلَةً، وَهُوَ يَصِيحُ :

كَانْ مَشَى
وَإِلاَّ جَاءْ
وَإِلاَّ دَخَلْ لِلْعَمَى
هُوَ الْكُلُّو مِنْ مَنِي

* * *

حَا يِشْرِي فِي الْبَلاَ
هَبَطْلُو حَانْ مِسْمَا
قَامْ يُرْكُضْ
شَدْ كَمْشَـه مِلْهَـوا

* * *

وِينْ مَشَى
وِينْ جَا
مِنِينْ دْخَـلْ لِلْعَمَـى

وَكَـانَ يُسْـرِعُ فِـي الـدَّوَرَانِ مِـنْ حِيـنٍ إِلَـى آخَـرَ وَلَمَّـا تَعِـبَ كَـفَّ عَـنْ إِعَادَةِ هَذِهِ الْمَقَاطِعِ وَأَبْدَلَ الإِيقَاعَ صَائِحاً :

يَا دَارْ دَوَّرِينِي
وَفِي الْهَوَا طَيِّرِينِي
خَرْجِتْ الدُّنْيَا مِـنْ قَلْبِي وَعِينِـي

ثُـمَّ لَمَّـا بَـدَأَ يَتَرَنَّحُ وَكَـادَ يَسْـقُطُ أَخَـذَ يَنْظُـرُ إِلَـى قَدَمَيْـهِ وَيَقُـولُ بِتَـؤُدَةٍ وَرَصَانَةٍ غَرِيبَةٍ :

هَذَا بِيرْ وَهَذَا بِيرْ
وِينِ نْدُورْ نَلْقَى بِيرْ
أَنَا وَاقِـفْ وَلاَّ نْطِيرْ

* * *

هَذَا بِيرْ السَّانِيَة
وِينْ مَاءْ الْجَّابِيَة
فِي هَالدُّنْيَا الْفَانِيَة

* * *

كَانْ غُرُقْ لاَزِمْ اِيفَوِّجْ
ويذَا بَقْبَقْ عَلاَشِيلَوِّجْ
كُلْ مْسقِّمْ فِيـهِ مْعَوِّجْ

وَهُنَا لَمْ تَصبرْ كِيمَـة عَـنِ التَّعْبِـيرِ عَمَّـا أَحَسَّـتْ بِـهِ مِـنْ هَـذَا الْجُنُـونِ الَّـذِي إِعْـتَرَى زَوْجَهَـا الْمَعْـرُوفَ بِرَصَانَتِـهِ . وَرَاحَـتْ تَخْبِـطُ عَلَـى فَخِذَيْهَـا وَتَنْـدُبُ خَدَّيْهَا وَتَصِيحُ :

ـ هَاوْ سَعْدِي لِمْسَوِّدْ
هَاوْ شَمَاتِهْ لَعْدَا
هَـــاوْ ...

وَعِنْـدَ ذَلِـكَ تَدَخَّلَـتْ أُمُّهَـا لِلأَهَـمْ وَهَـدَّأَتْ مِـنْ رَوْعِهَـا ، وَكِيمَـة تُسَـائِلُهَا وَالْعَبْرَةُ تَخْنُقُهَا :

ـ مَنْ هِيَ منَى ؟ مَنْ هِيَ منى ؟
ـ أُسْـكُتْ ... يَعْطِيكْ عَمَى .

وَلَكِـنَّ عَـامِر سَـقَطَ مَغْشِياً عَلَيْـهِ ، ثُـمَّ مَـا لَبِـثَ أَنْ تَحَـامَلَ عَلَـى نَفْسِـهِ وَدَبَّ دَبِيباً إِلَى فِراشِـهِ ، وَتَمَـدَّدَ عَلَيْـهِ ، وَطَلَـبَ فِـي هُـدُوءٍ غَرِيـبٍ أَنْ يُؤْتَـى لَـهُ بِـالطَّبِيبِ ،بَيْنَمَـا اِهْتَمَّـتْ لِلأَهَـمْ بِابْنَتِهَـا وَتَرَكَـتْ صِهْرَهَـا بِـدُون عَـوْن . وَأَيْنَ لَهُ ذَلِـكَ وَنجْمُـهُ عِنْدَهَـا قَـدْ أَفَـلَ ، إلاّ لَفْتَـةً مُتَـأَخِّرَةً مِـنْ صِهْـرِهِ الْعَمَّـارِي الَّذِي هَرَعَ إِلَيْهِ عِنْدَمَا وَصَـلَ إِلَى السَّـرِيرِ وَقَـدْ أَيْقَظَتْـهُ مِـنَ النَّـوْمِ الْهَيْعَـةُ .]

3

[وَقَفَتْ كِيمَة وَالْعَمَّارِي وَلِلاَّهُمْ أَمَامَ السَّرِيرِ فِي وُجُومٍ وَأَنْظَارُهُمْ تَتَفَحَّصُ عَامِر وَقَدْ مَلأَ جِسْمُهُ ثُلُثَي الْفِرَاشِ وَتَلاَحَقَتْ أَنْفَاسُهُ ، مُضْطَرِبَةً فِي أَوَّلِ الأَمْرِ ثُمَّ بَدَأَتْ تَهْدَأُ . وَنَزَّتْ قَطَرَاتُ الْعَرَقِ مِنْ جَبِينِهِ ، لَمَّاعَةً، يَتَلأْلأُ عَلَى صَفَحَاتِهَا النُّورُ الْبَاهِتُ الْمُنْبَعِثُ مِنَ الشَّمْعَةِ . وَمِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ تَنْفَتِحُ عَيْنَا الْمَرِيضِ وَاسِعَةً كَأَنَّهَا تَتَصَفَّحُ وُجُوهَ الْوَاقِفِينَ أَمَامَهُ وَجْهاً

وَجْهاً ثُمَّ تغْمُضَانِ وَقَدِ انْطَبَعَتْ عَلَى شَفَتَيْهِ بَرْطَمَةٌ ، هِيَ إِلَى الإشْمِئْزَازِ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى الْغَضَبِ .

وَمَا كَانَ مِنْ زَوْجَةِ عَمِّهِ إلاَّ أَنْ قَالَتْ :

ـ لاَ فَائِدَةَ مِنَ الطَّبِيبِ الآنَ وَكُلُّ الأَمَارَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرَضَ سَيُعْطِي لِلْمَرِيضِ مُهْلَةً إِلَى الصُّبْحِ . هَيَّا ... اُخْرُجَا مِنَ الْغُرْفَةِ .

وَجَرَّتْ اِبْنَتَهَا وَابْنَهَا إِلَى الْغُرْفَةِ الَّتِي أُعِدَّتْ فِيهَا مَائِدَةُ الطَّعَامِ وَأَطْفَأَتِ الشُّمُوعَ وَأَبْقَتْ عَلَى نُورٍ بَاهِتٍ كَافٍ لِإِظْهَارِ مَا يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهَا مَنْ شَرَرِ الْخُبْثِ وَالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ ونَصْبِ الأَحَابِيلِ.

إِنَّهَا مِنْ نَسْلِ الطُّلَقَاءِ أُولاَئِكَ الْعَبِيدِ الَّذِينَ كَانُوا يَقُومُونَ بالأَشْغَالِ الْفِلاَحِيَّةِ الشَّاقَّةِ لِفَائِدَةِ أُسْرَةِ الْحَاج سَالِم ثُمَّ أُعْتِقُوا عِنْدَمَا مُنِعَ الرِّقُّ ، وَتَمَكَّنُوا بِفَضْلِ حَيَوِيَّتِهِمْ مِنَ الارْتِقَاءِ فِي سُلَّمِ الْمُجْتَمَعِ بِوَسَائِلَ عَدِيدَةٍ لَيْسَتْ دَائِماً مُشَرِّفَةً .

كَانَتْ قَصِيرَةَ الْقَامَةِ ، مَلْفُوفَةً فِي حِرَامِهَا الأَزْرَقِ الَّذِي تَظْهَرُ مِنْهُ عَلَى مُسْتَوَى الصَّدْرِ" قَمَجَّةٌ " مُحَلاَّةٌ بِأَشْكَالٍ هَنْدَسِيَّةٍ مِنْ حَرِيرٍ مُلَوَّنٍ . وَالْحِرَامُ مَشْدُودٌ بِخَلاَلَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ وَبِحِزَامٍ مِنْ صُوفٍ . وَفِي الرِّجْلَيْنِ خَلْخَالاَنِ ذَهَبِيَّانِ يُسْمَعُ لَهُمَا رَنِينٌ عِنْدَمَا تُسْرِعُ فِي خَطْوِهَا ، أَوْ تُرِيدُ قَهْرَ الأَعْدَاءِ وَرَدَّ كَيْدِ الشَّامِتِينَ فِي نُحُورِهِمْ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ كَلاَمٍ حَادٍّ مُسَجَّعٍ مَرْصُوفٍ . وَلَعَلَّ اللِّبَاسَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَحْشُرُهَا فِي زُمْرَةِ النِّسَاءِ إِذْ أَنَّكَ لاَ تَجِدُ فِي وَجْهِهَا لاَ مَلاَمِحَ الأُنُوثَةِ وَلاَمَخَايِلَ الرِّقَّةِ فَلَكَأَنَّهُ قُدَّ مِنْ صَخْرٍ أَوْ نُحِتَ مِنْ خَشَبٍ . هُوَ يَرْشَحُ صَرَامَةً وَشِدَّةً تَظْهَرَانِ فِي النَّظْرَةِ الْخَاطِفَةِ الْمُشْتَعِلَةِ حِدَّةً وَنَقْمَةً وَفِي الْفَمِ الثَّعْلَبِيِّ

الشَّكْلِ والأَنْفِ الأَقْنَى الْمُذَبَّبِ . اِلْتفتَتْ إِلَى ابْنَتِها وَقَالَتْ :
ـــ يَا بِنْتِ الْكَلْبْ مَا تعْرَفْ كَانْ الْبَكَا . عِينِيكْ وَلأَوْطَمــــاطِمْ مِلِّـــي عَرَّسَتْ (وَيَنْتَقِلُ عَبْدُ اللَّطِيفِ مَنَ الْحِوَارِ بِالْعَامِّيَّةِ إِلَى الْفُصْحَى . لَسْتُ أَدْرِي لِمَاذا ؟) ظَنَنَّا أَنَّكِ سَتَكُونِينَ أَسْعَدَ نِسَائِنَا : تَزَوَّجْتِ اِبْنَ عَمِّكَ الْمُتَخَرِّجِ مِنْ جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ وَإِذَا بِهِ يَتْرُكُكِ وَيُسَافِرُ إِلَى تُونِسَ لِيَعْمَلَ نَاسِخاً بِالْعَدْلِيَّةِ فَأَجْرَيْتِ وِدْيَاناً مِنَ الدُّمُوعِ .ثُمَّ يُعَيَّنُ فِي الْمَحْكَمَةِ بِقَفْصَةَ ، فَبَكَيْتِ طُولَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَأَلْحَقْنَاكِ بِهِ رَغْمَ طُولِ الْمَسَافَةِ ، فَلَمْ يَهْنَأْ لَكِ بَالٌ بَلْ غَلَبَتْكِ الْوَحْشَةُ وَحَنَنْتِ إِلَى إِخْوَتِكِ وَمَلأْتِ أَيَّامَهُ وَلَيَالِيَهِ بُكَاءً حَتَّى رَدَّكِ إِلَى دَارِ الْجَمَاعَةِ تَحْتَ سَيْطَرَةِ الأَسْلاَفِ وَالسِّلْفَاتِ وَقَالَ لَكِ : حَرَمْتِنِي مَنْ لَذَّةِ الْقُرْبِ مِنْ أَوْلاَدِي حَرَمَكِ اللَّهُ مِنْ لَذَائِذِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .
ـــ لاَ لَمْ يَقُلْ الآخِرَة...
ـــ مَا أَخَسَّ عَقْلَكِ ...وَجِئْتِ إِلَى دَارِ الْجَمَاعَةِ بَيْنَ الْحَمَاةِ وَالسِّلْفَاتِ وَسَيْطَرَةِ حَنَشْ بُو فِطِيرَة . فَكَانَ الْبُكَاءُ بِضَاعَتُكِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ . وَالآنَ فَلْتَبْكِي مَا شَاءَ لَكِ الْبُكَاءُ وَلَنْ يَلُومَكِ أَحَدٌ ، يَابِنْتَ مَاذَا سَيَقُولُ فَمِي ... يَا بِنْتِ طْحِ ...

وَالْتَفَتَتْ إِلَى ابْنِهَا الْعَمَّارِي وَقَالَتْ لَهُ فِي غَضَبٍ :
ـــ إِمْشِ أُرْقُدْ مَا نَاشْ مُحْتَاجِينْ لِيكْ .

وَلَمَّا غَادَرَ الْعَمَّارِي الْغُرْفَةَ إِتَّجَهَتْ نَحْوَ ابْنَتِهَا وَأَمْسَكَتْهَا مِنْ خَدَّيْهَاالْمُبَلَّلَيْنِ بِالدَّمْعِ وَحَمْلَقَتْ بِحَدَقَتَيْهَا الْغَائِرَتَيْنِ اللَّمَّاعَتَيْنِ كَزَيْتُونَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ فِي عَيْنَيْ كِيمَةَ الشَّهْلاَوَيْنِ وَصَاحَتْ فِيهَا :
ـــ أَلاَ تَعْرِفِينَ أَنَّ " بَابُورَ " زَوْجِكِ زَفَّرَ وَأَنْتِ لاَ سِلاَحَ لَكِ إِلاَّ الْبُكَاءُ .

قُومِي وَانْظُرِي فِي أَمْرِكِ . غَداً سَتَمْتَلِئُ عَلَيْنَا الدَّارُ عِنْدَمَا يَصِلُ الْخَبَرُ إِلَى إِخْوَتِهِ وَأَبِيهِ . اِبْعَثِي إِلَى أَخِيكِ حَامِد لِيَأْتِيَ بِسُرْعَةٍ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ سِلْفُكِ حَفِيظ حَنَش بُوفطيرَة الَّذِي اِسْتَحْوَذَ عَلَى الْحَاج سَالِم الْهَرِمِ وَأَصْبَحَ هُوَ الْفَاتِقُ النَّاطِقُ الْمُوَكَّلُ عَلَى الأَمْلاَكِ كُلِّهَا . إِنَّهُ سَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . أَخْرِجِي مِنَ الْخَزْنَةِ كُلَّ الْعُقُودِ وَالْقِطَعِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي رَأَيْتُ عَامِر يَعُدُّهَا وَالْفُلُوسَ الَّتِي يَحْتَفِظُ بِهَا فِي الصُّنْدُوقِ الأَصْفَرِ وَالْحُلِيَّ الْمَوْجُودَةَ فِي "الْكَانَويطَة " وَأَخْفِي الْبَرَانِيسَ وَالْجَبَايِبَ وَلاَ تَتْرُكِي شَيْئاً ظَاهِراً إِلاَّ الْقَلِيلَ الْقَلِيلَ الْمُطَمْئِنَ . وَكُونِي فَحْلَةً وَ إِلاَّ فَإِنَّ أَوْلاَدَكِ الْيَتَامَى غَداً سَيَكُونُونَ تَحْتَ رَحْمَةِ ذَاكَ الْحَنَش وَلَنْ يَنَالَهُمْ شَيْءٌ مَنْ رِزْقِ أَبِيهِمْ .

كَفْكَفَتْ كِيمَة دُمُوعَهَا بَعْدَ أَنْ أَفْلَتَتْ مِنْ قَبْضَةِ أُمِّهَا وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ الْخَزْنَةِ . وَإِذَا بِعَامِر يَنْهَضُ مِنْ فِرَاشِهِ وَيَخْطُو خُطُوَاتٍ وَيُزَمْجِرُ :

ــ أَيْنَ شَاشِيَّتِي ..؟ الضُّيُوفُ أَقْبَلُوا ... قُلْ لِلْعَمَّارِي يُوَجِّهْهُمْ إِلَى حَيْثُ تُوجَدُ الْمَائِدَةُ ... لِمَاذَا أُطْفِئَتِ الشُّمُوعُ..؟ أَيْنَ شَاشِيَّتِي ..؟

وَجَاءَتْهُ كِيمَة بِشَاشِيَّتِهِ فَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِهِ وَهْوَ لاَبِسٌ قَمِيصَ النَّوْمِ ، وَوَقَفَ أَمَامَ الْمَائِدَةِ بَعْدَ أَنْ أُضِيئَتْ الْغُرْفَةُ بِسُرْعَةٍ وَصَاحَ فِي مَوْقِفٍ تَمْثِيلِيٍّ :

ــ هَذَا نُمُوُّ الأَحْسَابِ أَمْكَنَنِي مِنَ الْمَكَانِ الْمُزْمِنِ فِي الْمَكَانِ الْمُمْكِنِ بَعْدَ هِيَاطٍ وَمِيَاطٍ وَخِلاَطٍ وَعِيَاطٍ . قَالَ الزَّمَانُ لِلْمَكَانِ اِبْتَعِدْ عَنْ هَذَا الْمَيْدَانِ وَاحْكُمْ حُكْمًا إِلاَهِيًّا مُنَزَّلاً حَتَّى تَسْتَقِيمَ الأَنْفُسُ وَتَأْكُلَ خُبْزَالْقَمْحِ وَتَكُفَّ عَنْ أَكْلِ خُبْزِ الشَّعِيرِ فَتُقَاسِمَ الْبَهَائِمَ فِيمَا قُدِّرَ لَهَا مِنْ

قِسْمَةٍ .ضَعُوا الْعَدْلَ فِي كَفَّةٍ وَلُقْمَةَ الْعَيْشِ فِي كَفَّةٍ . وَانْظُرُوا كَفَّةَ مَنْ سَتَرْجَحُ وَخُبْزَةَ مَنْ سَتَطِيرُ وَوَرَقَةَ مَنْ سَتَسْقُطُ مِنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . كَفَّةُ الأَحْمِرَةِ هِيَ الْغَالِبَةُ لاَ عَدْلَ فَيُعْدَلَ وَلاَعَيْش فَيُلْقَم . حِكْمَةُ الرَّبِّ مَعَ الْبَهَائِمِ .

جَلَسَ عَلَى الْكُرْسِيِّ الْكَبِيرِ أَمَامَ الْمَائِدَةِ الْكَبِيرَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَسْنَدَ نِصْفَهُ الأَعْلَى إِلَى ظَهْرِ الْكُرْسِيِّ اللَّيِّنِ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى الْمُتَّكَأَيْنِ وَأَحَسَّ بِرَاحَةٍ عِنْدَمَا خَلَّصَ " كُبَيِّبَةَ " الشَّاشِيَّةِ مِنْ بَيْنِ الظَّهْرَيْنِ قَالَ :
ـ حَضَرْتُمْ كُلُّكُمْ ... فُتِحَتِ الْجَلْسَةُ إِذَنْ ...

كَانَتْ كِيمَة وَرَاءَهُ تَبْكِي فِي صَمْتٍ ، وَلَكِنَّ لِلاَّهُمْ تَضْحَكُ بِدُونِ جَلَبَةٍ وَتَهْمِسُ فِي أُذُنِ ابْنَتِهَا قَائِلَةً :
ـ اُنْظُرِي أَلَيْسَتْ هَذِهِ " الْكُبَيِّبَةُ " الْمُتَدَلِّيَةُ شَبِيهَةً بِذَيْلِ بَغْلِنَا ... زَوْجُكِ سَيَمْلأُ فَمَهُ تُرَابًا وَهُوَ يَطْلُبُ خُبْزَ الْقَمْحِ فِي الْقَبْرِ .

فَصَاحَتْ فِيهَا ابْنَتُهَا صَيْحَةً مُزْعِجَةً وَدَفَعَتْهَا بِدُونِ أَنْ تَشْعُرَ صَارِخَةً بِأَعْلَى صَوْتِهَا :
ـ خَلِّينِي أَنْدُبُ أَيَّامِي ... بَقِيتِ أَجْنَبِيَّةً عَنَّا لاَ يُفْرِحُكِ فَرَحُنَا وَلاَ يُبْكِيكِ حُزْنُنَا .
وَالْتَفَتَ عَامِر نَاهِرًا الْمَرْأَتَيْنِ قَائِلاً :
ـ كَفَى تَشْوِيشًا ... الْجَلْسَةُ مُسْتَمِرَّةٌ وَسَيَأْتِي دَوْرُ الشُّهُودِ .

وَغَمْغَمَتْ لِلاَّهُمْ كَلِمَاتٍ كُلُّهَا سَبٌّ وَبَذَاءَةٌ ، وَجَذَبَتِ ابْنَتَهَا إِلَيْهَا مَاسِكَةً إِيَّاهَا بِشِدَّةٍ كَأَنَّهَا تَهُمُّ بِنَطْحِهَا قَائِلَةً :
ـ أُمُّكِ الْكَلْبَةُ ... لَوِ ابْتَعَدْتُ عَنْكِ لَتَنَتَّنْتِ أَنْتِ وَأَوْلاَدُكِ وَأَكَلَتْكُمُ

الْكِلاَبُ ... هَيَّا نُدَبِّرْ أَحْوَالَنَا ... زَوْجُكِ وَجَدَ رَاحَتَهُ فِي ذَاكَ الْكُرْسِيِّ وَسَيَنَامُ بَقِيَّةَ اللَّيْلِ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الْمُرِيحَةِ لَهُ ... يَرَاهُ مُقْلَّي فِي الزِّيتْ الدِّرْدِي .

* * *

كِيمَة تَبْكِي وَلِلاَّهُمْ تَضْحَكُ ، عَامِر يَتَأَلَّمُ وَ شَرَّابَةُ شَاشِيَّتِهِ تَرْقُصُ رَقْصَةَ ذَيْلِ الْبَغْلِ ، الْكُرْسِيُّ مُلُوكِيُّ الزِّينَةِ وَقَمِيصُ النَّوْمِ مَحْشِيٌّ فِيهِ بَدَنُهُ الضَّخْمُ كَمَا تُحْشَى الْمِخَدَّةُ ، شَمْعَدَانَاتٌ مُذَهَّبَةٌ وَشُمُوعٌ مُلْتَهِبَةٌ وَصُحُونٌ بِلَوَازِمِهَا تَلْمَعُ ، وَيُقَابِلُ ذَلِكَ كَرَاسِيٌّ فَارِغَةٌ تَتَرَاقَصُ زِينَتُهَا كَأَنَّهَا بَهْلَوَانَاتٌ صَغِيرَةٌ ، صُورَةٌ مُعَلَّقَةٌ فِي الْجِدَارِ الْمُقَابِلِ فِيهَا عَامِر يَرْأَسُ جَلسَةً مِنْ جَلَسَاتِ الْمَحْكَمَةِ كُلُّهَا جِدٌّ وَصَرَامَةٌ وَأَمَامَهَا جَلْسَةٌ أُخْرَى مَمْزُوجَةٌ بِسُخْرِيَّةِ الْقَدَرِ وَمَأْسَاوِيَّةِ أَلَمٍ يَنْشُدُ الْفِكْرَ مِنْ جَرَّاءِ عَوْدَةِ الذِّكْرَى طَلَبًا لِلسَّلاَمَةِ وَتَلاَفِياً لِلْهَاوِيَةِ بِالإِفْلاَتِ مِنْهَا ، وَلَكِنَّ الْحَدَّ بَيْنَ التَّلاَفِي وَالتَّلَفِ صَعْبُ التَّمْيِيزِ .

* * *

وَقَفَ عَامِر فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَفَتَحَ ذِرَاعَيْهِ فِي نَشْوَةٍ وَفَرَحٍ ظَاهِرَيْنِ وَقَالَ :

ـــ أَهْلاً بِوَالِدِي ... لِمَاذَا أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ ..؟ جِئْتَ لِتَشْهَدَ مُحَاكَمَةَ هَؤُلاَءِ ..؟ لاَ تَقْتَرِبْ إِنَّ الْبِئْرَ أَمَامَكَ ... اِبْنُكَ فِي جَلْسَةٍ . اِنْتَظِرْنِي حَتَّى أَرْفَعَهَا ... ثُمَّ كَيْفَ يَتَسَنَّى لِي أَنْ آتِيَكَ وَبَيْنَنَا هَذَا الْبِئْرُ ... بِئْرُ السَّانِيَةِ ... هَلْ جِئْتَ بِهِ مَعَكَ لِتُغْرِقَ اِبْنَكَ كَمَا أَغْرَقْتَهُ سَابِقًا ؟ أَلَسْتَ

أَنْـتَ الْـذي دَفَعْتَـهُ إِلَـى السَّـفَرِ صَـوْبَ الْعَاصِمَـةِ فِـي لَيْلَـةٍ عَاصِفَـةٍ ثُـمَّ أَلْقَتْـهُ الأَقْدَارُ حَيْثُ كَـانَتْ إِدَارَةُ الْحِمَايَـةِ تَنْفِـي مَـنْ لاَ رَغْبَـةَ لَهَـا فِيهِـمْ .

وَهُنَـا تَحَوَّلَـتْ لَهْجَتُـهُ مِـنْ جِـدِّ الْمَحَـاكِمِ إِلَـى نَـبْرَةٍ مَسْـرَحِيَّةٍ مُحَلِّقَـاً فِـي أَجْـوَاءِ غِنَائِيَّـةٍ وَاضِحَـةٍ مُتَذَكِّـرًا شَـيْئًا مِمَّـا كَتَبَـهُ عِنْـدَ نُزُوحِـهِ عَـنْ قَرْيَتِـهِ إِثْـرَ مَوْقِفِ أَبِيهِ الصَّارِمِ مَعَ تَغْيِيرٍ وَاضِحٍ أَمْلَتْهُ عَلَيْهِ حَالَتُهُ الآنِيَّةُ :

ـ يَا أَبِي يَا قَسْـوَةً فِي لِـينٍ ، وَحَنانًـا فِي جَفَـاءٍ ، وَبَسْـمَةً فِي غَضْبَـةٍ، وَتَـأْنِيبَةً فِي تَرْبِيتَـةٍ ، قُـلْ لِـي : هَـلْ رَضِيـتَ بِـأَنْ يَرْشَـحَ ابْنُـكَ أَلَمًـا وأَسًـى ، وَأَنْ تَتَنَازَعَـهُ الذِّكْـرَى ، رَاجِيًـا عَوْدَتَهَـا وَهْـوَ عَلَى حَافَّـةِ هَـذِهِ الْهَاوِيَـةِ . إِنَّهَـا تَمُـدُّ إِلَيْـهِ ذِرَاعَيْهَـا ، فَـاغِرَةً فَاهَـا ، تُحَرِّضُـهُ عَلَى الإِقْـدَامِ . أُدْعُ لَـهُ بِالسَّـلاَمَةِ ... اجْعَلْـهُ يَنْكَـبُّ عَلَى الْعِلْـمِ ... يَكْـرَعُ مِنْـهُ ... يَلُـوذُ بِـالْفِكْرِ لِيَضْمَـنَ السَّـلاَمَةَ. وَلَكِـنْ ، لاَ مَكَـانَ لِـيَ الآنَ لِـأَنَّنِي بَيْـنَ الْحَيَـاةِ وَالْمَـوْتِ ، هَـذَا السَّـوَادُ الْمُطْلَقُ ، اللاَشَيْءُ ، الصَّمْتُ الأَبْكَـمُ عَلَـى الإِطْـلاَقِ ، حَيْـثُ لاَ شِـعْرَ وَلاَ مُوسِيقَى وَلاَحُـبَّ وَلاَ حُرِّيَّـةَ وَلا حَتَّـى اللَّـهَ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّـهَ ...

آهِ يَـا أَبِـي لِمَـاذَا تَوَارَيْـتَ ..؟ كَيْـفَ تَخْـذِلُ ابْنَـكَ وَهْـوَ أَمَـامَ هَـذِهِ الْبِـئْرِ الْعَمِيقَـةِ ..؟ أَيْـنَ حَنَـانُكَ ؟ أَيْـنَ الرَّأْفَـةُ الَّتِي عَرَفَهَـا فِيـكَ النَّـاسُ مِـنْ مُحِـبٍّ وَجَـافٍ ؟ وَأَيْـنَ الْحِكْمَـةُ الَّتِي جَعَلُوكَ بِهَـا حَكَمًـا فِي كُـلِّ مَا يَنْشَـبُ بَيْنَهُـمْ مِنْ خِـلاَفٍ ؟ لِمَـاذَا تَرَكْتَنِي وَحْـدِي وَحَدِبْـتَ عَلَـى سَـائِرِ إِخْوَتِـي تَحْبُوهُـمْ بِعَطْفِـكَ وَلُطْفِـكَ وَمَـالِكَ وَرَأْيِـكَ السَّـدِيدِ . وَأَنَـا لَـمْ أَحْصِـدْ إِلاَّ الْعَنَـاءَ وَالتَّعَـبَ ، لِـأَنَّ وَاجِبِي يَفْـرِضُ عَلَـيَّ أَنْ أَحْمِـلَ كُـلَّ الْعَائِلَـةِ عَلَـى أَكْتَـافِي ، بَـلْ كُلَّ أَهْلِ الْقَرْيَـةِ : رَاحَتُكُـمْ فِي تَعَبِي ، وَتَعَبِي لاَ يُشَـاطِرُنِي فِيـهِ أَحَـدٌ .

وَهُنَا جَلَسَ عَامِر وَانْحَنَى بِرَأْسِهِ وَوَضَعَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ زَمَنًا لَيْسَ بِالطَّوِيلِ حَتَّى هَدَأَ مِنَ الإِجْهَادِ ، وَسَوَّى شَرَّابَةَ شَاشِيَتِهِ وَقَالَ :

ــ الْمَعْذِرَةُ . . . لَقَدْ طَرَأَ عَلَى الْجَلْسَةِ طَارِئٌ .]

4

[تَكَادُ الْغُرْفَةُ تَخْلُو مِنْ أَيَّةِ نَأْمَةٍ . فَالصَّمْتُ مُخَيِّمٌ عَلَى كُلِّ مَا وُجِدَ هُنَاكَ .وَلَيْسَ مَعَ عَامِر فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ الَّتِي جَعَلَ مِنْهَا صَاحِبُهَا مَحْكَمَةً إِلاَّ الصَّمْتُ ذَاكَ الْمَخْلُوقُ الَّذِي آثَرَ أَنْ يَبْقَى مَعَهُ وَلَمْ يَهْجُرْهُ ، وَلَمْ يَعْتَبِرْهُ مُنْتَهِيًا . وَلَكِنَّهُ مَخْلُوقٌ بِدُونِ فَمٍ مَعَ مَخْلُوق وُضِعَ عَلَى فَمِهِ قُفْلٌ أَوْ يَكَادُ . هُمَا الْوَحِيدَانِ اللَّذَانِ فِي إِمْكَانِهِمَا أَنْ يَتَحَاوَرَا وَيَتَفَاهَمَا ، وَيَجِدَا رَاحَتَهُمَا فِي مَجْلِسِ السُّكُونِ هَذَا : يَلْتَقِيَانِ وَيَشْرَبَانِ عَلَى نَخْبِهِ

شُرْبَ النَّدِيمِ مَعَ النَّدِيمِ ، وَالْجَلِيسِ مَعَ الْجَلِيسِ ، فِي إِدْمَانٍ عَجِيبٍ وَقَرْعٍ صَامِتٍ لِكُؤُوسٍ مُلِئَتْ مِنْ إِكْسِيرِ السُّكُونِ الَّذِي يَتَلاَشَى فِيهِ أَعْظَمُ مُخَدِّرٍ اُبْتُلِيَ بِهِ الإِنْسَانُ أَلاَ وَهُوَ الْكَلاَمُ .

كُلُّ شَيْءٍ فِي الْغُرْفَةِ صَامِتٌ : الصُّورَةُ الْمُعَلَّقَةُ فِي الْجِدَارِ أَمَامَ عَامِرٍ وَفِيهَا يَجْلِسُ هُوَ مَعَ زُمَلاَئِهِ فِي الْمَحْكَمَةِ ، إِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَيَتَفَحَّصُونَهُ وَهُوَ فِي شُغْلٍ عَنْهُمْ . وَالْكَرَاسِيُّ الْفَارِغَةُ أَلَيْسَتْ جَمَادًا لاَ يَصْدُرُ عَنْهَا أَيُّ صَوْتٍ ، وَلَكِنَّهُ مَلأَهَا بِأَشْخَاصٍ يُرِيدُ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ بَلْ يُصَفِّي مَعَهُمْ حِسَابًا عَسِيرًا وَأَيُّ حِسَابٍ أَعْسَرُ مِمَّنْ يَنْتَصِبُ حَكَمًا وَخَصْمًا فِي الآنِ نَفْسِهِ . وَالْجُدْرَانُ ، الْجُدْرَانُ صَامِتَةٌ أَيْضًا ، وَلَكِنَّهَا تَتَنَفَّسُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ ، فَتَرْمِي بِقُشُورٍ مِنَ اللِّيقَةِ مِنْ فَرْطِ الرُّطُوبَةِ : هِيَ تُخَاطِبُهُ بِلُغَةِ الْغُبَارِ وَمَنْطِقِ الأَشْيَاءِ وَالْحَدُّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ لُغَةِ الْعَدَمِ طَفِيفٌ . وَالسِّتَارَةُ عَلَى بَابِ الْمُسْتَحَمِّ سَاكِنَةٌ أَيْضًا تُخْفِي وَرَاءَهَا بَعْضَ الأَوَانِي . هِيَ أَيْضًا لاَ يُسْمَعُ مِنْهَا شَيْءٌ سِوَى رَنَّةِ قَطْرَةِ مَاءٍ تَنْزِلُ كُلَّ رُبْعِ سَاعَةٍ مِنْ إِبْرِيقٍ وَ"لِيَانْ" عَلَى "كِرْوَانَةٍ "مِنْ نُحَاسٍ . وَأَيُّ صَمْتٍ أَبْلَغُ مِنْ صَمْتِ مَدِينَةِ النُّحَاسِ . وَهَلْ أَفْصَحُ وَقْعًا مِنَ الْقَطْرَةِ الْمَوْقُوتَةِ : هِيَ دَقَّةُ السَّاعَةِ فِي مَجَاهِلِ الصَّمْتِ الإِنْسَانِيِّ بِالرُّبْعِ الْخَالِي .

وَفِي غَمْرَةِ هَذَا السُّكُونِ الْمُوَقَّعِ لاَيَسْمَعُ عَامِرٍ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ إِلاَّ صَوْتَ احْتِكَاكِ خَلْخَالَيْ لِلاَّهُمْ فَيَلْتَفِتُ فَيَرَى مِنْ فَجْوَةِ سِتَارَةِ بَابِ الْغُرْفَةِ طَرَفَ " قُوفِيَّتِهَا " كَالْمِنْقَارِ يَلْمَعُ بِعَدَسِهِ ، فَتَتَوَارَى وَقَدِ اطْمَأَنَّتْ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَطْرَأْ عَلَيْهِ جَدِيدٌ . وَعِنْدَ ذَلِكَ لاَ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ عَامِرٍ إِلاَّ جُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ :

ـ نَسْتَأْنِفُ الْجَلْسَةَ .

ثُمَّ يُخَيِّمُ الصَّمْتُ مِنْ جَدِيدٍ وَيَبْدَأُ عَامِرٍ مُحَاكَمَةَ الْمُتَّهَمِينَ خُصُومَهُ .

ـ سَيِّدِي الرَّئِيسُ ، أَبْدَأُ بِكَ أَنْتَ ... أَقُولُ لَكَ سَيِّدِي الرَّئِيسُ لِأَنَّنِي لَمْ أُصْدِرْ حُكْمِي بَعْدُ عَلَيْكَ . فَأَنْتَ مُتَّهَمٌ ، وَلَكِنَّكَ الآنَ فَقَطْ مُتَّهَمٌ ...نَعَمْ مُتَّهَمٌ بِالتَّحَيُّلِ . تَقُولُ لِي كَيْفَ أَتَّهِمُكَ بِالتَّحَيُّلِ ؟ إِذَنْ ، اِنْتَظِرْ قَلِيلاً .

وَصَاحَ عَامِر صَيْحَةً مُفْزِعَةً :

ـ يَاكِيمَة ... يَاكِيمَة . هَاتِ الْمِرْآةَ الْكَبِيرَةَ . هَاتِ " الْعِلْجِيَّة " . لاَ ... لاَ الْمِنْظَارُ الْبَسِيطُ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ حَلاَّقُ سُوق الرَّبَع . الْعِلْجِيَّة الْمُزَخْرَفَة الْجَمِيلَة .

وَتَهْرَعُ كِيمَة وَوَرَاءَهَا لِلاَّهُمْ الَّتِي لَمْ تَنْفَكَّ " تُرَبْرِبُ " وَ " تُسَخِّطُ " . وَلَكِنَّهَا حَثَّتِ ابْنَتَهَا عَلَى الإِتْيَان بِالْمِرْآةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْبَهْوِ . وَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى الْغُرْفَةِ مُسْتَعِينَةً بِأَخِيهَا الْعَمَّارِي وَجَدَتْ عَامِر مُجْهَدًا فَوَضَعَتْهَا قُبَالَتَهُ تَحْتَ الصُّورَةِ الْمُعَلَّقَةِ . فَلَمْ يَنْبُسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ . وَاسْتَرْسَلَ فِي تَهْوِيمَاتِهِ .

ـ اُنْظُرْ إِلَى نَفْسِكَ ، يَا خُوجَة فِي هَذِهِ الْمِرْآةِ ... مَا أَسْخَفَ كِيمَة ... كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَضَعَ الْمِرْآةَ أَمَامَكَ ... وَلَكِنَّ الْمُهِمَّ أَنْ أَرَاكَ أَنَا ، لِأَنَّنِي فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ سَأُحَاكِمُكَ أَنَا ، وَهَلْ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ تَرى نَفْسَكَ ... أَعْمَاكَ حُبُّهَا ... وَلَكِنَّكَ تُخْفِي حَقِيقَتَهَا عَنِ النَّاسِ ... أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَرَّيْتُهَا لَكَ وَلِلنَّاسِ جَمِيعًا فِي هَذِهِ الْمُحَاكَمَةِ الْعَلَنِيَّةِ ... لَمْ تَنْفَعْكَ لَبَاقَتُكَ وَلاَ تَبَجُّحُكَ بِأَنَّكَ بَلْدِي اِبْنُ بَلْدِي مُنَزَّهٌ كَمَاتَقُولُ عَنْ نَفْسِيَّةِ الأَوْبَاشِ وَفِعْلِ الَّذِينَ لاَ أَصْلَ لَهُمْ ، وَلَكِنَّ حَقِيقَتَكَ غَيْرُ مَا تَدَّعِي فَأَنْتَ لاَ تَنْتَسِبُ فِي أَفْعَالِكَ إِلَى هَؤُلاَءِ الْحَضَرِ . صَحِيحٌ أَنْتَ مُنْحَدِرٌ مِنْ عَائِلَةٍ عَرِيقَةٍ فِي الْحَضَارَةِ ... مِنْ قَلْبِ الْعَاصِمَةِ ...مِنْ قَاعِ الْخَابِيَةِ كَمَا يَلَذُّ

لَكَ قَوْلُهُ ... حَاذِقٌ لِلْقَوْلِ ... لَبِقٌ مُتَحَضِّرٌ ... غَيْرَ أَنَّكَ مِنْ حُسَالَةِ سُلاَلاَتِهِمْ الْعَظِيمَةِ ... نَعَمْ النِّعْمَةُ ...بَلْ بَلاَدَةُ النِّعْمَةِ ظَاهِرَةٌ فِي هَيْئَتِكَ وَكَلاَمِكَ وَحَرَكَاتِكَ ... فِي رَأْرَأَتِكَ الْمُزْعِجَةِ الَّتِي تُحَاوِلُ تَلْيِينَهَا لِتَكُونَ تَتْوِيجًا لِمَا تَحْسَبُهُ فِيكَ مِنْ لُطْفٍ وَرِقَّةٍ وَحَلاَوَةِ مَنْطِقٍ ... تَقُول إِنَّ الْمِرْآةَ قَلَّ أَنْ تَصْدُقَ ... وَهَلْ تَعْرِفُ الصِّدْقَ ؟ أَنْتَ الَّذِي كَمْ غَالَطْتَنِي وَلَعِبْتَ مَعِي "كَحْلَة حَمْرَة " فِي مَصَالِحِ الْبَشَرِ ...لَمْ أَكُنْ أَتَصَوَّرُ أَنَّ رَجُلاً فِي مِثْلِ مَقَامِكَ يَتَهَاوَنُ بِحُقُوقِ النَّاسِ ... أُنْظُرْ إِلَى وَجْهِكَ فِي الْمِرْآةِ كَيْفَ ظَهَرَ ...ظَهَرَ لِي عَلَى حَقِيقَتِهِ ...وَجْهُ ثَعْلَبٍ مَاكِرٍ ... لَقَدْ صَدَقَ الْمَثَلُ الَّذِي يَقُولُ : تُخْبِرُ عَنْ مَجْهُولِ الْمَرْءِ مِرْآتُهُ ... فِي مِرْآتِهِ ... صَحِيحٌ أَنَا مُغَفَّلٌ ... وَلَمْ أَفْطِنْ إِلَى أَلاَعِيبِكَ إِلاَّ بَعْدَ لَأْيٍ ... الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ ... خَدَعَتْنِي مَظَاهِرُكَ ... وَأَنَا أَقُولُ لِمَ هَذِهِ الْهَدَايَا الثَّمِينَةُ الَّتِي تَصِلُنِي مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ ... مَاذَا فَعَلْتَ ؟ تَكَلَّمْ وَقَدِ انْكَشَفَ أَمْرُكَ لِي ... لِمَاذَا أَنْتَ سَاكِتٌ ؟ مِنْ حَقِّ الْمَحْكَمَةِ أَنْ تَعْرِفَ مَا عَرَفْتُهُ أَنَا وَهَا أَنَا أَدْفَعُ ثَمَنَهُ غَالِيًا ... سَأَسْتَدْرِجُكَ وَأَمْضِي إِلَى أَقْصَى الْحُدُودِ فِي اسْتِنْطَاقِكَ وَسَتُقِرُّ بِالْحَقِيقَةِ .

وَانْتَابَ عَامِر سُعَالٌ كَبِيرٌ . وَأَظْلَمَتْ عَيْنَاهُ وَكَادَ يَسْقُطُ مِنَ الْكُرْسِيِّ ، وَحَاوَلَ الْكَلاَمَ لِيَطْلُبَ شَرْبَةَ مَاءٍ وَلَكِنَّ الْكَحَّةَ أَبَحَّتْ صَوْتَهُ ، وَقَارَبَتْ أَنْ تَأْخُذَ بِأَنْفَاسِهِ . وَلَمَّا أَسْعَفَتْهُ كِيمَة بِشَرْبَةِ مَاءٍ وَقَدْ سُرِّيَ عَنْهُ بَعْدُ . صَاحَ فِيهَا بَعْدَ أَنْ عَبَّ جُرْعَاتٍ سُمِعَ لَهَا شِبْهُ قَرْقَعَةٍ :

ـــ اُخْرُجِي أَلاَ تَسْمَعِينَ خُوجَة يَتَكَلَّمُ ... سَيَعْتَرِفُ .

وَاسْتَوَى عَلَى كُرْسِيِّهِ وَسَمِعَ رَئِيسَ الْمَحْكَمَةِ وَرَآهُ يَقُولُ :

ـــ أَيُّ حَقِيقَةٍ ..؟ حَقِيقَتِي أَمْ حَقِيقَتُكَ . أَنْتَ الَّذِي أَتَيْتَ مِنْ قَفْصَةَ إِلَى

مَدِينَةِ سُوسَةَ وَكَأَنَّكَ لَمْ تَتَعَلَّمْ شَيْئًا مِنْ وَاقِعِ الْحَيَاةِ ... بَعْدَ أَنْ عِشْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ السَّنَوَاتِ فِي الْعَاصِمَةِ ... بِجَامِعِ الزَّيْتُونَةَ ثُمَّ نَاسِخًا بِالْعَدْلِيَّةِ ... بَقِيتَ مُتَشَبِّثًا بِعَقْلِيَّةِ قَرْيَتِكَ . تَعْتَقِدُ أَنَّ الْفَضْلَ فِي التَّزَمُّتِ وَالْقَنَاعَةِ بِالْقَلِيلِ مِنْ رَخَاء هَذِهِ الْحَيَاةِ ... مَاذَا أَفَادَتْكَ صُحْبَتِي ... بَعْدَ أَنْ عَرَّفْتُكَ بِجَوَانِبَ لَمْ تَكُنْ لِتَتَخَيَّلَهَا مِنْ حَيَاةِ أَهْلِ الْمُدُنِ : الْعَلاَقَاتُ مَعَ عِلْيَةِ الْقَوْمِ مِنَ الْفَرَنْسِيِّينَ وَالتُّونِسِيِّينَ ، وَالْجَلَسَاتُ وَالسَّهَرَاتُ الطَّافِحَةُ كَلاَمًا شَيِّقًا وَنُكَتًا رَقِيقَةً ، الْمَمْلُوءَةُ أَكْلاَتٍ طَيِّبَةً ... لَمْ أَرَكَ أَقْبَلْتَ إِلاَّعَلَى الْمَأْكُولِ وَأَدْمَنْتَ عَلَىاللَّطَائِفِ مِنْهُ ... أَنَا هُوَالْمَسْؤُولُ عَنْ هَذِهِ السُّمْنَةِ الَّتِي أَصَابَتْكَ ... لَمْ أَجِدْكَ حَرِيصًا إِلاَّ إِلَى دَعْوَةِ طَبَّاخَتِي إِلَى مَنْزِلِكَ لِتُصَنِّفَ لَكَ مَاتَشْتَهِيهِ مِنْ أَطَايِبِ الْمَأْكُولِ وَتُعَلِّمَ أَهْلَكَ مَا لَذَّ وَرَاقَ مِمَّا لَمْ تَعْرِفْهُ فِي قَرْيَتِكَ ... لَمْ تَرْبِطْ عَلاَقَاتٍ مُمْتَازَةٍ لا مَعَ السَّيِّدِ الْقَايِدِ وَلاَ مَعَ السَّيِّدِ الْمُرَاقِبِ الْمَدَنِي وَلاَ وَكِيلِ الدَّوْلَةِ الْفَرَنْسِيِّ ... حَرَّضْتُكَ عَلَى تَعَلُّمِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَلَكِنَّكَ حَاوَلْتَ ثُمَّ عَزَفْتَ عَنْ ذَلِكَ ...حِكَايَتِي مَعَكَ طَوِيلَةٌ ... حَاوَلْتُ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أُجَنِّبَكَ الْعَثَرَاتِ وَلَكِنَّكَ وَضَعْتَ غِمَامَةً وَسِرْتَ كَبَغْلِ الْكَرِّيطَةِ لاَ تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ... وَهَلْ بَعْدَ هَذَا أُصْبِحُ مَسْؤُولاً عَمَّا حَدَثَ لَكَ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ ..؟ عَمَّرْتَ فَرَاغَ وَقْتِكَ بِتَقَاطُرِ أَهْلِ قَرْيَتِكَ عَلَيْكَ سَاعِينَ إِلَى قَضَاءِ حَاجَاتِهِمْ ... وَحَاجَاتُهُمْ لاَ تَنْتَهِي ... أَنْتَ مَشْغُولٌ بِذَلِكَ ، مَهْوُوسٌ بِإِرْضَائِهِمْ لِيَسْتَقْبِلُوكَ عِنْدَ عَوْدَتِكَ إِلَى الْقَرْيَةِ اسْتِقْبَالَ الأَبْطَالِ ... أَلَمْ يَدْعُوكَ بِالْوَزِيرِ ... وَأَنْتَ لاَ تُسَاوِي رُبْعَ وَزِيرٍ ... أَتَظُنُّ أَنَّنَا لاَ نَعْلَمُ كَيْفَ تَدْخُلُ الْقَرْيَةَ عِنْدَمَا تَزُورُهَا ... إِنَّكَ تَنْزِلُ مِنَ الْقِطَارِ فَيَأْتِيكَ النَّاسُ عَلَى الرَّصِيفِ مُسْتَقْبِلِينَ ابْنَ بَلْدَتِهِمْ الْبَارَّ ... وَتَتَحَوَّلُ فِي كَرُّوسَةٍ بِأَرْبَعَةِ

عَلَى

خيُول إلَـى مَقَـرِّ السَّيِّد الْقَـايد وَتَتَنَـاوَلُ عِنْـدَهُ الْغَـدَاءَ ، وَهْـوَ فِـي ظَنِّـكَ صَدِيـقٌ لَـكَ لِأَنَّـهُ وَطَّـنَ نَفْسَـهُ عَلَـى تَلْبِيَـةِ رَغَبَـاتِ أَهْـلِ قَرْيَتِــكَ . وَلَكِنَّــكَ لاَ تَعْـرِفُ أَنَّـكَ كُنْـتَ دَائِمًـا الْوَاسِـطَةَ لِيَـأْخُذَ الرَّشْـوَةَ بِكِلْتَـا يَدَيْـهِ مُهَـدِّدًا الرَّاشِـي بِــالْوَيْلِ وَالثُّبُـورِ إنْ هُـوَ أَطْلَعَـكَ عَلَـى ذَلِـكَ . وَأَنْـتَ تَشْـكُرُهُ عِنْدَمَـا تَـرَاهُ وَأَكْــثَرُ مِـنْ ذَلِـكَ تَـأْكُلُ فِـي بَيْتِـهِ مِـنْ تَلْـكَ الرَّشْــوَةِ وَتُنــوِّهُ بِكَرَمِـهِ الْحَـاتِمِيِّ .وَبَيْنَمَــا كُنْـتَ تَـأْكُلُ السُّـحْتَ وَتَنْعَـمُ بِمَـا يُقَـدَّمُ إِلَيْـكَ وَتَلْتَـذُّ بِمَعْسُـولِ الْكَـلاَمِ كَــانَ الْمُسْـتَقْبِلُونَ قَـدْ هَرَعُـوا بَعْـدُ إِلَـى الْقَرْيَـةِ لِـإِعْدَادِ عَـوْدَةِ بَطَلِـــــهِمْ ...وَيَبْقَــوْنَ السَّـاعَاتِ فِـي انْتِظَـارِكَ بِمَدْخَـلِ الْقَرْيَـةِ حَتَّـى تَهُـلَّ الْكَرُوسَـة فَتَـتَرَجَّلُ وَتَدْخُــلُ الْقَرْيَـةَ مَاشِـيًا ،وَالنَّـاسُ يَتَقَـاطَرُونَ عَلَيْـكَ وَيُهَنِّئُونَــكَ بِسَــلاَمَةِ الْعَــوْدَةِ ، عِنَاقًــا وَتَقْبِيـلاً . أَلَـمْ تُلاَحِـظْ أَنَّ جُبَّتَـكَ وَبُرْنُسَـكَ يَنَالُهُمَـا مِـنْ أَوْسَـاخِ الْفَلاَّحِـينَ مَــا يَجْعَلُهُمَــا يَفْقِـدَانِ لَوْنَيْهِمَــا الأَصْلِيَّيْــنِ ... وَأَنْــتَ تَتَحَمَّــلُ ذَلِــكَ لِإِرْضَــاءِ كِبْرِيَـائِكَ ... كُـلُّ هَـذَا يَصِلُنَـا مُفَصَّـلاً فَـي تَقْرِيـرٍ يُعِـدُّهُ الْخَلِيفَـةُ الَّـذِي يَكُــونُ دَائِمًـا فِـي مُقَدَّمَـةِ الْمُسْـتَقْبِلِينَ وَبِـالطَّبْعِ الْمُـلاَزِمَ لَـكَ فِـي كُــلِّ تَحَرُّكَــاتِكَ ... لَـمْ تَفْهَـمْ شَـيْئًا مِمَّـا يُحَرِّكُ أَبْنَـاءَ جِلْدَتِـكَ مِـنْ حَسَـدٍ وَغِـيرةٍ وَشَــمَاتَةٍ وَنِفَــاقٍ وَاغْتِنَـامٍ لِلْفُــرَصِ : ذَاكَ الَّــذِي تَعُــدُّهُ مِــنْ أَصْدِقَــائِكَ لاَ يَتَــوَرَّعُ عَــنْ كِتَابَــةِ رِسَالَةٍ إِلَى الْقَايد يَتَقَـوَّلُ عَلَيْـكَ فِيهَـا مَـا لَـمْ تَقُلْـهُ ، وَيَتَّهِمُـكَ بِمَـا لَيْـسَ فِيـكَ ؛ وَالَّـذِي مَـدَدْتَ لَـهُ يَـدَ الْمُسَـاعَدَةِ وَأَخَـذَ مِنْـكَ أَوْ عَـنْ طَرِيقِـكَ مَــا لَــمْ يَكُــنْ لِيَحْلُمَ بِـهِ ، يَـزْوَرُّ عَنْـكَ وَيَنْسَـاكَ مُـدَّةً ثُـمَّ يُعَـاوِدُ الْكَـرَّةَ وَكَـأَنْ لَـمْ يَنْتَفِـعْ الْبَتَّـةَ وَكَأَنَّـهُ قُـدِّرَ عَلَيْـكَ أَنْ تَـأْخُذَ بِيَـدِهِ ، وَإِنْ أَنْـتَ شُـغِلْتَ بِشَــأْنٍ مِـنَ الشُّـؤُونِ الْهَامَّـةِ أَوْ بِعَلَقَـةٍ شَـبِيهَةٍ بِـهِ ، لاَحَقَـكَ فِـي الْمَحْكَمَـةِ وَالْبَيْـتِ وَالشَّــارِعِ حَتَّــى تَقْضِي حَاجَتَهُ وَمَـعَ ذَلِـكَ فَـأَنْتَ غَـيْرُ سَـالِمٍ مِـنَ اللَّـوْمِ وَمِـنِ اتِّهَـامِكَ بِالتَّقْصِـيرِ فِي حَـقِّ الأُسْـرَةِ أَوِ الْعَشِـيرَةِ ...كُـلُّ ذَلِـكَ وَأَنْـتَ فِـي غَفْلَـةٍ عَـنْ تَقَلُّـبِ هَـؤُلاَءِ

النَّاسِ ... وَأَهْلُكَ ... أَلَمْ تُسَارِرْنِي مَرَّاتٍ عَدِيدَةً عَنْ مُضَايَقَاتِهِمْ رَغْمَ اسْتِغْلاَلِهِمْ الْفَاحِشِ لَكَ ... إِنَّكَ لَمْ تَتَعَلَّمْ شَيْئًا ... وَمَا حَدَثَ لَكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ صُنْعِ يَدَيْكَ وَنَتِيجَةً لِسُلُوكِكَ ... لَقَدْ حَاوَلْتُ مَعَكَ الْمُسْتَحِيلَ لِتَفْهَمَ ، وَمَاذَا يَنْفَعُ الْمُسْتَحِيلُ مَعَ الْعَاجِزِ . وَالأَدْهَى وَالأَمَرُّ فِي أَمْرِكَ أَنَّكَ فَطِنْتَ لِسَعْيِي وَلَكِنَّكَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى تَغْيِيرِ عَقْلِيَّتِكَ وَلاَ تَبْدِيلِ سُلُوكِكَ لِتَنْضَمَّ إِلَى صُفُوفِنَا وَتَكُونَ وَاحِدًا مِنَّا . مَاذَا دَهَاكَ حَتَّى بَقِيتَ وَكَأَنَّكَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ قَرْيَتِكَ ؟ ثُمَّ تَتَجَرَّأُ الْيَوْمَ وَتُحَاسِبُنِي ... عَلَى مَاذَا ؟ أَلَمْ تَتَعَلَّمْ مِنِّي كَيْفَ حَذِقْتُ مُعَامَلَةَ السُّلْطَتَيْنِ ، سُلْطَةِ الْبَايَاتِ وَسُلْطَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ ... هَذَا وَاقِعُنَا يَا رَجُلُ ... وَإِلاَّ لِمَ دَخَلْتَ هَذِهِ الْمَعْمَعَةَ ، وَبِأَيِّ عُدَّةٍ تَسَلَّحْتَ لِتَزُجَّ بِنَفْسِكَ فِي هَذَا الْخِضَمِّ ؟ هَزِيمَتُكَ أَنْتَ الَّذِي صَنَعْتَهَا بِنَفْسِكَ ... لاَ تُحَاوِلْ إِلْقَاءَ الْمَسْؤُولِيَّةِ عَلَى غَيْرِكَ ... اُنْظُرْ إِلَى نَفْسِكَ فِي الْمِرْآةِ قَبْلَ أَنْ تَحُضَّنِي عَلَى ذَلِكَ ... أَلَمْ تُلاَحِظْ أَنَّنِي صَنَعْتُ وَجْهًا بَلْ قِنَاعًا أَوْ عَلَى الأَصَحِّ بُرْقُعًا لاَ يُسْتَشَفُّ مِنْ وَرَائِهِ مَا يَدُورُ بِنَفْسِي ...عَزَّ عَلَى أَيٍّ كَانَ ، مَهْمَا كَانَتْ فَرَاسَتُهُ أَنْ يَعْرِفَ دَخِيلَتِي . إِنَّنِي أُظْهِرُ لَهُ فِي مَلاَمِحِي مَا يَنْتَظِرُهُ مِنِّي ... رُبَّمَا كُنْتُ أَسُبُّهُ فِي دَخِيلَتِي وَأَلْعَنُهُ وَلَكِنَّ لِسَانِي وَمَلاَمِحِي تَقُولُ لَهُ عَكْسَ ذَلِكَ ... أَلَمْ أُنَبِّهْكَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَأَقُولُ لَكَ : يَا عَامِرُ لاَ تُصَارِحِ النَّاسَ بِمَا لاَ يُرْضِيهِمْ وَاكْتُمْ رَأْيَكَ فِيهِمْ وَتَعَلَّمْ كَيْفَ تَصْنَعُ لِنَفْسِكَ وَجْهًا لاَ يُسْتَشَفُّ مِنْهُ شَيْءٌ ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ حَاكِمًا نَاجِحًا ... النَّاسُ لاَ يَنْتَظِرُونَ مِنْكَ قَوْلَ الْحَقِّ لِأَنَّهُمْ يَعِيشُونَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِمْ ... النَّاسُ طَغَتْ عَلَيْهِمْ مَآرِبُ الدُّنْيَا ، فَلاَ دِينَ وَلاَ قِيَمَ ، إِنَّهُمْ عَمُوا عَنِ الظُّلْمِ وَالْقَهْرِ ، بَلْ إِنَّهُمْ تَعَلَّمُوا السُّكُوتَ عَنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ أَكْثَرَ مِنَ التَّبَرُّؤِ مِنْهُ بَلْهَ مُقَاوَمَتَهُ لِأَنَّ

مُصَارَعَةَ الْبَاطِلِ تُقِضُّ الْمَضَاجِعَ بَيْنَمَا تَعَلُّمُ احْتِمَالِ الظُّلْمِ وَالسُّكُوتِ عَنْ قَوْلِ الْحَقِّ فِيهِمَا طِيبُ الْعَيْشِ وَقَضَاءُ الْمَآرِبِ ... النَّاسُ اسْتَطَابُوا الذُّلَّ وَالْخُنُوعَ وَالْمَسْكَنَةَ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ أَنَّ الصَّدْعَ بِالرَّأْيِ وَالأَنَفَةَ وَالْكَرَامَةَ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْخِصَالِ الَّتِي لاَ نَجِدُهَا إِلاَّ فِي الْكُتُبِ تَجُرُّ الْمَصَائِبَ وَالْكَوَارِثَ ... مَنْ فِي إِمْكَانِهِ الْيَوْمَ أَنْ يُوَاجِهَ بِالْحَقِيقَةِ سُلْطَةَ الْفَرَنْسِيِّينَ ..؟ ثُمَّ هَلْ فَهِمْنَا نَحْنُ التُّونِسِيِّينَ مَاذَا يُرِيدُونَ مِنَّا ؟ لَمْ نَفْهَمْ إِلاَّ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ إِصْرَارُهُمْ عَلَى إِهَانَتِنَا وَبَسْطِ سُلْطَانِهِمْ عَلَيْنَا وَتَغْيِيرِ نَسَقِ حَيَاتِنَا بِاسْمِ التَّقَدُّمِ وَتَحْكِيمِ الْعَقْلِ وَقِيَمِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ ... هُمْ ، وَالْحَقُّ يُقَالُ ، أَخَفُّ وَطْأَةً مِنْ حُكْمِ الْبَايَاتِ قَبْلَ الْحِمَايَةِ ... فَلاَ مَجَالَ مَعَهُمْ لِلْمُصَادَرَةِ وَهَتْكِ الأَعْرَاضِ وَاسْتِصْفَاءِ الأَمْوَالِ مَا رَضِينَا بِنِظَامِ الْحِمَايَةِ وَخَضَعْنَا لِقَوَانِينِهِمْ بِالطَّبْعِ وَلَمْ نُلْقِ بِأَنْفُسِنَا إِلَى التَّهْلُكَةِ ... قُلْتُ لَكَ هَذَا كُلَّهُ أَوْ لَمَّحْتُ لَكَ بِهِ ... وَلَكِنَّكَ لَمْ تَفْهَمْ شَيْئًا وَلَمْ تُدْخِلْ فِي حِسَابِكَ أَنَّ رُبْعَ قَرْنٍ مِنِ انْتِصَابِ الْحِمَايَةِ قَدْ غَيَّرَ الْكَثِيرَ مِنْ حَيَاتِنَا ، وَأَنْتَ مَا زِلْتَ تَعِيشُ عَلَى مَا تَرَبَّيْتَ عَلَيْهِ فِي قَرْيَتِكَ : بَسَاطَةُ الْعَيْشِ ، بَلْ بِدَائِيَّتُهُ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ ذَلِكَ وَالْبَدَاوَةِ . تَقُولُ إِنَّ حَوْلَ قَرْيَتِكَ مَوَاطِنَ سُكْنَى الْبَدْوِ وَتُسَمُّونَهُمْ عَرَبٌ وَعُرْبَانٌ وَعُرُوبَة ، وَلَكِنَّكُمْ مُخْتَلِطُونَ بِهِمْ تَعِيشُونَ مِثْلَهُمْ وَتَأْكُلُونَ مِثْلَهُمْ غَيْرَ أَنَّكُمْ أَكْثَرُ رَخَاءً وَنِلْتُمْ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ وَنُتَفًا طَفِيفَةً مِنَ الْحَضَارَةِ ، وَكَفَفْتُمْ عَنِ الرَّحِيلِ وَالْعِشَّةِ وَالْمِعِيزَاتِ ... أَمَّا الْعَقْلِيَّةُ ...

وَانْتَفَضَ عَامِر كَأَنَّهُ مَلْسُوعٌ وَصَاحَ :

— وَلِمَاذَا تَضْحَكُ ؟ لِمَاذَا تَضْحَكُ ؟ الأَنَانِيَّةُ ... الْعُنْصُرِيَّةُ ... كُلُّ الْكَبَائِرِ فِيكَ ... حَدَّثَنِي عَنْ هَذَا جَمِيعِهِ أَخْلَصُ خُلَصَائِكَ وَتَرَجَّانِي أَلاَّ

أَبُوحَ بِـهِ ... مَأْسَاتِي أَنَّنِي أَعْـرِفُ كُـلَّ شَـيْءٍ ... اِعْـتَرَفْتَ بِنَفْسِـكَ يَـا أَشْـقَى الأَشْـقِيَاءِ ...

وَهَرَعَـتْ كِيمَـــة وَلِلاَّهُـــمْ عِنْـــدَ سَـــمَاعِهِمَا الصُّـــرَاخَ ، وَلَكِنَّهُمَـــا وَجَدَتَـــاهُ سَاكِتًا يَنْظُرُ إِلَـى المِـرْآةِ . وَلَمَّـا لاَحَ وَجْـهُ الْمَرْأَتَيْـنِ فِيهَـا صَـاحَ:

ــ أَلاَ تَسـتَحِيَانِ ... تَظْهَـــرَانِ سَـــافِرَتَيْنِ أَمَـــامَ رِجَـــالٍ أَجَـــانِبَ عَنْكُمَـــا ، اُغْرُبَا عَـنْ وَجْهِـي ... هَـذَا حَـرَامٌ ... هَـذَا حَـرَامٌ...]

5

[الْعَمَّـارِي مُتَمَـدِّدٌ عَلَى فِرَاشِـهِ فِـي الْمَقْصُـورَةِ وَأَبْنَـاءُ أُخْتِـهِ نَـائِمُونَ فِـي الْغُرْفَـةِ الْمُحَاذِيَـةِ : عَلِـي وَالصَّـادِق آوَاهُمَـا " سَـرِيرُ حَجَّـام " وَعَوِيشَـة فِـي الْمَقْصُـورَةِ الثَّانِيَـةِ. كَـانَ الْعَمَّـارِي غَـيْرَ قَـادِرٍ عَلَـى الْخُـرُوجِ مِـنْ مَقْصُورَتِـهِ لِـأَنَّ وَالِدَتَـهُ لِلاَّهُـمْ أَمَرَتْـهُ بِـأَنْ يَبْقَـى هُنَـاكَ وَأَوَامِرُهَـا مُطَاعَـةٌ . وَهْـوَ يَعْلَـمُ أَنَّهَـا

مُنْهَمِكَةٌ مَعَ أُخْتِهِ فِي غُرْفَةِ ابْنِ عَمِّهِ لِمُحَاوَلَةِ تَلاَفِي مَا سَيَنْشَأُ عَنِ الْوَفَاةِ مِنْ تَغْيِيرٍ لِوَضْعِ الْعَائِلَةِ كُلِّهَا . وَهُوَ لاَ يَنْسَى أَنَّهُ مَدِينٌ لِعَامِرٍ بِتَعَلُّمِهِ لِأَنَّهُ احْتَضَنَهُ مُنْذُ صِغَرِهِ وَرَبَّاهُ وَضَمِنَ لَهُ فِي مُفْتَتَحِ السَّنَةِ الدِّرَاسِيَّةِ الْمُقْبِلَةِ دُخُولَ الْعَصْفُورِيَّةِ لِيُصْبِحَ مُعَلِّمًا . كَانَ يَشْعُرُ بِالضِّيقِ مِنْ سُلُوكِ أُمِّهِ وَلَكِنْ مَا حِيلَتُهُ وَهْيَ وَالِدَتُهُ عَلَيْهِ طَاعَتُهَا ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَهْوَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى حِجَاجِهَا : هُوَ دَمِثُ الأَخْلاَقِ كُلُّ مَخَايِلِهِ تَدُلُّ عَلَى نُبْلٍ وَأَرْيَحِيَّةٍ ، وَأُمُّهُ لاَ تُحْجِمُ رَغْمَ لُطْفِهِ وَتَأَدُّبِهِ عَلَى سَبِّهِ وَإِلْصَاقِ كُلِّ الْعُيُوبِ بِهِ . فَلاَ مَنَاصَ مِنْ طَاعَتِهَا كَأُمٍّ وَمِنَ الإِذْعَانِ لَهَا كَامْرَأَةٍ عَنِيفَةٍ ، قَوِيَّةٍ ، مِحْجَاجٍ ، مُطَّلِعَةٍ عَلَى كُلِّ الْخَفَايَا ، مُتَشَبِّثَةٍ بِالْمَادَّةِ وَبِأَوْسَاخِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ مَهْمَا صَغُرَ شَأْنُهَا وَكَانَتْ تَقُولُ: أَنَا أَمُوتُ مِنْ أَجْلِ وَسَخِ الدَّارِ الدُّنْيَا وَمَنْ لاَ يُعْجِبُهُ كَلاَمِي فَأَمَامَهُ أَرْبَعَةُ جُدْرَانٍ يُكَسِّرُ عَلَيْهَا رَأْسَهُ .

كَانَ يَسْمَعُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ مِنَ الْغُرْفَةِ الْمُجَاوِرَةِ حَرَكَةً غَيْرَ مُعْتَادَةٍ ، وَشَتَاتًا مِنَ الْحِوَارِ يَدُورُ بَيْنَ أُخْتِهِ وَأُمِّهِ . كُلُّ الدَّلاَئِلِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْحِوَارَ سَاخِنٌ ، فِيهِ يَعْلُو صَوْتُ أُمِّهِ بِالْكَلاَمِ النَّابِي . ثُمَّ يَلُفُّ الصَّمْتُ كُلَّ الْمَنْزِلِ إِلَى أَنْ يُسْمَعَ صُرَاخُ عَامِرٍ مِنْ جَدِيدٍ . فَيَهْتَزُّ وَهْوَ عَلَى فِرَاشِهِ شَفَقَةً عَلَى ابْنِ عَمِّهِ وَحُبًّا صَادِقًا يَكِنُّهُ لَهُ ،وَيُحِسُّ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ كَأَنَّ شَيْئًا يَمْعَسُ قَلْبَهُ بِقُوَّةٍ. فَيَجْلِسُ وَيُوقِفُ أُذُنَيْهِ بَلْ يُصْبِحُ كُلُّهُ آذَانًا مُحَاوِلاً التَّعَرُّفَ إِلَى مَا يَجْرِي فِي الْغُرْفَةِ الْمُجَاوِرَةِ . وَلَكِنْ هَلْ فِي وِسْعِهِ أَنْ يَسْمَعَ وَفِي دَاخِلِ أُذُنَيْهِ قَدْ قَامَ هَوِيٌّ لاَ يُطَاقُ ؟ فَيَتَمَدَّدُ ثَانِيَةً وَيَسْتَرْخِي وَيَقُولُ بِصَوْتٍ عَالٍ :

ــ لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ .

وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ فِي غُرْفَةِ ابْنِ عَمِّهِ يَصُولُ وَيَجُولَ وَيَزُورُهُ بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالأُخْرَى لِيَقُولَ لَهُ :

ـ أَنْتَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السِّنِّ مَا زِلْتَ تُطِيعُ أُمًّا جَاهِلَةً كَأُمِّكَ . هَلْ مَا زِلْتَ طِفْلاً . قُمْ وَانْظُرْ مَاذَا يَحْدُثُ هُنَاكَ ،وَمَاذَا يَنْسُجُ الْجَهْلُ مِنْ أَحَابِيلَ ؟ فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

ــ وَلَكِنْ هَلْ هَذَا مِنْ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ ..؟ لَعَلَّهُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ الَّذي يَحُثُّنِي عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَحْدُثُ لِأَدُلَّ أُخْتِي الْمِسْكِينَةَ عَلَى مُجَابَهَةِ الْوَضْعِ الْمَأْسَاوِيِّ الْجَدِيدِ وَلِأَحُدَّ مِنْ مَوَاقِفِ أُمِّي الْغَوْغَائِيَّةِ الْهَمَجِيَّةِ .

وَتَحَامَلَ الْعَمَّارِي عَلَى نَفْسِهِ وَنَزَلَ مِنْ فِرَاشِهِ بِتُؤُدَةٍ حَتَّى لاَ يُحْدِثَ ذَاكَ الأَزِيزَ الْمَعْهُودَ الَّذِي تَعْرِفُهُ أُمُّهُ وَتُسَجِّلُهُ عَلَيْهِ بَيْنَ اللَّيْلَةِ وَالأُخْرَى إِذْ تَقُولُ لَهُ فِي الصَّبَاحِ :

ــ إِنَّكَ أَفَقْتَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ الْبَارِحَةَ ... هَلْ أَنْتَ مَرِيضٌ ؟ أَمْ مَاذَا دَهَاكَ ..؟ هَلْ أَصَابَتْكَ الرَّعْشَةُ ..؟ يَكْفِينَا أَزِيزُ سَرِيرِ ابْنِ عَمِّكَ فَكَمْ شَوَّشَ عَلَيْنَا رَاحَتَنَا فِي اللَّيْلِ ... يَا قَلِيلِيِّ الْحَيَاءِ ... يَا حَلاَلِيفُ ... لَقَدْ زَالَتْ الْحِشْمَةُ .

وَكَانَ يُجِيبُهَا :

ــ عَيْبٌ أَنْ تَتَنَصَّتِي وَتَتَجَسَّسِي عَلَيْنَا يَا أُمِّي ... هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

فَتَنْهَرُهُ قَائِلَةً :

ـ وَلَكِنْ بِذَلِكَ أَسْمَعُ جَيِّدًا وَأَعُدُّ عَلَيْكُمْ أَنْفَاسَكُمْ ، فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْ يَدِي يَا أَبْنَاءَ الْكَلْبِ ... يَا... يَا أَوْلاَد القح...

وَتُتْحِفُهُ كَالْعَادَةِ بِسِلْسِلَةٍ مِنَ الْكَلاَمِ الْبَذِيءِ ، فَيَزْوَرُّ عَنْهَا وَيَقُولُ لَهَا وَالزَّفْرَةُ تُرَافِقُ صَوْتَهُ:

ـ سَامَحَكِ اللَّهُ .

وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ نَزَلَ مِنَ السَّرِيرِ بِدُون ضَجَّةٍ وَخَرَجَ مِنَ الْمَقْصُورَةِ ، وَاتَّجَهَ إِلَى الْبَابِ الصَّغِيرِ الَّذِي يَفْتَحُ عَلَى غُرْفَةِ ابْنِ عَمِّهِ فَوَجَدَهُ نِصْفَ مَفْتُوحٍ فَوَقَفَ خَلْفَ السِّتَارَةِ وَسَمِعَ وَشَاهَدَ كُلَّ مَا دَارَ بَيْنَ الْمَرْأَتَيْنِ . رَأَى أُمَّهُ تَضَعُ يَدَهَا عَلَى بَطْنِ أُخْتِهِ ثُمَّ تُمْسِكُ بِتَلاَبِيبِهَا فِي عُنْفٍ وَتَقُولُ لَهَا :

ـ لَسْتِ قَادِرَةً إِلاَّ عَلَى حَلاَّن سَا... وَالْحَبَالَة ...يَا قَحْ... آشْكُونْ الْمِسْكِين الِّي مَا هُوشْ بَاشِ حِلْ عِينِيه فِي بُوه ؟ وِينْ الْمَفَاتِيحْ يَا بِنْت الْكَلْب ؟

ـ فِي الْعَادِة يَضعُهَا عَلَى طَاوِلَة النَّوْمِ ... سَيِّبِينِي ... خَنَقْتِنِي ...

وَأَخْلَتْ سَبِيلَ ابْنَتِهَا بِسُرْعَةٍ وَدَارَتْ عَلَى نَفْسِهَا دَوْرَةً خَاطِفَةً لِتَتَّجِهَ إِلَى طَاوِلَةِ النَّوْمِ وَتَقُولُ :

ـ لاَوُجُودَ لَهَا عَلَى الطَّاوِلَة

ـ آ... رَأَيْتُهَا فِي يَدِهِ

ـ وَلِمَاذَا فِي يَدِهِ؟

وَحَاوَلَتْ لِلاَّهُمْ فَتْحَ الْخزْنَةِ وَالْحَنَقُ يَهُزُّهَا وَلَكِنَّهَا لَمْ تُفْلِحْ وَالْتفتَتْ إِلَى ابْنَتِهَا صَائِحَةً:

ـ مَا رَأَيْتُ بَلْهَاءَ مِثْلَكِ.

وَاتَّجَهَتْ نَحْوَهَا لِتُعَاوِدَ تَعْنِيفَهَا وَإِذَابِصُرَاخِ أَنِينٍ آتٍ مِنْ صَحْنِ الدَّارِ مَعَ وَقْعِ حَثِيثٍ دَاوٍ لِبَلْغَةِ عَامِرِ يُنْبِئُ بِثِقَلِ مَا تَحْتَمِلُهُ مِنْ بَدَانَتِهِ ، ثُمَّ ظَهَرَ أَمَامَ بَابِ الْغُرْفَةِ وَبِيَدِهِ الْمَفَاتِيحُ وَصَاحَ فِيهِمَا :

ـ مَاذَا تَفْعَلاَن ..؟ لَقَدْ نَادَيْتُ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً ... كِدْتُ أَبُولُ وَأَنَا عَلَى الْكُرْسِيِّ أَتَرَأَّسُ الْجَلْسَةَ ... أَيْنَ " الْقَصْرِيَّة " ..؟ يَحِقُّ لِي أَنْ أَبُولَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا ، الْمُرَاقِبُ الْمَدَنِيُّ وَالْقَايد وَوَكِيلُ الدَّوْلَةِ الْفَرَنْسِيُّ وَرَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ الْكَلْب خُوجَة ... بَالَ فَاسْتَبَالَ أَحْمِرَةً ... وَأَبُولُ عَلَيْكُمْ جَمِيعًا .

وَوَثَبَتْ لِلاَّهُمْ مُنْقَضَّةً فِي اتِّجَاهِ عَامِرِ وَافْتَكَّتْ مِنْهُ مَجْمُوعَةَ الْمَفَاتِيحِ وَصَاحَتْ فِي ابْنَتِهَا :

ـ أَسْرِعِي لَهُ بِالْقَصْرِيَّةِ يَا بِنْتَ الْكَلْب .

وَانْدَفَعَتْ لِلاَّهُمْ إِلَى الْبَابِ خَارِجَةً كَأَنَّهَا شَرَارَةٌ بَيْنَمَا تَوَارَى الْعَمَّارِي مِنْ خَلْفِ السِّتَارَةِ وَعَيْنَاهُ دَامِعَتَان ، وَتَمَدَّدَ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى الْفِرَاشِ تَارِكًا أَوْصَالَ السَّرِيرِ يَتَجَاوَبُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ فِي أَزِيزٍ مُنْكَرٍ .

وَلَمَّا رَجَعَتْ لِلاَّهُمْ ، وَقَدْ أَخْفَتْ الْمَفَاتِيحَ ، اِلْتَقَتْ مَعَ الْعَمَّارِي فِي بَابِ الْغُرْفَةِ فَقَالَ :

ـ بَالَ حِمَارٌ فَاسْتَبَالَ أَحْمِرَةً .

ـ إِيهْ بُولَك بُول حمار... بُول مَجَانِين ...

وَدَخَلَتِ الْغُرْفَةَ فَوَجَدَتِ ابْنَتَهَا تَخْبِطُ عَلَى فَخِذَيْهَا ، بَيْنَمَا الْتَحَقَ عَامِر "بِمَحْكَمَتِهِ" . وَلَمَّا سَمِعَ الْعَمَّارِي أَنَّ أُمَّهُ رَجَعَتْ إِلَى الْغُرْفَةِ تَسَلَّلَ مَرَّةً أُخْرى حَتَّى انْتَصَبَ خَلْفَ السِّتَارَةِ يُرَاقِبُ مَا يَجْرِي هُنَاكَ .

قَالَتْ لِلاَّهُمْ :

ـ الْوَقْتُ لَيْسَ وَقْتَ بُكَاءٍ وَنَدِيبٍ ... سَتَشْبَعِينَ قَرِيبًا بِذَلِكَ ...هَذِهِ الْمَفَاتِيحُ دِين ر...

وَأَخَذَتْ تُجَرِّبُ مِفْتَاحًا بَعْدَ مِفْتَاحٍ وَهْيَ تُرَبْرِبُ إِلَى أَنْ سُمِعَ صَرِيرُ دَوَرَان أَحَدِهَا مَشْفُوعًا بِصَوْتٍ صَادِرٍ مِنَ الْعَجُوزِ فِيهِ ارْتِيَاحٌ مَعَ نَبْرَةٍ تَرْشَحُ شَمَاتَةً . وَلَمَّا جَذَبَتْ إِلَيْهَا بَابَ الْخَزْنَةِ تَجَلَّى لَهَا دَاخِلُهَا عَجِيبًا : لَمْ تُولِ عِنَايَةً بِالأَوْرَاقِ وَالْعُقُودِ الْمُرَتَّبَةِ فِي أَعْلَى الرُّفُوفِ ، وَلَكِنَّهَا ارْتَمَتْ بِكِلْتَا يَدَيْهَا عَلَى صُنْدُوقٍ أَصْفَرَ كَبِيرٍ وَعَالَجَتْهُ بِمِفْتَاحٍ صَغِيرٍ نُحَاسِيِّ اللَّوْنِ فَانْفَتَحَ وَانْبَعَثَ مِنْهُ رَنِينٌ إِبْتَسَمَتْ لَهُ وَغَرَفَتْ بِيَدِهَا الْيُمْنَى مَا فِيهِ ، فَتَبَيَّنَتْ لَهَا نُقُودٌ ذَهَبِيَّةٌ مِنْ سِكَّةٍ قَدِيمَةٍ ، وَقِطَعٌ مِنَ " الْمَحْبُوب " وَ " اللَّوِيز " ، وَمَلَأَتْ يَدَهَا الْيُسْرَى بِمَبْلَغٍ كَبِيرٍ مِنَ النُّقُودِ الْمُتَدَاوَلَةِ . ثُمَّ لَمَحَتْ فِي الرَّفِّ الثَّالِثِ " كَانُويطَة " مُزَخْرَفَةً فَانْتَشَلَتْهَا ، وَأَخَذَتْ تُحَاوِلُ فَتْحَهَا بِعَصَبِيَّةٍ وَكَأَنَّهَا قَدْ جُنَّ جُنُونُهَا حَتَّى اهْتَدَتْ إِلَى الْمِفْتَاحِ الْمُوَاتِي ، وَلَكِنَّهَا أَدَارَتْهُ بِقُوَّةٍ فَانْقَطَعَ بَعْدَ أَنِ انْفَتَحَ الصُّنْدُوقُ ، فَوَجَدَتْهُ زَاخِرًا بِالْحُلِيِّ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ : أَخْرَاصٌ وَأَسْوِرَةٌ وَخَوَاتِمُ . وَأَذْهَلَهَا مَا مَلَأَ عَيْنَيْهَا لِأَنَّهَا لَمْ تَشْهَدْ فِي حَيَاتِهَا مَا رَأَتْهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ . كَانَ ذَلِكَ فِي الْوَاقِعِ حَصِيلَةً طَفِيفَةً مَعْقُولَةً لِجُهْدِ سَنَواتٍ هِيَ فِي اعْتِبَارِهِ سَنَوَاتُ الْغُرْبَةِ وَالْحِرْمَانِ وَهْيَ رَيْعُ بَعْضِ مَا اشْتَرَاهُ مِنْ زَيَاتِينَ مِمَّا سَلِمَ مِنْ سَطْوِ أَخِيهِ حَفَيِّظ . قَالَتِ الْعَجُوزُ فِي

حَنَقٍ :

ــ دِيــن ر... آشْ لَــمّ .

وَالْتَفتَتْ إِلَى ابْنَتِهَا وَقَالَتْ لَهَا :

ــ الآنَ لَـمْ يَبْـقَ إِلاَّ شَـيْءٌ وَاحِدٌ هُـوَ إِخْفَـاءُ كُـلِّ هَـذَا وَتَسْـلِيمُهِ إِلَـى أَخِيـكِ حَامِد ثُـمَّ نَنْظُرُ بَعْـدَ ذَلِـكَ مَـاذَا سَنَفْعَلُ بِـهِ لِـأَوْلاَدِكِ وَإِلاَّ اسْـتَوْلَى عَلَيْـهِ حَنَش بُو فْطِيرَة وَسَـلَبَ أَبْنَـاءَكِ مِـنْ خَيْرَاتِ أَبِيهِـمْ .

وَأَخَـذَتْ لِلاَّهْـمْ مِلْحَفَـةً وَصَرَّتْ فِيهَـا كُـلَّ مَـا وَجَدَتْـهُ إِلاَّبَعْـضَ الْقِطَـعِ الْقَلِيلَـةِ تَرَكَتْهَـا فِـي الصُّنْـدُوقِ الأَصْفَـرِ وَعَـدَدًا قَلِيـلاً مِـنَ الْخَوَاتِـمِ أَهْمَلَتْهَـا فِـي "الْكَنَوِيطَـة " ثُـمَّ هَرَعَـتْ إِلَـى غُرْفَتِهَـا لِتُخْفِـيَ مَـا اسْتَوْلَتْ عَلَيْـهِ . أَمَّــا ابْنَتُهَــا فَقَـدْ بَقِيَـتْ جَـامِدَةً فِـي مَكَانِهَـا ، وَالدُّمُـوعُ تَنْهَمِـرُ مِـنْ عَيْنَيْهـا ، وَالْعَبْرَةُ بَعْـدَ الْعَبْرَةِ تَخْنُقُهَا مُحْدِثَةً فِـي كُـلِّ مَـرَّةٍ هَـزَّةً فِـي جِسْمِهَا تُزَلْـزِلُ كِيَانَهَـا بِكُلِّيَتِـهِ .

وَكَانَ الْعَمَّارِي فِي الأَثْنَاءِ يَنْظُرُ باسْتِغْرَابٍ وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

ــ يَـا عَمَّـارِي تَشَـجَّعْ وَانْـهَ عَـنِ الْمُنْكَـرِ ، وَلاَ تَـتْرُكْ هَـذِهِ الْعَجُـوزَ تَسْـتَوْلِي عَلَـى مَـا لَيْـسَ لَهَـا ... مِسْـكِينَةٌ أُخْتِـي لاَ حَـوْلَ وَلاَ قُـوَّةَ لَهَـا ؛ هِـيَ أَمَـامَ مُصِيبَتَيْــنِ : نِهَايَــةُ زَوْجِهَــا وتَسَــلُّطُ أُمِّهَــا عَلَيْهَــا ... فَكَيْــفَ فِــي إِمْكَانِهَــا الصُّمُودُ أَمَــامَ هَـذِهِ الْكَارِثَـةِ الْمُزْدَوَجَـةِ .

وَفِيمَـا هُـوَ يُنَـاجِي نَفْسَـهُ فِـي شِــبْهِ دَهْشَــةٍ إِذا بِصَـوْتِ أُمِّــهِ يَنْتَشِــلُهُ مِــنْ تَهْوِيمَاتِـهِ وَيُنَادِيــهِ بِإِلْحَــاحٍ. فَيَهْــرَعُ بِــدُونِ تَــرَدُّدٍ وَيَصِــلُ إِلَيْهَــا وَهْــيَ أَمَــامَ الْخَزْنَةِ :

ــ آ... يَــاوُلْد الْكَلْــب ... وِيــنْ كُنْــتْ ..؟ كُنْــتْ تِتْلَصَّــصْ ... شُــوفْ هَالْـأَوْرَاقْ إِشْـنِيَّه ...اقْـرَا .

وَالْتَفَتَتْ إِلَى كِيمَة وَقَالَتْ :

ـ أَنْـتِ وَاقِفَـةٌ ... إِذْهَبِـي وَتَفَقَّـدِي زَوْجَـكِ ...

وَلَـمْ تَقْـدِرْ كِيمَـة عَلَـى مُعَارَضَتِهَـا وَلاَ الْعَمَّـارِي عَلَىمُنَاقَشَـتِهَا . وَبَـدَأَ يَقْرَأُ :

ـ هَـذِهَ "كِمْبِيَـالاَتْ "يَظْهَـرُ أَنَّ سِـي عَـامِر أَتَـمَّ خَلاَصَهَـا لِلتَّـاجِرِ حَـاييم الشِّلِّي بِسُوسَة

ـ هَذَا لاَ يَهُمُّنَا .

ـ عُقُودُ زَيَاتِين وَجَنَائِن اشْتَرَاهَا أَخِيرًا .

ـ هَذِهَ لاَتَهُمُّنَا .

ـ تَوصِيل سَلَف لِأَخِي حَامِد مِقْدَارهُ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ فَرَنْكًا .

ـ هَـذَا مَبْلَـغ كَبِـير ... هـات الْوَرقَـة ... أيَّ هَـات ... ولاَّ ...

وَاخْتَطَفَـتْ الْوَرَقَـةَ فِـي عَصَبِيَّـةٍ . وَاسْـتَعَدَّتْ لِسَـمَاعِ الْعَمَّـارِي فِـي هَيْئَـةٍ كُلُّهَا أَمْرٌ وَتَهْدِيدٌ :

ـ هَذَا تَوْصِيل سَلَف لاَبْن عَمِّي حَفَيِّظ .

ـ هَات ... هَذَا أَخْنـق بـه حَنَـشْ بُوفطِـيرَة وَأَعْصَـر لُـو الْخَـلّ فِـي عِينِيـه ...أَنَـا لِلأَهَـمْ وَمَـا أَدْرَاك ... الْكَلْـب ابْـن الْكَلْـب ... أَنَـا أَقْلِيــه فِــالزِّيت الـدِّرْدِي .

ـ هَـذَا وَصْـل سَـلَّمَ بِـهِ عَـامِر مِـائَتي فَرَنْـكٍ لِلطَّيِّـب الْقُلِّـي لِشِـرَاءِ أَرْضٍ لِبِنَـاءِ دَارٍ بِالْبَلَد

ـ لاَيَهُمّ .

ـ هَـذِي رَسَـائِلُ مِـنْ أَخِيـه حَفَيِّـظ يُعْلِمُـهُ فِيهَـا بِمَـا يَقُـومُ بِـهِ مِـنْ نَشَـاط

ـ هَـات ، نَقْرَوُوهـا بَعْـد ... إِلاَّ مَـا حَنَـش بُـو فطِـيرَة يـبْرِكْ قُدَّامِـي كِيـفْ النَّاقَـة ... أَنْتُـمْ لاَتفْهَمُـونَ شَـيْئًا مِـنَ الْحَيَـاة ... سَتَرَوْنَ كَيْــفَ أُدَبِّـر الأُمُـور

... عمَّاري ... اُخرُجْ مِنْ قُدَّامِي تَوَّه ، وَغُدْوَة ابْعَثْ إِلَى حَامِد تَلْ مِن الْبُوسطَة وَقُلْ لَهُ يَأْتِي حَالاً .

ـ وَتَلْ لِحَفِيِّظ .

ـ أُوهْ ... أُوهْ ... هَا الْوِلَد مَا يفْهمْ شَيْ ... حَامِد ... حَامِد بَرْكْ يَا دِينْ الْكَلْبْ

وَلَمْ يُجِرْ الْعَمَّارِي جَوَابًا وَاتَّجَهَ نَحْوَ مَقْصُورَتِهِ مُنَكَّسَ الرَّأْسِ ، مُحْتَارًا ، حَزِينًا .

وَأَقْفَلَتْ الْخَزْنَةَ وَخَرَجَتْ مِنَ الْغُرْفَةِ مُهَرْوِلَةً وَبِيَدِهَا مَجْمُوعَةُ الْمَفَاتِيحِ وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ غُرْفَةِ الأَكْلِ فَوَجَدَتْ عَامِر يَنْظُرُ إِلَى الْمِرْآةِ تَحْسَبُهُ صَامِتًا وَمَا هُوَبِصَامِتٍ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهَا . فَرَمَتْ أَمَامَهُ بِقُوَّةٍ شَكِيكَةَ الْمَفَاتِيحِ وَقَالَتْ :

ـ هَذِي مَفَاتِيحُكَ ... اللّهْ يِرْزِيكْ فِيهُمْ .

فَنَظَرَ إِلَيْهَا عَامِر وَقَالَ وَكَأَنَّهُ يَئِنُّ بَعْدَ أَنْ رَشَقَ بِبَصَرِهِ الْمَفَاتِيحَ :

ـ وَلِمَاذَا قَطَعْتُمُ الْمِفْتَاح ؟

وَرَجَعَتْ لِلاَّهُمْ إِلَى الْغُرْفَةِ وَجَمَعَتِ الْجَبَايِبَ وَالْبَرَانِسَ الْجَدِيدَةَ وَأَخَذَتْهَا إِلَى غُرْفَتِهَا ، وَلَمْ تَتْرُكْ إِلاَّ تِلْكَ الَّتِي تَعَوَّدَ رُؤْيَتَهَا إِخْوَةُ حَامِد وَهِيَ كُلُّهَا قَدِيمَةٌ.]

6

[أَخَذَ عَامِر مَجْمُوعَةَ الْمَفَاتِيحِ وَأَمْسَكَ بِمِفْتَاحِ الْخَزْنَةِ الْكَبِيرِ وَطَفِقَ يُجَرْجِرُهُ بِلُطْفٍ عَلَى الْمَائِدَةِ جِيئَةً وَذَهَابًا وَيَتَلَمَّسُ الْمِفْتَاحَ الْمَقْطُوعَ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ ثُمَّ قَالَ فِي شِبْهِ تَمْتَمَةٍ مُتَعَثِّرًا فِي كَلِمَاتِهِ .

ـ أَنْتَ يَا خُوجَة تُسَائِلُنِي عَنْ حَقِيقَتِي وَأَنَا مَوكُولٌ إِلَيَّ التَّحْقِيقُ فِي أَمْرِ حَقِيقَتِكَ ... وَهَلْ أَنْتَ عَارِفٌ لِحَقِيقَتِي ..؟ أَنْتَ بِقَزَامَةِ إِنْسَانِيَّتِكَ قَصَرَتْ نَفْسُكَ عَنِ التَّفَتُّحِ لِفَهْمِ الْبَشَرِ ... شَغَلَتْكَ خُوَيْصَةُ نَفْسِكَ ... فَنَصَّبْتَهَا ... نَعَمْ نَصَّبْتَهَا لِتَكُونَ شَرًّا عَلَى النَّاسِ وَنَقْمَةً ... بَدَلَ ... بَدَلَ بَدَلَ ... أَنْ تَكُونَ لَهُمْ رَحْمَةً ... يَرْحَمُكَ اللَّهُ ... يَرْحَمُكَ اللَّهُ .

ثُمَّ لاَذَ بِالصَّمْتِ مُتَمَادِيًا فِي جَرِّ الْمِفْتَاحِ كَأَنَّهُ يُتَابِعُ شَرِيطًا صُنِعَتْ صَفْحَتُهُ الْحَسَّاسَةُ مِنْ صَوْتِ الصَّمْتِ بَلْ أَصْوَاتِ الصَّمْتِ الَّتِي تَضْرِبُ خَلاَيَا دِمَاغِهِ بِعُنْفٍ . مَرَّةً تَكْشِفُ لَهُ عَنْ صَمْتِ الْمَنِيَّةِ الْجَهُولِ الأَبْكَمِ ، عَنِ السَّوَادِ الْمُطْلَقِ ، عَنِ اللاَّشَيْءِ ، عَنْ نَزْوَةٍ يُدَمَّرُ بِهَا ذَاتَهُ ، تَتَأَرْجَحُ بَيْنَ الْمَوْتِ الأَصْغَرِ وَالْمَوْتِ الأَكْبَرِ ، وَنَزْوَةٍ يَعْدُو بِهَا عَلَى الآخَرِ : سَطْوَةً وَإِرَادَةَ قُوَّةٍ ، وَلَكِنَّهُمَا سَرَابٌ فِي سَرَابٍ ؛ وَمَرَّةً أُخْرَى تَفْتَحُ لَهُ الطَّرِيقَ لِيُنْصِتَ إِلَى صَمْتِ الْعَاجِزِ عَنِ التَّعْبِيرِ ، صَمْتٍ ظُلْمَتُهُ النُّورَانِيَّةُ تُطِلُّ عَلَى الْعَدَمِ ، وَلَكِنَّهَا قَدْ تُفْضِي إِلَى مَجَالٍ فِيهِ الشِّعْرُ وَالْمُوسِيقَى وَفِيهِ الْحُبُّ وَالْفَنَاءُ فِي اللَّهِ .

كُلُّ ذَلِكَ يَجُولُ فِي خَاطِرِهِ غَامِضًا وَهْوَ صَامِتٌ ، وَلَكِنَّ صَمْتَهُ يُتَرْجِمُ عَنْهُ قَائِلاً :

ـ إِنَّ مَا فِي الصَّمْتِ هُوَ أَبْلَغُ ، وَأَعْمَقُ ، وَأَرْشَقُ مِمَّا تَنْسُجُهُ عِبَارَاتِي . فَلْأُطْلِقِ الْعِنَانَ لِصَمْتِي ، وَلْأَجْعَلْ صَوْتَهُ هُوَ وَحْدَهُ الرَّنَّانُ ، يُحَرِّكُ الأَشْيَاءَ ، وَيُنْطِقُ الْبَشَرَ ، وَلْأُجِبْ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ سُؤَالِ هَذَا الْمُتَّهَمِ الْبَاحِثِ عَنْ حَقِيقَتِي ... سُؤَالُهُ كَالسَّهْمِ انْغَرَسَ فِي دِمَاغِي ، زَلْزَلَهُ زِلْزَالاً ، نَيَّبَنِي وَأَفْرَغَ فِي خَلاَيَاهُ سُمَّ ظُلْمِهِ لِيَنْتَصِرَ شَرُّهُ ... السُّمُّ

أُحِسُّهُ يَنْخَرُ مُخِّي ، يُقَطِّعُ أَحْشَائِي ... وَأَنَا هَكَذَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ مَوْتِي الْمُحَقَّقِ ، وَأَهْلِي عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّنِي الآنَ مَيِّتٌ مَعَ تَأْجِيلِ التَّنْفِيذِ ... طَرَحَنِي بَعْدُ مَنْ حَوْلِي وَأَصَابَنِي الْقَهَمُ وَالْمَوْتُ الأَصْغَرُ ... لَعَلَّهُ رَغْبَةٌ فِي الْبَوْلِ فَقَطْ فِي انْتِظَارِ الْمَوْتِ الأَكْبَرِ ... وَلَكِنَّ حَاجَةَ الْبَوْلِ أَعْرِفُهَا ... أُحِسُّ بِهَا ... أَمَّا هَذِهِ فَغَرِيبَةٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الإِيغَافِ ... يَا لَحَسْرَتِكَ عَلَى نَفْسِكِ يَا عَامِر ... لَكِنْ لِتَعْلَمْ أَنْتَ أَيُّهَذَا الْمَاثِلُ أَمَامِي ... فِي الْمِرْآةِ ... يَا خُوجَة أَنَّ حَقِيقَتِي نَسَجَتْهَا الأَيَّامُ مِنْ يَوْمِ أَنْ فَتَحْتُ عَيْنَيَّ عَلَى تِلْكَ الدَّارِ الْفِلاَحِيَّةِ الْفَسِيحَةِ الأَرْجَاءِ الَّتِي يَتَعَايَشُ فِيهَا الْبَشَرُ وَالْحَيَوَانُ وَالطَّيْرُ . وَلَكِنَّ رَبَّ الدَّارِ كَانَ وَاحِدًا هُوَ وَالِدِي الْحَاج سَالِم . كَانَ آنَذَاكَ فِي عُنْفُوَانِهِ ، طَلْعَتُهُ مُسَيْطِرَةٌ عَلَى كُلِّ مَا فِي الدَّارِ نِسَاءً وَرِجَالاً ، بِوَجْهٍ صَبُوحٍ ،تَحُوطُهُ لِحْيَةٌ خَفِيفَةٌ وَخَطَهَا شَيْبٌ جَلِيلٌ وَيَلْمَعُ فِيهِ خَدَّانِ بَشَرَتُهُمَا رَقِيقَةٌ ، وَرْدِيَّةٌ تَنِمُّ عَنِ النِّعْمَةِ وَصَفَاءِ النَّفْسِ ... لَمْ يَبْقَ فِي ذَاكِرَتِي وَأَنَا صَغِيرٌ إِلاَّ ذَاكَ الْوَجْهُ وَتِلْكِ الدَّارُ . أَمَّا سَائِرُ مَنْ كَانَ حَوْلِي فَسِحْنَاتُهُمْ لَمْ تَتَّضِحْ لِي إِلاَّ بَعْدَ أَنْ دَخَلْتُ الْكُتَّابَ وَعَرَفْتُ شَرَّ الْفَلْقَةِ ؛ وَكُنْتُ أَتَعَجَّبُ كَيْفَ كَانَ يَعْتَقِدُ الْعَاقِلُونَ أَنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَقُولُ فِي نَفْسِي وَأَنَا فِي تِلْكَ السِّنِّ غَفَرَ اللَّهُ لِي : هَلْ يُعْقَلُ أَنَّ تُوجَدَ الْعَصَا فِي دَارِ النَّعِيمِ الَّتِي بَشَّرَ بِهَا اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَهْيَ الْمُقْتَرِنَةُ بِالْعَذَابِ وَالاِضْطِهَادِ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالْجَحِيمِ .

كَانَتْ تِلْكَ الدَّارُ قَلْعَةً صَغِيرَةً ، بَابُهَا الْكَبِيرُ الْوَحِيدُ يُفْتَحُ عِنْدَ الْفَجْرِ ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ كُلُّ الْحَيَوَانَاتِ : الإِبِلُ وَالْبِغَالُ وَالْخُيُولُ وَالْحَمِيرُ وَالْبَقَرُ وَالضَّأْنُ وَالْمَاعِزُ وَجَيْشٌ مِنَ الْخُدَّامِ وَبَعْضُ الْخَمَّاسَةِ الَّذِينَ غَادَرُوا الضَّيْعَاتِ لِمُحَاسَبَةِ وَالِدِي ، وَفَاجَأَتْهُمْ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ فَبَاتُوا هُنَاكَ . وَلاَيَبْقَى

فِي الزَّرِيبَةِ الْمُتَرَامِيَةِ الأَطْرَافِ وَالْـاِصْطَبْلاَتِ الْعَدِيدَةِ إِلاَّ ذَوَاتُ الْجَنَاحِ . كَانَتْ حَسْرَتِي أَلاَّ أُشَاهِدَ فَتْحَ الْبَابِ فِي الْفَجْرِ وَلاَ أَسْتَعْرِضَ كُلَّ الْحَيَوَانَاتِ الْخَارِجَةِ إِلَى رِحَابِ الطَّبِيعَةِ الْوَاسِعِ ، لِأَنَّنِي أَكُونُ وَقْتَذَاكَ غَارِقًا فِي أَحْلاَمِي .

وَلَكِنْ قَبْلَ الْمَغْرِبِ بِقَلِيلٍ كُنْتُ أَنْتَصِبُ عَلَى عَتَبَةِ بَابِ السُّكْنَى الرَّئِيسِيِّ وَهُوَ الْمُنْزَوِي قَلِيلاً عَنِ الْبَابِ الْكَبِيرِ ، وَالْمُشْرِفُ عَلَى السَّابَاطِ ، الْمُفْضِي إِلَى الْقِسْمِ الْفِلاَحِيِّ مِنَ الدَّارِ الَّذِي عَجَّ جَانِبٌ مِنْهُ بِالنِّسَاءِ الْمُنْهَمِكَاتِ طِيلَةَ الْيَوْمِ مِنَ الْفَجْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الأَشْغَالِ الْمُرْهِقَةِ الْيَوْمِيَّةِ : كَتَهْيِئَةِ الطَّعَامِ لِلْخَدَّامَةِ مِنْ تَشَيشٍ ومُحَمَّصٍ وَكُسْكُسِيٍّ وَخَمْسٍ لِخُبْزِ الشَّعِيرِ وَهَذَا حَظُّهُمْ أَمَّا الْقَمْحُ فَلِلأَسْيَادِ. وَتُضَافُ إِلَيْهَا الأَشْغَالُ الْمَوْسِمِيَّةُ مِنْ " عُولَةٍ " وَجَمْعٍ لِلزَّيْتُونِ وَجَزٍّ لِلصُّوفِ وَغَزْلٍ وَنَسْجٍ لَهُ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَشَاغِلِ النِّسْوِيَّةِ الْبَحْتَةِ . أَمَّا الْجَانِبُ الآخَرُ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ الْفِلاَحِيِّ مِنَ الدَّارِ فَإِنَّهُ يُقْفِرُ مِنَ الرِّجَالِ إِلاَّ مِنْ بَعْضِ الشُّيُوخِ لِيَعْمُرَ فِي اللَّيْلِ بِالْخَدَّامَةِ وَالْحَيَوَانَاتِ .كُنْتُ إِذَنْ أَجْلِسُ عَلَى الْعَتَبَةِ وَأَتَمَلَّى فِي فُضُولٍ كَبِيرٍ الْحَيَوَانَاتِ وَهْيَ تَجِفُّ مُتَزَاحِمَةً إِلَى مَبِيتِهَا حَيْثُ الْمَأْكَلُ وَالْمَشْرَبُ ، صَائِتَةً بِأَنْغَامٍ مُتَغَايِرَةٍ ، بَيْنَ هَدِيرٍ وَصَهِيلٍ وَشَحِيجٍ وَنَهِيقٍ وَخُوَارٍ وَثُغَاءٍ يُخَالِطُهُ نَبِيبُ تَيْسٍ أَلَحَّتْ عَلَيْهِ غِلْمَتُهُ . نَعَمْ أَجْلِسُ عَلَى الْعَتَبَةِ (وَيُسْمَعُ صَوْتُهُ مُدَوِّيًا) قُلْتُ لَكَ أَجْلِسُ عَلَى الْعَتَبَةِ (وَيَسْكُتُ عِنْدَ سَمَاعِ خَلْخَالِ زَوْجَتِهِ) وَأَنْظُرُ إِلَى التَّيْسِ وَقَدْ أَثَارَ غَرِيزَتَهُ الزِّحَامُ وَوَقْعُ الْحَوَافِرِ وَالأَظْلاَفِ . (وَيُسْمَعُ مِنْ جَدِيدٍ صُرَاخُ عَامِرٍ طَالِبًا الْقَصْرِيَّةَ فَلَمْ يَسْمَعْهُ أَحَدٌ وَيُوَاصِلُ الْجُلُوسَ فِي مَحْكَمَتِهِ وَالتَّحْلِيقَ فِي تَهْوِيمَاتِهِ) . وَبِقَدْرِ مَا كُنْتُ أَنْعَمُ

عَلَى

بِهَذِهِ الْمَشَاهِدِ ، وَأَوَدُّ لَوِ اخْتَلَطْتُ بِهَذَا الْجَمْعِ الْغَفِيرِ مِنَ الْحَيَوَانِ أَرْكَبُهُ ، أَوْ أُدَاعِبُ قُرُونَهُ أَوْ أَضْرِبُهُ بِالْعَصَا ، بِقَدْرِ مَا يَأْخُذُ نَفْسِي الأَسَى وَالْخَوْفُ وَحَتَّى الرُّعْبُ مِنْ تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الَّتِي يَتَهَيَّأُ فِيهَا رِجَالٌ مُسَلَّحُونَ لِغَلْقِ الْبَابِ الْكَبِيرِ وَشَدِّهِ بِالْمَتَارِيسِ ، وَهُوَ الْمَنْفَذُ الْوَحِيدُ لِلدَّارِ الْمُحَصَّنَةِ ، ثُمَّ التَّوَزُّعُ فَوْقَ السُّطُوحِ مِنْ مَدْرَجٍ أَظْلَمَ ضَيِّقٍ مُخِيفٍ ، مِنْهُ يَأْتِي الْغُولُ وَأُمُّ الصِّبْيَانِ حَسْبَ ظَنِّي . هَؤُلاَءِ الْمُتَلَفِّفُونَ بِالأَحْرِمَةِ ، يَبِيتُونَ أَيْقَاظًا خَوْفًا مِنْ سَطْوِ الْعُرْبَانِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ الْمُضْطَرِبَةِ ، سَنَةَ 1864 . كُلُّ ثَرْوَتِنَا كَانَتْ مُهَدَّدَةً بِالزَّوَالِ مِنَ الْعُرْبَانِ الْمُنْتَصِبِينَ حَوْلَ الْقَرْيَةِ فِي الأَوَّلِ ثُمَّ مِنْ جَيْشِ زَرُّوق الزَّاحِفِ عَلَى السَّاحِلِ يَجْبِي الأَمْوَالَ وَيَنْتَهِكُ الأَعْرَاضَ وَيُعَذِّبُ بِالْجَلْدِ وَالتَّقْيِيدِ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ بِدُونِ شَفَقَةٍ وِلاَرَحْمَةٍ . كَانَ خَوْفُ وَالِدِي يَتَسَرَّبُ إِلَيَّ ، خُصُوصًا عِنْدَمَا سَمِعْتُهُ ، وَهُوَ فِي دِيوَانِهِ الْفَخْمِ ، يَتَفَاوَضُ مَع أَعْوَانِ زَرُّوق وَيَحْلِفُ لَهُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ أَنَّهُ لَم يَنْغَمِسْ فِي التَّمَرُّدِ وَأَنَّهُ تَحَصَّنَ فِي دَارِهِ وَرَدَّ هَجَمَاتِ الْعُرْبَانِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً هُوَ وَأَهْلُ قَرْيَتِهِ. كَيْفَ لاَ يَنْتَابُنِي الْهَلَعُ مِنْ تِلْكَ الْوُجُوهِ الْغَرِيبَةِ عَنِّي وَمِنْ ذَاكَ اللِّبَاسِ الْمُخِيفِ وَتِلْكَ الأَسْلِحَةِ الْمُرْعِبَةِ وَالأَصْوَاتِ الْمُنْبَعِثَةِ كَزَعَقَاتِ الْوُحُوشِ تَحَمْحُمًا وَدَنْدَنَةً . كَهَذَا الصَّمْتِ الْمُهَيْمِنِ عَلَى هَذِهِ الْغُرْفَةِ تَهُزُّهُ فِي دِمَاغِي فَرْقَعَاتُ نَفْسِي الْهَالِكَةِ . وَلَكِنَّ أَعْجَبَ الْعَجَبِ أَنْ يَكُونَ خَوْفِي الآنَ أَشَدُّ مِنْ خَوْفِي أَمَامَ تِلْكَ الأَحْدَاثِ . كَانَ خَوْفِي طَبِيعِيًّا عَاشَرَنِي عِشْرَةَ الصَّاحِبِ لِلصَّاحِبِ وَعَايَشْتُهُ بِكُلِّ جَوَارِحِي حَتَّى صَارَ جُزْءًا مِنِّي ، لِأَنَّ الْخَوْفَ يُولَدُ فِينَا ،كَامِنٌ فِي أَحْشَائِنَا كَكُمُون النَّارِ فِي الصَّوَّانِ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى قَدْحِ قَادِحٍ كَالْخَطَرِ مَثَلاً . أَمَّا خَوْفِي الْيَوْمَ

فَهْوَ مُجَرَّدُ ذِكْرَى ، وَلَكِنَّهُ أَكْثَرُ هَوْلاً وَرُعْبًا لِأَنَّهُ فِي زِيٍّ عَدُوٌّ لاَ عِشْرَةَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَلاَ تَعَايُشَ . أَنَا الآنَ أَرْقُبُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِعَيْنَيَّ الْمَفْتُوحَتَيْنِ وَبِعَيْنَيْنِ عَلَى كَتِفَيَّ تَجُولاَنِ وَرَائِي تَحَسُّبًا وَخِشْيَةً بَلْ كُلِّي عُيُونٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَيْسَ شَيْءٌ أَخْطَرَ مِنَ الْخَطَرِ مِثْلَ الْخَوْفِ .

وَلَكِنَّنِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي رَأَيْتُ فِيهِ وَالِدِي خَائِفًا بَلْ فَزِعًا أَحْبَبْتُ خَوْفِي مِثْلَمَا زِدْتُ حُبًّا لِوَالِدِي . وَفَطِنْتُ إِلَى أَنَّ الْحُبَّ وَالْخَوْفَ تَوْأَمَانِ ، بَلْ إِنَّ أَحَدَهُمَا ظِلٌّ لِلآخَرِ ، حَتَّى يَؤُولَ الأَمْرُ بِالْمَرْءِ إِلَى أَنْ يَخَافَ ظِلَّهُ ، وَأَنَا أُحِبُّ أَبِي وَأَخَافُهُ . وَعَرَفْتُ أَنَّ مَمْلَكَةَ الْخَوْفِ لَيْسَتْ بِلاَ رُوحٍ ؛ وَإِنْ كَانَ الْجَسَدُ فِيهَا تَارَةً يَطِيرُ بِلاَ أَجْنِحَةٍ وَيُطْلِقُ سَاقَيْهِ لِلرِّيحِ وَأُخْرَى يَتَسَمَّرُ وَقَدْ لَبَّهُ الْعَرَقُ وَأَخَذَتْهُ الرَّعْشَةُ . وَتَبَيَّنْتُ جَازِمًا أَنَّ الْخَوْفَ الْحَقِيقِيَّ لاَ يَكُونُ إِلاَّ مِنَ الْبَشَرِ ؛ فَلاَ الْغُولُ وَلاَ سَلاَّلْ بِالْقُلُوبْ وَلاَ أُمُّ الصِّبْيَانِ وَلاَ الْجِنُّ بِقَادِرَةٍ كُلُّهَا عَلَى زَلْزَلَةِ النَّفْسِ مِثْلَمَا يَبْعَثُهُ الإِنْسَانُ فِي أَخِيهِ الإِنْسَانِ مِنْ عَوَاصِفَ سَدَاهَا الْفَزَعُ وَالذُّعْرُ وَالْجَزَعُ وَالْهَوْلُ .

كَانَ أُولاَئِكَ الْقَوْمُ الْغُرَبَاءُ يُحَاسِبُونَ وَالِدِي كَأَنَّهُمْ شُرَكَاءُ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُطَالِبُونَهُ بِالْحُلِيِّ وَالنُّقُودِ . ثُمَّ رَأَيْتُ الدَّهْشَةَ فِي عَيْنَيْ وَالِدِي وَأَنَا أَرْقُبُهُ مِنَ الْمَقْصُورَةِ عِنْدَمَا قَالُوا لَهُ :

ــ إِذَنْ سَيَمُرُّ قَائِدُنَا مِنْ هُنَا بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ وَسَيُقَرِّرُ مَصِيرَكَ بِنَفْسِهِ ، فَتَهَيَّأْ لِذَلِكَ .

وَلَمْ يَنْتَظِرُوا جَوَابًا بَلْ خَرَجُوا كَالصَّوَاعِقِ وَرَكِبُوا خُيُولَهُمْ . وَبَقِيَ وَالِدِي مُتَسَمِّرًا فِي مَكَانِهِ يَسْمَعُ وَأَسْمَعُ أَصْدَاءَ حَوَافِرِ الْخَيْلِ تَتَجَاوَبُ

فِي نَفْسِهِ وَنَفْسِي ، إِذْ لاَ شَيْءَ يُهَرِّئُ التَّمْيِيزَ مِثْلَ الْخَوْفِ بَلْ يُكَبِّلُ كُلَّ نَزْعَةٍ أَسَاسُهَا الْعَقْلُ وَالإِرَادَةُ وَكَأَنَّهُ يَمْنَحُهُمَا إِجَازَةً تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ .

وَفُجْأَةً لَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ تَغَيَّرَ حَالُ وَالِدِي ، وَكَأَنَّهُ طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الْخَوْفِ ، وَلاَ بُدَّ أَنَّهُ خَافَ أَنْ تَسْرِيَ عَدْوَى مَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ وَتَيَقَّنْتُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْخَوْفَ لَيْسَ نَقِيضَ الشَّجَاعَةِ ، فَيُمْكِنُ أَنْ تَخَافَ وَمَعَ هَذَا تُقْدِمُ وَتَخُوضُ الْمَعَارِكَ كَالأَبْطَالِ . وَلَعَلَّ الشَّجَاعَةَ هِيَ حُسْنُ التَّصَرُّفِ فِي الْخَوْفِ وَإِلاَّ تَحَوَّلَتْ إِلَى تَهَوُّرٍ .

صَاحَ وَالِدِي مُنَادِيًا أَعْوَانَهُ ، فَجَاؤُوا وَجِلِينَ . وَفَهِمْتُ أَنَّ مَنْ لاَيَخَافُ أَحَدًا لاَ يَخَافُهُ أَحَدٌ . . . وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِتَرْحِيلِ النِّسَاءِ وَالأَوْلاَدِ وَكُلِّ الْمَاشِيَةِ إِلَى الْمَصِيفِ وَلاَيَتْرُكُوا إِلاَّ عَدَدًا قَلِيلاً مِنَ الْخُدَّامِ الشُّيُوخِ وَالْعَجَائِزِ . وَبِتْنَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ عَلَى أُهْبَةِ الرَّحِيلِ ، وَأَنَا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالْفَرَحِ . الْخَوْفُ مِمَّا يَنْتَظِرُنَا مِنْ وَيْلاَتِ قَائِدِ أُولاَئِكَ الَّذِينَ هَدَّدُوا وَالِدِي بِبَطْشِهِ ، وَالْفَرَحُ لِمَا أَجِدُهُ فِي أَجِنَّةِ الْمَصِيفِ مِنْ فُرَصِ اللَّعِبِ وَالاِنْشِرَاحِ وَسَطَ الطَّبِيعَةِ الْمُخْضَوضِرَةِ الْمَلِيئَةِ بِالأَزْهَارِ وَالأَطْيَارِ وَالأَرَانِبِ الْبَرِّيَّةِ وَغَيْرِذَلِكَ مِنَ الْحَشَرَاتِ الَّتِي كُنْتُ أَتَمَلاَّهَا فِي سَعْيِهَا السَّاعَاتِ الطِّوَالَ . وَشَعُرْتُ بِأَنَّ الْفَرَحَ قَيْدٌ مِثْلُ الْخَوْفِ كِلاَهُمَا يَشُدُّنِي إِلَى هَذَا الَّذِي لاَ يَتْرُكُنِي أَنْطَلِقُ ، لاَ يَسْمَحُ لِي بِأَنْ أَسْرَحَ بِكُلِّ حُرِّيَّةٍ فِي عَوَالِمَ طَلِيقَةٍ لَيْسَ فِيهَا انْفِعَالٌ ، وَلاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَالَمُ الْجَنَّةِ فَضَاءً لاَ يَتَسَرَّبُ إِلَيْهِ لاَ الْخَوْفُ وَلاَ الْفَرَحُ ، لِأَنَّهُ عَالَمُ الاِنْشِرَاحِ الدَّائِمِ وَانْبِسَاطِ النَّفْسِ الْمُتَوَاصِلِ . وَلَوْلاَ الْخَوْفُ وَلَوْلاَ الْفَرَحُ اللَّذَانِ لاَ تَبْرَحَانِهِمَا الْخِشْيَةُ مِنْ زَوَالِهِمَا لَمَا طُلِبَتِ الْجَنَّةُ .

وَهُنَا دَخَلَ عَامِر فِي سُعَالٍ مُخِيفٍ سَمِعَتْهُ كِيمَة وَهْيَ لاَتَزَالُ فِي غُرْفَةِ النَّوْمِ مَعَ أُمِّهَا ، فَهَرَعَتْ وَبِيَدِهَا حَلاَّبٌ فَقَالَ لَهَا بَعْدَ أَنْ كَرَعَ مِنْ مَائِهِ جُرْعَةً كَبِيرَةً وَوَضَعَهُ قُرْبَ الْمَفَاتِيحِ فَسُمِعَ لَهَا رَنِينٌ :

ـ مَنْ قَطَعَ الْمِفْتَاحَ الصَّغِيرَ ... سَأُحَاسِبُكُمْ حِسَابًا عَسِيرًا .

ـ وَمَاذَا فَعَلْنَا ؟ أُمِّي أَخْطَأَتْ عِنْدَ فَتْحِ بَابِ الْخُوخَةِ فَأَوْلَجَتْ مِفْتَاحَ الصُّنْدُوقِ فِي الْقُفْلِ فَانْكَسَرَ .

ـ أُمُّكِ كُلُّهَا أَخْطَاءٌ لاَتَعْرِفُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا ... جَهْلُهَا جَرَّأَهَا عَلَى أَسْيَادِهَا ... دَائِمًا الْعَزْرِي أَقْوَى مِنْ سَيِّدِهِ... الْبَدَاوَةُ تَأْكُلُ الْحَضَارَةَ ... وَالْبَدْوُ الأَجْلاَفُ نَقْمَةٌ لِلْحَضَرِ لاَ أَصْحَابُ الْمُرُوءَةِ وَالشَّهَامَةِ مِنْهُمْ... وَالْعُنْفُ عَدُوُّ الْمَدَنِيَّةِ ... تَعْمَلُ الْعُنْجُهِيَّةُ فِي الظَّرْفِ وَالْكِيَاسَةِ كَمَا تَعْمَلُ النَّارُ فِي الْهَشِيمِ .

ـ هَدِّئْ أَعْصَابَكَ وَقُمْ إِلَى فِرَاشِكَ أَحْسَنُ لَكَ .

ـ أَلاَ تَرَيْنَ يَا كِيمَة أَنَّنِي بِصَدَدِ مُحَاكَمَةِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ ، أُنْظُرِيهِمْ كَيْفَ يُتَابِعُونَ الاِسْتِنْطَاقَ بِكُلِّ جِدٍّ ... أُنْظُرِي أَلاَ تَرَيْنَ الْمِرْآةَ (وَتَظْهَرُ صُورَةُ كِيمَة فِي الْمِرْآةِ) إِنَّهَا وَالِدَتِي تُهَيِّئُ رَحِيلَنَا إِلَى الْمَصِيفِ .

وَأَخَذَ عَامِر يَسْعَلُ مَرَّةً أُخْرَى طَوِيلاً ، ثُمَّ هَدَأَ وَدَخَلَ مِنْ جَدِيدٍ فِي صَمْتِهِ الْبَلِيغِ الَّذِي يَقُولُ :

ـ وَفِي الصَّبَاحِ أَفَقْتُ مُرَوَّعًا عَلَى وَقْعِ سَنَابِكِ الْخَيْلِ ، فَنَهَضْتُ وَلَبِسْتُ ثِيَابِي مُتَعَجِّلاً وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ دِيوَانِ وَالِدِي فَدَلَفْتُ إِلَيْهِ وَقَبَّلْتُهُ عَلَى عَجَلٍ ، وَمَا لَبِثَ أَنْ رَجَعَ وَمَعَهُ الْخَلِيفَةُ نَائِبُ الْعَامِلِ الَّذِي أَعْرِفُهُ جَيِّدًا إِذْ هُوَ لاَ يَنْفَكُّ يَزُورُنَا وَيَخْرُجُ مِنْ دَارِنَا وَأَعْوَانُهُ مُحَمَّلُونَ دَائِمًا بِالْخَيْرَاتِ : أَكْيَاسٌ مَمْلُوءَةٌ قَمْحًا أَوْ حِمَّصًا أَوْ فُولاً أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ

مَحَاصِيلِنَا حَسَبَ الْمَوَاسِمِ الْفِلاَحِيَّةِ وَكَذَلِكَ لاَبُدَّ مِنْ قَطِيعٍ صَغِيرٍ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَاعِزِ يُسَاقُ عَلَى عَجَلٍ . كَانَ يَقُولُ لَهُ فِي غَضَبٍ مَمْزُوجٍ بِالشَّفَقَةِ :

ــ يَا سِي الْحَاج لِمَ هَذَا التَّسَرُّعُ ... تَخْرُجُ مِنْ دَارِكَ وَتَتْرُكُهَا فَارِغَةً ... هَذِهِ أَكْبَرُ سُبَّةٍ تُلْحِقُهَا بِالْقَائِدِ زَرُّوق . سَيُلاَحِقُكَ فِي الْمَصِيفِ وَسَيُجَرِّدُكَ مِنْ كُلِّ أَمْلاَكِكَ وَأَمْوَالِكَ ... أَنَا صَدِيقُكَ الْوَفِيُّ وَعَشِيرُكَ الَّذِي أَكَلَ مَعَكَ الْخُبْزَ وَالْمِلْحَ (يَقْصِدُ خُبْزَ الْحَاج سَالِم وَمِلْحَهُ) ... بِاللَّهِ عَلَيْكَ ... اُتْرُكْ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى حَالِهِ ... وَسَأَعْرِفُ كَيْفَ أُخْرِجُكَ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ ... الْمُهِمُّ أَنْ تَسْتَقْبِلَ الْقَائِدَ زَرُّوق وَكَأَنَّكَ حَلِيفُهُ وَنَصِيرُهُ .

وَفَهِمَ وَالِدِي أَنَّ الْخَلِيفَةَ عَلَى حَقٍّ فَصَاحَ فِي أَعْوَانِهِ آمِرًا إِيَّاهُمْ بِإِعْلاَمِ الْجَمِيعِ بِأَنَّهُ لاَفَائِدَةَ مِنَ الاِنْتِقَالِ إِلَى الْمَصِيفِ . وَاهْتَمَّ أَهْلُ الدَّارِ بِتَهْيِئَةِ الْغَدَاءِ لِلْخَلِيفَةِ وَمَنْ مَعَهُ . وَلَمْ يُبَارِحِ الْبَيْتَ إِلاَّ وَهُوَ يُؤَكِّدُ لِوَالِدِي عَلَى لُزُومِ الْهُدُوءِ أَمَامَ الْقَائِدِ زَرُّوق وَالإِكْثَارِ مِنَ الْمَدِيحِ لَهُ وَالإِطْرَاءِ وَحَثَّهُ عَلَى أَنْ يُوحِيَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ الْمُتَخَرِّجِ مِنْ جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ بِنَظْمِ قَصِيدَةٍ تَصِفُ بُطُولَةَ أَمِيرِ الأُمَرَاءِ وَشَجَاعَتَهُ وَنَصَحَهُ بِأَنْ يَسْتَقْبِلَهُ هُوَ وَأَوْلاَدُهُ الصِّغَارُ لاَبِسِينَ أَزْهَى الْحُلَلِ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْرَحِ الْمَكَانَ إِلاَّ وَقَدْ تَزَوَّدَ كَالْعَادَةِ بِنَصِيبٍ مِنْ خَيْرَاتِنَا .

وَلَيْلَتَهَا لَمْ أَسْكُنْ إِلَى اللَّيْلِ كَمَا كُنْتُ أَسْكُنُ إِلَيْهِ فِي الْعَادَةِ بَيْنَ أَمْوَاجِ ظُلْمَتِهِ الْهَادِئَةِ ، وَبَيْنِ طَيَّاتِهَا تَطْفُو حُرِّيَتِي هَادِئَةً فِي عَوَالِمِ الأَحْلاَمِ وَالرُّؤَى وَشِبْهِ الْيَقَظَةِ بَلْ لَقَدْ كَتَبَتْ بِالْحِبْرِ الأَسْوَدِ كَلِمَاتِهَا الَّتِي نَطَقَ بِهَا

مُهَا الْمُكَشِّرُ عَنْ أَنْيَابِهِ السَّوْدَاءِ صَمْتًا سَكَتَتْ مَعَهُ الْكِلاَبُ النَّابِحَةُ وَهَفَتَتْ فِي أَعْمَاقِهِ لَعْلَعَةُ بَارُودِ الْمَكَاحِلِ ، وَرَاحَتْ عُيُونُ ظُلْمَتِهِ تُحَمْلِقُ عَمْيَاءَ فِي غَيَاهِبِ الْمَجْهُولِ وَصَبَوَاتِ التَّشَاؤُمِ وَالْحُزْنِ الأَخْرَسِ وَكَأَنَّهَا أَرْمَلَةٌ طَلَّقَهَا النَّهَارُ فَانْهَمَرَتْ دُمُوعُهَاصَامِتَةً بُكَاءً وَلاَ صَوْتًا، وَتَصَوَّرْتُ هَذِهِ الأَرْمَلَةَ قِطَّةً سَوْدَاءَ تَرَانِي بِعَيْنَيْنِ لَمَّاعَتَيْنِ وَلاَ أَرَاهَا . ثُمَّ تَبَيَّنَ لِي سَوَادُهَا أَحْلَكَ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ يَعْظُمُ وَيَعْظُمُ وَتَتَكَوَّرُ مَعَهُ الْعَيْنَانِ كُرَتَيْنِ مِنْ نَارٍ وَلَكِنَّ ذَيْلَهَا تَقَوَّسَ وَطَالَ حَتَّى طَالَنِي وَالْتَوَى عَلَى عُنُقِي يَضْغَطُ وَيَضْغَطُ وَأَنْفَاسِي تَضِيقُ ، وَصَوْتُ الصَّمْتِ فِيَّ لاَ يُفِيقُ ، وَعَيْنَايَ غَمَرَتْهُمَا نَارُ عَيْنَي الْقِطَّةِ فَأَضْرَمَتَا فِي يَدَيَّ الْمُتَضَرِّعَتَيْنِ شِبْهَ حَرِيقٍ ، فَأَفَقْتُ وفَتَحْتُ عَيْنَيَّ فَوَجَدْتُ أُمِّي مَاسِكَةً بِيَدَيَّ تَحُثُّنِي عَلَى أَنْ أَسْتَيْقِظَ لِأَشْهَدَ يَوْمًا لَنْ أَنْسَاهُ أَبَدًا . وَأَلْبَسَتْنِي وَأَلْبَسَتْ أَخِي وَأُخْتَيَّ أَزْهَى لِبَاسٍ ذَكَّرَنِي بِيَوْمِ خِتَانِي الَّذِي فَرِحْتُ بِهِ كَثِيرًا فِي الأَوَّلِ وَتَعَجَّبْتُ مِنِ اهْتِمَامِ مَنْ حَوْلِي بِي كَأَنَّنِي سُرَّةُ الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّهُ أَبْقَى فِي نَفْسِي بَعْدَ ذَلِكَ غُصَّةً أَيْقَظَهَا مَا نَنْتَظِرُهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ جَمِيعًا .

وَمَا أَنْ تَخَطَّيْتُ الْغُرْفَةَ ، وَتَوَسَّطْتُ الْفِنَاءَ حَتَّى سَمِعْتُ ضَجَّةً كَبِيرَةً يَتَخَلَّلُهَا وَقْعُ سَنَابِكِ الْخَيْلِ . فَهَرَعَتْ الْخَادِمَةُ السَّوْدَاءُ مَاسِكَةً بِيَدَيْ أُخْتَيَّ وَأَوْقَفَتْنِي أَنَا وَأَخِي أَمَامَ مَدْخَلِ الْفِنَاءِ فِي انْتِظَارِ قُدُومِ الضَّيْفِ . وَامْتَلَأَ عَلَيْنَا الْفِنَاءُ بِالصَّبَايحِيَّةِ وَالشُّوَّاشِ وَالْحَوَانِبِ مِنْ أَتْرَاكٍ وَمَمَالِيكَ وَتَوَانْسَه فِي أَزْيَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ وَشَوَارِبَ بَارِزَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ . ثُمَّ سَكَتَ الْقَوْمُ وَظَهَرَ الْقَائِدُ زَرُّوق يَخْتَالُ فِي زِيِّهِ لاَ يُولِي أَيَّ اهْتِمَامٍ بِمَنْ حَوْلَهُ ، وَوَالِدِي يَتَقَدَّمُهُ مُرَحِّبًا ، مُتَمَنِّيًا لِلضَّيْفِ إِقَامَةً طَيِّبَةً . وَقَفَ أَمِيرُ الأُمَرَاءِ وَالْتَفَتَ مُخَاطِبًا ضَابِطًا صَغِيرًا قَائِلاً :

ـ أيْنَ يُوسُـف لِيفِـي ؟

وَبَـرَزَ مِـنْ بَيْـنِ تِلْـكَ الْجُمُـوعِ رَجُـلٌ مَخايِلُـهُ وَحَرَكَتُـهُ تُوحِـي بِالطَّاعَـةِ الْمُفْرِطَـةِ وَقَـالَ :

ـ أَنَا هُنَا يَـا سَيِّدِي .

ـ لاَ تَبْتَعِـدْ عَنَّـا فَسَنَحْتَاجُ إِلَيْـكَ .

وَامْتُقِـعَ لَـوْنُ وَالِـدِي لِأَنَّـهُ يَعْـرِفُ دَوْرَ يُوسُـف لِيفِـي فَهْـوَ الَّـذِي يُقْـرِضُ الَّذِيـنَ عَجَـزُوا عَـنْ دَفْـعِ المَجْبَـى فِـي مُقَـابِلِ سَـلْبِهِمْ أَرَاضِيهِـمْ وَزَيَـاتِينِهِمْ . وَلَكِنَّـهُ تَـدَارَكَ أَمْرَهُ وَجَذَبَنَـا إِلَيْـهِ وَقَدَّمَنَـا لِلْقَـائِدِ زَرُّوق لِنُحَيِّيَـهُ ، ولَكِنَّـهُ مَـدَّ يَـدَهُ فِـي اسْتِعْلاَءٍ وَمَسَـحَ عَلَـى رُؤُوسِنَا الأَرْبَعَـةِ ثُـمَّ ازْوَرَّ عَنَّـا . فَتَقَـدَّمَ وَالِـدِي وَصَاحَبَـهُ إِلَـى الدِّيـوَانِ . وَأَشَـارَ عَلَيْـهِ بِـالْجُلُوسِ عَلَـى كُرْسِـيٍّ فَخْـمٍ أُعِـدَّ لَـهُ وَحَفَّ بِـهِ عِلْيَـةُ أَتْبَاعِـهِ ، مِنْهُـمْ مَـنْ جَلَـسَ وَمِنْهُـمْ مَـنْ بَقِـيَ وَاقِفًـا وَمِـنْ بَيْنِهِـمْ يُوسُـف لِيفِـي وَالزَّبَانِيَّـةُ مِـنْ صَبَاحِيَّـةٍ وَمَخَازِنِيَّـةٍ وَضُبَّـاطِ عَسْـكَرِ زَوَاوَةَ . وَكَـانَ الْمَشْـهَدُ مُرْعِبًـا يُنْبِـئُ بِـالْعَوَاصِفِ إِذْ مَـا أَنْ جَلَـسَ زَرُّوق حَتَّـى صَـاحَ فِي تَشَنُّجٍ :

ـ أَيْنَ يُوسُـف لِيفِـي ؟

فَأَجَابَهُ الْخَلِيفَةُ :

ـ هَاهُوَ بِجَانِبِي يَاسَيِّدِي أَمِيرَ الأُمَرَاءِ .

ـ لاَتَبْتَعِـدْ يَايُوسُـف فَـأَنْتَ رَأْسُ الْمَـالِ .

وَتَقَـدَّمَ يُوسُـفُ لِيفِـي وَلَكِـنَّ وَالِـدِي كَـانَ أَسْـرَعَ مِنْـهُ وَبَـادَرَ الْقَـائِدَ زَرُّوق قَائِلاً :

ـ هَذَا ابْنُ أَخِـي يُرِيـدُ تَحِيَّـةَ حَضْرَتِكُـمْ شِعْرًا .

وَلَمْ يَكُنِ الْقَائِدُ زَرُّوق لِيَنْتَظِرَ مِثْلَ هَذِهِ الْمُبَادَرَةِ ، فَسَكَتَ . وَتَقَدَّمَ ابْنُ عَمِّي فِي خَجَلٍ وَقَرَأَ قَصِيدَةً إِنْبَسَطَتْ لَهَا أَسَارِيرُ الضَّيْفِ . وَاكْتَشَفْتُ بَعْدَ سَنَوَاتٍ أَنَّ أَبْيَاتَهَا مَسْرُوقَةٌ مِنْ عِدَّةِ قَصَائِدَ وَلَكِنَّ شَاعِرَنَا عَرَفَ كَيْفَ يُلَفِّقُ وَيُرَقِّعُ حَتَّى أَعْطَاهَا صِبْغَةً آنِيَّةً ، ذَاكِرًا الصَّادِق بَايْ وَمُصْطَفَى خَزْنَدَار الْوَزِيرَ الأَكْبَرَ وَمَآثِرَ الْمَمْدُوحِ . وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ :

ـ اللَّهُ يُنْصُرْ سِيدْنَا (وَاهْتَزَّتْ الْقَاعَةُ بِمِثْلِ هَذَا الدُّعَاءِ بِحَنَاجِرَ مُزَلْزِلَةٍ) أَحْسَنْتَ أَيُّهَا الشَّاعِرُ .

وَمَا أَنْ سُمِعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ حَتَّى دَخَلَ الْخَدَمُ يَحْمِلُونَ مَثَارِدَ مِنَ الْعَصِيدَةِ فِي كُلِّ مَثْرِدٍ نُقْرَةٌ مَلْآنَةٌ عَسَلاً وَقِصَاعًا مَرْصُوصَةً بِالْفَطَائِرِ وَأَوَانِيَ صَغِيرَةً مُحْتَوِيَةً عَلَى أَقْرَاصٍ مِنَ الشُّهْدِ . فَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي لَمْ يَقْرَأْ لَهَا الْقَائِدُ زَرُّوقْ حِسَابًا . وَانْهَمَكَ الْجَمْعُ فِي الأَكْلِ وَالإِنْبِسَاطِ وَ الْخَلِيفَةُ مَعَ وَالِدِي لاَ يَفْتَأُ يُتْحِفُ الضَّيْفَ بِقِطَعٍ مِنَ الشُّهْدِ تَقْطُرُ عَسَلاً . وَلَمَّا مُسِحَ مَا فِي الْمَثَارِدِ مِنْ عَصِيدَةٍ وَفَطَائِرَ مَسْحًا وَامْتُصَّ الشُّهْدُ وَتَبَخَّرَ الْعَسَلُ فِي الْبُطُونِ تَقَدَّمَ وَالِدِي وَبِيَدِهِ سَيْفٌ مُرَصَّعٌ بِالْجَوَاهِرِ يَخْطِفُ الأَنْظَارَ . فَلَمْ يَتَمَالَكْ الْقَائِدُ زَرُّوقْ عَنِ الْوُقُوفِ أَمَامَ هَذِهِ التُّحْفَةِ ، وَمَدَّ يَدَيْهِ لِيَأْخُذَ الْهَدِيَّةَ ،وَقَدْ تَطَلَّقَتْ أَسَارِيرُهُ وَظَهَرَ عَلَيْهِ الارْتِيَاحُ لِأَنَّهُ ظَفِرَ بِصَيْدٍ سَمِينٍ وَهُوَ الَّذِي كَرَّسَ نَفْسَهُ عَلَى اغْتِصَابِ أَمْوَالِ الرَّعِيَّةِ وَسَلْبِهَا أَعَزَّ مَا لَدَيْهَا وَقَالَ :

ـ هَذِهِ تُحْفَةٌ عَجِيبَةٌ .

فَأَجَابَهُ وَالِدِي :

ـ إِنِّي اشْتَرَيْتُهَا مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ أَثْنَاءَ حَجِّي . وَهْيَ مِنْ أَمْلاَكِ أَمِيرٍ

تُرْكِيٌّ تَخَلّى عَنْهَـا وَعَـنْ تُحَـفٍ أُخْـرَى لِلْمُسَـاهَمَةِ فِـي تَرْمِيـمِ الْمَسْـجِدِ النَّبَـوِيِّ .

وَلَـمْ يَسَـعِ الضَّيْـفَ إِلاَّ أَنْ يُثْنِـيَ عَلَـى وَالِـدِي وَهْـوَ يَتَفَحَّـصُ الْهَدِيَّـةَ وَيُدَقِّـقُ النَّظَرَ فِي حِجَارَتِهَا الْكَرِيمَةِ وَيَقُولُ :

ـ لِلّـهِ دَرُّ مَـنْ صَنَـعَ هَـذِهِ التُّحْفَـةِ وَفِيهَـا الْبَرَكَـةُ لِـأَنَّ مَالَهَـا سَـاهَمَ فِـي تَرْمِيـمِ مَسْجِدِ الرَّسُـولِ .

وَعِنْدَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ الْخَلِيفَةُ وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ :

ـ سَـيِّدِي أَمِـيرَ الأُمَـرَاءِ إِنَّ الْحَـاج سَـالِم خَـالِصٌ فِـي الْمَجْبَـى وَجَمِيـعِ الْمُكُـوسِ وَيَعْـرِضُ عَلَـى حَضْرَتِكُـمْ أَنْ يَكُـونَ غَـدَاءُ الْمَحَلَّـةِ كُـلِّ الْمَحَلَّـةِ عَلَـى حِسَابِهِ . قَالَ زَرُّوق عَلَى مَضَضٍ :

ـ غَمَرْتَنَا بِإِحْسَـانِكَ يَـا سِي الْحَـاج سَالِم .

وَلَـمْ يَلْبَـثِ الْخَلِيفَـةُ أَنْ تَقَـدَّمَ نَحْـوَ الْقَـائِدِ زَرُّوق وَأَسَـرَّ فِـي أُذُنِـهِ كَلاَمًـا تَجَهَّمَ لَهُ وَجْهُهُ وَقَالَ :

ـ تَذَكَّرْتُ . يَاجَمَاعَةُ لَحَمْ تَنْتَظِرُنَـا . لَنَـا فِيهَـا أَمْرٌ أَكِيـــدٌ . (وَمُلْتَفِتًـا إِلَى الْخَلِيفَة) . الْعَامِلُ هُنَاكَ .

ـ نَعَمْ ، هُوَ الَّـذِي أَشَارَ عَلَيَّ بِذَلِـكَ .

وَتَحَـرَّكَ الْجَمْـعُ لِلْخُـرُوجِ ؛ وَلَكِـنَّ طَبْـعَ زَرُّوق الَّـذِي جُبِـلَ عَلَـى الْخَسَاسَةِ وَالْخَـالِي مِـنْ كُـلِّ نُبْـلٍ وَحِكْمَـةٍ سِيَاسِيَّةٍ فَرَضَ عَلَيْـهِ أَنْ يَتَّجِـهَ نَحْـوَ وَالِـدِي وَقَـدْ تَصَلَّبَـتْ مَلاَمِـحُ وَجْهِـهِ وَلَـمْ تُلَيِّنْهَـا لاَ الْعَصِيـدَةُ وَلاَ الْعَسَـلُ وَقَالَ :

ـ أَنْتَ تَمْلِكُ كَثِيرًا مِنَ السِّلاَحِ . فَحَتَّى مَكَاحِلْ بُو سِتَّة جِعَابْ عِنْدَكَ ... لَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْ تَتَسَلَّحَ بِالْمَدَافِعِ .

وَارْتَبَكَ وَالِدِي ثُمَّ مَلَكَ نَفْسَهُ وَقَالَ :

ـ يَا سَيِّدِي أَمِيرَ الأُمَرَاءِ كَيْفَ أَمْكَنَ لَنَا دَفْعُ شَرِّ الْعُرْبَان أَثْنَاءَ ذَاكَ التَّمَرُّدِ الْمَشْؤُومِ وَحِمَايَةُ أَنْفُسِنَا مِنَ النَّهْبِ وَالسَّلْبِ ...

ـ وَلِهَذَا هَرَبَ ضُبَّاطُ بَلْدَتِكُمْ مِنَ الْجَيْشِ .

ـ لَمْ يَهْرُبُوا ، يَاسَيِّدِي أَمِيرَ الأُمَرَاءِ ، أَدَامَ اللَّهُ عِزَّكَ ، وَإِنَّمَا بَقُوا لِيَحْمُوا الأَعْرَاضَ وَالأَمْوَالَ وَيَصُدُّوا عَنْ أَهَالِيهِمْ السَّطْوَ وَالإِغَارَاتِ .

ـ كَيْفَ تَقُولُ لِي هَذَا وَالْحَالُ أَنَّ الْعُرْبَانَ الَّذِينَ يُحِيطُونَ بِبَلْدَتِكُمْ سَانَدُوكُمْ وَكَانُوا مَعَكُمْ وَهُمْ مِنَ الْمُتَمَرِّدِينَ .

وَهُنَا تَدَخَّلَ الْخَلِيفَةُ ، بَعْدَ أَنْ ظَنَّ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَمَّ عَلَى أَحْسَنِ مَا يُرَامُ وَقَالَ :

ـ يَا سَيِّدِي أَمِيرَ الأُمَرَاءِ ، الْعُرْبَانُ الَّذِينَ حَطُّوا رِحَالَهُمْ حَوْلَ الْبَلْدَةِ تَضَامَنُوا مَعَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ لِصَدِّ الْمَثَالِيثِ .

وَأَرْدَفَ وَالِدِي :

ـ يَا سَيِّدِي أَمِيرَ الأُمَرَاءِ نَحْنُ وَعُرْبَانُ بَلْدَتِنَا لَمْ نَخْرُجْ عَلَى الْوَلاَءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّد الصَّادِق بَاشَا بَايْ اللَّهْ يُنْصُرُو (وَقَامَتْ الصَّيْحَةُ مِنَ الْحَاضِرِينَ بِالدُّعَاءِ لِلْبَايِ مَرَّةً أُخْرَى : اللَّهْ يُنْصُرْ سِيدْنَا ... اللَّهْ يُنْصُرْ سِيدْنَا) . ثُمَّ إِنَّنَا فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِمْ وَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْنَا . فَمَنْ يَرْعَى مَوَاشِينَا وَيُسَاعِدُنَا عَلَى جَمْعِ زَيْتُونِنَا وَلَوْلاَهُمْ لَمَا قَدَرْنَا عَلَى دَفْعِ الْمَجْبَى

وَالْمُكُوسِ وَكُلَّ الأَدَاءَاتِ . نَحْنُ وَهُمْ حَالٌ وَاحِدَةٌ .
ـ الْكُلُ كِلاَبٌ .

وَقَاطَعَ الْخَلِيفَةُ وَالِدِي قَائِلاً :
ـ سَيِّدِي أَمِيرَ الأُمَرَاءِ ، الإِسْرَاعُ إِلَى لَحْمٍ مُتَأَكِّدٌ .

فَأَسْرَعَ عِنْدَ ذَلِكَ زَرُّوقْ وَمَنْ مَعَهُ وَهَمُّوا بِالْخُرُوجِ . وَبَيْنَمَا كَانَ وَالِدِي يَتَأَهَّبُ لِتَوْدِيعِ زَرُّوق إِذَا بِهَذَا الطَّاغِيَةِ يَقُولُ وَكَأَنْ لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ ، وَلَمْ يَرَ الْحَاجْ سَالِمْ إِلاَّ فِي تِلْكَ الدَّقِيقَةِ .
ـ يَا حَاجْ سَالِمْ ، أَنْتَ مُطَالَبٌ بِوَزْنِكَ ذَهَبًا ، يَقُولُونَ إِنَّ عِنْدَكَ مِنَ الذَّهَبِ الْكَثِيرُ.

فَوَضَعَ الْخَلِيفَةُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ سُقُوطَ صَاعِقَةٍ وَقَالَ مُرْتَعِشًا وَقَدْ أَيْقَنَ أَنَّ كُلَّ مَسَاعِيهِ أَوْشَكَتْ عَلَى أَنْ تَذْهَبَ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ :
ـ يَا سَيِّدِي أَمِيرَ الأُمَرَاءِ إِطْعَامُ الْمَحَلَّةِ كُلَّهَا لَيْسَ هَيِّنًا فَهُوَ يَحْتَاجُ لِمَالٍ كَثِيرٍ . وَسَكَتَ زَرُّوق عَلَى مَضَضٍ وَهُوَ وَاقِفٌ لاَ يَعْلَمُ إِلاَّ اللَّهُ مَا يَجُولُ بِذِهْنِهِ وَمَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ الشِّرِّيرَةُ وَلَمْ يُنْقِذِ الْمَوْقِفَ إِلاَّ الْخَلِيفَةُ عِنْدَمَا قَالَ فِي لَهْجَةٍ كُلُّهَا إِشْفَاقٌ وَحَيْرَةٌ :
ـ يَاسَيِّدِي أَمِيرَ الأُمَرَاءِ أَهْلُ الْحَاج سَالِم بَرَعُوا فِي صُنْعِ " الْبَسِيسَة " وَ قَدْ سَلَّمَهَا الْحَاجْ سَالِم لِخَادِمِكَ لِتَأْكُلَهَا أَنْتَ وَأَهْلُكَ بِالْهَنَاءِ .

ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنْ زَرُّوق وَهَمَسَ إِلَيْهِ :
ـ الْحَاج سَالِم لاَ يَنْسَى فَضْلَكَ فَهُوَ قَدْ سَلَّمَ أَيْضًا لِخَادِمِكَ " فَنِيقْ " مَمْلُوءًا ذَهَبًا وَمُجَوْهَرَاتٍ ، هَدِيَّةً لَكَ وَلِأَفْرَادِ عَائِلَتِكَ وَلَكِنَّهُ أَحْجَمَ عَنِ التَّلْمِيحِ بِذَلِكَ أَمَامَ النَّاسِ .

وَفِي هَـذِهِ الآوِنَـةِ ، اِلْتَفَـتَ زَرُّوق إِلَـى وَالِـدِي وَصَافَحَـهُ بِحَـرَارَةٍ ، فَـالْتَفَّ حَوْلَـهُ كُـلُّ الضُّبَّـاطِ يُحَيُّونَـهُ بِمِثْـلِ تِلْـكَ الْحَـرَارَةِ . وَامْتَطَـى زَرُّوق جَـوَادَهُ وَأَوْشَـكَ الرَّكْـبُ عَلَـى الإِقْـلاَعِ وَالْحَـاضِرُونَ يَصِيحُـونَ بِـأَعْلَى أَصْوَاتِهِـمْ بِإِيعَـازٍ وَتَحْوِيـقٍ بِـالطَّبْعِ مِنَ الْخَلِيفَـةِ : اللّـهُ يُنْصُرْ سِيدْنَا ، وَوَالِـدِي يُتَمْتِـمُ فِـي الظَّاهِرِ بِمَا يَهْتِفُ بِهِ النَّـاسُ وَيَهُـمُّ بِرَفْـعِ يَـدِهِ لِتَحِيَّـةِ جَـلاَّدِهِ الَّـذِي لَـمْ يَتَرَدَّدْ فِي كَبْحِ جِمَاحِ جَوَادِهِ قَائِلاً :

ـ يَا سِي الْحَـاج سَـالِم ، الْمَحَلَّـةُ عَلَى بُعْـدِ مِيلَيْـنِ مِـنْ هُنَـا وَهْـيَ سَـتَلْتَحِقُ بِـي فِي لَحَـمْ بَعْـدَ أَنْ يَتَغَـدَّى الْعَسْـكَرُ . أَلَيْـسَ هَكَـذَا يَاسِـي الْحَـاج ..؟

وَأَنْعَـمَ لَـهُ وَالِـدِي بِرَأْسِـهِ وَأَقْلَـعَ الرَّكْـبُ وَوَالِـدِي يُتَمْتِـمُ بِعِبَـارَاتٍ لاَ يَعْلَمُهَـا إِلاَّ اللَّـهُ وَيُحَيِّـي بِيَـدِهِ الضَّيْـفَ الثَّقِيـلَ وَأَنَـا مَعَـهُ أَرْفَـعُ يَـدِي عَمَـلاً بِتَوْصِيَتِـهِ ، وَلَكِـنْ فِـي خَجَـلٍ ؛ وَالْخَلِيفَـةُ يَهْتَزُّ فَرَحًـا بِمَـا وَصَـلَ إِلَيْـهِ مِـنْ نَتِيجَـةٍ سَـارَّةٍ . وَوَدَّعَنَـا وَهْـوَ مُتَيَقِّـنٌ أَنَّ الْخَيْرَ آتٍ لاَمَحَالَـةَ .

وَلَمَّـا دَخَلْنَـا الـدَّارَ وَجَلَـسَ وَالِـدِي بِدِيوانِـهِ هَـرَعَ إِلَيْـهِ النِّسْـوَةُ يُزَغْـرِدْنَ فَـأَمَرَهُنَّ بِالسُّكُوتِ خَوْفًـا مِـنَ الْوِشَـايَاتِ وَمَنَـعَ حُرَّاسَـهُ قَبْـلَ ذَلِـكَ مِـنْ إِطْـلاَقِ الْبَـارُودِ بَهْجَـةً وَسُـرُورًا بِـانْحِلاَلِ الْعُقْـدَةِ . وَلَكِـنَّ ذَلِـكَ لَـمْ يَمْنَـعْ كُـلَّ الْعَائِلَـةِ مِنْ تَهْنِئَتِـهِ بِخُرُوجِـهِ سَـالِمًا مِـنْ هَــذِهِ الْمِحْنَـةِ ، مُحَافِـظًا عَلَـى أَمْلاَكِـهِ كُلِّهَـا ، مُضَحِّيًـا بِشَـيْءٍ مِـنَ الْمَـالِ ، وَكَـانَ لاَيَنْفَـكُّ يُـرَدِّدُ : فِـي الْمَـالِ وَلاَ فِـي الأَبْـدَانِ ... إِنْ شَـاءَ اللَّـهُ يَكُـونُ مَاوَقَـعَ دَفْعًـا لِكُـلِّ بَـلاَءٍ . ثُـمَّ أَمَـرَ أَهْلَـهُ قَائِلاً :

ـ الآنَ فِـي الإِمْكَـانِ أَنْ أَبِـرَّ بِوَعْـدِي ...بِنَـذْرِي لِأَوْلِيَـاءِ الْجِهَـةِ كُلِّهَـا ... اِذْبَحُـوا الشِّـيَاهَ وَهَيِّئُـوا الْكُسْكُسِـي وَأَطْعِمُـوا الْمَسَـاكِينَ وَاكْسُـوهُمْ ... وَلاَتَنْسَـوْا الْمَحَلَّـةَ بِـالطَّبْعِ .

وَأَمْضَيْنَا سَائِرَ الْيَوْمِ فِي نَشَاطٍ حَثِيثٍ : الدَّارُ تَعُجُّ ، نِسَاءً وَرِجَالاً ، بِكُلِّ مُنْشَغِلٍ بِإِنْجَازِ وَسَائِلِ الْفَرْحَةِ . وَأَنَا أَتْبَعُ وَالِدِي فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْبَيْتِ وَأَتَتَبَّعُ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهِ وَأَتَمَعَّنُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أَوَامِرِهِ حَتَّى حَلَّ الْمَغْرِبُ وَانْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ وَأَخْلَدَ كُلٌّ لِشَأْنِهِ وَغُلِّقَ الْبَابُ الْكَبِيرُ وَأَوَيْنَا إِلَى الْجَنَاحِ الْخَاصِّ بِنَا وَتَعَشَّيْنَا . وَلَكَمْ وَجَدْتُ الْمَأْكُولَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ شَهِيًّا لَذِيذًا ، وَكَانَ وَالِدِي يُتْحِفُنِي مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ بِاللَّحْمَةِ الْمُخَبَّأَةِ بَيْنَ ضُلُوعِ الْكَبْشِ وَيَقُولُ لِي : هِيَ لَحْمَةُ الظِّلِّ كُلُّهَا فَهْيَ أَطْرَى مَا فِي الضَّأْنِ . وَكُنْتُ أُحِسُّ بِالنَّشْوَةِ تَسْرِي فِي عُرُوقِي ، نَشْوَةِ الْحَظْوَةِ الَّتِي أَلْمَسُهَا فِي اهْتِمَامِ وَالِدِي بِي وَنَشْوَةِ الْفَرَحِ بِخُرُوجِ وَالِدِي مِنْ أَزْمَتِهِ مَرْفُوعَ الرَّأْسِ سَالِمًا مُسَلَّمًا . ثُمَّ أَمْضَيْنَا السَّهْرَةَ فِي الذِّكْرِ عَلَى طَرِيقَةِ سِيدِي بْنِ عِيسَى مُولَى مِكْنَاس . وَانْبَرَتْ عَمَّتِي تُغَنِّي بِصَوْتِهَا الشَّجِيِّ :

" لِمْتِينْ غَايِبْ هَا بَابَا جَلُّولْ "

وَكَانَتْ لِلأُهُمْ وَكِيمَة وَالْعَمَّارِي يَسْمَعُونَ مِنْ غُرْفَةِ النَّوْمِ هَيْنَمَةً بَعِيدَةً ، فَتَحَيَّرُوا لِذَلِكَ وَكَفُّوا عَنْ كُلِّ حَرَكَةٍ لِيَتَبَيَّنُوا الأَمْرَ حَتَّى رَفَعَ عَامِر صَوْتَهُ مُتَرَنِّمًا : " هَابَابَا جَلُّولْ " .

وَعِنْدَمَا تَبَيَّنَتْ لِلأُهُمْ مَصْدَرَ الصَّوْتِ ، اِنْطَلَقَتْ كَصَرْخَةِ بَارُودٍ وَجَاءَتْ أَمَامَ عَامِرٍ وَمِنْ وَرَائِهَا الْمِرْآةُ وَأَخَذَتْ تَخْبِطُ فَخِذَيْهَا وَتَنْدُبُ كَالنَّادِبَاتِ وَلَكِنْ بِسُخْرِيَّةٍ وَتَقُولُ:

— مَاخَصِّ الْمَشْنُوقْ إِلاَّ مَا كِلْتْ الْحَلْوَى ... هَاوْ نِنْدِبْهُمْ ... هَاوْ نِنْدِبْهُمْ .

عِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَ عَامِر رَأْسَهُ وَقَالَ لَهَا :

ـ لَمْ يَأْتِ دَورُ الشُّهُودِ . يَا عَوْنُ أَخْرِجْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ ، اِبْتَعِدِي عَنِ الْمِرْآةِ أَفْسَدْتِ عَلَيَّ الرُّؤْيَةَ وَقَطَعْتِ نَسَقَ التَّحْقِيقِ مَعَ الْكَلْب خُوجَة ، يَا خُوجَة . الآنَ عَرَفْتَ جُزْءًا مِنْ حَقِيقَتِي . وَلَكِنَّكَ لَمْ تَعْرِفْ كُلَّ الْحَقِيقَةَ .

ثُمَّ سَكَتَ وَكَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ حَالَةِ الصَّمْتِ الَّتِي كَانَ فِيهَا وَقَالَ لِلْعَجُوزِ وَهْيَ تَتَخَطَّى عَتَبَةَ الْغُرْفَةِ لِلْخُرُوجِ :

ــ لِمَاذَا خَبَّأْتُمْ الصُّحُونَ وَالسَّكَاكِينَ وَالْمَلاَعِقَ وَتَرَكْتُمُ الْمَائِدَةَ بِلاَ زُهُورٍ ..؟ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّنِي أَسْتَقْبِلُ ضُيُوفًا كِبَارًا. قَالَتِ الْعَجُوزُ سَاخِرَةً :

ــ لَمْ نَعْرِفْ مَا ذَا تُرِيدُ ... هَلْ تُرِيدُ أَنْ تُحَاكِمَ ضُيُوفَكَ أَمْ تُحِبُّ إِكْرَامَهُمْ ..؟]

7

عِنْدَمَا نَـزَلَ الْمَـرَضُ بِعَـامِرٍ فِـي أَوَّلِ الأَمْـرِ كَـانَتْ تَتَلاَطَـمُ بِذِهْنِـهِ الذِّكْرَيَاتُ الْعَارِمَـةُوَلَكِنَّهَا وَجَدَتْ فِي خَيْطِ الصَّمْتِ نِظَامَهَا ، وَأَلْفَـتْ فِيـهِ وُضُوحَهَا وَأَحْكَمَتْ بِهِ اسْتِرْسَالَهَا فِي ضَبْطِ دَقَائِقِ زِيَارَةِ زَرُّوق لِلْبَيْـتِ .

غَيْرَ أَنَّ هَـذِهِ الْحَادِثَـةَ الَّتِي طَبَعَتْ طُفُولَتَـهُ بِمِسْحَةٍ مِنَ الْحُزْنِ وِالأَسَى ، وَأَثَّـرَتْ فِـي مَجْـرى حَيَاتِـهِ ، أَثْقَلَـتِ الذِّكْـرَى بِشُـحْنَةٍ نَفْسِـيَّةٍ مُحْبَطَـةٍ ، وَأَدْخَلَتْ تَفْكِيرَهُ فِي بَوْتَقَـةٍ تَجَاوَزَتِ الصَّمْتَ لِتُقْحِمَـهُ فِي مِنْطَقَـةِ الْغُمُـوضِ وَاضْطِرَابِ الذِّهْـنِ ، فَغَرِقَ فِي ضَبَـابِيِّ الأَفْكَـارِ وَمُبْهَـمِ الـرُّؤَى . وَبَيْنَمَا كَـانَ يُرِيـدُ مُحَاكَمَـةَ الْمُرَاقِـبَ الْمَدَنِـيَّ وَوَكِيـلَ الدَّوْلَـةِ الْفَرَنْسِـيَّيْنِ ، وَالْعَـامِلَ ورَئِيـسَ الْمَحْكَمَـةِ التُّونِسِـيَّيْنِ، وَصِهْـرَهُ حَـامِدِ وَأَخَـاهُ حَفَيِّـظ الْقَرِيبَيْـنِ ، أَصْبَحَ الآنَ يُرِيـدُ إِكْرَامَهُـمْ . وَكَـانَتْ نَفْسُـهُ تَقُـولُ لِنَفْسِـهِ ، وَقَـدْ خَـرَجَ مِنْهُمَا الاثْنَيْـنِ بَعْـدُ : إِخْتَلَـطَ عَلَيْـكَ الأَمْـرُ وَتَغَلَّبَـتْ طَبِيعَتُـكَ الْخَـيِّرَةُ عَلَـى إِرَادَةِ الشَّـرِّ لِغَـيْرِكَ . فَـأَنْتَ أَضْعَـفُ مِـنْ أَنْ تُحَـاكِمَ مَـنِ اعْتَـدَى عَلَيْـكَ وَأَوْقَعَـكَ فِيمَا أَنْتَ فِيـهِ . وَلَـوْ كُنْتَ مُنْصِفًا لِنَفْسِكَ لَمَا أَنْصَفْـتَ غَـيْرَكَ . الإِيثَارُ نَفْـيٌ لِلْـأَثَرَةِ وَالْعَدَالَـةُ تَغْيِيـبٌ لِلـذَّاتِ .

لَقَدِ امَّحَتْ مِنْ ذِهْنِهِ كُلُّ السَّنَوَاتِ السَّعِيدَةَ الَّتِي عَرَفَهَا فِي طُفُولَتِهِ وَشَبَابِهِ حِينَ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الزَّمَنِ فِي تَؤُدَةٍ بِلاَ ضَجَّةٍ وَلاَ اضْطِرَابٍ ، وَقَدِ اسْتَسْلَمَ لِهَدْهَدَةِ الْبَحْرِ فِي الْمُصْطَافِ ، وَانْسَاقَ مَعَ النَّسِيمِ الرَّيِّقِ فِي الْقَيْلُولَةِ الْمَشْحُونَةِ أَحْلاَمًا لَذِيذَةً وَآمَالاً عِرَاضًا ، وَأَرْخَى لِشَهِيَّتِهِ فَضْلَ زِمَامِهَا لِتَلْتَذَّ بِأَحْلَى الثِّمَارِوَأَمْتَعِ الْفَوَاكِهِ الَّتِي يَجُودُ بِهَا الصَّيْفُ .

وَلَفَّ النِّسْيَانُ أَحْلَى أَوْقَاتِ صِرَاعِهِ وَصِرَاعِ أَهْلِ حَيِّهِ مَعَ الْبَحْرِ عِنْدَمَا يَأْتِي دَوْرُهُمْ فِي " الدَّالَةِ " . فَيَأْخُذُونَ حِصَّتَهُمْ مِنَ السَّمَكِ ، مِنَ الْقَارُوصِ وَالْبُورِي . وَكَانَ يُعْجِبُهُ التَّنْظِيمُ وَتَرَصُّدُ الْجَمِيعِ لِلسَّمَكِ وَهْوَ آتٍ رُقْعَةً لَمَّاعَةً تَتَحَرَّكُ تَحْتَ سَطْحِ الْبَحْرِ . فَتُرْمَى الأَكْيَاسُ فَيُرِيدُ الرُّجُوعَ عَلَى أَعْقَابِهِ وَلَكِنَّ أَكْيَاسًا أُخْرَى تَكُونُ قَدْ مَنَعَتْ عَلَيْهِ خَطَّ الرَّجْعَةِ . ثُمَّ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ الْخِنَاقُ فَتَرَاهُ يَقْفِزُ فَوْقَ صَفْحَةِ الْمَاءِ إِلَى أَنْ تُجَرَّ الأَكْيَاسُ إِلَى الشَّاطِئِ . وَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْعَمُ أَهْلُ الْحَيِّ بِالْقِسْمَةِ الْعَادِلَةِ ، كُلٌّ عَلَى حَسَبِ جُهْدِهِ . وَكَانَتْ فُرْصَةٌ تُتَاحُ كُلَّ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ طِيلَةَ الْمَوْسِمِ لِيَنْعَمَ أَهْلُ الْحَيِّ بِاللِّقَاءِ وَمَا تَنْتَظِمُ فِيهِ بَعْدَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ مِنْ سَهَرَاتٍ حَافِلَةٍ بِالسَّمَرِ وَاللَّعِبِ الْبَرِيءِ .

وَانْزَاحَتْ أَيْضًا مِنْ ذَاكِرَتِهِ حَيَوِيَّةُ مَوْسِمِ الزَّيْتُونِ ، وَانْتِشَارُ الْفَتَيَاتِ وَالْفِتْيَانِ بَيْنَ الأَشْجَارِ ، حِينَ كَانَ يَرْتَاحُ إِلَى اقْتِنَاصِ النَّظْرَةِ الْعَجْلَى مِنَ الْعَيْنِ النَّجْلاَءِ ، وَيَذُوبُ لَذَّةً كُلُّهَا حَلاَوَةٌ وَطَلاَوَةٌ ، عِنْدَ تَعَمُّدِ مُلاَمَسَةِ يَدِ فَاتِنَتِهِ ، وَهْوَ يُسَاعِدُهَا عَلَى حَمْلِ كِيسِ الزَّيْتُونِ ، أَوْ إِحْرَاقِ سَالِفِهَا بِأَنْفَاسِ الشَّوْقِ الْحَارَّةِ ، وَتَنَشُّقِ مِسْكِ نَفَسِهَا ، وَعَبِيرِ ذُؤَابَتِهَا الْمُسْبَلَةِ وَهْيَ تُدَغْدِغُ أَنْفَهُ ، لَحْظَةَ انْحِنَائِهِمَا الْمُطَوَّلِ . وَلَكِنَّ نَشْوَةَ تِلْكَ اللَّحْظَةِ

عَلَى

لَنْ تَبْرَحَ أَحَاسِيسَهُ كُلَّهَا سَائِرَ الْيَوْمِ وَطِيلَةَ اللَّيْلِ فِي الْيَقَظَةِ وَالْحُلْمِ : لَذَّةً عَطْشَى أُوَارُهَا لاَ أَمَلَ فِي إِطْفَائِهِ .

وَنَسِيَ السَّنَوَاتِ الْعَدِيدَةَ الَّتِي قَضَاهَا فِي الْعَاصِمَةِ بَيْنَ رِحَابِ جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ وَقَدْ أَحَسَّ بِاتِّسَاعِ الآفَاقِ وَاحْتَكَّ فِي الْغَالِبِ بِثُلَّةٍ مِنَ الْمَشَايِخِ الأَجِلاَّءِ عِلْمًا وَأَدَبًا وَخُلُقًا كَرِيمًا . وَضَاعَتْ مِنْ فِكْرِهِ الْمُشَوَّشِ السَّاعَاتُ السَّعِيدَةُ الَّتِي نَعِمَ أَثْنَاءَهَا بِمَا فِي الْعَاصِمَةِ مِنْ أَجْوَاءٍ فِيهَا الأَدَبُ وَالْفَنُّ وَأَفَانِينُ الْعَيْشِ الرَّخِيِّ وَالْوِدِّ وَالصَّفَاءِ ، وَفِيهَا الْفُرَصُ الْمُتَاحَةُ لِتَهْذِيبِ الذَّوْقِ ، وَالاِسْتِمْتَاعِ بَالرِّقَّةِ ، وَمُعَاشَرَةِ الظُّرَفَاءِ ، وَالاِنْسِيَاقِ أَحْيَانًا ، فِي تَهَيُّبٍ وَتَسَتُّرٍ ، إِلَى نَزَغَاتِ الشَّبَابِ الشَّيْطَانِيَّةِ .

وَغَابَتْ عَنْ خَاطِرِهِ سَنَوَاتُ الرَّخَاءِ وَالسَّعَادَةِ الَّتِي جَمَعَ اللَّهُ فِيهَا شَمْلَهُ بِأُسْرَتِهِ الصَّغِيرَةِ فِي قَفْصَةَ وَفِي سُوسَةَ ، عِنْدَمَا اضْطُرَّتْ كِيمَةُ إِلَى اللَّحَاقِ بِهِ فِي مَقَرِّ عَمَلِهِ وَقَبُولِ فِرَاقِ أَهْلِهَا وَخُصُوصًا إِخْوَتَهَا ، رَاضِيَةً بِالْغُرْبَةِ ، رَاكِنَةً إِلَى الْبُكَاءِ فِي سِرِّهَا . وَلَكِنَّ عَامِر كَانَ حِينَذَاكَ مُرْتَاحَ النَّفْسِ ، مَثْلُوجَ الصَّدْرِ ، رَضِيَّ الْخَاطِرِ عِنْدَمَا يَدْخُلُ الْمَنْزِلَ وَيَهُبُّ إِلَيْهِ الأَوْلاَدُ تَقْبِيلاً وَعِنَاقًا . ثُمَّ يَتَحَلَّقُونَ حَوْلَ الْمَائِدَةِ بِدُون كُلْفَةٍ وَلاَحَرَجٍ ، وَيَنْهَمِكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَلْعَابِ الْبَرِيئَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ فَيَكُونُ الضَّحِكُ وَالْقَهْقَهَةُ وَالْفَرَحُ الْعَارِمُ الَّذِي يَنْسَاحُ مَعَهُ الدَّمْعُ .

كُلُّ هَذَا نَسِيَهُ عَامِر فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْحَاسِمَةِ وَلَمْ يَحْضُرْ ذِهْنَهُ إلاَّ هَذِهِ الْمِحْنَةُ الَّتِي أَدَّتْ بِهِ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ . وَلَمْ يُشَوِّشْ فِكْرَهُ أَيْضًا إلاَّ هَذَا الَّذِي يُذَكِّرُهُ بِفَتَرَاتِ حَيَاتِهِ الْقَاسِيَةِ . وَلَكِنَّهُ يَتَذَكَّرُ أَنَّ هَذِهِ اللَّحَظَاتِ الَّتِي عَرَفَ فِيهَا السَّعَادَةَ وَرَخَاءَ الْعَيْشِ كَانَتْ مَشُوبَةً بِإِحْسَاسٍ لَمْ يَبْرَحْ

يُمَزِّقُ كِيَانَهُ . هُوَ إِحْسَاسٌ يَهْمِسُ إِلَيْهِ قَائِلاً : يَا عَامِر لاَ تَغْتَرَّ ، فَهَذِهِ اللَّحْظَةُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالْفَرَحِ لَنْ تَدُومَ ، إِيَّاكَ أَنْ تَطْمَئِنَّ إِلَيْهَا ، وَتَخْلُدَ إِلَى نَعِيمِهَا ، هِيَ زَائِلَةٌ ، وَأَنْتَ لاَ بُدَّ أَنْ تُوَاجِهَ مَا يَفُوقُهَا حُزْنًا وَأَسًى وَشَقَاءً . وَهَذَا الْهَاجِسُ غَمَرَهُ حَتَّى لَيْلَةَ زَفَافِهِ بِابْنَةِ عَمَّهِ الَّتِي يُحِبُّهَا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُ : يَا عَامِر ، هَلْ تُحِبُّكَ بِالْقَدْرِ الَّذِي تُحِبُّ بِهِ إِخْوَتَهَا . هَلْ سَتُولِيكَ مِنَ الْعِنَايَةِ أَنْتَ وَأَبْنَاءَكَ مِثْلَمَا تَصْرِفُ حُبَّهَا وَشَوْقَهَا وَحَنِينَهَا إِلَى إِخْوَتِهَا ؟ وَلَكِنْ هَلْ أَنْتَ قَادِرٌ أَيْضًا عَلَى أَنْ تَسْرِقَ قَلْبَهَا كُلَّهُ ، وَتَخْتَطِفَهُ مِمَّا يَشُدُّهُ بِرَحِمِ أُمِّهَا ، وَأَنْتَ مَشْغُولٌ عَنْهَا بِهَذَا الَّذِي يَرْبِطُكَ بِعَالَمٍ بَعِيدٍ عَنْ عَالَمِ أَهْلِكَ الْمَشْدُودِ إِلَى الزَّيَاتِينِ وَمَشَاقِّ الْفِلاَحَةِ وَهُمُومِهَا وَتَبَدُّلِ الأَحْوَالِ وَغُيُومِهَا ؟ إِنَّ فِي عَيْنَيْكَ ضَوْءٌ يَفْضَحُكَ وَيُفْصِحُ عَنْ نُزُوعٍ دَائِمٍ إِلَى الْهُرُوبِ ، إِلَى الْغُرْبَةِ ، إِلَى الرَّحِيلِ ، إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ نَفْسِكَ ، وَقَطْعِهَا عَنْ نَبْعِهَا الأَوَّلِ . وَإِنَّ فِي أُذُنَيْكَ هَوِيٌّ يُشَوِّشُ عَلَيْكَ لَحْظَةَ رَاحَتِكَ وَسَعَادَتِكَ وَفَرَحِكَ ، فَتَفْقِدُ تَوَازُنَكَ ، وَيَكْفَهِرُّ وَجْهُكَ ، وَتَتَغَيَّرُ مَلاَمِحُكَ .

وَعِنْدَ ذَلِكَ سُمِعَتْ ضَحَكَاتٌ مُدَوِّيَةٌ فِي ذَلِكَ اللَّيْلِ الأَخْرَسِ ... ضَحَكَاتٌ طَوِيلَةٌ ، هَرَعَتْ عِنْدَ سَمَاعِهَا لِلاَّهُمْ . أَمَّا كِيمَة فَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ فِي هَلَعٍ شَدِيدٍ وَلَمْ تَتَّجِهْ إِلاَّ إِلَى بَيْتِ الرَّاحَةِ . وَلَمَّا أَطَلَّتْ لِلاَّهُمْ وَجَدَتْهُ يَضْحَكُ وَهُوَ يَضْرِبُ بِيَدَيْهِ عَلَى الْمَائِدَةِ وَيَفْحَصُ بِرِجْلَيْهِ فَوْقَ أَرْضِيَّةِ الْغُرْفَةِ ، وَالْكُرْسِيُّ يَئِنُّ مِنْ تَحْتِهِ مُحْدِثًا طَقْطَقَاتٍ غَرِيبَةً وَيَصِيحُ بَيْنَ الضَّحْكَةِ وَالضَّحْكَةِ :

ــ أَنَا لاَ شَأْنَ لِي بِمَا يَقَعُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ... مَضَى الزَّمَانُ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ أَهْتَمُّ بِمَا يَحْدُثُ ... أَحْزَنُ أَوْ أَفْرَحُ ، أَخَافُ مِمَّا يُخَبِّئُهُ الْقَدَرُ أَوْ

آمُلُ مِنْهُ شَيْئًا ... يُزَلْزِلُ كِيَانِي الظُّلْمُ نَقْمَةً أَوْ تَهُزُّ مَشَاعِرِي نَفَحَاتُ الْعَدْلِ رَحْمَةً ... تَشْمَئِزُّ نَفْسِي مِنْ لَفَحَاتِ الشَّرِّ أَوْ تَرْتَاحُ لِرَوَائِحِ النِّعْمَةِ وَالْخَيْرِ ... تَثُورُ لِمُوَاجَهَةِ صَوْلاَتِ الْبَاطِلِ أَوْ تَتَنَاغَمُ مَعَ انْتِصَارَاتِ الْحَقِّ إِنْ صَادَفَ أَنِ انْتَصَرَ ... تَشْمَئِزُّ مِنْ فَتَكَاتِ الْقُبْحِ أَوْ تَتَفَاعَلُ هُيَامًا مَعَ خَطَرَاتِ الْجَمَالِ ... كُلُّ هَذَا ضَيَّعْتُهُ وَضَاعَ مِنِّي ... أَصْبَحْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ عَلُ ... وَأَسْتَمِعُ إِلَى خَلاَيَا دِمَاغِي ، بَلْ أَنْظُرُ إِلَيْهَا وَهْيَ تَتَحَدَّثُ فِيمَا بَيْنَهَا ، الْبَيْضَاءُ تَذْكُرُ أَيَّامَ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ ، وَالسَّوْدَاءُ تَحْكِي فَتَرَاتِ الشَّقَاءِ وَالْهَمِّ ... وَلَكِنَّهَا تُصْبِحُ كُلُّهَا سَوْدَاءَ ... وَمَعَ هَذَا فَأَنَا أَضْحَكُ ... الْخَلاَيَا السَّوْدَاءُ فِي خِطَابٍ مَعَ الْخَلاَيَا الْبَيْضَاءِ الْمُسْوَدَّةِ ... وَالْحَصِيلَةُ سَوَادٌ فِي سَوَادٍ وَلاَ أَثَرَ لِلْبَيَاضِ ... كَهَذَا الأَسْوَدِ الَّذِي يَنْفُثُ السُّمَّ ... اِبْتَعِدْ عَنِّي أَيُّهَا الثُّعْبَانُ ... سُمُّكَ تَغَلْغَلَ فِي دِمَاغِي ...

وَكَانَتْ لِلاَّهُمْ أَمَامَهُ فَصَاحَتْ فِيهِ :

ـ أَنَا ثُعْبَانٌ ... أَنَا لِلاَّهُمْ وَمَا أَدْرَاكَ ... هَذَا الرَّاحِلُ اِهْبِلْ ...

وَهَرَعَتْ لِلاَّهُمْ تُتِمُّ مَا بَدَأَتْ فِيهِ مِنْ تَرْتِيبِ شُؤُونِ مَابَعْدَ مَوْتِ عَامِرٍ ... أَمَّا هُوَ فَقَدْ أَرْخَى لِخَلاَيَاهُ الْعِنَانَ لِتَتَحَدَّثَ فِيمَا بَيْنَهَا عَنْ سَنَوَاتِ الشَّقَاءِ وَفَتَرَاتِ الْهَمِّ :

ـ أَلاَ تَذْكُرْنَ أَيَّتُهَا الأَخَوَاتُ تِلْكَ الْكَارِثَةَ الَّتِي حَلَّتْ سَنَةَ 1881 بِالْقَرْيَةِ بَلْ بِالْبِلاَدِ عِنْدَ انْتِصَابِ الْحِمَايَةِ . لَقَدِ اخْتَلَّ الأَمْنُ وَرَجَعَتِ الْعُرْبَانُ إِلَى الْفَوْضَى . وَكَثُرَتْ طَلَقَاتُ الْمَكَاحِلِ بِالْبَارُودِ فِي اللَّيْلِ وَسُقُوطُ قُنْبُلَةٍ قَرِيبًا مِنَ الْمِينَاءِ ، وَخُرُوجُ النَّاسِ حُفَاةً إِلَى غَابَاتِ الزَّيْتُونِ ... لَقَدْ هَزَّتْنَا كُلُّ هَذِهِ الزَّعَازِعُ ، وَنَشِطَ صَاحِبُنَا مَعَ

إِخْوَتِهِ ، وَحَافَظَ عَلَى أَرْزَاقِ وَالِدِهِ الَّتِي تَضَاءَلَتْ بَعْدَ " خَطْرَةِ " زَرُّوق مِنْ جَرَّاءِ تَفَاقُمِ نَهَمِ الشَّيخ وَالْخَلِيفَة والقَايد وَالْوَزِيرِ الأَكْبَرِ وَثِقَلِ الْمَجْبَى وَالأَدَاءَاتِ ... تَقَلَّصَتِ الثَّرَوَاتُ مِنْ قَهْرِ الدَّوْلَةِ وَظُلْمِهَا وَتَفَشِّي الرَّشْوَةِ وَأَسَالِيبِ الابْتِزَازِ مِنْ كُلِّ صَاحِبِ نُفُوذٍ مَهْمَا ضَؤُلَتْ مَرْتَبَتُهُ ... حَتَّى أَصَابَ خَزِينَةَ الدَّوْلَةِ الْعَجْزُ وَاضْطُرَّتْ إِلَى الاقْتِرَاضِ مِنَ الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ وَكَانَ الْمَآلُ فِقْدَانُ السِّيَادَةِ ... وَكَمْ كَانَ جَشَعُ الْحُكَّامِ وَقَهْرُهُمْ لِلنَّاسِ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ انْهِيَارِ الدُّوَلِ .

ـ وَأَلاَ تَذْكُرْنَ أَيَّتُهَا الأَخَوَاتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي قَرَّرَ فِيهَا صَاحِبُنَا الْهُرُوبَ إِلَى تُونِسَ ، أَلَمْ يُعْطِ لِأُمِّهِ " بَلْغَتَهُ " الْمُفَتَّقَةَ لِتُسَلِّمَهَا إِلَى وَالِدِهِ فَيَأْخُذَهَا مَعَهُ فِي رِحْلَتِهِ الأُسْبُوعِيَّةِ إِلَى الْقَرْيَةِ، وَهُمْ فِي الْمُصْطَافِ ، حَيْثُ الإِسْكَافِيُّ لِرَتْقِ الْفَتْقِ ... فَاتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ ... بِالطَّبْعِ وَالِدِهِ ... أَلَمْ يَأْخُذِ الْحَاج سَالِم الْبَلْغَةَ وَيَ،رْمِ بِهَا تَحْتَ " صَفَّةِ الْهِنْدِي " ثُمَّ أَلَمْ يَقُلْ لِزَوْجَتِهِ فِي غَضَبٍ ، وَ بِمَرْأًى وَمَسْمَعٍ مِنِ ابْنِهِ إِذْ لاَ يَفْصِلُهُمَا عَنْ وَسَطِ الدَّارِ إِلاَّ بَابُ الْغُرْفَةِ :

ـ أَغْدَقْتُ عَلَيْهِ الْمَالَ طِيلَةَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ وَأَمَلِي أَنْ يُصْبِحَ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ الزَّيْتُونَةِ يُنَافِسُ مَشَايِخَ تُونِسَ . وَتَوَسَّمْتُ فِيهِ الْخَيْرَ ، وَإِذَا بِهِ يَرْجِعُ إِلَيَّ بِلا شَيْءٍ مُدَّعِيًا أَنَّ هَذِهِ الْمَنَاصِبَ لاَيَحْصُلُ عَلَيْهَا إِلاَّ أَبْنَاءُ الْعَائِلاَتِ الْكَبِيرَةِ فِي الْعَاصِمَةِ . وَقُلْتُ لَهُ : اِنْتَظِرْ حَتَّى أُخَاطِبَ بَعْضَ الأَصْدِقَاءِ ذَوِي النُّفُوذِ ، فَأَسْرَعَ وَغَادَرَ تُونِسَ وَجَاءَ هُنَا لِيَعِيشَ عَالَةً عَلَيَّ فَأَصْبَحْتُ خَادِمًا لَهُ ... اِسْتَنْكَفَ مِنْ قَبُولِ خُطَّةِ عَدْلٍ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ حَطًّا مِنْ قِيمَتِهِ ... وَعَلَى الأَقَلِّ عَرَفَ حَفِيظ قَدْرَهُ وَاكْتَفَى بِسِتِّ سَنَوَاتٍ بَعِيدًا عَنَّا ، وَأَبْدَى اسْتِعْدَادَهُ لِإِعَانَتِي فِي تَصْرِيفِ الأُمُورِ ... أَمَّا سَيِّدُنَا فَإِنَّهُ

يَسْتَنْكِفُ مِنَ النُّهُوضِ بُكْرَةً ، وَمُشَاطَرَةِ الْخَدَّامَةِ فِي أَتْعَابِهِمْ مِثْلَ أَخِيهِ حَفَيِّظ ... قُلْ لَهُ يُصْلِحْ بَلْغَتَهُ بِنَفْسِهِ وَيُذَوِّبْ شَيْئًا مِنْ شَحْمِهِ .

ــ أَلاَ تَذْكُرْنَ أَيَّتُهَا الأَخَوَاتُ كَيْفَ تَدَفَّقَ الدَّمُ غَزِيرًا فِينَا وَتَشَنَّجَتْ مَشَابِكُنَا وَتَغَضُّنَاتُنَا وَأَلْيَافُنَا وَخَشِينَا عَلَى صَاحِبِنَا مِنَ النَّزِيفِ ، وَلَوْلاَ الدُّمُوعُ الَّتِي انْهَمَرَتْ غَزِيرَةً مِنْ عَيْنَيْهِ وَخُرُوجُهِ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، فَنَفَخَتِ الرِّيحُ فِي صَفْحَةِ وَجْهِهِ وَدَخَلَتْ خَيَاشِيمَهُ وَغَذَّتْنَا بِنَفَثَاتٍ مِنَ الأُكْسِجِينِ لَسَقَطَ صَرِيعًا ... وَالْوَاقِعُ كَانَتْ خَلاَيَانَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ صَلْبَةً قَوِيَّةً تَعْرِفُ كَيْفَ تُخَفِّفُ مِنْ وَقْعِ الصَّدَمَاتِ وَتَرُدُّ الْفِعْلَ بِسُرْعَةٍ ، أَمَّا الآنَ فَحَتَّى لَوْنُنَا تَغَيَّرَ وَأَدْرَكَتْنَا الشَّيْخُوخَةُ وَصَاحِبُنَا مَايَزَالُ لَمْ يَتَخَطَّ عَتَبَةَ الشَّبَابِ ... مِسْكِينٌ لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يَقِي نَفْسَهُ وَبَدَنَهُ مِنَ الصَّدَمَاتِ ... ثُمَّ أَلَمْ يَرْجِعْ عِنْدَ الْغُرُوبِ إِلَى الْمَنْزِلِ وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الْجُوعُ وَأَحْسَسْنَا بِذَلِكَ شَدِيدَ الإِحْسَاسِ فَأَكَلَ بِسُرْعَةٍ وَهَمَسَ فِي أُذُنِ زَوْجَتِهِ أَنَّهُ رَاحِلٌ إِلَى تُونِسَ . وَسَارَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ مَسَافَةً طَوِيلَةً حَتَّى الْمِينَاءِ ، وَالْعَاصِفَةُ تَعْبَثُ بِالأَمْوَاجِ الْمُتَكَسِّرَةِ عَلَى قَدَمَيْهِ ، وَالظَّلاَمُ مُهَيْمِنٌ عَلَى السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَلاَ قَمَرَ وَلاَ نُجُومَ وَلاَ ضِيَاءَ وَلا نَأْمَةَ وَلاَ بَرِيقَ مِنَ الأَمَلِ ... حَتَّى وَصَلَ الْمِينَاءَ وَصَعِدَ مَرْكَبَ أَحَدِ الصَّيَّادِينَ الطِّلْيَانِ الْمُسَافِرِينَ إِلَى سُوسَةَ . وَكَانَتْ سَفْرَةً مَهُولَةً قَاسَى الأَمَرَّيْنِ وَذَاقَ فِيهَا حَتَّى مَرَارَةَ مَعِدَتِهِ وَأَمْعَائِهِ مِنْ فَرْطِ " الشَّرْوَةِ " . وَلَسْنَا نَذْكُرُ كَيْفَ وَصَلَ إِلَى تُونِسَ ، فَهْوَ لَمْ يَرْكَبْ لاَحِمَارًا وَلاَ بَغْلاً وَلاَ حِصَانًا وَغَايَةُ مَا نَتَذَكَّرُهُ أَنَّ السَّفْرَةَ لَمْ تَكُنْ طَوِيلَةً . وَاسْتَقَرَّ فِي الْعَاصِمَةِ وَبَعَثَ بِرِسَالَةٍ إِلَى وَالِدِهِ يُعْلِمُهُ فِيهَا أَنَّهُ أَصْبَحَ نَاسِخًا بِالْعَدْلِيَّةِ . . وَبَقِيَ ثَلاَثَ سَنَوَاتٍ لاَيَزُورُ أَهْلَهُ إِلاَّ فِي الصَّيْفِ ، مُغْدِقًا عَلَى كُلِّ الأُسْرَةِ مِنْ خَيْرَاتِ

مُرَتَّبِهِ الشَّهْرِيِّ . وَلَكِنَّ الْحَاج سَالِم الَّذِي لَمْ يَهْضِمْ هَذِهِ الْخُطَّةَ وَاعْتَبَرَهَا حَطًّا لِمَكَانَةِ عَائِلَتِهِ ، اسْتَطَابَ الْوَضْعَ ، وَإِنْ عَنْ مَضَضٍ ، عِنْدَمَا أَصْبَحَ عَامر مَصْدَرًا لِثَرْوَةِ كُلِّ الأُسْرَةِ بِمَا حَذِقَهُ مِنَ الأَعْمَالِ الإِضَافِيَّةِ . فَزَادَتْ أَعْدَادُ أَعْوَادِ الزَّيْتُونِ وَاشْتُرِيَتِ الأَرَاضِي وَالأَجِنَّةُ فِي زَمَنٍ اُضْطُرَّ فِيهِ أَغْلَبُ الْمَالِكِينَ إِلَى بَيْعِ أَرْزَاقِهِمْ مِنْ جَرَّاءِ الأَزَمَاتِ الْمُتَتَالِيَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِمْ مِنَ الطَّبِيعَةِ ومِنْ سُلْطَةِ الْبَايَاتِ فِي الْبَدْءِ وَ تَسَلُّطِ الْحِمَايَةِ بَعْدَ ذَلِكَ .وَحَتَّى الدَّارُ الَّتِي اسْتُقْبِلَ فِيهَا أَمِيرُ الأُمَرَاءِ زَرُّوق اُضْطُرَّ وَالِدِي إِلَى بَيْعِهَا بِأَبْخَسِ الأَثْمَانِ لِتُصبِحَ مَقَرًّا لِلْخلِيفَةِ بِكِرَاءٍ زَهِيدٍ .أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ سَكَنَّا دَارًا أَقَلَّ شَأْنًا ، اِشْتَرَيْنَاهَا مِنْ أَحَدِ الأَقَارِبِ الَّذِي غَرِقَ فِي الدُّيُونِ أَوْ عَلَى الأَصَحِّ دَفَعَتْهُ إِلَى ذَلِكَ نَهَكَاتُ سِيَاطِ الْمَجْبَى وَالأَدَاءَاتِ وَالْمُكُوسِ .

ـــ لَمْ نَعْرِفْ هُدُوءًا ، كَمَا عَرَفْنَاهُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ. أَلاَ تَذْكُرْنَ أَيَّتُهَا الأَخَوَاتُ : لاَ تَشَنُّجَ ، وَلاَ اضْطِرَابَ ، وَلاَ إِعْيَاءَ . بَلْ لَقَدْ كَانَتْ نَشْوَةُ الْحَيَاةِ تَغْمُرُنَا ، وَدَفْقُ الأَمَلِ يُوَقِّعُ نَسَقَ نَشَاطِنَا ، وَفَيْضٌ مِنَ السَّعَادَةِ يَقِينَا الْعَثَرَاتِ . كَانَ صَاحِبُنَا مِثَالَ التَّوَازُنِ وَالاعْتِدَالِ وَالْحِكْمَةِ فِي زَمَنٍ اضْطَرَبَ فِيهِ الْمُجْتَمَعُ ، وَتَغَيَّرَتْ نَوَازِعُهُ مِنْ جَرَّاءِ تَسَلُّطِ الأَجْنَبِيِّ عَلَيْهِ .

ـــ وَلَكِنَّكُنَّ نَسِيتُنَّ ، أَيَّتُهَا الأَخَوَاتُ ، تِلْكَ الْغُيُومُ الَّتِي كَانَتْ تُعَتِّمُ سَمَاءَنَا فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ ، عِنْدَمَا يَتَذَكَّرُ أَهْلَهُ وَيَشْعُرُ بِالْغُرْبَةِ ، وَعِنْدَمَا يَرُوحُ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي اللَّيْلِ فَلاَ يَجِدُ لاَ الزَّوْجَةَ وَلاَ الأَوْلاَدَ . أَلَمْ يُدَاخِلْهُ الْيَأْسُ وَيُحِسَّ بِأَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ عِبْءٌ يَصْعُبُ حَمْلُهُ . وَلَوْلاَ إِيمَانُهُ لَفَعَلَ فِي نَفْسِهِ مَا يَفْعَلُهُ الْكَثِيرُونَ مِنَ الأَجَانِبِ . كَانَ يَسْتَنْكِرُ بِكُلِّ جَوَارِحِهِ مَا يَسْمَعُهُ مِنْ أَخْبَارِ عَنِ انْتِحَارِ رَجُلِ الأَعْمَالِ الْفَرَنْسِيِّ فُلاَن ، وَالْيَهُودِيِّ فُلاَنٍ ، وَالْمُطْرِبَةِ فُلاَنَة . وَلَكِنَّهُ ، عِنْدَمَا أُتِيحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ ،

لِيَزِيدَ عَذَابَهُ عَذَابًا ، لَمْ يستنكِفْ مِنِ التَّطَوُّعِ لِيَكُونَ حَاكِمًا فِي قَفْصَةَ وَكَانَ نِظَامُ الْحِمَايَةِ يَنْفِي إِلَيْهَا كُلَّ مَنْ نَاوَأَهُ . كَانَ ذَلِكَ سَنَةَ 1896 عِنْدَمَا أُحْدِثَتِ الْمَحَاكِمُ التُّونِسِيَّةُ إِلَى جَانِبِ الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ وَالْمَحَاكِمِ الْفَرَنْسِيَّةِ . وَلَوْلاَ رِضَاهُ بِالذَّهَابِ إِلَى قَفْصَةَ لَمَا نَالَ ذَلِكَ الْمَنْصِبَ . وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةَ أَفَاقَ عَامِر مِنْ غَيْبُوبَتِهِ عَلَى صَرِيرِ مَخَالِبَ تَحْتَكُّ بِبَلاَطِ الْغُرْفَةِ فَفَزِعَ وَصَاحَ :

ـ يَا كِيمَة ... يَا لِلأَهُمَّ ...

وَهَرَعَتْ كِيمَة فَأَلْفَتْهُ يُحَاوِلُ الْوُقُوفَ وَلَمْ يَسْتَطِعْ . وَمَا أَنْ دَخَلَتِ الْغُرْفَةَ حَتَّى طَفِقَتْ تَجْرِي وَتُطَارِدُ قِطًّا أَسْوَدَ فِي فَمِهِ فَأْرٌ وَقَالَت

ـ إِنَّهُ الْقِطُّ الأَسْوَدُ ... قِطُّ الْجِيرَانِ يَدْخُلُ مِنْ نَافِذَةِ الْمَقْصُورَةِ .

ـ أَغْلِقِيهَا ... أَلَمْ أَقُلْ لَكِ هَاتِ الصُّحُونَ وَالْمَلاَعِقَ وَالشَّوْكَاتِ ..؟

(وَنَظَرَ إِلَى الْمِرْآةِ) أَهَذَا وَقْتُ مَجِيئِكَ يَا أَبِي ... أَلاَ تَنْتَظِرُ حَتَّى أَفْرَغَ مِنَ الْمُحَاكَمَةِ ... مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَكُونَ شَاهِدًا مَع هَؤُلاَءِ حَتَّى أُعْطِيكَ الْكَلِمَةَ . أَنْتَ أَبِي وَمِنْكَ أَطْلُبُ الرِّضَا فِي كُلِّ دَقِيقَةٍ ... قُلْ مَا تُرِيدُ أَنْ تَقُولَهُ ... أَلَمْ تُنْكِرْ عَلَيَّ قَبُولِي الْمَنْصِبَ فِي قَفْصَةَ ..؟ أَلَمْ تَنْدَمْ عَلَى مَوْقِفِكَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنْ أَجْلِ بَلْغَةٍ حَتَّى نَزَحْتُ إِلَى الْعَاصِمَةِ فِي تِلْكَ الْعَاصِفَةِ الْهَوْجَاءِ ... وَعِنْدَمَا أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ مَكْتُوبًا أُعْلِمُكَ فِيهِ بِأَنَّنِي سَأَمُرُّ فِي الْبَابُورِمِنْ مِينَاءِ الْمَهْدِيَّةِ صَوْبَ صَفَاقِسَ بِتَّ لَيْلَةً كَامِلَةً وَأَنْتَ تَبْكِي وَتُؤَنِّبُ نَفْسَكَ ،كَمَا أَعْلَمَتْنِي بِذَلِكَ وَالِدَتِي ، لِأَنَّكَ قُلْتَ : اِبْنِي ذَهَبَ إِلَى قَفْصَةَ حَيْثُ يُنْفَى الْمُجْرِمُونَ ... وَفِي الصَّبَاحِ ، اِنْتَظَرْتَنِي فِي مِينَاءِ الْمَهْدِيَّةِ سَاعَاتٍ طِوَالاً وَمَعَكَ ابْنِي عَلِي وَأَخِي حَفَيِّظ ... ثُمَّ لَمَّا رَكِبْتُ مَرْكَبًا مِنَ الْبَابُورِ الرَّاسِي بَعِيدًا ، لَمْ

يَتسَنَّ الْوُصُولُ إِلَيْكُمْ لِأَنَّ سَاعَةَ رَحِيلِ الْبَابُورِ زَفَّتْ ، فَاكْتَفَيْتُ بِالإِشَارَةِ إِلَيْكُمْ مِنْ بَعِيدٍ ... وَعُدْتُ إِلَى الْبَابُورِ وَشَعُرْتُ وَكَأَنَّنِي مَاضٍ حَقِيقَةً إِلَى الْمَنْفَى فِي جَزِيرَةٍ نَائِيَةٍ . وَأَحْسَسْتُ بِمَأْسَاتِي وَقَدْ مُنِعْتُ مِنْ رُؤْيَةِ أَهْلِي وَشَمِّ رَائِحَةِ ابْنِي الطَّيِّبَةِ ... وَتَذَكَّرْتُ مَا تَرْجَمَهُ لِي صَدِيقِي مُحَمَّدٌ مِنْ قِصَّةِ الْكُونْتْ دِي مُونْتِي كِرِيسْتُو ... أَنَا الْكُونْتْ دِي مُونْتِي كِرِيسْتُو وَلَكِنَّنِي الْمَهْزُومُ ... لَمْ أَكُنْ قَادِرًا فِي هَذَا الْخِضَمِّ الَّذِي عِشْتُهُ عَلَى أَنْ أَبْقَى وَاقِفًا أَمَامَ عَوَاصِفَ لَمْ أَتَهَيَّأْ لَهَا ، وَلاَ أُعِدَّتْ لِيَ الْعُدَّةُ لِأُجَابِهَهَا ، وَلاَ كَانَ لِي قَدْرٌ مِنَ الْمُرُونَةِ يُتِيحُ لِي الازْوِرَارَ عَنْ مُوَاجَهَتِهَا ... فَهِمْتُ الآنَ أَنَّنِي لَوْ تَعَلَّمْتُ الْفَرَنْسِيَّةَ لَتَصَدَّيْتُ إِلَى هَؤُلاَءِ الْفَرَنْسِيِّينَ وَأَذْنَابِهِمْ مِنَ التُّونِسِيِّينَ بِمَا يُمَكِّنُنِي مِنَ الصُّمُودِ ... لِمَ لَمْ تُعَلِّمْنِي يَا أَبِي الْفَرَنْسِيَّةَ ... كُنْتَ تَقُولُ لِي : الْفَرَنْسِيَّةُ طَرِيقٌ إِلَى الْكُفْرِ ... كُنْتُ عَلَى الأَقَلِّ أَعْرِفُ كَيْفَ أَتجَنَّبُ الْهَزِيمَةَ ... عَلِّمْ ابْنِي عَلِي الْفَرَنْسِيَّةَ ... فَأَنَا لَنْ يُكْتَبَ لِي أَنْ أَحْيَا حَتَّى أَرَاهُ يَهْزِمُ الظُّلْمَ وَالْجَبَرُوتَ وَيَأْخُذَ بِثَأْرِي مِنْ هَؤُلاَءِ الأَوْبَاشِ ... أَنَا أَتَحَسَّسُ فِي مَلاَمِحِهِ مَخَايِلَ الذَّكَاءِ وَالْمُرُونَةِ وَالدَّهَاءِ وَالرُّجُولَةِ ... يَاحَسْرَتِي كَيْفَ لَنْ يَتَسَنَّى لِي تَلْقِينُهُ مَا عَجَمْتُهُ فِي هَؤُلاَءِ الَّذِينَ تَسَلَّطُوا عَلَيْنَا ... أَيْنَ عَلِي ؟ أَيْقِظُوهُ حَتَّى ... أَنا قُلْتُ لَكُمْ أَغْلِقُوا شُبَّاكَ الْمَقْصُورَةِ حَتَّى لاَيَدْخُلَ هَذَا الْقِطُّ الْبَهِيمُ السَّوَادِ ... اِبْتَعِدْ عَنِّي ... اِبْتَعِدْ عَنِ الصُّحُونِ .. لاَ تَنْظُرْ إِلَيَّ هَكَذَا ... مَا زَالَتْ آثَارُ دَمِ فَرِيسَتِكَ عَلَى فَمِكَ ... يَا وَحْشُ ... يَا ظَالِمُ ... يَا لِصًّا لَئِيمًا ... يَا شَرِهًا خَؤُونًا ... أَنْتَ لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ مِنْ سِفَادِ ثَعْلَبٍ مَعِ هِرَّةٍ وَحْشِيَّةٍ ... أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْهِرِّ الْجَنِيبِ الْوَدُودِ ..؟ لَقَدْ صَدَقَ زَرَادَشْتُ عِنْدَمَا قَالَ : السِّنَّوْرُ مِنْ خَلْقِ الشَّيْطَانِ ... لاَ تَنْظُرْ إِلَيَّ مِنَ الرُّكْنِ الْمُظْلِمِ بِعَيْنَيْكَ

الْمُضِيئَتَيْنِ ... يَـا عَـوْنُ أَخْـرِجْ هَـذَا الْقِـطَّ الأَسْـوَدَ ... أَصْبَحَـتِ الْقِطَـطُ وَالْفِئْرَانُ تَلْعَـبُ فِـي الْمِحَـاكِمِ ... وَتَمُـوءُ وَتَدْعُـو إِلْفَـكَ بِصَوْتِـكَ الَّـذِي تُرِيـدُهُ حَنُونًـا ... يَـا كِيمَـةُ هَـاتِ لِـي دَوَائِـي ... لاَ أَحَـدَ يُذَكِّرُنِـي بِذَلِـكَ وَيُخَفِّفُ عَلَـيَّ شَيْئًا مِمَّـا أَصَـابَنِي .

وَتَأْتِي كِيمَة بِالدَّوَاءِ وَيَقُولُ لَهَا :

ـ عَشْرُ نُقَـطٍ فَقَـطْ ... قِـطٌّ ... لاَتَزِيـدِي وَلاَ تُنْقِصِي وَلَـوْ نُقْطَـةً وَاحِـدَةً ... قِطَّـةً وَاحِـدَةً ... هَــاتِ الـدَّوَاءَ ... وَاضْرِبِـي ذَلِـكَ الْقِـطَّ الْمَلْعُـونَ ، إِنَّنِـي أَكْـرَهُ عَيْنَيْـهِ ...

وَيَشْـرَبُ عَـامِر الـدَّوَاءَ وَيَسْـتَوِي عَلَـى كُرْسِـيِّهِ وَيَنْـــظُرُ فِـي الْمِـرْآةِ طَوِيـلاً ...]

8

[وَلَمَّا هَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْغُرْفَةِ ، وَارْتَاحَتْ نَفْسُ عَامِرٍ شَيْئًا مَا بِسَبَبِ مَفْعُولِ الدَّوَاءِ وَلاَتَ سَاعَةَ هُدُوءٍ ، وَأَطَالَ النَّظَرَ فِي الْمِرْآةِ نَظَرَ مَنْ رَامَ اسْتِرْجَاعَ الذِّكْرَى ، تَرَاءَتْ لَهُ أَشْبَاحُ مَنِ اسْتَحْضَرَهُمْ لِمُقَاضَاتِهِمْ : الرَّئِيسُ خُوجَة وَالْعَامِلُ وَوَكِيلُ الدَّوْلَةِ الْفَرَنْسِيُّ وَالْمُرَاقِبُ الْمَدَنِيُّ وَحَامِد وَحَفَيِّظ . وَرَاحَ يَقُولُ وَلاَ تَسْمَعُ مِنْهُ إِلاَّ هَيْنَمَةً لاَ يَكَادُ يَتَبَيَّنُهَا إِلاَّ مَنْ دَخَلَ الْغُرْفَةَ :

ــ بَهَرْتُمُونِي أَرْبَعَتُكُمْ ، أَوَّلَ مَا حَلَلْتُ بِسُوسَةَ ، بِحَزْمِكُمْ وَغِيرَتِكُمْ عَلَى رِعَايَةِ مَصَالِحِ النَّاسِ ، وَلَكِنَّنِي سُرْعَانَ مَا فَطِنْتُ إِلَى أَنَّكُمْ تُمَثِّلُونَ مَسْرَحِيَّةً حَرَكَتُهَا قَائِمَةٌ عَلَى خِدَاعِ النَّاسِ ، وَحَبْكَتُهَا الْغَايَةُ مِنْهَا وَضْعُهُمْ فِي الْجَيْبِ لاِبْتِزَازِهِمْ وَخِدْمَةِ أَغْرَاضِ سُلْطَةٍ لاَ تَمُتُّ إِلَيْهِمْ بِسَبَبٍ ، أَمَّا حِوَارُهَا وَلُغَتُهَا فَنَسِيجٌ مِنَ النِّفَاقِ يَدُورُ بَيْنَ أَسَاطِينِ السُّلْطَةِ أَنْفُسِهِمْ وَخَلِيطٌ مِنَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ يَنْصَبُّ عَلَى الضُّعَفَاءِ الْمَسَاكِينِ ... أَلاَ تَذْكُرُ أَنْتَ أَيُّهَا الْمَسْؤُولُ عَنِ الْجِهَةِ يَوْمَ أَقَمْتَ بِمَنْزِلِكَ ، بِمُنَاسَبَةِ انْتِظَامِ قُرْعَةِ الْعَسْكَرِ ، مَأْدُبَةً عَلَى شَرَفِ أَعْضَاءِ اللَّجْنَةِ الْمُكَوَّنَةِ مِنْ ضَابِطٍ فَرَنْسِيٍّ ، وَضَابِطٍ مِنَ الْعَسَّةِ الْمَصُونَةِ ، وَطَبِيبٍ عَسْكَرِيٍّ فَرَنْسِيٍّ وَمُتَرْجِمٍ تُونِسِيٍّ شَابَ رَأْسُهُ فِي خَوْضِ مِثْلِ هَذَا الْخِضَمِّ الزَّاخِرِ بِكُلِّ دُرَّةٍ

ثمينَةٍ ؟ وَالْمُلاَزِمُ التُّونِسِيُّ جَاءَ مُتَحَزِّمًا لِأَنَّ رَئِيسَهُ فِي وَزَارَةِ الْحَرْبِ سَأَلَهُ لِمَاذَا لَمْ يَتَزَوَّجْ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ فَأَجَابَهُ بِأَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ علَى مُوَاجَهَةِ مَصَارِيفِ الْعُرْسِ فَوَعَدَهُ بتعْيِينِهِ بِلَجْنَةِ الْقُرْعَةِ . وَكَانَ ذَلِكَ . ثُمَّ أَلَمْ تَدْعُهُمْ فِي بَيْتِكَ بِسُوسَةَ لَيْلَةَ الشُّرُوعِ فِي الْقُرْعَةِ وَكَانَ مَعَهُمْ بِالطَّبْعِ الْمُرَاقِبُ الْمَدَنِيُّ وَوَكِيلُ الدَّوْلَةِ وَأَعْضَاءُ الْمَحْكَمَةِ . وَحَضَرَتْ زَوْجَاتُ الْفَرَنسِيِّينَ وَزَوْجَتُكَ فِي أَبْهَى زِينَةٍ ؟ وتَعَمَّدْتَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَنْ تَأْكُلَ الْكُسْكُسِي بِيَدَيْكَ وَتُدَرِّبه كَأَنَّكَ ثَورٌ يَعْلِفُ " السَّدَّارِي " . وَسَمَحْتَ لِنَفْسِكَ بِأَنْ تَنْهَشَ اللَّحْمَ نَهْشًا وَتَعْرُقَ الْعِظَامَ وَتَهْشِمَهَا ، فَيُسْمَعُ لَهَا بَيْنَ أَسْنَانِكَ طَقْطَقَةٌ مُنْكَرَةٌ ، وَتُرِيدُ أَنْ تَنْكُتَ الْعَظْمَ فَتَقْرَعُهُ عَلَى تَحْوِيفَةِ مِلْعَقَتِكَ قَرَعَاتٍ فِيهَا إِصْرَارٌ حَتَّى تُخْرِجَ الْمُخَّ مِنْهُ أَوْ تَمْتَصُّهُ مُحْدِثًا صَفِيرًا مُزْعِجًا . وَالنِّسَاءُ يَنْظُرْنَ إِلَى هَذَا الْمَشْهَدِ بِاسْتِغْرَابٍ وَدَهْشَةٍ . وَأَنْتَ تُضْحِكُ الْجَمِيعَ بِنُكَتِكَ عَنِ الْبَدْوِ وَغَرَائِبِهِمْ . ثُمَّ لَمَّا رَفَعَ الْجَمِيعُ أَيْدِيَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ الْتَفَتَّ إِلَى الْمُرَاقِبِ الْمَدَنِيِّ ... أَلَيْسَ هَذَا صَحِيحًا ..؟ لِمَاذَا لاَ تَتَكَلَّمُ ..؟ نَعَمْ اِلْتَفَتَّ إِلَى الْمُرَاقِبِ بَعْدَ أَنْ مَسَحْتَ يَدَيْكَ وَفَمَكَ بِالْمِنْدِيلِ، وَتَرَكْتَهُ خِرْقَةً مُلَوَّنَةً بِالْمَرَقِ وبِمَا جَادَ بِهِ أَنْفُكَ مِنْ فَرْطِ إِمْعَانِكَ فِي أَكْلِ فُلْفُلِ" بَرِّ الْعَبِيدِ " الْحِرِّيفِ الَّذِي طَلَبْتَهُ بِإِلْحَاحٍ ، وَقُلْتَ لَهُ بِلُغَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ بَلِيغَةٍ كَمَا تَرْجَمَهُ وَأَكَّدَهُ لِي مَنْ بِجَانِبِي مِنَ التُّونِسِيِّينَ: لَعَلَّكُمْ اِسْتَغْرَبْتُمْ يَاسَيِّدِي مَا فَعَلْتُهُ اللَّيْلَةَ .... وَانْتَبَهْتُمْ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا كَبِيرًا بَيْنَ أَكْلِي أَنَا وَأَكْلِ حَضْرَتِكُمْ . أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَرْعُوا اِنْتِبَاهَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَاضِرِينَ فَكَأَنَّكُمْ لَمْ تَتَنَاوَلُوا الطَّعَام الْبَتَّةَ ، مَعَ أَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ بِشَهِيَّةٍ أَكْثَرَ مِنِّي ، وَحَصَلْتُمْ عَلَى الْقِسْطِ الأَوفَرِ وَلَكِنْ بِرِفْقٍ . فَلَمْ تَمْسَسْ أَصَابِعُكُمْ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ وَالْمِلْعَقَةُ وَالشَّوْكَةُ وَالسِّكِّينُ هِيَ الَّتِي

تَوَلَّتْ إِيصَالَهُ إِلَى فَمِكُمْ الْكَرِيمِ بِحَرَكَةٍ رَشِيقَةٍ خَفِيفَةٍ فِيهَا تَأَنُّقٌ تَرْتَاحُ إِلَيْهِ الْحَاضِرَاتُ . أَمَّا أَنَا فَقَدْ كُنْتُ مَحَطَّ أَنْظَارِ الْجَمِيعِ وَتَيَقَّنُوا كُلُّهُمْ أَنَّنِي أَنَا الَّذِي فُزْتُ بِالْقِسْطِ الأَوْفَرِ مِنَ الْمَأْدُبَةِ بَلْ أَتَيْتُ عَلَى الطَّعَامِ كُلِّهِ . وَحَدِيثُنَا قِيَاسٌ : فَالْيَوْمَ جِيءَ إِلَيَّ بِسَارِقٍ وَبِيَدِهِ دَجَاجَةٌ وَمَعَهُ صَاحِبُهَا يَجُرُّ كَلْبَهُ الَّذِي ضَبَطَ السَّارِقَ وَمَزَّقَ لَهُ ثِيَابَهُ وَكَانَ يَهُمُّ فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِعَضِّهِ فِي هَرِيرٍ مُوحِشٍ . وَلَمْ يَسَعْنِي إِلاَّ أَنْ أَدْخَلْتُهُ السِّجْنَ بَعْدَ أَنْ نَالَ نَصِيبًا لاَ يُسْتَهَانُ بِهِ مِنَ رَكْلِ صَاحِبِ الدَّجَاجَةِ وَ الصَّبَايحِي وضَرْبِهِمَا الْمُبَرِّحِ .وَ أَنْتُمْ يَا سَيِّدِي الْمُرَاقِبَ فَقَدْ أَذِنْتُمْ الْيَوْمَ أَيْضًا بِفَتْحِ بَحْثٍ فِي شَأْنِ قَابِضِ الْمَالِيَّةِ الْفَرَنْسِيِّ الَّذِي قِيلَ إِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى مَقَابِيضِ الدَّوْلَةِ . وَلَكِنَّ الْبَحْثَ لَمْ يُسْفِرْ عَنْ نَتِيجَةٍ بَعْدُ . وَالْفَرْقُ هُوَ أَنَّ سَارِقَنَا يَسْرِقُ بِالضَّجَّةِ وَالْعُنْجُهِيَّةِ وَالْفَضِيحَةِ وَيُضْبَطُ وَيَدُهُ فِي الشَّكَارَةِ لِأَنَّهُ جَائِعٌ وَالْجُوعُ قَد سَلَبَ مِنْهُ كُلَّ قُدْرَةٍ عَلَى إِعْمَالِ عَقْلِهِ ، وَهَذَا لاَ يُبَرِّرُ السَّرِقَةَ بِالطَّبْعِ . أَمَّا سَارِقُكُمْ فَيَخْتَلِسُ بِنَظَافَةٍ وَلُطْفٍ لِأَنَّهُ دَبَّرَ الأَمْرَ بِبُرُودَةِ دَمٍ وَعَقْلاَنِيَّةٍ كَرْتِيزِيَانِيَّةٍ وَهَذَا لاَيُبَرِّرُ السَّرِقَةَ أَيْضًا . وَلَكِنَّهُ لَمْ يُضْبَطْ وَيَدُهُ فِي الْخَزْنَةِ بَلْ تَبَخَّرَتِ الأَمْوَالُ بِسِحْرٍ سَاحِرٍ بِالضَّبْطِ كَمَا أَكَلْتَ أَنْتَ يَا سَيِّدِي الْمُرَاقِبَ .

وَضَحِكَ الْمُرَاقِبُ الْمَدَنِيُّ وَسَايَرَهُ فِي ذَلِكَ الْجَمِيعُ لِأَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ مِنَ " الأَنْدِجَان " أَنْ يَكُونَ بِهَذِهِ الْمُواصَفَاتِ ، أَنْ لاَ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ وَإِلاَّ كَانُوا لاَ مَحَلَّ لَهُمْ مِنَ الإِعْرَابِ فِي الْبِلاَدِ . وَلَكِنَّكَ وَقَفْتَ فِي آخِرِ السَّهْرَةِ وَأَهْدَيْتَ لِكُلِّ فَرَنْسِيَّةٍ مِنَ الْحَاضِرَاتِ سِوَارًا مِنْ ذَهَبٍ مُرَصَّعًا بِأَغْلَى الْجَواهِرِ مَشْفُوعًا بِعِبَارَاتٍ مُلائِمَةٍ لِكُلِّ سَيِّدَةٍ ، مُبْرِزَةٍ لِأَحْسَنِ مَا تَمَيَّزَتْ بِهِ فِي تِلْكَ السَّهْرَةِ مِنْ لِبَاسٍ أَوْزِينَةٍ أَوْ أَدَبٍ أَوْ غَيْرِ

ذَلِكَ مِمَّا لاَيَحْذَقُهُ إلاَّ مَنْ تَمَرَّسَ مِثْلُكَ عَلَى أَفَانِينِ الإِطْرَاءِ وَالتمجِيدِ وَأَسَالِيب القَوْلِ الْمُغرقَةِ فِي اللُّطْفِ وَاللَّبَاقَةِ وَالْبَلاَغَةِ الَّتِي لاَ يَعْرِفُهَا مِنَ الْفَرَنْسِيِّينَ إلاَّ مَنْ رَسَخَتْ أَقْدَامُهُ فِي النُّبْلِ وَفِي لُغَةِ فُولْتِير . وَكُنْتَ تَعْمَدُ إِلَى تَقْبِيلِ يَدِ كُلٍّ مِنْهُنَّ فِي رَشَاقَةٍ يَحْسِدُكَ عَلَيْهَا أَنْبَلُ النُّبَلاَءِ فِي أُورُوبَّا .وَكُنَّ يَشْكُرْنَكَ ، الْوَاحِدَةُ بَعْدَ الأُخْرَى ، عَلَى كَرَمِكَ الْعَرَبِيِّ وَرِقَّةِ ذَوْقِكَ ، وَقَدْ نَسِينَ أو تَنَاسَيْنَ مَشْهَدَ أَكْلِكَ الْمُزْرِي وَانْتِسَابَكَ إِلَى قَوْمِ " الأَنْدِيجَانِ " . غَيْرَ أَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ يَعْرِفُونَ أَنَّكَ سَتُشَمِّرُ عَنْ سَاعَدِكَ إِبْتِدَاءً مِنَ الْغَدِ وَتَغْرِفُ مِنْ أَمْوَالِ الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ لاَيَرْغَبُونَ فِي الاِلْتِحَاقِ بِالْجَيْشِ بِحِيلَةٍ تَعْرِفُهَا أَنْتَ وَالضَّابِطُ التُّونِسِيُّ . وَهَكَذَا يُرْضِي الْفَرَنْسِيُّونَ ضَمَائِرَهُمْ وَيُمْكِنُ لَهُمْ أَنْ يُقْسِمُوا بِشَرَفِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَأْكُلُوا الرَّشْوَةَ أَبَدًا ، وَأَنَّ هَذِهِ الْعَاهَةَ مُتَفَشِّيَةٌ فِي الْمُجْتَمَعِ الشَّرْقِيِّ وَلاَسَبِيلَ إِلَى صَرْفِ أَفْرَادِهِ عَنْهَا لِأَنَّهَا لَصِيقَةٌ بِهِمْ مِثْلَ الْعُبُودِيَّةِ الْمُتَمَكِّنَةِ بِنُفُوسِهِمْ . وَهَكَذَا يُقِيمُونَ الْحُجَّةَ عَلَى أَنَّ الْمُجْتَمَعَ الإِسْلاَمِيَّ فَاسِدٌ وَلاَ مَجَالَ لِإِصْلاَحِهِ .

أَمَّا أَنْتَ يَا خُوجَة فَلَقَدْ مَلَكْتَ الْعَامِلَ وَمَلَكَكَ لِأَنَّهُ طَوْعَ أَمْرِكَ وَأَنْتَ طَوعُ أَمْرِهِ ، فَأَنْتُمَا رَأْسَانِ فِي شَاشِيَّةٍ كَمَا يَقُولُ الْمَثَلُ الْعَامِّيُّ الْمُهَذَّبُ . لِذَا تَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ كَمَا يُمْلِي عَلَيْكَ ، أَوْ فِي الْوَاقِعِ ، كَمَا يُحَتِّمُهُ الْمَالُ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنَ الْمُتَقَاضِينَ وَفِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ مِنَ الظَّالِمِ وَالْمَظْلُومِ . وَتَعْرِفُ بِالطَّبْعِ كَيْفَ تَجْعَلُ الْمُرَاقِبَ الْمَدَنِيَّ وَوَكِيلَ الدَّوْلَةِ رَئِيسَكَ الْمُبَاشِرَ يَغُضَّانِ الطَّرْفَ بِالْهَدَايَا وَالْوَلاَئِمِ وَاللَّفَتَاتِ " الْكَرِيمَةِ " الَّتِي لاَ تُحْصَى وَلاَ تُعَدُّ . وَلَمَّا أَرَدْتَ مُعَامَلَتِي مِثْلَ هَؤُلاءِ ، مَعَ وُجُودَ الْفَارِقِ ، وَإِدْخَالِي فِي صَفِّكُمْ حَتَّى أَرْقُصَ رَقْصَتَكُمْ عَلَ إِيقَاعِ الدِّرْهَمِ

وَالدِّينَارِ حَاوَلْتَ خِدَاعِي بِإِحَالَةِ الْقَضَايَا السَّمِينَةِ إِلَيَّ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ لِأُنوبَكَ فِي الْجَلْسَةِ وَأَحْكُمَ عَلَى حَسَبِ مَاتَنْصَحُنِي بِهِ بِتَفْرِيغِ الْمِلَفِّ مِنْ مُسْتَنَدَاتِهِ وَتَوْجِيهِهِ وِجْهَةً ظَالِمَةً . وَلَمَّا فَطِنْتُ إِلَى أَلاَعِيبِكَ ، وَتَيَقَّنْتُ مِنْ ضَلاَلِكَ عَمَدْتُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَتَمَارَضُ فِيهَا وَتُحِيلُ إِلَيَّ رِئَاسَةَ الْجَلْسَةِ إِمَّا إِلَى تَأْجِيلِ الْقَضِيَّةِ أَوْ الْحُكْمِ ، إِنْ وَجَدْتُ السَّنَدَ الْقَانُونِيَّ ، حُكْمًا عَادِلاً . فَجُنَّ جُنُونُكَ وَرَكَنْتَ إِلَى الْمَكَائِدِ الْيَوْمِيَّةِ وَحَثٌّ أَعْضَاءِ شَبَكَةِ الظُّلْمِ وَالْجَبَرُوتِ الْمُنْضَوِينَ تَحْتَ لِوَائِكَ وَلِوَاءِ الْعَامِلِ إِلَى مُكَاتَبَةِ الْمُرَاقِبِ الْمَدَنِيِّ وَوَكِيلِ الدَّوْلَةِ بِرَسَائِلَ عَدِيدَةٍ مَجْهُولَةِ الْمَصْدَرِ فِيهَا تَفَاصِيلُ لاَيَعْرِفُهَا إِلاَّ الْخَبِيرُ بِشُؤُونِ الْمَحْكَمَةِ . ثُمَّ لَمَّا عَجَزْتُمَا عَنْ تَحْقِيقِ رَغَائِبِكُمَا وَإِبْعَادِي مِنْ طَرِيقِكُمَا بِنُقْلَتِي نُقْلَةً قَسْرِيَّةً لِأَنَّ الْفَرَنْسِيَيْنِ لَمْ يَصِلاَ إِلَى مَا وَصَلْتُمَ إِلَيْهِ مِنْ خِسَّةٍ وَوَلَعٍ بِالظُّلْمِ أَصْبَحْتُمَا ، أَوْ عَلَى الأَصَحِّ ، أَصْبَحْتَ أَنْتَ تُضَايِقُنِي يَوْمِيًّا فِي عَمَلِي ، وَتَكِيدُ لِي بِإِخْفَاءِ الْوَثَائِقِ ، وَتَتَّهِمُنِي بِأَنَّنِي أَنَا الَّذِي ضَيَّعْتُهَا ، وَتُوَسْوِسُ بِوَاسِطَةِ شَيَاطِينِكَ فِي أُذُنِ الْمُتَقَاضِينَ بِأَلْفِ وَسْوَسَةٍ حَتَّى أَفْسَدْتَ سُمْعَتِي ، وَأَوْهَمْتَ بِإِشَارَاتِكَ وَتَلْمِيحَاتِكَ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَحْكَمَةِ بِقُصُورِي . فَنَكَّدْتَ عَلَيَّ حَيَاتِي ، وَنَغَّصْتَ أَيَّامِي وَلَيَالِيَّ . وَكَانَ الَّذِي يَزِيدُ كَدَرِي وَهَمِّي عُمْقًا وَاسْتِفْحَالاً لِقَاؤُكَ لِي بِالاِبْتِسَامَةِ وَمُعَامَلَتِي بِاللُّطْفِ وَإِغْرَاقُكَ فِي النُّصْحِ وَإِظْهَارِ الْمَحَبَّةِ ، بَيْنَمَا كُنْتَ قَبْلَ دَقَائِقَ تُحَدِّثُ زَمِيلِي فِي شَأْنِي بِمَا يُخَالِفُ ذَلِكَ . كَانَ كُلُّ هَذَا كَافِيًا لِلْإِجْهَازِ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ أَبِيَّةٍ ، حَسَّاسَةٍ ، فَرَكِبَتْنِي غُصَّةٌ عَلَى غُصَّةٍ وَدَاخَلَتْنِي الْهَلْوَسَةُ وَتَسَمَّمَ كُلُّ عُضْوٍ فِيَّ ، حَتَّى صِرْتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ .

... قُلْ لِي إِنَّنِي كَاذِبٌ ... أَنَا قَادِرٌ عَلَى دَعْوَةِ الشُّهُودِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَمِنْهُمْ كَاتِبُ الْمَحْكَمَةِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لاَتَنْفَكُّ تُرْغِمُهُ عَلَى طَاعَتِكَ مُهَدِّدًا إِيَّاهُ بِالْفَصْلِ إِنْ هُوَ أَبَى الإِنْقِيَادَ إِلَيْكَ فِي تَنْفِيذِ أَفَانِينِ مَكَائِدِكَ ... لِمَاذَا أَنْتَ سَاكِتٌ ..؟

وَأَنْتَ يَا سِي الْقَايد ... أَلَمْ تُشَارِكْ فِي هَذِهِ الْمُؤَامَرَةِ ..؟ أَلَمْ تُضَايِقْ كَاهِيَتَكَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً لِأَنَّهُ لَمْ يَنْسَقْ إِلَيْكَ ..؟ لَقَدْ صَارَحَنِي بِذَلِكَ وَهْوَ خَائِفٌ مِنْ بَطْشِكَ ...

وَأَنْتُمَا أَيُّهَا الْمُمَثِّلَيْنِ لِلدَّوْلَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ .. لِفِرَنْسَا بِلاَدِ الْحَضَارَةِ وَالْقَانُون وَإِعْلاَن حُقُوق الْبَشَرِ ... هَلاَّ رَدَدْتُمَا الْفِعْلَ وَأَنْكَرْتُمَا عَلَى هَذَيْنِ فِعْلَهُمَا ..؟ وَأَنْتُمَا عَلَى عِلْمٍ بِصَنِيعِهِمَا ... وَلِمَاذَا لَمْ تُنْصِفَانِي ..؟ هَلْ ذَهَبَ بِكُمَا الظَّنُّ أَنَّنِي غَيْرُ عَارِفٍ بِمَا كَانَا يَقُولاَنِ لَكُمَا ؟ وَالْحَاجِبُ ابْنُ بَلْدَتِي مَاذَا يَفْعَلُ عِنْدَمَا يَدْخُلُ بِالْقَهْوَةِ وَيُثْقِلُ مِنْ حَرَكَتِهِ وَخُطَاهُ وَيُصْبِحُ كُلُّهُ آذَانٌ ... لَقَدْ سَمِعَكُمَا تَقُولاَنِ إِنَّنِي لاَ أَعْرِفُ الْفَرَنْسِيَّةَ ... وَهَذَا يَعْلَمَانِهِ ، وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ فَأَنَا لاَ أَرَى أَيَّةَ فَائِدَةٍ مِنْ تَعَلُّمِهَا لِأَنَّنِي مُنَاوِئٌ لَهَا وَلِحَضَارَتِكُمَا وَلاَ أَسْتَحِقُّ الْمُسَانَدَةَ بَلْهَ التَّرْقِيَةَ ... أَنَا لَسْتُ مُنَاهِضًا لِلْحَضَارَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَلاَ لِلُغَتِهَا وَلَكِنَّنِي مُنَاهِضٌ لِسِيَاسَةِ الْحُكُومَةِ الاِسْتِعْمَارِيَّةِ الْمُتَّجِهَةِ نَحْوَ تَفْقِيرِنَا وَتَجْهِيلِنَا ، وَسَدِّ أَبْوَابِ التَّقَدُّمِ فِي وُجُوهِنَا ، وَبَثِّ الْفَسَادِ فِي مُجْتَمَعِنَا ، وَإِظْهَارِنَا فِي مَظْهَرِ الْمُتَوَحِّشِينَ الْبَرَابِرَةِ حَتَّى يَحُقَّ لِفَرَنْسَا اسْتِعْمَارُنَا لِإِخْرَاجِنَا مِمَّا وَصَلْنَا إِلَيْهِ مِنِ انْحِلاَلٍ وَانْحِطَاطٍ وَجَهْلٍ وَهْيَ حُجَّةٌ لِتُوَاصِلَ فَرَنْسَا رِسَالَتَهَا التَّمْدِينِيَّةَ ... وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ تَكْمُنُ فِي الْحُكْمِ الْمُطْلَقِ الَّذِي نَاءَ بِكَلْكَلِهِ عَلَى رُبُوعِنَا قُرُونًا وَقُرُونًا وَجِئْتُمْ لِحِمَايَتِهِ وَتَثْبِيتِ أَرْكَانِهِ . نَعَمْ

هُوَ السَّبَبُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ حَالٍ جَعَلَ أَسْيَادًا عَلَيْنَا الْجَهَلَةَ وَالْفُسَّاقَ وَذَوِي الْخِسَّةِ وَالْمَكِيدَةِ وَالْخِدَاعِ " وَالسُّفَهَاءَ وَالْمُخَرِّقِينَ وَذَوِي التَّنَمُّسِ وَالْمُرِيدِينَ الْمُتَجَرِّدِينَ عَنْ كُلِّ إِرَادَةٍ وَالْمُسْتَخْلِفِينَ وَالشُّطَّارَ وَأَصْحَابَ الْعَصَبِيَّةِ وَالسَّكَاكِينِ وَالشُّرَّابَ وَالْمُعَاقِرِينَ وَالْمُجَّانَ وَقُطَّاعَ الطُّرُقِ وَالْمُتَلَصِّصِينَ وَأَهْلَ الْخَسَارَةِ وَالْعَيَّارِينَ وَالْمُشَعْبِذِينَ وَالْمُحْتَالِينَ " ... هَذِهِ هِيَ رِسَالَتُكُمْ التَّمْدِينِيَّةُ الَّتِي أَوْهَمْتُمْ شَعْبَكُمْ بِالْقِيَامِ بِهَا : أَنْ تُشِيعُوا الرَّشْوَةَ وَتُطَارِدُوا كُلَّ عَزِيزٍ كَرِيمٍ ... تَكَلَّمَا ... أَنْتُمَا الْعَارِفَانِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ... الْعَالِمَانِ بِكُلِّ مَا يَحْدُثُ حَتَّى فِي مَنَازِلِنَا بِمَا بَثَثْتُمُوهُ مِنْ عُيُونٍ فِي جَمِيعِ الأَحْيَاءِ وَالْمَدَاشِرِ وَوَزَّعْتُمُوهُ مِنْ عَدِيدِ " الْقَوَّادَةِ " وَتَرَكْتُمْ لِهَذَا الرَّهْطِ الْقِيَامَ بِأَخَسِّ الأَدْوَارِ فِي الظَّاهِرِ ...أَلاَ تَذْكُرَانِ تِلْكَ السَّهَرَاتِ الطَّوِيلَةَ الَّتِي قَضَيْنَاهَا نَتَدَاوَلُ فِي أَمْرِ الشَّرِيعَةِ وَالْقَانُونِ ، وَأَنْتُمَا تُدْلِيَانِ بِالْحُجَّةِ تِلْوَ الْحُجَّةِ عَلَى أَنَّهُ لاَبُدَّ مِنْ تَطْوِيرِ الشَّرِيعَةِ وَأَنَّ الدَّوْلَةَ التُّونِسِيَّةَ الَّتِي اخْتَارَتْ نَهْجَ الْقَانُونِ قَبْلَ الْحِمَايَةِ بِمُبَارَكَةٍ مِنْ مَشَايِخِ الزَّيْتُونَةِ هِيَ عَلَى حَقٍّ ، إِذِ اخْتَارَتْ السَّيْرَ فِي اتِّجَاهِ التَّارِيخِ وَتَأْتِي أَنْتَ بِالذَّاتِ يَا سَيِّدِي وَكِيلَ الدَّوْلَةِ بِالدَّلِيلِ وَهُوَ وُجُودُ الْمَحَاكِمِ الْحَدِيدَةِ وَعَلَى رَأْسِهَا زَيْتُونِيُّونَ مُتَفَتِّحُونَ . وَكُنَّا نَنْسَاقُ إِلَى تَحْبِيذِ كَلاَمِكُمَا وَيُعْجِبُنَا إِطْرَاؤُكُمَا وَنَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا : لَعَلَّهُ هَذَا مَسَارُ التَّارِيخِ وَلَكِنِّي سُرْعَانَ مَا كُنْتُ أُرَاجِعُ نَفْسِي وَأَقُولُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَهُوَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ وَأَقْدَرُ مَاقَدَرْتُ عَلَيْهِ مَعَ الْحَسْرَةِ وَالشُّعُورِ بِالْعَجْزِ : كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْغَايَاتِ أَنْ تَكُونَ نَبِيلَةً وَقَدِ امْتَطَاهَا أَحْقَرُ النَّاسِ وَأَخَسُّهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ غَمَسُوا أَيْدِيَهُمْ فِي الرَّشْوَةِ وَالظُّلْمِ وَالْقَهْرِ لاِبْتِزَازِ النَّاسِ وَاسْتِغْلاَلِ جَهْلِهِمْ ؟ لَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْغَايَاتُ نَبِيلَةً .وَتُحِسَّانِ بِأَنَّنِي لَمْ أُسَاوِقْكُمَا فِي

عَلَى

نَسَقِ تفكِيرِكُمَا ، فَتَتَّجِهَانِ لِي بِشَتَّى أَلْوَانِ التَّوَدُّدِ وَلَكِنَّنِي مُتَيَقِّنٌ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ إِلاَّ اسْتِدْرَاجًا لِي حَتَّى تَتَبَيَّنَا مَا فِي دَخِيلَتِي ... وَأَحْكَمْتُمْ جَمِيعًا حَوْلِي الشَّرَاكَ حَتَّى وَقَعْتُ فِي هُوَّةٍ لاَمَخْرَجَ مِنْهَا ...وَغَايَةُ مَا كُنْتُ أَصْدَعُ بِهِ هُوَ الْحَدِيثُ عَنِ الْمَاضِي وَهْوَ غَايَةٌ فِي الْجُبْنِ ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ ، يَا وَكِيلَ الدَّوْلَةِ ، بِلَبَاقَتِكَ وَعِلْمِكَ تُحَاوِرُنِي فِي أَنَّ الْحُكْمَ الْمُطْلَقَ كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي الضِّيَافِ هُوَ السَّبَبُ فِي انْحِطَاطِنَا . وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُبَيِّنَ لَنَا نَحْنُ التُّونِسِيِّينَ جَهْلَنَا بِابْنِ أَبِي الضِّيَافِ الَّذِي تَعْتَبِرُهُ الْعَائِلَةُ الْحُسَيْنِيَّةُ خَائِنًا لِلأَمَانَةِ غَدَّارًا ، وَكِتَابُهُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ بَقِيَ مَخْطُوطًا قَلَّ أَنِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ تُونِسِيٌّ . وَأَذْكُرُ الْحِوَارَ الطَّوِيلَ الَّذِي دَارَ بَيْنَنَا وَغَلَبْتَنِي فِيهِ لِأَنَّكَ أَكْثَرُ عِلْمًا وَدِرَايَةً وَأَوْسَعَ آفَاقًا وَفِكْرًا . أَدْهَشْتَنِي وَأَدْهَشْتَ مَنْ كَانَ مَعَنَا ، الْمُرَاقِبَ الْمَدَنِيَّ وَالْقَايِدَ وَخُوجَةَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي دَعَوْتُكُمْ فِيهَا لِتَنَاوُلِ طَعَامِ الْعَشَاءِ بِبَيْتِي . قُلْتَ فِي لُغَتِكَ الْعَرَبِيَّةِ السَّلِيمَةِ الْهَادِئَةِ :

ـ أَنْتُمُ الْعَرَبَ تَرْجَمْتُمْ لَنَا أَفْلاَطُونَ وَأَرِسْطُو وَلَكِنْ بِوُدِّي لَوْ أَعْرِفُ هَلْ أَكَّدَ الْفَلاَسِفَةُ وَالْكُتَّابُ الْعَرَبُ عَلَى مَا جَاءَ فِي كِتَابِ الْجُمْهُورِيَّةِ لِأَفْلاَطُونَ وَالسِّيَاسَةِ لِأَرِسْطُو مِنْ تَحْلِيلٍ لِلطُّغْيَانِ ... أَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ أَنْظِمَةَ الطُّغْيَانِ الْمُسْلِمَةَ لَمْ تَسْمَعْ بِذَلِكَ .

وَسَكَتْنَا كُلُّنَا لِأَنَّنَا نَجْهَلُ هَذَا الأَمْرَ. وَمَضَيْتَ تَسْرُدُ عَلَيْنَا مَاقَالَهُ أَفْلاَطُونُ وَأَرِسْطُو . أَلَمْ تَقُلْ وَنَحْنُ نَتَضَاءَلُ أَمَامَكَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْنَا فِي هُدُوءِ الْفَيْلَسُوفِ وَالرَّجُلِ الْمُتَسَامِحِ الَّذِي لاَ يُكِنُّ أَيَّةَ عَدَاوَةٍ لِحَضَارَتِنَا وَلِقَوْمِنَا فِي الظَّاهِرِ . وَلَكِنَّنِي أَعْرِفُ أَنَّهُ السُّمُّ فِي الدَّسَمِ . كَهَذَا السُّمِّ الَّذِي يُقَطِّعُ أَحْشَائِي ، وَيَنْخَرُ خَلاَيَا دِمَاغِي ..؟ أَلَمْ تَقُلْ فِي" طَرَّادَةٍ " طَوِيلَةٍ :

ـــ أَنْتُمُ الْعَرَبَ وَالْمُسْلِمِينَ لَمْ تَفْعَلُوا شَيْئًا لِمَنْعِ الطُّغْيَانِ أَوْ عَلَى الأَصَحِّ فُقَهَاؤُكُمْ الَّذِينَ كَانَ عَلَيْهِمْ تَطْبِيقُ الشَّرِيعَةِ فِي مَيْدَانِ الْحُكْمِ . وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ حَضُّوا بَلْ أَوْجَبُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَهَذَا مَقْبُولٌ ، وَأُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ ، وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ .

وَلَكِنْ أَلاَتَذْكُرُ أَنْتَ يَاوَكِيلَ الدَّوْلَةِ أَنَّنِي قَاطَعْتُكَ وَقُلْتُ لَكَ فِي حَمَاسٍ :

ـــ الْفُقَهَاءُ قَالُوا ذَلِكَ وَالْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ يَقُولُ : لاَطَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ .

ـــ نَعَمْ هَذَا الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ . وَلَكِنْ أَيْنَ التَّطْبِيقُ ، بَيْنَمَا الْفُقَهَاءُ يُؤَكِّدُونَ عَلَى الطَّاعَةِ وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ ؟

ـــ إِنَّ الْفُقَهَاءَ وَالْفَلاَسِفَةَ وَالْمُفَكِّرِينَ حَلَّلُوا نِظَامَ الْحُكْمِ فِي الإِسْلاَمِ بِمَا يُمَاثِلُ بِالضَّبْطِ مَا جَاءَ فِي إِعْلاَنِ حُقُوقِ الإِنْسَانِ عِنْدَكُمْ أَيْ عِنْدَ قِيَامِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ بَعْدَنَا بِقُرُون . فَالدِّيمُقْرَاطِيَّةُ طَبَّقَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي اخْتِيَارِهِمْ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَبْنِ الْخَطَّابِ . وَكَانَتْ هُنَاكَ مُعَارَضَةٌ حَقِيقِيَّةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْفُسِهِمْ . وَكَانَ الْخَلِيفَتَانِ الأَوَّلاَنِ يَحُثَّانِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مُرَاقَبَةِ الْحَاكِمِ وَمُحَاسَبَتِهِ إِنْ أَخْطَأَ .

ـــ لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ بِنَفْسِ الْوَعْيِ وَنَفْسِ الدِّقَّةِ ، يَكُونُ إِذَنْ الْمِثَالَ وَالْمَثَلَ الأَعْلَى أَمَّا الْوَاقِعُ فَغَيْرُ ذَلِكَ . فَهَلْ تَكَوَّنَتْ مُؤَسَّسَاتٌ دِيمُقْرَاطِيَّةٌ تُنَظِّمُ الْمُعَارَضَةَ وَالْمُحَاسَبَةَ ؟ الْوَاقِعُ هُوَ أَنَّ الطُّغْيَانَ هُوَ الَّذِي سَادَ الْحُكْمَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ فَلاَ الْفُقَهَاءُ وَلاَ الْفَلاَسِفَةُ وَلاَ الْمُفَكِّرُونَ وَلاَ الأُدَبَاءُ قَامُوا بِمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُوقِفُ الطُّغْيَانَ إِنْ لَمْ يُسَاعِدُوا عَلَيْهِ . وَمَا جِئْنَا نَحْنُ الْفَرَنْسِيِّينَ إِلاَّ لِنَضَعَ الأُمُورَ فِي نِصَابِهَا .

وَلَعَلَّهُ تَوَقَّعَ ، بِفِرَاسَتِهِ ، أَنَّ الدَّمَ قَدْ غَلَى فِي عُرُوقِي وَلاَحَظَ احْمِرَارَ وَجْهِي وَانْتِشَارَ فَوْرَةٍ مِنَ الْغَضَبِ عَلَى صَفْحَتَيْهِ فَقَالَ وَقَدْ لَطَّفَ مِنْ نَسَقِ هُجُومِهِ الْعِدَائِيِّ الْوَاضِحِ :

ـ اِسْتَمِعْ إِلَيَّ جَيِّدًا يَاعَامِر... لَوْ فَسَّرَ الْفَلاَسِفَةُ وَالْكُتَّابُ الْمُسْلِمُونَ مَاجَاءَ فِي كُتُبِ أَفْلاَطُونَ وَأَرِسْطُو عَنِ أَنْظِمَةِ الْحُكْمِ تَمَامًا مِثْلَمَا فَعَلَ عِنْدَنَا مُونْتِسْكِيُو وَفُولْتِيرْ وَرُوسُّو وَدِيدْرُو وَنَاضَلُوا كَمَا نَاضَلَ فَلاَسِفَتُنَا وَلَمْ يُهَادِنُوا الطُّغَاةَ وَيُهَيِّئُوا لَهُمُ الْفَتَاوَى لِتَرْسِيخِ أَرْكَانِ سُلْطَتِهِمْ وَتَلْمِيعِ صُورَتِهِمْ أَمَامَ النَّاسِ حَتَّى لاَ يَثُورُوا عَلَيْهِمْ ، لَكَانَ ذَلِكَ كَسْبًا عَظِيمًا لِلْمُسْلِمِينَ وَلِلْبَشَرِيَّةِ عَامَّةً ... فَالتَّقْصِيرُ وَاضِحٌ بَلْ الْجُرْمُ كَبِيرٌ . اِسْمَعْ يَا عَامِر فُقَهَاؤُكُمْ ثَبَّتُوا أَرْكَانَ الطُّغَاةِ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ أَرِسْطُو وَأَفْلاَطُونَ كَمَا يَلِي : " يَتَوَلَّى الطَّاغِيَةُ الْحُكْمَ فِي الْبَدْءِ لِيُنْقِذَ الْبِلاَدَ مِنْ حَالَةِ الْفَوْضَى الَّتِي تَرَدَّتْ فِيهَا وَيَبْدَأُ فِي الأَيَّامِ الأُولَى بِالتَّقَرُّبِ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَلْقَى مَنْ يُصَادِفُهُ إِلاَّ بِالاِبْتِسَامِ وَالتَّحِيَّةِ ، وَيُعْلِنُ فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ أَنَّهُ يَسْتَنْكِرُ الطُّغْيَانَ ثُمَّ لاَ يَنْفَكُّ يُخْزِلُ الْوُعُودَ وَيُعْفِي مِنَ الدُّيُونِ ، وَيَهْتَمُّ بِأَحْوَالِ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَيَتَصَنَّعُ الطِّيبَةَ وَالوِدَّ لِلْجَمِيعِ . وَهْوَ لاَيَسْتَنْكِفُ مِنْ إِشَاعَةِ الْفَوْضَى وَالاِضْطِرَابِ فِي أَوَّلِ حُكْمِهِ حَتَّى يَشْعُرَ النَّاسُ بِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ . ثُمَّ يُطْبِقُ عَلَيْهِمُ الطَّوْقَ هُمْ وَمَنْ أَعَانُوهُ " . وَيُبَيِّنُ أَفْلاَطُونُ ذَلِكَ قَائِلاً : " إِنَّ الطَّاغِيَةَ إِذَا وَجَدَ ، مِنْ بَيْنِ الَّذِينَ أَعَانُوهُ عَلَى تَوَلِّي الْحُكْمِ وَالَّذِينَ أَصْبَحُوا مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ وَالنُّفُوذِ ، فِئَةً مِنَ الشُّجْعَانِ الَّذِينَ يُعَبِّرُونَ عَنْ آرَائِهِمْ بِصَرَاحَةٍ أَمَامَهُ وَفِيمَا بَيْنَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَ مَايَقُومُ بِهِ مِنْ تَصَرُّفَاتٍ لِأَنَّ ذَلِكَ يُفْسِدُ الْحُكْمَ ، فَإِنَّ الطَّاغِيَةَ لاَ بُدَّ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى هَؤُلاَءِ إِنْ شَاءَ أَنْ يَظَلَّ صَاحِبَ السُّلْطَانِ الأَوْحَدَ بِحَيْثُ لاَيَتْرُكُ فِي النِّهَايَةِ شَخْصًا ذَا قِيمَةٍ

سَوَاءً بَيْنَ أَصْدَقَائِهِ أَوْ أَعْدَائِهِ " . وَهُوَمَا يُسَمِّيهِ أَفْلاَطُونُ بِالتَّطْهِيرِ وَهُوَ الْقَضَاءُ عَلَى الْبَارِزِينَ مِنَ النَّاسِ وَأَصْحَابِ الْعُقُولِ النَّاضِجَةِ بِاسْتِئْصَالِ كُلِّ مَنْ تفَوَّقَ أَوْ حَاوَلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ . بِحَيْثُ يَكُونُ هَلاَكُهُ فِي آخِرِ الأَمْرِ لِأَنَّهُ لاَيَجِدُ مَنْ يُنَبِّهُهُ إِلَى طُرُقِ الصَّلاَحِ الَّتِي تَتَنَاقَضُ مَعَ نَفْسِيَّةِ الطُّغْيَانِ وَلَمْ يُبْقِ حَوْلَهُ إِلاَّ الَّذِينَ يَتَمَلَّقُونَهُ وَيَدْفَعونَهُ إِلَى الإِمْعَانِ فِي غَيِّهِ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : " وَإِخْوَانُهُمْ يُمِدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ " . " وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً " .

وَأَرِسْطُو نَفْسُهُ يُؤَكِّدُ عَلَى ذَلِكَ ، مُبَيِّنًا أَنَّ الطَّاغِيَةَ يَقِفُ مِنَ الْمَشَاهِيرِ وَالأَعْلاَمِ مَوْقِفَ الْعِدَاءِ وَيَضَعُ الْخُطَطَ السِّرِّيَّةِ وَالْعَلَنِيَّةَ لِلْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ أَوِ الإِيقَاعِ بِهِمْ وَتَشْرِيدِهِمْ كَخُصُومٍ سِيَاسِيِّينَ وَمُنَاهِضِينَ لِلْحُكْمِ . لِأَنَّهُ بِسِيرَتِهِ تِلْكَ يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَنَّ الثَّوْرَاتِ ضِدَّهُ تَخْرُجُ مِنْ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ . فَيُحَاوِلُ دَائِمًا جَعْلَ الْكُتَّابِ وَالشُّعَرَاءِ مِنْ بِطَانَتِهِ وَ يَدْفَعُ لَهُمْ بِسَخَاءٍ لِأَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي شُهْرَتِهِ وَهُوَ فِي الْوَاقِعِ يَحْتَقِرُهُمْ وَلاَ يُدْرِكُ بُعْدَ نَظَرِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَظَاهَرُ بِحُبِّهِ لِلْحِكْمَةِ وَالأَدَبِ وَالشِّعْرِ وَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَهْتَمَّ بِذَلِكَ . وَالْمُضْحِكُ الْمُبْكِي فِي الأَمْرِ هُوَ أَنَّ كُلَّ طَاغِيَةٍ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لاَيُشْبِهُ الآخَرِينَ ، وَأَنَّهُ أَوْجَدَ طَرِيقَةً جَدِيدَةً خَدَعَ بِهَا النَّاسَ جَمِيعًا خَاصَّتَهِمْ وَعَامَّتَهِمْ ، وَأَنَّهُ الأَذْكَى وَالأَدْهَى بَيْنَمَا هُوَ يَعْلَمُ أَوْ لاَ يَعْلَمُ أَنَّ الطُّغْيَانَ وَاحِدٌ فِي أَسَالِيبِهِ وَنَتَائِجِهِ وَفِي رُدُودِ فِعْلِ النَّاسِ نَحْوَهُ . وَالأَنْكَى مِنْ كُلِّ هَذَا أَنَّ بَعْضَ الْحُكَّامِ يَنْزَلِقُونَ إِلَى الطُّغْيَانِ مِنْ بَابِ الْحَزْمِ وَالاِحْتِيَاطِ وَيَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الآخِرِ أَمَامَ مَأْزَقٍ لاَ يَعْرِفُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ ، وَهُمْ أَرْدَأُ الْحُكَّامِ جَهْلاً وَقِصَرَنَظَرٍ .

وَلَمَّا رَانَ عَلَيْنَا الصَّمْتُ وَبَهَرَنَا بِهَذَا الْعِلْمِ غَلَبَهُ الْحَيَاءُ لِاحْتِكَارِهِ الْكَلاَمَ فقَالَ باخْتِصَارٍ كَبِيرٍ :

ــ لاَ أُرِيدُ أَنْ أَزِيدَ بَيَانًا لِأَنَّ هَذَيْنِ الْفَيْلَسُوفَيْنِ بَيَّنَا بِالضَّبْطِ نَفْسِيَّةَ الطَّاغِيَةِ وَوَصَفَا أَخْلاَقَ مَنْ يَسْتَعِينُ بِهِمْ . حَتَّى إِنَّ أَحَدَ الْحُكَّامِ الْحُكَمَاءَ كَلَّفَ كَاتِبًا نَابِهًا بِضَبْطِ أَهَمِّ الأَوْصَافِ وَالأَعْمَالِ الَّتِي تَنْزَلِقُ بِصَاحِبِ السُّلْطَةِ إِلَى الطُّغْيَانِ وَإِثْبَاتِهَا فِي وَرَقَةٍ تُوضَعُ أَمَامَهُ فِي مَكْتَبِهِ لِيَقْرَأَهَا كُلَّ صَبَاحٍ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مُسْتَشَارِيهِ وَالْمُشْرِفِينَ عَلَى مُؤَسَّسَاتِ دَوْلَتِهِ لاَيَقُومُونَ بِدَوْرِهِمْ كَمَا يَسْتَوْجِبُهُ الْقَانُونُ وَحُسْنُ السِّيَاسَةِ . وَلَكِنْ هُنَاكَ أَمْرٌ هَامٌّ أَكَّدَهُ أَرِسْطُو وَهُوَ أَنَّ صَانِعَ الطَّاغِيَةِ هُوَ الشَّعْبُ وَبِالْخُصُوصِ إِذَا كَانَ مِنَ الشُّعُوبِ الشَّرْقِيَّةِ إِذِ الشُّعُوبُ الأَسْيَوِيَّةُ خِلاَفًا لِلشُّعُوبِ الأُورُوبِيَّةِ لَهَا طَبِيعَةُ الْعَبِيدِ فَهِيَ تَتَحَمَّلُ حُكْمَ الطُّغَاةِ بِغَيْرِ شَكْوَى أَوْ تَذَمُّرٍ ، بَلْ هِيَ تَسْتَطِيبُهُ وَتَلْتَذُّ بِهِ وَتُؤَلِّهُ صَاحِبَهُ . وَقَالَ مُونْتَسْكِيُو بَعْدَ ذَلِكَ : إِنَّ الْحُكُومَةَ الْمُعْتَدِلَةَ أَصْلَحُ مَا تَكُونُ لِلْعَالَمِ الْمَسِيحِيِّ وَأَنَّ الْحُكُومَةَ الْمُسْتَبِدَّةَ أَصْلَحُ مَا تَكُونُ لِلْعَالَمِ الإِسْلاَمِيِّ . نَاهِيكَ أَنَّ الإِسْلاَمَ جَاءَ بِمَفْهُومِ الْعَبْدِ مِنْ حَيْثُ عَلاَقَتُهُ بِاللَّهِ فِي مَعْنَى الْعِبَادَةِ لاَ الْعُبُودِيَّةِ . وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ خَلَطُوا بَيْنَ الْمَفْهُومَيْنِ وَرَضُوا بِالْعُبُودِيَّةِ قِسْمَةً لَهُمْ .

وَفَهِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ تَلاَعَبَ بِآرَاءِ أَفْلاَطُونَ وَأَرِسْطُو وَوَظَّفَهَا كَمَا شَاءَ فَأَدَرْتُ دَفَّةَ الْحَدِيثِ ، وَالرَّجُلُ فِي بَيْتِي ، إِلَى وِجْهَةٍ أُخْرَى فِيهَا الْمَرَحُ وَالنُّكْتَةُ وَكَانَ الرَّئِيسُ خُوجَة أَبْرَعَ مِنِّي ، بَيْنَمَا فِي دَاخِلِي مِرْجَلٌ يَغْلِي حَنَقًا مِنْ جَرَّاءِ الشُّعُورِ بِالْغَلَبَةِ وَالْقَهْرِ وَالْعَجْزِ .

...هَكَذَا وَجَدْتُ نَفْسِي وَحِيدًا ضَعِيفًا ، غَيْرَقَادِرٍ عَلَى الصُّمُودِ أَمَامَ هَذَا الدُّولاَبِ الْجَهَنَّمِيِّ ... حَتَّى الْقِطَطُ غَلَبَتْنِي عَلَى أَمْرِي ... اُنْظُرُوا

الْقِطُّ الأَسْوَدَ قَدْ عَادَ ... يَا كِيمَة ... يَا كِيمَة ... قُلْتُ لَكِ أَغْلِقِي شُبَّاكَ الْمَقْصُورَةِ .

وَيَقْفِزُ الْقِطُّ عَلَى الْمَائِدَةِ ، فَتُسْمَعُ لِلصُّحُونِ قَرْقَعَةٌ خَفِيفَةٌ . ثُمَّ يَسْتَعِدُّ لَهِرٌّ لِلْوُثُوبِ ، وَقَدْ رَآى فَأْرًا فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْغُرْفَةِ، وَيَنْطَلِقُ كَالسَّهْمِ ، فَيَجُرُّ مَعَهُ فَرْشَةَ الْمَائِدَةِ ، وَتَسْقُطُ الصُّحُونُ وَالْمَلاَعِقُ وَالسَّكَاكِينُ وَالشَّوْكَاتُ ، وَيُصِيبُ الذُّعْرُ الْقِطَّ ، وَيُصْبِحُ كَالْمَجْنُونِ ، وَيَنْزَعِجُ عَامِر وَيَقِفُ مُتَرَنِّحًا وَهُوَ عَلَى وَشَكِ السُّقُوطِ ، وَيَثِبُ الْهِرُّ وَيَتَسَلَّقُ الرُّفُوفَ الْمُثْبَتَةَ فِي الْجُدْرَانِ ، ثُمَّ يُرِيدُ الْفَوْزَ بِنَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ أَفْلَتَ مِنْهُ الْفَأْرُ ، فَيَتَشَبَّثُ بِالصُّورَةِ ، فَيَسْقُطُ وَتَسْقُطُ مَعَهُ ، وَيَصِيحُ عَامِر وَقَدْ هَمَّ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْغُرْفَةِ :

ـ أَدْرِكُونِي ... الْقِطُّ يَخْنُقُنِي بِذَيْلِهِ ... يَضْغَطُ عَلَيَّ .

وَيَضَعُ عَامِر يَدَيْهِ فِي مُسْتَوَى عُنُقِهِ كَأَنَّهُ يُحَاوِلُ التَّخَلُّصَ مِمَّا قَدْ أَحْكَمَ حَوْلَ عُنُقِهِ الْخِنَاقَ . وَتَأْتِي كِيمَة وَلِلاَّهُمْ وَالْعَمَّارِي وَيَقُودُونَهُ إِلَى فِرَاشِهِ وَقَدْ أَصْبَحَ يَتَنَفَّسُ بِصُعُوبَةٍ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْقِدْ وَعْيَهُ وَطَلَبَ أَبْنَاءَهُ . فَأَيْقَظَهُمْ الْعَمَّارِي وَجَاؤُوا الْوَاحِدَ بَعْدَ الآخَرِ ، وَكَانَ عَلِي أَوَّلَهُمْ ، وَهُوَ أَكْبَرُهُمْ ، لِذَا أَحَسَّ بِقُرْبِ أَجَلِ وَالِدِهِ ، فَلَمْ يُرَاوِدْهُ النَّوْمُ وَمَعَ هَذَا لَمْ يَتَجَرَّأْ عَلَى النُّهُوضِ . وَكَانَتْ عَيْنَاهُ مُغْرَوْرِقَتَيْنِ بِالدُّمُوعِ ، وَهُوَ يَتَفَرَّسُ فِي وَجْهِ أَبِيهِ ، فَطَبَعَ عَلَى جَبِينِهِ قُبْلَةً فَتَحَ إِثْرَهَا عَامِر عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ عَلِي ، وَقَدْهَدَأَ هُدُوءًا يَسِيرًا وَأَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنَ الرَّاحَةِ ، هِيَ رَاحَةُ الْمَوْتِ وَقَالَ بِصُعُوبَةٍ :

ـ أُوصِيكَ خَيْرًا بِإِخْوَتِكَ وَبِأُمِّكَ ... سَتَكْبُرُ وَتُوَاجِهُكَ صِعَابٌ ... بَلْ سَتُوَاجِهُكَ وَأَنْتَ صَغِيرٌ ... (يَنْظُرَ إِلَى عَلِي بِإِمْعَانٍ) أَنْتَ لاَيَفُوتُ سِنُّكَ

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ الآنَ وَلَكِنَّنِي أَرَاكَ كَبِيرًا ... أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَى تَحَمُّلِ الْعِبْءِ الَّذِي يَنْتَظِرُكَ ... كُنْ حَذِرًا ... لاَ تُعَوِّلْ إِلاَّ عَلَى نَفْسِكَ ... وَلَكِنْ اِعْتَمِدْ عَلَى نَصِيحَةِ جَدِّكَ ... فَهْوَ لَنْ يَخْذِلَكَ أَنْتَ وَإِخْوَتَكَ أَبَدًا ... أَطَالَ اللَّهُ عُمُرَهُ ... أَيْنَ عَوِيشَة ..؟ أَيْنَ الصَّادِق ..؟ أَيْنَ..؟ أَيْنَ..؟ يَا كِيمَة ...

وَانْتَظَمَ بَيْنَ عَامِرٍ وَعَلِي حِوَارٌ ، هُوَ حِوَارُ الْمُشْرِفِ عَلَى الْمَوْتِ مَعَ مُسْتَقْبِلِ الْحَيَاةِ ،حِوَارِ الْمَهْزُومِ فِي حُرُوبِهِ الْمُتَوَالِيَةِ مَعَ الْخَائِضِ لِلْمَعَارِكِ كَرْهًا أَوْ رِضًا ، حِوَارٍ رَوَتْهُ هَذِهِ النَّظَرَاتُ الصَّامِتَةُ الْبَلِيغَةُ الْمُتَبَادَلَةُ بَيْنَ الاِبْنِ وَأَبِيهِ :

ـــ وَدَاعًا يَا عَلِي ... وَدَاعًا أَيُّهَا الاِبْنُ الَّذِي لَمْ يَشْبَعْ بِضَمٍّ وَالِدِهِ وَشَمِّهِ ، بَلِ اكْتَوَى بِنِيرَانِ الْفِرَاقِ الْمُتَتَالِيَةِ . فَمَا أَنْ يَسْتَقِرَّ الْمُقَامُ وَيَنْسُجَ الْحُبُّ وَالْعَطْفُ خُيُوطًا أَرَقَّ وَأَنْفَذَ مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ ، حَتَّى يَنْفُخَ الْبَيْنُ فِي بُوقِ الرَّحِيلِ ، وَتَهْتَزُّ الْمَشَاعِرُ وَتَغْرَوْرِقُ الْعُيُونُ بِالدُّمُوعِ ، وَلَكِنَّ أُوَارَ الشَّوْقِ يُوقَدُ وَلاَ يَنْطَفِئُ إِذْ خَيْطُ الأَمَلِ فِي الْعَوْدَةِ مَوْصُولٌ ... أَمَّا الآنَ يَا وَلَدِي فَالْوَدَاعُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ بَاتٌّ لاَ رَجْعَةَ بَعْدَهُ ... صُورَتُهُ تُرَوِّعُ الْقُلُوبَ بَلْ تَهُدُّ الْجِبَالَ ... كَصُورَةِ هَذَا الْمَوْتِ الَّذِي يَنْتَظِرُنِي ... وَلَكِنَّهُ عُمْلَةٌ بِوَجْهَيْهَا : الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ ، هُوَ زَائِلٌ فِيَّ غَيْرَ أَنَّهُ بَاقٍ فِيكَ لِأَنَّهُ سَيَحْيَا بِحَيَاتِكَ أَنْتَ ... أَوْقِدْ جَذْوَتَهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ... اِعْتَبِرْهُ مِشْعَلاً يَتَوَقَّدُ ، فَهْوَ ذِكْرَايَ الَّتِي لاَتَمَّحِي أَوْدَعْتُهَا صَفْحَةَ نَفْسِكَ النَّاصِعَةَ لِتُتِمَّ مَا عَجَزْتُ عَنْ إِتْمَامِهِ ... الْوَدَاعُ رَافَقَنِي فِي كُلِّ حَيَاتِي الْقَصِيرَةَ ... مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي أَلَمًا أَعْمَقَ مِنْهُ ... سَكَنَهَا بِلاَ انْقِطَاعٍ ... كُلَّمَا آنَسَتْنِي زَيَاتِينُ الْقَرْيَةِ وَآوَتْنِي ظِلاَلُهَا الْوَارِفَةُ ، وَطَرَّزَتْ مُخَيَّلَتِي حُبُوبُ زَيْتُونِهَا

بحُبِّ الأَهْلِ وَوَفَاءِ الرِّفْقَةِ وَأَوَاصِرِ الدَّأْبِ الْمُتَوَاصِلِ ، وَهَدْهَدَنِي صَوْتُ أَمْوَاجِ بَحْرِهَا ، وَسَحَرَتْنِي صُورَةُ الْقَمَرِ عَلَى صَفْحَتِهِ ، وَدَغْدَغَتْ أَصَابِعَ أَقْدَامِي رِمَالُ شَاطِئِهَا النَّدِيِّ ، طَوَّحَ بِيَ الْوَدَاعُ وَرَمَانِي مَرَّاتٍ فِي حِضْنِ الْعَاصِمَةِ فَآنَسُ رَغْمَ ذَلِكَ إِلَيْهَا ... إِلَى شَوَارِعِهَا إِلَى أَزِقَّتِهَا وَمَسَاجِدِهَا وَصَوَامِعِهَا ، وَأَرْتَاحُ إِلَى أَجْوَاءِ مَقَاهِيهَا وَهُدُوءِ مَنَازِلِهَا وَدِفْءِ مَجَالِسِهَا الْمَمْلُوءَةِ ظَرْفًا وَبَهْجَةً وَمُتْعَةً . وَإِذَا مَا امْتَلَأَتْ نَفْسِي بِلَذَّةِ نَكْهَتِهَا وَتَذَوَّقْتُهَا بِحَوَاسِّي كُلِّهَا وَتَطَعَّمْتُهَا بَيْنَ أَسْنَانِي رَحِيقًا شَذِيًّا ، حَتَّى يُطِلَّ الْوَدَاعُ كَقَرْنِ الشَّيْطَانِ مِنْ جَدِيدٍ وَيَرْمِينِي بَيْنَ رِمَالِ قَفْصَةَ وَنَخِيلِهَا ، فَأَتَطَلَّعُ إِلَى ظِلاَلِهَا وَأَكْتَشِفُ سِحْرَهَا ، وَأَبْنِي حَيَاتِي مِنْ جَدِيدٍ بَيْنَ خَمَائِلِ وَخَشْيَتِهَا ، وَجَفَاءِ بَدَاوَتِهَا ، وَدَعَةِ لَيَالِيهَا وَسُكُونِهَا ، ثُمَّ أُوَدِّعُ بِالسَّلاَمِ ، وَأُخَلِّفُ فِي نَفْسِي تَبَارِيحَهَا تُنَغِّصُ وَدَاعَتِي ... وَالآنَ وَأَنَا فِي سُوسَةَ بَعْدَ أَنِ اجْتَمَعَ فِيَّ مَرَّةً وَاحِدَةً كُلُّ مَا انْزَرَعَ فِي كِيَانِي مِنْ آثَارِ مَرَاحِلِ الرَّحِيلِ وَالْفِرَاقِ وَالْوَدَاعِ ، وَذُقْتُ أَلْوَانَ الْفِطَامِ الْمَرِيرَةَ وَسَمِعْتُ بَلْ أَحْسَسْتُ بِكُلِّ جَوَارِحِي تَقَطُّعَ نَسِيجِ الْحَيَاةِ فِيَّ ، أَتَّجِهُ إِلَيْكَ بِكَلِمَاتٍ ضَمَّخَهَا الدَّمْعُ وَلَفَّهَا الْحُزْنُ وَالأَسَى وَعَمَرَهَا دِفْءُ حَنَانِ الأُبُوَّةِ وَأَقُولُ لَكَ :" إِنْ أَنْتَ أَلِفْتَ فَقْدِي عَلَى كَرَّاتٍ وَسَتَفْقِدُنِي كَرَّةً وَاحِدَةً ، فَقَدْ فَقَدْتُكَ مَرَّاتٍ ، وَأَذَقْتُكَ الْجَفَاءَ جُرْعَاتٍ . وَإِنْ وَدَّعْتُ النُّورَ وَالضَّوْءَ لِأَسْتَقْبِلَ الظُّلُمَاتِ ، فَمَا وَدَّعْتُكَ ، بَلْ يَقِينِي أَنَّكَ سَتَهْزِمُ هَزِيمَتِي النَّكْرَاءَ الَّتِي مُنِيتُ بِهَا أَمَامَ جَحَافِلِ الظُّلْمِ : ظُلْمِ السُّلْطَةِ وَالرِّفْقَةِ وَذَوِي الْقُرْبَى . لَمْ يَنْفَعْنِي الْحَذَرُ ، وَتَوَخِّي الْحَذَرِ يُقِلُّ وَلاَيُقِيلُ مِنَ الْعَثْرِ . نِشْدَانُ الْعَظَمَةِ أَفْسَدَ عَلَيَّ حَيَاتِي ، فَهْيَ إِنْ طُلِبَتْ لِذَاتِهَا لاَ تُدْرَكُ وَكَانَ الزَّيْفُ الْمُبِينُ . فِرَّ مِنْهَا كَمَا يَفِرُّ النَّاسُ مِنَ الأَجْرَبِ ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ .

فَكُلَّمَا كُنْتَ فِي اسْتِقَامَةِ السَّرْوِ ، اِقْتَفَتْ أَثَـرَكَ وَلَـمْ تُفَـارِقْكَ كَظِلِّـكَ . رَاوِغْهَا وَتَنَصَّلْ مِنْهَـا وَغُـصْ فِـي لُجَـجِ النَّـاسِ وَلاَ تَطْفُـو كَمَـا تَطْفُـو الْجِيَـفُ . وَاجْعَـلْ حَيَـاتِي جِسْـرًا لِحَيَـاتِكَ وَتَخَلَّـصْ مِـنْ ضُعْفِـي وَمِـنْ عَـثَرَاتِي وَثُغَرَاتِـي لِتَنْظُرَ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْـنٍ كَبِـيرَةٍ ، لاَ تَسْـقُطْ فِـي نِصْـفِ الطَّرِيـقِ كَمَـا سَـقَطْتُ ... هَذَا الرَّبِيـعُ الَّـذِي فِيـهِ تَسْتَرْجِعُ الطَّبِيعَـةُ الْحَيَـاةَ لَـنْ أَسْتَقْبِلَ فِيـهِ أَنَـا ... إِلاَّ الْمَـوْتَ ... وَلَكِنَّـهُ رَبِيعُـكَ أَنْـتَ ... لِـأَنَّكَ سَـتَحْتَضِنُ بِـهِ الْحَيَـاةَ وَتَقْهَـرُ مَوْتِـي الَّـذِي لَـمْ أَقْـدِرْ عَلَـى التَّغَلُّـبِ عَلَيْـهِ لاَ بِالْكِتَابَـةِ وَلا بِـالْفَنِّ ... الْمَـوْتُ كَالطُّغْيَـانِ لاَ سُـلْطَانَ لَـهُ عَلَـى الْفِكْـرَةِ وَالإِبْـدَاعِ وَالْكَـلاَمِ ... قَـاهِرُ الْمَـوْتِ والْبَـاقِي عَلَـى وَجْـهِ الدَّهْـرِ وَمُحَـوِّلُ الزَّمَـنَ إِلَـى نِظَـامٍ يَحْكُمُـهُ الإِنْسَـانُ هُـوَ الْكِتَابَـةُ وَالْفَـنُّ ... هُمَـا الْحَيَـاةُ ... ذَاكَ هُـوَ الصِّـرَاعُ مِـنْ أَجْـلِ كَرَامَـةِ الإِنْسَـانِ وَحُرِّيَّتِـهِ ... مِـنْ أَجْـلِ إِنْقَـاذِ أَغْلَـى الْقِيَـمِ ... إِنْ أَنْـتَ لَـمْ تَقْـدِرْ عَلَـى التَّسَلُّـحِ بِمَـا يَقْهَـرُ الْمَـوْتَ ... كُـلَّ مَـوْتٍ ... لِكَسْـبِ الْحَيَـاةِ ... اُطْلُـبْ ذَلِـكَ ، عَلَـى الأَقَـلِّ بِالاسْـتِقَامَةِ ، وَالْمُرُونَـةِ وَالدَّهَـاءِ وَالْمُرَاوَغَـةِ وَبُثَّـهُ فِـي أَبْنَـائِكَ ... أَنَـا أَنْظُـرُ إِلَيْـكَ الآنَ ... مُطْمَئِنًّـا لِـأَنَّنِي عَلَـى يَقِـينٍ مِـنْ أَنَّـكَ سَتَكُونُ قَـاهِرًا لِلْمَـوْتِ لِـأَنَّكَ طَـالِبٌ لِلْحَيَـاةِ فِيـكَ وَفِـي أَبْنَـائِكَ ...

ـ أَيُّهَـا الأَبُ الَّـذِي مَـا إِنْ أَخْلَـدْتُ إِلَـى حَنَانِـهِ حَتَّـى آذَنَ بِـالرَّحِيلِ ، أَنَـا الطِّفْلُ الَّـذِي فِيـكَ ، أَنَـا ذَاكَ الَّـذِي يُنْصِـتُ إِلَيْـكَ مُنْـذُ أَحْقَـابٍ ، وَيَحْمِـلُ بَيْـنَ جَنْبَيْـهِ سِـرَّكَ كَمَـا لاَيَقْـدِرُ غَـيْرُ الأَطْفَـالِ الْحِفَـاظَ عَلَيْـهِ . أَنَـا ابْـنُ الصَّيْـفِ حَـرَارَةً وَنُضْجًـا وَإِثْمَـارًا وَشِـدَّةَ بَـأْسٍ . أَنَـا مَـنْ شَـوَّشَ عَلَيْـهِ ، رَغْـمَ هَـذَا ، الْكِبَـارُ الْبُعَـدَاءُ طُفُولَتَـهُ فِـي دَارِ الْجَمَاعَـةِ . فَلَكَـمْ كُنْـتُ فِيهَـا أَصْـرَخُ فِـي نَفْسِي لِتَسْـمَعَنِي وَأَنْـتَ بَعِيـدٌ ، حَتَّـى يَبَـحَّ صَوْتِـي وَأَنْسَـى الْبُكَـاءَ ، كَمَـا تَعَـوَّدَ ذَلِـكَ الأَطْفَـالُ عِنْـدَ طَلَـبِ شَـرْبَةِ مَـاءٍ ، أَوالشُّـعُورِ بِـالأَلَمِ أَوِ الإِحْسَـاسِ بِالْغَلَبَـةِ

وَالْعَجْزِ . وَالْعَالَمُ الَّذِي كُنْتُ قَادِرًا عَلَى أَنْ أَخْلُقَ فِيهِ دُنْيَا مِنَ الْخَيَالِ وَالسِّحْرِ وِالْجَمَالِ ، وَأَنْسُجَ ضِمْنَهُ فَضَاءً تَشَابَكَتْ فِيهِ أَلْوَانُهُ ، وَتَمَازَجَتْ إِيقَاعَاتُهُ وَأَلْحَانُهُ ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَحَوَّلَ إِلَى عَالَمٍ عِبْؤُهُ ثَقِيلٌ وَمَجَالُ الإِبْدَاعِ فِيهِ قَلِيلٌ . فَرَكَنْتُ إِلَى الْوِحْدَةِ فِي الطَّبِيعَةِ جَافِيًا ، وَإِلَى مُنَاغَاةِ الطَّيْرِ وَمُنَاجَاةِ الْحَيَوَانِ صَامِتًا : أَسْتَجْلِي هَذَا السِّرَّ الدَّفِينَ الَّذِي اسْتَكْنَهْتُهُ فِيكَ . قَبْلَ ذَلِكَ كُنْتُ أَجِدُ أَتْفَهَ الأَشْيَاءِ مَمْلُوءًا بِكُلِّ شَيْءٍ ، زَاخِرًا بِمَا لاَيَخْطُرُ عَلَى بَالٍ ، وَالْيَوْمَ أَصْبَحْتُ لاَ أَجِدُ شَيْئًا فِي أَخْطَرِ الأَشْيَاءِ وَأَعْظَمِهَا . تَخَطَّيْتُ الْحَاجِزَ بَيْنَ عَالَمِ الْكِبَارِ وَعَالَمِ الصِّغَارِ ، وَأَنَا مَا زِلْتُ مَشْدُودًا إِلَى صِبْيَانِيَّةٍ بَرِيئَةٍ تَنَصَّلَتْ مِنْهَا طُفُولَةٌ هِيَ بِنْتٌ لِلْوَدَاعِ الْمُتَوَاصِلِ ، لِأَنَّنِي ابْنُ الْوَدَاعِ الَّذِي لَمْ يَنْقَطِعْ ، لِوَدَاعٍ رَضَعْتُهُ فِي لَبَنِ أُمِّي كَقَدَرٍ لاَ مَحِيدَ عَنْهُ . اُنْظُرْ إِلَيَّ يَا أَبِي ، فَطُفُولَتِي ، مَهْمَا كَانَ الأَمْرُ ، لاَتُعَمِّقُ مَأْسَاتِكَ بَلْ تُخَفِّفُ مِنْهَا ، لِأَنَّنِي أَنَا نَجَاتُكَ ، أَنَا اسْتِقَامَتُكَ الَّتِي سَتُوَاصِلُ مَجْدَكَ ، أَنَا حِكْمَتُكَ تَتَغَذَّى مِنْ عَذَابِكَ وَإِخْفَاقِكَ ، وَإِنْ مِتَّ فَقَدْ تَأَجَّلَتْ فِيَّ حَيَاتُكَ ، وَضَمِنْتَ لَهَا الْبَقَاءَ ، إِذِ الْمَوْتُ لَمْ يُولَدْ مَعِي يَوْمَ أَنْجَبْتَنِي ، وُلِدَ مَعِي الْعَذَابُ وَفُطِمْتُ عَلَى الْوِحْدَةِ فِي الْوَدَاعِ ، وَأَنَا بَيْنَ أَطْفَالٍ عَدِيدِينَ فِي بَيْتٍ يَعُجُّ بَالسَّاكِنِينَ . اُدْعُ لِي يَا أَبِي ، وَأَنَا لَمْ أُمْنَحِ السَّعَادَةَ إِلاَّ لَمَامًا ، أَنْ أُوهَبَ الذَّكَاءَ وَالْفَهْمَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى التَّطَوُّرِ وَالتَّقَدُّمِ ، وَأُجَنَّبَ عِنَادَ وَلَجَاجَةَ الْفَظِّ الْمُكَابِرِ ، وَأُلْهَمَ الْبُعْدَ عَنْ كُلِّ مُحَافَظَةٍ بَلِيدَةٍ وَسَلَفِيَّةٍ مَقِيتَةٍ تَسُدُّ نَوَافِذَ الالْتِحَامِ بِكُلِّ جَدِيدٍ طَرِيفٍ كَمَا كَانَتْ قِسْمَتُكَ ، حَتَّى أَكُونَ قَادِرًا عَلَى إِشْعَالِ الْجَذْوَةِ الَّتِي انْطَفَأَتْ فِيكَ مِنْ جَرَّاءِ الظُّلْمِ وَالْقَهْرِ وَالْجَهْلِ وحَتَّى أَقْوَى عَلَى إِضَاءَةِ وَقْدَةِ النَّفْسِ الَّتِي أَذْبَلَتْهَا فِيكَ بَرَاءَةُ الْغَفْلَةِ وَكَرَمُ الْغَرَارَةِ . اُدْعُ لِي بِأَنْ أَكُونَ

مِمَّنْ يُعَانِقُونَ عَصْرَهُمْ وَوَطَنَهُمْ وَيَحْتَضِنُونَهُمَا احْتِضَانًا ، وَيَلْتَحِمُونَ بِهِمَا الْتِحَامًا ، مُتَشَبِّثًا بِقِيَمِ الْبِنَاءِ وَالْخِصْبِ وَالإِعْمَارِ ، وَلاَ أَكُونَ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُولُونَ الْعَصْرَ الأَدْبَارَ وَيَزْوَرُّونَ عَنِ الْوَطَنِ بِالتَّنَكُّرِ وَالْفِرَارِ ، فَيَكُونُ الطَّلاَقُ وَالْفِرَاقُ وَالإِدْبَارُ .

وَابْتَسَمَ عَامِر وَكَأَنَّهُ اطْمَأَنَّ إِلَى مَا فَهِمَهُ مِنْ نَظَرَاتِ ابْنِهِ وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَّ بَصَرَهُ عَلَى أَوْلاَدِهِ الآخَرِينَ وَعَلَى كِيمَة بِالْخُصُوصِ وَعَدَّى بِنَظَرِهِ عَلَى لِلأَهَمْ قَالَ بِصَوْتٍ مَبْحُوحٍ :

ـ أُوصِيكَ خَيْرًا بِأُمِّكَ وَإِخْوَتِكَ .

وَرَشَقَ عَامِر نَظَرَهُ فِي كِيمَة وَهْيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَعَيْنَاهَا مُخْضَلَّتَان بِالدُّمُوعِ ، لاَ تُمَيِّزُ مِنْ وَجْهِهِ إِلاَّ عَيْنَيْنِ انْطَفَأَ نُورُهُمَا ، وَكَأَنَّهَا فَهِمَتْ خِطَابَهُ :

ـ كِيمَة ، لاَ يَمْنَعُنِي حُبِّي لَكِ مِنْ أَنْ أَقُولَ لَكِ أَنَّكِ امْرَأَةٌ لَمْ تَتَخَلَّصِي مِمَّا نَسَجَتْهُ الْغَرِيزَةُ فِي رَحِمِ أُمِّكِ ، وَإِنْ نَحَوْتِ مِنْ نَزْعَةِ التَّمَلُّكِ الْمُهْلِكَةِ لِلْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ ، بَلْ كَفَرْتِ بِمَا بَثَّتْهُ الْغَرِيزَةُ فِي رَحِمِكِ أَنْتِ تَعِيشِينَ مَأْسَاةً أَبْطَالُهَا إِخْوَتُكِ وَأَبْنَاؤُكِ ... سَيَكُونُ الصِّرَاعُ مَرِيرًا بَيْنَهُمْ ... وَأَنْتِ الضَّعِيفَةُ الْمَحْكُومَةُ مِنْ غَرِيزَتِكِ الأَخَوِيَّةِ ... أَنْتِ لَنْ تَقْدَرِي عَلَى حَسْمِ الصِّرَاعِ ... وَلَكِنْ عَلِي وَحْدَهُ سَيَكُونُ الْمُنْتَصِرَ .

وَشَيَّعَتْ كِيمَة بِنَظَرِهَا نَظْرَةَ عَامِر لِعَلِي ، ثُمَّ حَجَبَتِ الدُّمُوعُ بَصَرَهَا فَتَعَلَّقَ عَلِي بِعُنُقِ أُمِّهِ وَاحْتَضَنَهَا فَاحْتَضَنَتْهُ وَبَكَيَا مَعًا ، وَلاَ يُخَفِّفُ مِنْ وَقْعِ الْمُصِيبَةِ الْمُشْتَرَكَةِ غَيْرُ احْتِضَانِ الْمَنْكُوبَيْنِ بَعْضِهِمَا لِبَعْضٍ .

وَأَغْمَضَ عَامِر عَيْنَيْهِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي انْطَبَعَتْ فِي قَرَارَةِ بَصَرِهِ وَدَخَلَ فِي إِغْمَاءَةٍ طَوِيلَةٍ لَمْ يُخْرِجْهُ مِنْهَا الطَّبِيبُ الَّذِي جَاءَ عَلَى عَجَلٍ .

وَفِي الصَّبَاحِ عَلاَ فِي الْمَنْزِلِ الصِّيَاحُ ...]

9

[وَبَيْنَمَا كَانَ الْجَمِيعُ فِي ذُهُولٍ مِنْ وَقْعِ الصَّدْمَةِ طُرِقَ الْبَابُ ، فَأَسْرَعَ الْعَمَّارِي بِفَتْحِهِ ، وَإِذَا بِهِ يَجِدُ أَمَامَهُ أَخَاهُ حَامِد . فَاسْتَغْرَبَ مَجِيئَهُ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ وَالْبَرْقِيَّةُ الَّتِي أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ وَإِلَى حَفِيظ صَبَاحًا لَيْسَ فِي الإِمْكَانِ أَنْ تَصِلَ إِلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ بَعْدُ . وَلَكِنَّهُ مَا إِنْ سَلَّمَ عَلَيْهِ حَتَّىوَجَدَ أُمَّهُ وَرَاءَهُ تَسْتَقْبِلُ حَامِد مُتَعَجِّلَةً فِي صُورَةِ مَنْ لَهُ أَوَامِرُ أَكِيدَةٌ يَنْبَغِي إِبْلاَغُهَا وَلاَتَنْتَظِرُ التَّأْجِيلَ .وَفِيمَا كَانَ الْعَمَّارِي مُنْصَرِفًا إِلَى غَلْقِ الْبَابِ وَإِذَا بِدَادَا الْخَادِمَةِ الْبَدِينَةِ السَّوْدَاءِ تَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ وَهْيَ تُوَلْوِلُ وَتَقُولُ :

ـــ يَا لِلاَّتِي ... يَا لِلاَتِي ... مَا أَعْظَمَ الْمُصِيبَةَ الَّتِي حَلَّتْ بِنَا ... تَقُولِينَ لِي الْبَارِحَةَ ... سِيدِي سَيَمُوتُ وَأَنَا أَقُولُ لَكِ بَعِيدْ الشَّرّ ... سِيدِي كَالْجَمَل ... وَأَنَا رَغْمَ هَذَا بَعَثْتُ الْبَرْقِيَّةَ لِسِيدِي حَامِد ... وَهَا هُوَ جَاء ...

ـــ أُسْكُتِي يَا مَقْلُوعَة ... لاَ تَكْتُمِينَ سِرًّا أَبَدًا ، اِذْهَبِي أَنْتِ وَحَامِد . (وَهَمَسَتْ فِي أُذُنِ حَامِد قَائِلَةً بِدُون أَنْ يَسْمَعَهَا الْعَمَّارِي) . اِسْتَعِنْ بِدَادَا وَخُذِ الصُّنْدُوقَ الْمَوْجُودَ فِي الْغُرْفَةِ الْكَائِنَةِ قُرْبَ بَابِ الْخُوخَةِ وَخَبِّئْهُ عِنْدَ صَاحِبِكَ حَايِيم الْيَهُودِي فَهْوَ ثِقَةٌ خِيْر مِنْ عَرْبِي ... وَسَأَقُولُ

لَـكَ مَـا تَفْعَلُـهُ ... وَأَنْـتِ يَـا سُـكَّارَة مُقَلَّعَـة (هَامِسَـةً فِــي أُذُنِ دَادَا مِــنْ دُونِ أَنْ يَسْـمَعَهَا الْعَمَّـارِي وَقَـدْ هَـمَّ بِـالْخُرُوجِ مِــنَ الْبَهْـوِ) سَــأَقْطَعُ لِسَــانَكِ لَــوْ تَفُوهِــــينَ بِشَــيْءٍ ... وَاللّـهِ أَحْرِمُـكِ مِمَّــا وَعَدْتُـكِ بِـهِ ... هَيَّــا (رَافِعَــةً صَوْتَهَا) أُغْرُبِـي عَـنْ وَجْهِي ... يَـا قِرْبَـةً مَنْقُوبَـةً ...

قَالَ حَامِد وَلَمْ يَفْهَمْ بَعْدُ كُلَّ أَلاَعِيبِ أُمِّهِ :

ـ يَـا أُمِّي ... خَلِّينِي أُسَلِّمْ عَلَى أُخْتِيَ ... وَأَنْظُـرُ إِلَـى ابْـنِ عَمِّـي نَظْـرَةً أَخِيرَةً .

ـ مِـنْ بَعْـد ... يَـاوِلْد الْكَلْـب ... لاَ تَــأْتِي إِلاَّ عِنْدَمَــا تَتَيَقَّــنُ أَنَّ حَنَــش بُــو فَطِيرة وَصَـلَ ...سَـمَعْتَنِي يَـا مَقْلُـوع ...

وَتَفَـرَّقَ الْجَمْـعُ الْمُخَــاوِزُ ، وَدَخَــلَ الْعَمَّــارِي غُرْفَـةَ ابْــنِ عَمِّــهِ ظَانّــا أَنَّ أَخَـاهُ حَـامِد سَيَلْتَحِقُ بِـهِ ، وَلَكِنَّـهُ لَـمْ يَـرَ أَحَـدًا إِلاَّ أُمَّـهُ وَقَـدْ أَمْسَــكَتْ بِيَــدِهِ وَقَالَتْ :

ـ اِذْهَبْ إِلَـى الْمَحْكَمَـةِ وَأَعْلِـمْ الرَّئِيـسَ بِوَفَـاةِ عَـامِر .

وَلَـمْ يَجِـدِ الْعَمَّـارِي فُسْحَةً مِـنَ الْوَقْـتِ لِيُعْلِـمَ أُخْتَـهُ بِمَجِـيءِ حَـامِد وَهْــيَ السَّـاهِمَةُ الْبَاكِيَـةُ مَـعَ أَبْنَائِهَــا. وَمَــا لَبِثَــتْ دَادَا أَنْ أَتَمَّــتْ مُهِمَّتَهَــا وَدَخَلَــتِ الْغُرْفَـةَ وَهْـيَ تُعْـوِلُ وَتُقَبِّـلُ كُـلَّ الْعَائِلَـةِ فِـي مَظْهَـرٍ يَدْعُـو إِلَـى الضَّحِــكِ لَــوْلاَ مَأْسَوِيَّةُ الْمَوْقِـفِ . وَوَقَفَــتْ أَمَــامَ السَّــرِيرِ الْمُسَــجَّى عَلَيْــهِ عَــامِر وَأَخَــذَتْ تُعَـدِّدُ مَنَاقِبَـهُ وَتَصِفُـهُ أَوْصَافًـا لاَ تَخْطُــرُ عَلَــى بَــالِ أَحَــدٍ فِــي لُكْنَــةٍ زَنْجِيَّــةٍ وَاضِحَـةٍ . وَلَكِنَّهَـا سَـكَتَتْ بَغْــــتَةً عِنْدَمَــا أَوْمَــأَتْ إِلَيْهَــا لِلاَّهُــمْ بِــالْخُرُوجِ قَائِلَةً :

ـــ هَيَّا نُرَتِّبْ أَثَاثَ الْمَنْزِلِ وَنُهَيِّئُ الْبَيْتَ لِزِيَارَةِ النَّاسِ ، فَسَيَهُبُّونَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .

ثُمَّ لَمَّا خَرَجْنَا قَالَتْ لِلاَّهُمْ لِدَادَا :

ـ هَلْ قَدَرَ حَامِد عَلَى حَمْلِ الصُّنْدُوقِ ؟

ـ نَعَمْ يَا لِلاَّتِي ... تَبَارَكَ اللَّهُ ... الصُّنْدُوقُ لاَيَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ جَمَلٌ ...

ـــ كَبَّ اللَّهُ سَعْدَكِ ... تُرِيدُ أَنْ تُصِيبَهُ عَيْنٌ كَمَا أَصَابَتْ عَامِر ... كُلُّ الْمَصَائِبِ جَاءَتْ مِنْ عَيْنِكَ الْخَوْصَاءِ ... يَا قِرْبَةَ الْقَطِرَانِ ...

وَبَدَأَتِ الْجَارَاتُ يَأْتِينَ زُرَافَاتٍ وَوِحْدَانًا . وَمَا إِنْ رَجَعَ الْعَمَّارِي حَتَّى جَاءَ خُوجَة رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ وَمَعَهُ أَبْرَزُ أَعْضَادِهِ وَالْكُتَّابُ وَالأَعْوَانُ وَقَالَ لِلْعَمَّارِي فِي نَبْرَةٍ مِلْؤُهَا الأَسَى وَالْحُزْنُ بَعْدَ أَنْ عَزَّاهُ فِي الْمُصَابِ الْجَلَلِ وَوَاسَى عَلِي وَإِخْوَتَهُ . ثُمَّ وَقَفَ مُتَأَثِّرًا أَمَامَ جُثْمَانِ نَائِبِهِ فِي خُشُوعٍ لاَيَقْدِرُ تَقَمُّصَهُ إِلاَّ مَنْ حَذِقَ مِثْلَهُ النِّفَاقَ وَالتَّصَنُّعَ .

ـ مَتَى سَيَتِمُّ الدَّفْنُ ؟

وَكَانَ السُّؤَالُ بِمَثَابَةِ الصَّدْمَةِ ، إِذْ لاَ أَحَدَ فِي الْمَنْزِلِ فَكَّرَ فِي الأَمْرِ . وَلَكِنَّ عَلِي اِنْبَرَى لِمُحَمَّد خُوجَة وَقَالَ :

ـــ وَالِدِي سَيُدْفَنُ بِبَلْدَتِنَا فِي مَقْبَرَةِ الأَجْدَادِ ... نَحْنُ نَنْتَظِرُ عَمِّي وَسَيَتَّصِلُ بِحَضْرَتِكُمْ عِنْدَ حُلُولِهِ .

أَحَسَّ عَلِي كَأَنَّهُ خَرَجَ فِي تِلْكَ الدَّقِيقَةِ مِنَ الطُّفُولَةِ لِيَخُوضَ غِمَارَ الْحَيَاةِ وَأَنَّ ذَلِكَ ، يُعَدُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ ، أَوَّلَ قَرَارٍ اِتَّخَذَهُ مُنْذُ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا . وَلَمَحَ رَجَّةً خَفِيفَةً سَرَتْ فِي جِسْمِ خُوجَة ، عَبَّرَتْ عَنْهَا حَرَكَةٌ تِلْقَائِيَّةٌ ظَهَرَتْ عَلاَمَاتُهَا فِي مَلاَمِحِ الْوَجْهِ وَالنَّظْرَةِ وَفِي قَوْلِهِ:

ـ مَنْ تَرَكَ خَلِيفَةً لَهُ لَمْ يَمُتْ ... إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَكُونُ خَيْرَ خَلَفٍ لِخَيْرِ سَلَفٍ ... كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ حَاضِرَ الذِّهْنِ دَائِمًا ... صَاحِبَ حُجَّةٍ ... حَسَنَ الْمَنْطِقِ ... الْبَرَكَةُ فِيكُمْ .

وَبَدَتْ لِعَلِي رَأْرَاةُ هَذَا الرَّهْطِ مُزْعِجَةً ، مُقَرْقِعَةً ، بَلْ زِلْزَالاً هَدَّ كِيَانَهُ ... لِأَنَّهُ فَهِمَ مِمَّا يَدُورُ مِنْ حَدِيثٍ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الثَّلاَثَةِ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ السَّبَبُ فِي الْكَارِثَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِمْ . وَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْقَسْوَةِ لَمْ تُلَيِّنْهَا وَلاَ أَضْعَفَتْ مِنْ حِدَّتِهَا آثَارُ الْمُصِيبَةِ ، بَلْ أَحَجَّتْهَا وَأَعْطَتْ لِعَلِي شُحْنَةً فِيهَا النِّقْمَةُ وَالثَّوْرَةُ . وَمَا كَانَ مِنْ رَئِيسِ الْمَحْكَمَةِ إِلاَّ أَن اخْتَصَرَ الزِّيَارَةَ وَاعْتَذَرَ لِلْعَمَّارِي الَّذِي هَيَّأَ لَهُ كُرْسِيًّا لِلْجُلُوسِ ، وَلَكِنَّهُ خَرَجَ لاَ يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ .

وَمَا أَنْ تَوَارَى الْجَمْعُ حَتَّى جَاءَتْ لِلاَّهُمْ وَأَخَذَتْ تُؤَنِّبُ عَلِي قَائِلَةً :

ـ لِمَاذَا لَمْ تُشَاوِرْنَا ... مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّهُ سَيُدْفَنُ فِي الْبَلَدِ ؟ وَلِمَاذَا نَنْتَظِرُ حَنَش بُوفَطِيرَة ... آ ... بَدَأَتَ تُطْلِعُ قُرُونَكَ ...

ـ سَمِعْتُ وَالِدِي يَقُولُ إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُدْفَنَ حِذْوَ جَدِّهِ الشَّيْخِ يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَسَكَتَتِ الْعَجُوزُ وَلَمْ تَفُهْ بِالْكَلاَمِ الْبَذِيءِ مِثْلَ عَادَتِهَا لِأَنَّهَا لَمْ تَأْلَفْ مُخَاطَبَةَ عَلِي كَمَا تُخَاطِبُ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ ... هُوَ وَوَالِدُهُ تَضَعُهُمَا فِي مَرْتَبَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ . وَكَانَتْ دَائِمًا تَقُولُ :

ـ وَلَدِي عَلِي خَلِيفَةُ أَبِيهِ ... سَيَكُونُ وَزِيرًا مِثْلَ أَبِيهِ .

وَتُرَدِّدُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أُغْنِيَةً تَعْبَقُ بِالرِّفْقِ وَالْحَنَانِ . وَكَانَ عَلِي يَتَعَجَّبُ دَائِمًا مِنْ قُدْرَةِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ عَلَى تَقَمُّصِ شَخْصِيَّتَيْنِ مُتَنَاقِضَتَيْنِ : غَالِبًا مَا تَبْدُو فِي الأُولَى شِرِّيرَةً ، مُحْتَقِرَةً لِكُلِّ مَنْ حَوْلَهَا صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا ،

سَلِيطَةَ اللِّسَانِ ، بَذَاءَةً وَسِبَابًا وَتَرْصِيفًا لِلْكَلاَمِ النَّابِي وَفِي الثَّانِيَةِ نَدَرَ أَنْ رَأَيْتَهَا بَشُوشَةً ، حَنُونَةً ، رَقِيقَةَ اللَّفْظِ مُنَغَّمَةَ النَّبْرَةِ إِلاَّ عِنْدَمَا تَتَّجِهُ إِلَى وَالِدِهِ بِالْخِطَابِ الْهَادِئِ ، بِالطَّبْعِ قَبْلَ مَرَضِهِ وَسَاعَاتِ نَزْعِهِ ، أَوْ تَخُصُّهُ هُوَ بِاللَّفْتَةِ الْعَطُوفِ قَبْلَ وَبَعْدَ مُصَابِهِ فِي أَبِيهِ . وَالْغَرِيبُ فِي الأَمْرِ أَنَّهُ كَانَ يَرَى وَجْهَهَا فِي هَذِهِ الْحَالِ وَقَدِ انْقَلَبَ إِلَى وَجْهٍ فِيهِ مَسْحَةٌ مِنَ الْجَمَالِ وَالْجَاذِبِيَّةِ تَعْلُوهُ ابْتِسَامَةٌ رَقِيقَةٌ ، مُحَبَّبَةٌ إِلَيْهِ ، كَمْ ظَلَّلَتْ أَحْلاَمَهُ وَهُوَ صَغِيرٌ ، طُمَأْنِينَةً وَشُعُورًا بِالنِّعْمَةِ وَالسَّعَادَةِ . . وَاعْتَبَرَ ، مِنْ صِغَرِهِ ، أَنَّ الإِنْسَانَ لَيْسَ خَيْرًا فَقَطْ ، وَلاَ شَرًّا فَحَسْبُ وَإِنَّمَا هُوَ مَزِيجٌ عَجِيبٌ مِنْ هَذَا وَذَاكَ ؛ وَالظُّرُوفُ الْمُتَبَايِنَةُ ، وَالْمَوَاقِفُ الْمُتَغَايِرَةُ الْمُتَعَدِّدَةُ هِيَ الَّتِي تُسَاعِدُ عَلَى تَرْجِيحِ كَفَّةِ الْخَيْرِ أَوْ كَفَّةِ الشَّرِّ .

وَفِي الأَثْنَاءِ ، وَبَابُ الدَّارِ مَفْتُوحٌ ، دَخَلَ حَفِيظ الَّذِي جَاءَ عَلَى جَنَاحِ السُّرْعَةِ ، وَوَقَفَ أَمَامَ جُثْمَانِ أَخِيهِ ، مُكْفَهِرَّ الْوَجْهِ صَامِتًا ، لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ ، بَلْ تَعَمَّدَ أَلاَّ يُخَاطِبَ لاَ كِيمَة وَلاَ لِلاَّهُمْ ، وَغَايَةُ مَا فَعَلَ أَنْ عَرَضَ خَدَّهُ لِيُقَبِّلَهُ عَلِي وَسَائِرُ الأَوْلاَدِ .

وَاقْتَرَبَ مِنَ السَّرِيرِ وَانْحَنَى لِيَنْظُرَ إِلَى وَجْهِ أَخِيهِ فِي هَيْئَةِ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْعَشَى لاَ الأَسَى ، وَلِلاَّهُمْ فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْتِ تُرَاقِبُ فِي صَمْتٍ مَايَحْدُثُ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ قَالَتْ :

ـ الطَّهْمَاشْ جَاء ...

فَالْتَفَتَ عِنْدَ سَمَاعِ لَفْظَةِ جَاء وَرَأَى لِلاَّهُمْ فَقَالَ مُغْتَاظًا :

ـ لِمَاذَا لَمْ تُشْعِرُونِي بِمَرَضِ أَخِي ؟

ـ حَسِبْنَاهُ مَرِيضًا مَرَضًا عَادِيًّا .

ـــ وَالْبَرْقِيَّةُ الْمُرْسَلَةُ لابْنِكِ حَامِد ، مُنْذُ صَبَاحِ الْبَارِحَةِ ، وَسَاعِي الْبَرِيدِ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْبَلْدَةِ . مَا خَبَرُهَا ؟

ـــ حَايِيمْ الْيَهُودِي يُفَتِّشُ عَنْهُ قَالَ طَاحْ عَلِيهْ كِمْبِيَالْ ، بَعْثْتْ لُو تَلْ ، عَمَلْت عِيبْ الأُمّ مَا عَادِشْ تَبْعَث لِوَلَدِهَا تَلْ ... يَا دِينِي ... جَاء شَارِيهَا ... خُوهْ مِيتْ وَهُوَ مَا يَحْشِمْشْ ... وَفَاتْ الدُّنْيَا ... يَا نَارِكْ عَلَى رُوحِكْ يَا عَامِر...

وَأَخَذَتْ تَخْبِطُ فَخِذَيْهَا وَتُظْهِرُ الْمَسْكَنَةَ وَتَتَقَمَّصُ هَيْئَةَ مَنْ غُلِبَ عَلَى أَمْرِهِ ، وَحَفَيِّظ لاَ يُعِيرُهَا أَيَّ اهْتِمَامٍ وَسَأَلَهَا فِي حَنَقٍ :

ـ حَامِد جَاء ؟

ـــ لاَ (وأَرْدَفَتْهَا بِالدُّعَاءِ عَلَيْهِ بِالْعَمَى مِنْ دُونِ أَنْ يَسْمَعَ) .

وَدَخَلَ حَامِد فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَأَنَّهُ رِيحٌ صَرْصَرٌ كَعَادَتِهِ ، وَاصْطَدَمَ بِوَالِدَتِهِ قَائِلاً وَهْوَ يُقَبِّلُهَا :

ـ هَذَا حَايِيمْ سَيُجَرِّدُنِي مِنْ رِزْقِي ... لِمَاذَا الْبَابُ مَفْتُوحٌ ؟

ـــ الْعَمَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ ... مَاذَا دَهَاكُمْ هَلْ أَصْبَحْنَا فِي دَارِ عُمْيَانٍ ... أَلَمْ تَرَ ابْنَ عَمِّكَ مَيِّتًا ؟ (وَهْيَ تُبْعِدُهُ عَنْهَا بِكِلْتَا يَدَيْهَا وَتَتَأَفَّفُ مِنْ رَائِحَتِهِ إِذْ كَانَتْ الْخَمْرُ تَعْبَقُ مِنْهُ) ... سَتَأْكُلُكَ الذِّئَابُ الآنَ يَا وِلْدْ الْكَلْبِ (مُظْهِرَةً عَظَمَةَ الْمُصِيبَةِ) .

ضَرَبَ حَامِد عَلَى وَجْهِهِ وَاتَّجَهَ نَحْوَ السَّرِيرِ وَوَقَفَ إِلَى جَانِبِ حَفَيِّظ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ عَامِرٍ وَالْتَقَيَا الاثْنَانِ فِي نَفْسِ الْمَوْقِفِ ، وَلَكِنْ بِهَيْئَةٍ مُغَايِرَةٍ : حَفَيِّظ مُنْحَنٍ يُحَاوِلُ ، بِمَلاَمِحَ مُعَجَّنَةٍ وَرَأْسٍ ثَقِيلٍ ، تَبَيُّنَ وَجْهَ

عَـامِر ، وَحَـامِد وَاقِـفٌ كَالْعَصَـا ، بِوَجْـهٍ صَفِيـقٍ حَـادٌّ كَالْمُوسَـى، وَعَيْنَيْـنِ ثَعْلَبِيَّتَيْنِ ، وَقَدْ لَـفَّ الْمَكَـانَ بِبَصَـرِهِ لَفَّـةً وَاحِـدَةً .

حَفَيِّظ حَـافَظَ عَلَى مَرْتَبَتِـهِ الاجْتِمَاعِيَّـةِ فِي بَلْدَتِـهِ ، فَلَبِـسَ بُرْنُسًـا مِـنْ وَبَـرِ الإِبِـلِ وَجُبَّـةَ صُـوفٍ بِالْبُشْـمَارِ ، لَوْنُهَـا أَزْرَقُ دَاكِـنٌ ،تَحْتَهَـا صَدْرِيَّـةٌ وَفَرْمَلَـةٌ مِـنَ الْمَلْـفِ ، يَبْـدُو مِنْهَـا فِـي مُسْـتَوَى الْعُنُـقِ قَمِيـصٌ بِرَقَبَـةٍ قَصِـيرَةٍ وَعَلَـى الـرَّأْسِ شَاشِـيَّةٌ مُزَمَّلَـةٌ بِزَمَالَـةٍ مِـنْ حَرِيـرٍ مَطْـرُوزٍ هِنْـدَاوِيٌّ . وَانْتَعَـلَ كُنْـتَرَةً وَهْيَ بَلْغَـةٌ بِقَدَمَيْـنِ عَـالِيَيْنِ .

أَمَّـا حَـامِد فَقَـدْ جَـاءَ إِلَـى سُوسَـةَ وَهْـوَ لاَبِـسٌ لِبَـاسَ الْفُقَـرَاءِ : قَمِيـصٌ طَوِيـلٌ إِلَـى الْكَعْبَيْـنِ بِـلاَ رَقَبَـةٍ (سُـورِيَّة مُـدَوَّر) وَقَـدْ تَلَفَّـعَ بِحِـرَامٍ مُهْـتَرِ وَاسْتَغْنَى عَنِ السَّرَاوِيلِ مِثْلَمَـا هُـوَ رَائِـجٌ لَـدَى تِلْـكَ الطَّبَقَـةِ فِـي ذَلِـكَ الزَّمَـنِ ، وَوَضَـعَ عَلَـى رَأْسِـهِ شَاشِـيَّةً قَدِيمَـةً مُزَمَّلَـةً بِزَمَالَـةٍ تَـبْرُورِي وَبِقَدَمَيْـهِ بَلْـغَةٌ مُتَرَهِّلَـةٌ .

وَبِقَـدْرِ مَاكَـانَ حَفَيِّظ يَتَشَـبَّهُ بِأَكَـابِرِ الْقَـوْمِ وَخُصُوصًـا أَخَـاهُ عَـامِر ، كَـانَ حَـامِد يَرْتَـاحُ إِلَـى حَيَـاةِ الصَّعْلَكَـةِ وَاللَّهْـوِ الْمَـاجِنِ الْبَطِـرِ . وَيَلَـذُّ لَـهُ أَنْ يَنْتَسِـبَ إِلَـى أَخْوَالِـهِ الْمَعْرُوفِـينَ بِـاللُّؤْمِ وَالْفُجُـورِ وَالخِسَّـةِ وَالْخُـبْثِ وَالسَّـفَالَةِ . وَيَعْتَـبِرُ ذَلِـكَ مِـنْ عَلاَمَـاتِ الْفُحُولَـةِ الَّتِـي أَعْـوَزَتْ حَــفَيِّظ وَأَمْثَالَـهُ . وَكَـانَ يَجْلِسُ فِـي السُّـوقِ مَـعَ الأَوْبَـاشِ وَالسُّـوقَةِ وَالنَّصَّـابِينَ . وَكَمْ أَلْبَسَتْهُ أُمُّهُ أَفْخَـرَ لِبَاسٍ فَبَاعَهُ لِيَقْضِيَ بِثَمَنِهِ لَيْلَـةً حَمْـرَاءَ فِي مَـاخُورٍ مِـنَ الْمَوَاخِيرِ . وَلَقَـدْ كَفَـرَ مُنْـذُ صِغَرِهِ بِكُـلِّ مَـا يَمُـتُّ إِلَى الْعَمَـلِ بِسَبَبٍ . فَـإِذَا رَآهُ النَّـاسُ فَتَـحَ دُكَّانًـا ، أَوْ غَـامَرَ وَزَجَّ بِنَفْسِـهِ فِـي مَشْـرُوعٍ فِلاَحِـيٍّ ، أَوِاشْتَرَى كَرُوسَـةً لِنَقْلِ الْمُسَـافِرِينَ وَتَزَيَّـى بِـزِيٍّ لاَئِـقٍ فَـذَاكَ لِيُبَـدِّدَ ، بَعْـدَ أَيَّـامٍ

قَلِيلَةٍ ، رَأْسَ الْمَالِ الَّذِي كَسَبَهُ بِالنَّصْبِ وَالاحْتِيَالِ وَمَعَهُ الرِّبْحُ إِنْ كَانَ . وَيَغِيبُ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ زَمَنًا يَطُولُ أَوْ يَقْصُرُ ، لِيَظْهَرَ فِي زِيٍّ الْفُقَرَاءِ وَالْمُعْدَمِينَ . وَيَصِلُ بِهِ الأَمْرُ إِلَى أَنْ يُسْقِطَ عَلَى لَحْمِهِ كَدْرُونًا وَيَحْتَزِمَ بِحَبْلٍ ، فَلاَ قَمِيصَ وَ لاَ سَرَاوِيلَ وَلاَ حَتَّى عَفَّاسًا فِي قَدَمَيْهِ اللَّهُمَّ إِلاَّ شَاشِيَّةٌ قَدِيمَةٌ أَنْهَكَهَا الْغُبَارُ وَأَشِعَّةُ الشَّمْسِ وَالْعَرَقُ طِيلَةَ سَنَوَاتٍ . فَتَحَنَّطَتْ وَتَحَجَّرَتْ وَلَو رَمَيْتَهَا عَلَى الأَرْضِ لتَكَسَّرَتْ . وَلِهَذَا عَمَّرَتْ عِنْدَهُ مَعَ الْكَدْرُونِ إِذْ لَمْ تَجِدْ مَنْ يَشْتَرِيهَا هِيَ وَزَمَالَتَهَا الْمَلْفُوفَةَ عَلَيْهَا بِصُورَةٍ تَنِمُّ عَنْ رَقَاعَةِ لاَبِسِهَا ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الزَّهْطَ لاَ يَكُفُّهُ تَحَرُّجٌ وَلاَ يَرْدَعُهُ تَوَرُّعٌ . وَمَعَ هَذَا فَهُوَ لَمْ يَصِلْ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْمُتَفَسِّخِينَ مِنَ التُّونِسِيِّينَ عِنْدَمَا مَشَوْا فِي الطَّرِيقِ عُرَاةَ الرُّؤُوسِ . وَكَانَ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي حَمَاسٍ غَرِيبٍ مُضْحِكٍ كَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ أَوْ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ .

الْتَفَتَ حَفَيِّظ وَلَمَحَ فِي آخِرِ الأَمْرِ حَامِد فَقَالَ :

ـ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ... يَا رَجُلُ أَمَا تَسْتَحِي ... فِي يَوْمٍ مِثْلِ هَذَا تَأْتِي فِي لِبَاسٍ يَجْعَلُنَا سُخْرِيَّةً بَيْنَ النَّاسِ ... كَلْب سُوق ... لاَلَوْمَ عَلَيْكَ .

ـ لَسْتُ مُنَافِقًا مِثْلَكَ ... مَا تَفْعَلُهُ أَنْتَ فِي السِّرِّ أَتْعَسُ مِمَّا أَفْعَلُهُ فِي الْعَلَنِ ...

وَلَمْ يَفْطِنْ حَامِد إِلاَّ وَقَدْ جَذَبَتْهُ أُمُّهُ جَذْبَةً أَزَاحَتْهُ مِنْ مَكَانِهِ ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ إِلَى وَسَطِ الدَّارِ وَقَالَتْ لَهُ :

ـ هَلِ الصُّنْدُوقُ فِي مَأْمَنٍ ... لَمْ يَرَكَ أَحَدٌ مِمَّنْ يَعْرِفُكَ ... أَنَا عَارِفَةٌ أَنَّكَ لاَ تُؤْتَمَنُ ... وَاللَّهِ لَوْ تَصَرَّفْتَ فِي قِطْعَةٍ مِمَّا فِي الصُّنْدُوقِ لَقَطَعْتُكَ

إِلَى آخِرِ حَيَاتِي ... وَلِمَاذَا أَنْتَ فِي هَذَا اللِّبَاسِ ؟

ـ لَمْ أَجِدْ مَا أَلْبَسُهُ ... وَالتِلِغْرَاف شَوَّشَنِي ... لَمْ أُرِدْ تَكْسِيرَ قُفْلِ الْخِزَانَةِ الَّتِي خَبَّأْتِ فِيهَا الْمَلاَبِسَ ...

ـ شُوفْ يَاحَامِد ... الْوَضْعُ صَعْبٌ ... اِبْتَعِدْ عَنْ حَنَش بُو فَطِيرَة ... لاَ تُكَلِّمْهُ ... وَإِلاَّ افْتَضَحَ أَمْرُنَا وَخَسِرَتْ أُخْتُكَ وَأَوْلاَدُهَا كُلَّ شَيْءٍ وَأَطْرَدَهُمْ الْحَاج سَالِم وَلَمْ يُنَزِّلْهُمْ فِي الرِّزْقِ مَنْزِلَةَ وَالِدِهِمْ ... اُرْقُدْ فِي الْخَطِّ إِلَى أَنْ أُعْطِيكَ الإِشَارَةَ لِلتَّصَرُّفِ ... وَإِلاَّ خَسِرْنَا كُلَّ شَيْءٍ .

وَسَمِعَتْ لِلاَّهُمْ حَفِيفًا وَرَاءَهَا فَأَدَارَتْ رَأْسَهَا ، وَلَمَحَتْ حَفِيِّظ يَخْرُجُ مِنَ الْغُرْفَةِ وَيَلُفُّ نِصْفَهُ الأَعْلَى بِتَطْوِيحَةٍ عَصَبِيَّةٍ مُدَوِّمَةٍ لِذَيْلِ بُرْنُسِهِ وَيَقُولُ :

ـ أَيْنَ مَفَاتِيحُ الْخَزْنَةِ ؟

ـ تَسْأَلُنِي أَنَا ... شُوفْ كِيمَةَ .

وَصَاحَ حَفِيِّظ :

ـ كِيمَةَ ... كِيمَةَ ...

فَجَاءَتْهُ الْمِسْكِينَةُ وَفَرَائِصُهَا تَرْتَعِدُ .

ـ هَا نِي ... يَا سِيدِي .

ـ أَيْنَ مَفَاتِيحُ الْخَزْنَةِ ؟

ـ وَاللَّهِ لاَ أَعْرِفُ ... رَأَيْتُهَا فِي يَدِ الْمَرْحُومِ قَبْلَ أَنْ يَتَوَفَّاهُ اللَّهُ .

رَجَعَ حَفِيِّظ إِلَى الْغُرْفَةِ ، وَوَقَفَ أَمَامَ السَّرِيرِ ، وَأَخَذَ يَنْظُرُ بِإِمْعَانٍ ثُمَّ قَالَ لِلْمَرْأَتَيْنِ وَلِلاَّهُمْ تُرَاقِبُهُ وَهْيَ عَلَى عَتَبَةِ بَابِ الْغُرْفَةِ :

ـ لاَ فَائِدَةَ مِنْ إِبْقَائِهِ عَلَى السَّرِيرِ ... هَاتُوا جَرَّايَةً ...

وَأَزَاحَ حَفِيظ الْمِخَدَّةَ مِنْ تَحْتِ رَأْسِ الْمَيِّتِ وَفَتَّشَ عَنِ الْمَفَاتِيحِ فَلَمْ يَجِدْهَا . فَنَادَى الْعَمَّارِي فَجَاءَ حَامِد مُسْرِعًا . وَاسْتَعَانَ بِهِمَا الاثْنَيْنِ فِي حَمْلِ عَامِر وَوَضْعِهِ عَلَى الْجَرَّايَةِ فِي أَقْصَى الْغُرْفَةِ . وَعِنْدَ مَرْعَنَةِ الْجُثَّةِ سَمِعَ رَنِينَ الْمَفَاتِيحِ ثُمَّ رَآهَا تَتَدَلَّى مِنْ يَدِ الْمَيِّتِ .

بَعْدَ أَنْ سُوِّيَ عَامِر عَلَى الْجَرَّايَةِ . أَخَذَ حَفِيظ يُعَالِجُ أَصَابِعَ الْمَيِّتِ لِتَخْلِيصِ الْمَفَاتِيحِ مِنْهَا . وَلَكِنَّ الأَمْرَ اسْتَعْصَى عَلَيْهِ . فَتَدَخَّلَ حَامِد وَعَرَفَ مَاجَهِلَهُ قَرِينُهُ وَتَطَلَّقَتْ أَصَابِعُ الْهَالِكِ وَسَقَطَتِ الْمَفَاتِيحُ عَلَى الأَرْضِ وَسُمِعَ لَهَا صَوْتٌ مُزْعِجٌ كَأَنَّهُ آتٍ مِنَ الْقُبُورِ ، فَانْقَضَّ عَلَيْهَا حَفِيظ كَالْعُقَابِ . وَخَيَّمَ عَلَى الْغُرفَةِ جَوٌّ ثَقِيلٌ ، أَحَسَّ بِهِ عَلِي وَهُوَيَنْظُرُ إِلَى عَالَمِ الْكِبَارِ كَيْفَ انْحَطَّ إِلَى دَرَكَاتٍ لَمْ يَكُنْ لِيَتَصَوَّرَهَا . وَفَهِمَ أَنَّ عَمَّهُ وَخَالَهُ قَدْ نَزَعَا عَنْهُمَا الْقِنَاعَ وَظَهَرَا فِي مَظْهَرٍ أَدْمَى قَلْبَهُ . فَيَا حَسْرَةً عَلَى الزَّمَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ عَمُّهُ يَأْتِي الْمَنْزِلَ وَهُوَ يُسَبِّحُ بِاسْمِ أَخِيهِ الأَكْبَرِ وَيَتَوَدَّدُ إِلَى ابْنِهِ الْبَدْرِيِّ وَإِخْوَتِهِ مُحَمَّلاً بِالْهَدَايَا ، مُتَرَفِّقًا فِي مِشْيَتِهِ ، بَاسِمَ الثَّغْرِ . وَيَاحَسْرَةً عَلَى الزَّمَنِ الَّذِي كَانَ فِيهِ حَامِد لاَ يَدْخُلُ الدَّارَ وَعَامِر فِيهَا إِلاَّ وَهُوَ لاَبِسٌ أَحْسَنَ لِبَاسٍ ، هَشُوشًا ، بَشُوشًا ، يَبْدَأُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِتَقْبِيلِ يَدِ وَالِدِهِ ثُمَّ يُتْحِفُهُ وَإِخْوَتَهُ بِأَشْهَى أَلْوَانِ الْحَلْوَى.

وَفُجْأَةً شَعُرَ كَأَنَّ الْغُرْفَةَ أَصْبَحَتْ بِلاَ سَقْفٍ ، وَكَأَنَّهُ فِي الْعَرَاءِ يَسْبَحُ فِي عُزْلَةٍ تَامَّةٍ . وَتَلَمَّسَ نَفْسَهُ وَأَحَسَّ بِأَنَّ الطِّفْلَ الَّذِي كَانَ فِيهَا قَدْ نُزِعَ مِنْهَا وَحَلَّ مَكَانَهُ إِحْسَاسٌ آخَرُ ، فَهِمَ أَنَّهُ الْيُتْمُ الْكَامِلُ . إِذِ الْتَفَتَ ، يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، فَلَمْ يَجِدْ قَلْبًا حَنُونًا إِلاَّ أُمَّهُ الْمِسْكِينَةَ الَّتِي لاَحَوْلَ لَهَا وَلاَ قُوَّةَ . أَمَّا جَدَّتُهُ فَهُوَ لَمْ يُجَرِّبْهَا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْحَرِجَةِ . وَأَخَذَتْ تَتَقَاطَرُ عَلَيْهِ الأَفْكَارُ النَّابِعَةُ مِنْ هَذَا الشُّعُورِ الْغَرِيبِ الْقَاسِي الَّذِي حَلَّ بِنَفْسِهِ ، تَارَةً

يَغْمُرُهُ الأَسَى وَالْحُزْنُ وَطَوْرًا يَطْغَى عَلَيْهِ نُزُوعٌ إِلَى الثَّوْرَةِ وَالنِّقْمَةِ . ثُمَّ تَذَكَّرَ أَنَّهُ لَمْ يَبْكِ بَعْدُ ، وَتَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ كَيْفَ لَمْ يَنْزِلْ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ . وَاقْتَلَعَهُ مِنْ هَـذِهِ الْوَسَاوِسِ صَوْتُ عَمِّهِ الأَجَشُّ الَّذِي يَقُولُ :

ـــ الأَحْسَنُ أَنْ نُحَوِّلَ الْمَرْحُومَ إِلَى بَيْتِ الطَّعَامِ وَنُهَيِّئَهَا لاِسْتِقْبَالِ النَّاسِ ... وَعِنْدَ مُنْتَصَفِ النَّهَارِ نَنْقُلُ الْجُثْمَانَ إِلَى الْبَلْدَةِ ... هَيُّوا جَمِيعًا إِلَى تَرْتِيبِ الْغُرْفَةِ ... أَنْتَ يَا كَلْب (مُخَاطِبًا عَلِي) مَالَكَ وَاقِفُ هَكَذَا ..؟

وَانْفَجَرَ عَلِي بَاكِيًا بِصَوْتٍ عَالٍ ... وَالشَّهَقَاتُ تُزَلْزِلُ كِيَانَهُ وَتَرْمِي بِنَفْسِهِ إِلَى خَارِجِهَا مُكَهْرِبَةً مُحِيطَ الدَّارِ كُلِّهِ وَمُذَكِّرَةً الْجَمِيعَ بِأَنَّ فِي الْمَنْزِلِ قَدْ حَلَّ الْمَوْتُ بَعْدُ ، وَأَلاَّ مَجَالَ لِتَنَاسِي ذَلِكَ وَالاِهْتِمَامِ بِشُؤُونِ حَيَاةٍ دُنْيَا . وَهَرَعَتْ جَدَّتُهُ إِلَيْهِ وَأَخَذَتْهُ بَيْنَ أَحْضَانِهَا وَرَاحَتْ تُوَاسِيهِ وَالْتَفَتَتْ إِلَى حَفِيظ صَائِحَةً :

ـــ تَقُولُ لَهُ كَلْب الآنَ ... أَلاَ تَسْتَحِي ... وَأَبُوهُ لاَ يَزَالُ مُسَجًّى لَمْ يَأْخُذْ مَكَانَهُ فِي الْقَبْرِ ... أَنَا أَعْرِفُ نَذَالَتَكَ ... وَاللَّهِ سَتَرَى مِنِّي الْعَجَبَ ... أَخَذْتَ الْمَفَاتِيحَ وَتُرِيدُ أَنْ تَسْتَوْلِيَ عَلَى رِزْقِ هَؤُلاَءِ الأَيْتَامِ ...

ـــ أَنَا... أَنَا ... الْمَفَاتِيحُ مَا زَالَتْ فِي يَدِي ... وَلَمْ أَفْتَحِ الْخَزْنَةَ ... يَا مَرْأَةُ ... خَافِي اللَّهَ ... وَاتْرُكْنَا فِي مُصِيبَتِنَا وَلاَ تَزِيدِي عَلَيْنَا مُصِيبَةً أُخْرَى ... سَأَفْتَحُ الْخَزْنَةَ أَمَامَكُمْ جَمِيعًا ... هَيَّا نُرَتِّبِ الْبَيْتَ ...

وَانْهَمَكَ الْجَمِيعُ فِي نَقْلِ جُثْمَانِ عَامِرٍ إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ بَعْدَ أَنْ أَفْرَغُوهَا مِنْ جُلِّ الأَثَاثِ الْمَوْجُودِ فِيهَا إِلاَّ مِنَ الْكَرَاسِيِّ ، وَوَضَعُوا أَبْنَاكًا فِي الرُّكْنِ الأَيْمَنِ وَفَرَشُوا الْحَرَارِي فِي الرُّكْنِ الأَيْسَرِ . ثُمَّ دَخَلُوا غُرْفَةَ

النَّـوْمِ : كِيمَـةَ وَلِلأَهُـمْ وَالْعَمَّـارِي وَعَلِـي وَحَفَيِّـظ الَّـذِي قَـالَ لِحَـامِد :
ـ أَنْتَ ... الْبَـابْ ... الْبَـابْ ... إِسْتَقْبِلِ النَّـاسَ (سَـاخِرًا) .

وَفَتَـحَ حَفَيِّـظ الْخَزْنَـةَ وَالصُّنْـدُوقَ وَالْكَانَوِيتَـةَ وَطَفِـقَ يُفَتِّـشُ عَـنْ أَشْـيَاءٍ كَانَ يَتَيَقَّنُ وُجُودَهَا وَأَخَذَ يَقُولُ :

ـ عَجَـب... أَيْـنَ الْمَحْبُـوبُ ..؟ أَيْـنَ اللَّوِيـزُ ..؟ أَيْـنَ الْفُلُـوسُ ..؟ أَيْـنَ الْحُلِيُّ ..؟ أَيْنَ التَّوَاصِيلُ ..؟ وَصَاحَتْ فِي وَجْهِهِ لِلأَهُمْ :

ـ شُوفْ ... أَنْتَ بِنَفْسِكَ فَتَحْتَ الْخَزْنَـةَ وَالْمَفَـاتِيحُ كَـانَتْ بِيَـدِ الْمَرْحُـومِ وَنَحْنُ لاَدَخْلَ لَنَا فِي هَـذَا الأَمْرِ ... وَلَسْنَا نَـدْرِي أَنَّ الْمِسْـكِينَ سَـيَمُوتُ ... وَنَحْنُ لَمْ نَخْـرُجْ مِنَ الـدَّارِ وَعِشْنَا أَيَّامًـا تَعِيسَـةً أَثْنَـاءَ مَـرَضِ أَخِيـكَ ...

وَلَمَّـا سَمِعَ الْفُرَقَـاءُ الْقَـارِئَ قَـدْ شَـرَعَ فِي تَرْتِيـلِ الْقُـرْآنِ الْكَرِيـمِ سَـكَتُوا وَنَظَـرُوا فَوَجَـدُوا كِيمَـةَ الَّتِي اخْتَـارَتْ فُجَـأَةً أَنْ تُصَلِّيَ فِي رُكْـنٍ مِـنَ الْغُرْفَـةِ وَصَوْتُهَـا يَعْلُـو بِعِبَـارَةِ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، فِيهَـا تَـأَوُّهٌ وَتَوَسُّـلٌ وَتَضَـرُّعٌ . وَمَـا لَبِـثَ حَامِدٌ أَنْ دَخَلَ كَالإِعْصَارِ وَقَالَ :

ـ الرَّئِيس خُوجَـة جَـاءَ ... وَمَعَـهُ الْفَرَنْسِـيس ...

وَغَلَّـقَ حَفَيِّـظ الْخَزْنَـةَ ، وَوَضَـعَ الْمَفَـاتِيحَ فِـي جَيْـبِ سَـرَاوِيلِهِ . وَخَـرَجَ مُسْتَقْبِلاً الْمُعَزِّيـنَ ، وَقَـادَهُمْ إِلَـى الْغُرْفَـةِ ، وَوَقَـفَ الْمُرَاقِـبُ الْمَدَنِـيُّ وَوَكِيـلُ الدَّوْلَـةِ الْفَرَنْسِـيُّ أَمَـامَ الْجُثْمَـانِ فِـي خُشُـوعٍ بَعْـدَ أَنْ أَزَاحَـا قُبَّعَتَيْهِمَـا عَـنْ رَأْسَيْهِمَا ثُـمَّ جَلَسَـا وَبَقِـيَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَـةِ وَاقِفًـا وَلَـمْ يَجْلِسْ إِلاَّ بَعْدَهُمَـا . وَتَقَـاطَرَ جَمْـعٌ غَفِيرٌ مِـنَ الْمُوَظَّفِـينَ وَعِلْيَـةِ الْقَـوْمِ فِـي سُوسَـةَ وَعَامَّـةِ النَّـاسِ كَـأَنَّهُمْ فِي نَفِـيرٍ . ثُـمَّ الْتَحَقَ بِهِـمْ الْعَـامِلُ . وَسَـادَ الْبَيْـتُ فِـي ذَلِـكَ الْوَقْـتِ خُشُـوعٌ مُطَـابِقٌ تَمَامًـا لِلْمَقَـامِ ، فَـلاَ يَسْـمَعُ السَّـامِعُ إِلاَّ تَرْتِيـلَ الْقُـرْآنِ تَتَخَلَّلُـهُ

كَحَّاتٌ مُتفَاوِتَـةٌ فِي الْقُـوَّةِ ، مُتغَـايِرَةٌ فِي الصَّـوْتِ ، مُتَبَايِنَـةٌ فِـي الإِيقَـاعِ ، تَعْلُوهَـا فِـي النَّبْرَةِ أَحْيَانًـا عَطْسَـةٌ مُدَوِّيَـةٌ ، تَتْبَعُهَـا فَرْقَعَـةٌ مَصْدَرُهَـا مَخْطَـةٌ تَنْتَهِـي بِمُوسِـيقَى طَوِيلَـةٍ مُوَقَّعَـةٍ ، جَوَابُهَـا نَخِـيرٌ مُزْعِـجٌ آتٍ مِـنَ الرُّكْـنِ الْمُقَـابِلِ ، لَكِنَّـهُ مَـنْ تَعَـوَّدَ الاِكْتِفَـاءَ بِمَـدِّ النَّفَسِ فِي جَلَبَـةٍ وَرَمْيِـهِ بِحَصِيلَتِـهِ فِي قَـرَارِ الْحَلْـقِ . أَمَّـا غَـيْرُهُ مِمَّـنْ لاَ يَعْـرِفُ لِلْكَسَـلِ بَابًـا فَإِنَّـهُ يَقُـومُ لَهَـا نَحْـوَ بَابِ الْغُرْفَةِ وَيَقْذِفُ بِهَـا فِي وَسَـطِ الـدَّارِ نُخَامَـةً حَـوَّاءَ خَضْـرَاءَ .

وَكَـانَ حَـامِد فِـي لِبَاسِـهِ الْمُـزْرِي يَدْخُـلُ بَيْـنَ الْحِينِ وَالآخَـرِ لِيَـدُلَّ زَائِـرًا مَرْمُوقًـا عَلَـى مَكَـانِ الْجُلُـوسِ ، فَيَنْظُـرُ إِلَيْـهِ حَفَيِّـظ فِـي اشْـمِئْزَازٍ ، وَشَـفَتَاهُ تَرْسُـمَانِ اعْوِجَاجًـا لَيْـسَ إِلاَّ نَتِيجَـةً لِطَـرَّادَةٍ مِـنَ السَّـبِّ وَالشَّـتْمِ كَتَـمَ أَنْفَاسَـهَا مُضْطَرًّا .وَلَـوْلاَ جَلاَلَـةُ الْمَوْقِـفِ لَسَـمِعْنَا حَفَيِّـظ فِـي تِلْـكَ اللَّحْظَـةِ يُصَـرِّحُ بِمَـا يَجُولُ فِـي خَـاطِرِهِ قَـائِلاً :

ـــ سُـحْقًا لَـكَ أَيُّهَـا النَّـذْلُ ... ظَنَنْـتَ حَقِيقَـةً أَنَّنِـي كَلَّفْتُـكَ بِاسْـتِقْبَالِ النَّـاسِ ، وَأَنَـا فِـي الْوَاقِـعِ أَطْرَدْتُـكَ مِـنَ الـدَّارِ إِذْ قُلْـتُ لَـكَ ... الْبَـاب ... الْبَـاب ... أَلَيْـسَ مِـنَ الْعَـارِ أَنْ يَسْـتَقْبِلَ النَّـاسَ فِـي دَارِ عَـامِرِ الْحَـاكِمِ هَـذَا الصُّعْلُوكُ ... كَيْـفَ تَدَهْـوَرَتِ الأُمُـورُ بِسُـرْعَةٍ ... أَيْـنَ تِلْـكَ الأُبَّهَـةُ الَّتِـي كَـانَتْ دَيْـدَنَ عَـامِرٍ فِـي اسْـتِقْبَالِهِ النَّـاسَ ؟ مِسْـكِينٌ أَخِـي ... وَمَسَـاكِينُ نَحْـنُ ... لَقَـدْ تَغَيَّـرَ كُـلُّ شَـيْءٍ ... وَمَـا أَمَّلْنَـاهُ ضَـاعَ ... كُنَّـا كَعْبَـةَ الْقُصَّـادِ ... وَنَجْمُنَـا فَـي صُعُـودٍ ... وَمَشَـاكِلُنَا دَوْمًـا لَهَـا حُلُـولٌ ... وَالآنَ ضَـاعَ كُـلُّ شَيْءٍ ... وَأَكْـثَرُ مِـنْ هَـذَا فَإِنَّنَـا سَـنَكُونُ مَخْرَطَـةً لِكُـلِّ مُتَهَـوِّرٍ حَاسِـدٍ... كَـبُرَ الْحَـاج سَـالِم وَتَبَدَّلَـتِ الأَحْـوَالُ بَعْـدَ انْتِصَـابِ الْحِمَايَـةِ وَاخْتِـلاَطِ الْحَـابِلِ بِالنَّابِلِ بَلْ تَفَاقَمَ الأَمْـرُ أَكْـثَرُ مِمَّـا كَـانَ عَلَيْـهِ فِـي عَهْـدِ حُكْـمِ الْبَايَـاتِ وَحْدَهُـمْ بِـدُونِ نِظَـامِ الْحِمَايَـةِ ... لَقَـدِ اكْتَمَلَـتِ الْخِسَّـةُ وَالنَّذَالَـةُ بِانْضِمَـامِ السَّـفَلَةِ إِلَـى

طَقْمِ الْحُكْمِ الْمُطْلَقِ الْمُزْدَوَجِ . فَاخْتَلَّ سُلَّمُ الْقِيَمِ ... وَأَصْبَحَ لاَ وَزْنَ إِلاَّ لِمَنْ لَهُ نُفُوذٌ سُلْطَوِيٌّ ... أَمَّا النُّفُوذُ الْمَعْنَوِيُّ فَقَدْ زَالَ ... وَأَنَا مَازِلْتُ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ ... وَهَأَنَذَا لَمْ أَتَوَفَّقْ إِلَى تَنْظِيمِ الْمَأْتَمِ كَمَا يَجِبُ .. اِهْتَمَمْتُ بِأَشْيَاءِ أُخْرَى ... وَلَكِنْ لاَ بُدَّ مِنْ ذَلِكَ ... لاَ بُدَّ مِنَ السَّهَرِ عَلَى رِزْقِنَا ... نَعَمْ هُوَ رِزْقُنَا لِأَنَّ وَالِدِي مَا زَالَ حَيًّا وَكُلُّ مَا نَكْسِبُهُ فَهُوَ لَنَا جَمِيعًا ... أَلَمْ يَشْتَرِ عَامِرِ الزَّيَاتِينَ وَيَتْرُكُهَا فِي حَوْزَةِ وَالِدِنَا نَتَصَرَّفُ فِيهَا كَأَنَّهُ مِلْكُ الْجَمَاعَةِ . وَمَنْ غَيْرِي يَنْهَضُ كُلَّ فَجْرٍ وَلاَ يَنْفَكُّ يَجْرِي الْيَوْمَ كُلَّهُ وَهُوَ فِي الصَّيْفِ مَحْرُوقٌ وَفِي الشِّتَاءِ مَغْرُوقٌ ... كُلُّ الْمَشَاكِلِ طَوَّقَتْ عُنُقِي ... وَضَعَ وَالَدِي كُلَّ الْعِبْءِ عَلَى كَاهِلِي .كُنْتُ أَسْتَعِينُ بِأَخِي عَامِرٍ . فِي مُوَاجَهَةِ جَمِيعِالْمَشَاكِلِ وَحَلِّهَا لِصَالِحِنَا ، وَلِصَالِحِي . كَمْ غَضَّ الطَّرْفَ عَنِّي رَحِمَهُ اللّهُ . وَتَرَكَنِي أَسْتَغِلُّ اتِّكَالَ وَالِدِي عَلَيَّ . كَانَ يُحِبُّنِي حَقِيقَةً .كَانَ مُتَسَامِحًا مَعِي . يُغَطِّي تَصَرُّفَاتِي الأَنَانِيَّةَ .كَانَ كَرِيمًا .كَمْ مَرَّةً يَتَنَازَلُ لِي عَنْ مَنَابِهِ عِنْدَمَا يَدْفَعُنِي الطَّمَعُ بَلِ الظُّرُوفُ إِلَىالاسْتِيلاءِ عَلَى مَا لاَ حَقَّ لِي فِيهِ .كَادَ أَمْرِي يَفْتَضِحُ عِنْدَ وَالِدِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، وَعِنْدَ عَائِلَتِي وَعِنْدَ النَّاسِ . وَلَكِنَّهُ يُقِيلُ عَثْرَتِي بِلاَ تَرَدُّدٍ ... وَالآنَ سَأُوَاجِهُ وَحْدَي كُلَّ هَذِهِ الْمَصَاعِبَ ... وَسَتَتَعَرَّى الْمَذَابِحُ ...

وَانْفَرَطَتْ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعَةٌ ، لَمْ يَعْرِفْ هَلْ هِيَ دَمْعَةُ الأَسَفِ عَلَى أَخِيهِ أَمْ هُوَ رَشْحُ عَيْنِهِ الْعَمْشَاءِ . وَفَطِنَ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى وُجُودِ عَلِي وَهُوَ بِجَانِبِهِ فَحَدَجَهُ بِعَيْنِهِ الأُخْرَى الْعَشْوَاءِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـــ الْكَلْبُ هَذَا سَيُنَغِّصُ عَلَيَّ عَيْشِي ... وَلَكِنِّي سَأُؤَدِّبُهُ ... بَدَأَ يُزَنْتِرُ كَرَأْسِ الْبَصَلِ ...

أَمَّـا الرَّئِيـسُ خُوجَـة فَهْـوَ فِـي الْوَاقِـعِ مُنْشَـغِلٌ بِـأَمْرٍ آخَـرَ ، بِمَـنْ سَـيُعَوِّضُ عَـامِر ، وَهَـلْ سَـيَكُونُ مِطْوَاعًـا أَمْ سَيُفْسِـدُ عَلَيْـهِ خُطَطَـهُ مِثْـلَ.هَـذَا الْمُسَـجَّى أَمَامَـهُ ؟

وَكُـلُّ الَّذِيـنَ هَرَعُـوا إِلَـى بَيْـتِ عَـامِر ، وَالأَسَـفُ لاَمَحَالَـةَ يَغْمُـرُ قُلُوبَهُـمْ ، لاَيَهُمُّهُـمْ مِـنْ أَمْـرِ هَـذِهِ الْعَائِلَـةِ شَـيْءٌ بَـلْ إِنَّ الْمُرَاقِـبَ الْمَدَنِـيَّ وَوَكِيـلَ الدَّوْلَـةِ الْفَرَنْسِـيَّ كَانَـا يَتَهَامَسَـانِ فِـي أَمْـرٍ يَتَعَـدَّى مَـوْتَ الْمِسْـكِينِ . أَمَّـا الْعَـامِلُ فَقَـدِ انْحَنَـى عَلَـى كَاهِيَتِـهِ ، وَأَخَـذَ يَحْحَـظُ بِعَيْنَيْـهِ ، وَيَضْغَـطُ عَلَـى يَـدِ مَرْؤُوسِـهِ وَيَقُولُ لَهُ :

ـ لاَبُـدَّ... لاَبُـدَّ... وَإِلاَّ أَدْخَلْتُـهُ السِّجْنَ ... لاَ أَقَـلَّ مِـنْ مِائَـةِ فَرَنْـكٍ ...

كَـانَ عَلِـي جَالِسًـا حِـذْوَ الْعَـامِلِ يَسْـمَعُ كُـلَّ مَـا دَارَ بَيْـنَ الْمُعَزِّيْـنِ . فَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ وَاقْشَعَرَّ بَدَنُـهُ ، وَقَـدْ زُجَّ بِـهِ بَعْـدُ فِـي عَـالَمِ " الْكِبَـارِ " .]

10

[كَانَ أَوَّلُ مَنْ تَحفَّزَ لِلْخُرُوجِ هُوَ الْمُرَاقِبُ الْمَدَنِيُّ وَقَدْ أَمْسَكَ قُبَّعَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَوَقَفَ الْجَمِيعُ : رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ وَالْعَامِلُ وَوَكِيلُ الدَّوْلَةِ وَالْمَشَايِخُ وَالْعُدُولُ وَكُلُّ مَنِ انْتَسَبَ مِنْ قَرِيبٍ أَوْبَعِيدٍ إِلَى السُّلْطَةِ. وَقَامَ حَفَيِّظ وَتَقَدَّمَ لِيُصَاحِبَ هَذَا الْجَمْعَ الْغَفِيرَ الْمُسْتَعِدَّ لِلْخُرُوجِ . . وَلَكِنَّ وَكِيلَ الدَّوْلَةِ أَشَارَ إِلَى عَلِي لِيَقْتَرِبَ مِنْهُ وَأَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ وَطَفِقَ يُوَاسِيهِ بِكَلِمَاتٍ رَقِيقَةٍ فِي عَرَبِيَّةٍ بَلِيغَةٍ ، وَالْتَفَتَ إِلَى خُوجَة وَقَالَ لَهُ :

لاَ بُدَّ مِنْ تَرْتِيبِ الْجَنَازَةِ ، وَلاَ بُدَّ مِنْ حُضُورِ النَّاسِ عِنْدَ رَفْعِ الْجُثْمَانِ . رَتِّبِ الأُمُورَ مَعَ الْعَائِلَةِ ، وَرَافِقِ الْجُثْمَانَ مَعَ أَعْضَاءِ الْمَحْكَمَةِ ، وَالسُّلْطَةِ الْمَحَلِّيَّةِ إِلَى مَثْوَى الْفَقِيدِ الأَخِيرِ بِقَرْيَتِهِ ... أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَاسَيِّدِي الْمُرَاقِبَ الْمَدَنِيَّ وَالسَّيِّد الْقَايِد (وَأَنْعَمَا الاثْنَانِ لَهُ بِانْحِنَاءَةٍ خَفِيفَةٍ مِنْ رَأْسَيْهِمَا) .

وَاقْتَرَبَ مِنْ رَئِيسِ الْمَحْكَمَةِ مَائِلاً بِرَأْسِهِ إِلَيْهِ بِحَيْثُ يَسْمَعُهُ الْقَايِدُ وَالْمُرَاقِبُ الْمَدَنِيُّ . وَأَخَذَ يُحَدِّثُهُ بِالْفَرَنْسِيَّةِ ، كَعَادَتِهِ عِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُحَلِّقَ فِي أَجْوَاءٍ أَدَبِيَّةٍ وَفَلْسَفِيَّةٍ ، فِيهَا نَوْعٌ مِنَ الاسْتِعْلاَءِ وَالاحْتِقَارِ وَإِلْقَاءِ الدُّرُوسِ الأَخْلاَقِيَّةِ لِهَذَا الَّذِي يَعْتَبِرُهُ قَدْ فَقَدَ كُلَّ شُعُورٍ بِالْوَاجِبِ

وَأَعْمَتْهُ أَهْوَاؤُهُ عَنِ الْمُرُوءَةِ وَالْفَضْلِ ، وَأَبْعَدَ عَنْهُ طَمَعُهُ كُلَّ تَمَسُّكٍ بِالْحَقِّ وَإِخْلاَدٍ إِلَى الصَّفَاءِ وَالودِّ وَإِدَامَةِ الْعِشْرَةِ . فَلِسَانُهُ سِلْمٌ وَلُطْفٌ وَقَلْبُهُ حَرْبٌ وَخُلْفٌ .

ـ الْفِعْلُ يَلْتَهِمُ الْفِكْرَ ، وَلَعَلَّ هَذَا الأَخِيرَ مِنْ صُنْعِ الشُّعَرَاءِ وَالْفَلاَسِفَةِ ... وَنَحْنُ دَائِمًا مَحْمُولُونَ عَلَى الْفِعْلِ ، وَقَلَّ أَنْ رَكَنَّا إِلَى نِعْمَةِ الْفِكْرِ ... وَلَكِنْ لاَبُدَّ مِنْ وَقْفَةٍ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ لِنُسَلِّطَ أَضْوَاءَ الْفِكْرِ عَلَى أَعْمَالِنَا وَنُفَلْسِفَهَا . وَتَعْرِفُ أَنَّ الأَسَفَ هُوَ الشُّعُورُ بِفِقْدَانِ كَائِنٍ أَوْ شَيْءٍ مَا ، وَنَحْنُ فَقَدْنَا السَّيِّدَ عَامِر ... وَلاَ بُدَّ أَنَّكَ مُتَأَسِّفٌ مِثْلَنَا عَلَى رَحِيلِهِ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ ... أَلَيْسَ كَذَلِكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْمِفْضَالُ (يَنْظُرُ إِلَيْهِ خُوجَة بِدُونِ أَنْ تَطْرِفَ لَهُ عَيْنٌ) ... أَمَّا النَّدَمُ فَهُوَ الشُّعُورُ بِالذَّنْبِ... وَذَنْبِي أَنَا ... أَنَّنِي لَمْ أَعْرِفْ أَنَّ السَّيِّدَ عَامِر حَسَّاسٌ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ ... وَلَكِنَّنِي أَعْرِفُ الآنَ أَنَّكَ تَعْلَمُ ذَاكَ حَقَّ الْعِلْمِ يَاسَيِّدًا ... أَلَمْ تَشْعُرْ ، وَهُوَ الْمُلاَزِمُ لَكَ ، بِالْعَذَابِ الَّذِي كَانَ يُمَزِّقُ نَفْسَهُ ..؟

ـ أَبَدًا ... إِنَّمَا شَعُرْتُ بِأَنَّهُ تَغَيَّرَ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ ...

ـ أَمَّا تَبْكِيتُ الضَّمِيرِ فَهُوَ الإِقْرَارُ بِارْتِكَابِ الْخَطَإِ وَالْخَوْفُ مِنَ الْعِقَابِ ... وَإِذَا انْتَفَى الأَسَفُ وَالنَّدَمُ وَتَوْبِيخُ الضَّمِيرِ نَكُونُ إِزَاءَ وَحْشٍ مِنَ الْوُحُوشِ ... أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا سَيِّدِي ... الرَّئِيسَ ..؟ وَبِمَا أَنَّنَا كُلُّنَا بَشَرٌ أَسْوِيَاءُ فَلاَ بُدَّ مِنَ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ .

وَارْتَبَكَ خُوجَة ، وَجَالَتْ فِي نَفْسِهِ هَوَاجِسُ فِيهَا الْخَوْفُ مِنْ رَدِّ فِعْلِ وَكِيلِ الدَّوْلَةِ وَهُوَ رَئِيسُهُ . وَتَعَلَّمَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمُلاَحَظَاتِ هِيَ مِنْ بَابِ مَايُسَمِّيهِ رَئِيسُهُ بِالْفَرَنْسِيَّةِ الْمُبْتَذَلَةِ مُضَايَقَةً لِلأَوْبَاشِ وَمُلاَحَقَةً لَهُمْ (أَمِّرْدِي) بِلَبَاقَةٍ وَهِيَ تَسْتَوْجِبُ مِنْهُ أَيْضًا حَشْدًا لِطَاقَاتٍ جَبَّارَةٍ بِهَا

رُبَّمَا أَمْكَنَ لَهُ إِرْضَاءُ سَيِّدِهِ وإِعَادَةُ تَلْمِيعِ صُورَتِهِ لَدَيْهِ بِأَلْوانٍ شَتَّى مِنَ الْوَلاَءِ وَالانْبِطَاحِ وَالتَّرَخُّصِ وَصَوْغِ الْكَلاَمِ الْبَلِيغِ الْمَنْزُوعِ مِنْ دُرَرِ الأَدَبِ الْفَرَنْسِيِّ وَبِالطَّبْعِ يُكَلِّفُهُ كُلُّ هَذَا مِنَ الْمَالِ فِي صُورَةِ هَدَايَا مَا يُؤْلِمُ الْجَيْبَ ؛ وَإِنْ كَانَ الأَلَمُ الْحَقِيقِيُّ يَتَجَرَّعُهُ مَسَاكِينُ النَّاسِ مِنَ الْمُتَقَاضِينَ الْمَذْبُوحِينَ بِحَدِّ الرَّشْوَةِ الْمَاضِي . وَأَجَابَ خُوجَة فِي فَرَنْسِيَّةٍ طَلِيقَةٍ :

ـــ كُنْ مُطْمَئِنًّا يَاحَضْرَةَ وَكِيلِ الدَّوْلَةِ الْهُمَامِ ... سَتَرَانِي كَالْعَادَةِ قَائِمًا بِالْواجِبِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِي جَنَابَكُمْ وَيَجْعَلُكَ تَنْسِطُ لَهُ انْبِسَاطًا وَتَلِينُ لَهُ نَفْسُكَ هِمَّةً وَأَرْيَحِيَّةً ...

وَانْفَضَّ الْجَمْعُ وَاضْطُرَّ خُوجَة إِلَى الْبَقَاءِ فِي الْبَيْتِ هُوَ الْعَامِلُ لِيَتَدَبَّرَا الأَمْرَ مَعًا . لِأَنَّ مَا قَالَهُ وَكِيلُ الدَّوْلَةِ لاَ يَهُمُّ رَئِيسَ الْمَحْكَمَةِ بَلِ الْعَامِلَ أَيْضًا . وَهُمَا بِالطَّبْعِ يَشُدُّهُمَا رِبَاطٌ مَتِينٌ ، عُرْوَةٌ وُثْقَى ، لاَ تَخْفَى طَبِيعَتُهَا وَآثَارُهَا عَلَى الْمَسْؤُولِيْنِ الْفَرَنْسِيِّيْنِ .

كَانَ عَلِي يَنْظُرُ إِلَى عِلْيَةِ الْقَوْمِ وَلاَ يَفْهَمُ شَيْئًا مِمَّا يَدُورُ بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الْوَقْفَةِ الْوَجِيزَةِ . وَلَكِنَّهُ عَرَفَ ، بِحَدْسِهِ وَقُوَّةِ مُلاَحَظَتِهِ ، أَنَّ الاسْتِخْذَاءَ وَالْخِسَّةَ وَالنِّفَاقَ مِنْ نَصِيبِ خُوجَة وَالْعَامِلِ ، وَأَنَّ الْمُرُوءَةَ وَالإِنْسَانِيَّةَ وَالْقِيَامَ بِالْوَاجِبِ شِيمَةُ هَذَا الْفَرَنْسِيِّ . أَلَمْ يُحِسَّ بِأَنَّ يَدَ وَكِيلِ الدَّوْلَةِ عِنْدَمَا صَافَحَتْهُ وَمَسَحَتْ عَلَى رَأْسِهِ تُشْعِرُ بِرَأْفَةٍ خَالِصَةٍ وَعَطْفٍ نَابِعٍ مِنَ الْقَلْبِ ، هُمَا أَصْدَقُ مِنْ قُبْلَةِ رَئِيسِ الْمَحْكَمَةِ الضَّارِبَةِ فِي التَّمَسُّحِ وَالْخِدَاعِ وَالنِّفَاقِ ؟ أَيْنَ مَا تَعَوَّدَهُ فِي خُوجَة هَذَا مِنْ لَبَاقَةٍ وَكِيَاسَةٍ عِنْدَمَا كَانَ يَزُورُ وَالِدَهُ وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ هُوَ بِالذَّاتِ بِالْخِطَابِ الْمَمْلُوءِ إِطْرَاءً وَعِنَايَةً ؟

وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ وَالْقَايِدُ مَعَ عَمِّهِ ، وَانْصَرَفَ الرَّجُلاَنِ لَمْ يَشْعُرْ عَلِي إِلاَّ وَحَفِيِّظ يَتَنَمَّرُ وَيُخَاطِبُ كِيمَةَ فِي وَسَطِ الدَّارِ وَالنَّاسُ مَا يَزَالُونَ بَيْنَ دَاخِلٍ وَخَارِجٍ :

ــ هَايْ ... لِمّ رُوحِكْ ... الْكَرُّوسَة تَأْتِي فِي مُنْتَصَفِ النَّهَارِ لِنَقْلِ الْجُثْمَانِ ، وَكُلُّنَا سَنُرَافِقُ الْفَقِيدَ فِي كَرُّوسَة ثَانِيَةٍ وَالْقَايِد وَرَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ فِي كَرُّوسَة ثَالِثَةٍ ... اُتْرُكِي كُلَّ شَيْءٍ كَمَا هُوَ ... سَنَرْجِعُ فِيمَا بَعْد (وَيَلْتَفِتُ نَحْوَ عَلِي وَيَصِيحُ فِيهِ) أَنْتَ يَا كَلْب ... عَاوِنْ أُمَّكَ ... لَسْتَ صَغِيرًا الآنَ ... لَسْنَا خُدَّام عِنْدَ السَّيِّد الْوَالِد ...

فَهِمَ عَلِي أَنَّ اسْمَهُ الْجَدِيدَ هُوَ كَلْبٌ بِدُونِ لاَمِ التَّعْرِيف وَهُوَ أَقَلُّ دَرَجَةً مِنْ سِي الْكَلْب الَّتِي يُطْلِقُهَا عَمُّهُ عَلَى الْبَعْضِ مِمَّنْ يَكْرَهُهُمْ مِنَ الأَقْرِبَاءِ ، هُوَكَلْبٌ إِذَنْ سَائِبٌ بِدُونِ طَوْق ... وَهَمْهَمَ . وَلَكِنَّ عَشَى حَفِيِّظ وَالْحَرَكَةَ الْمَوْجُودَةَ فِي وَسَطِ الدَّارِ مَنَعَا مُهَاجِمَهُ مِنَ التَّفَطُّنِ إِلَى هَمْهَمَتِهِ وَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَمِّهِ مِنْ نِعْمَةِ الْعَشَى لِيُفْسِحَ الْمَجَالَ لِنَفْسِهِ وَلِلِسَانِ حَالِهِ أَنْ يَقُولَ :

ــ إِي وَاللَّهِ ... خَدَّامٌ عِنْدَ السَّيِّدِ الْوَالِدِ ... رَحِمَ اللَّهُ وَالِدِي ... أَلَمْ تَكُنْ طَوْعَ أَمْرِهِ ... الْكَلْبُ أَحْسَنُ مِنْكَ ... الْكَلْبُ مَعْرُوفٌ بِالْوَفَاءِ وَأَنْتَ غَدَّارٌ ... أَكَلَكَ كَلْبُ اللَّهِ ... لَوْ عَضَّكَ كَلْبٌ عَقُورٌ لَرَجَعْتَ إِلَى الْجَادَّةِ وَعَرَفْتَ اللَّهَ عِنْدَ مَا يُصِيبُكَ جُنُونُ الْكِلاَبِ يَا أَحْقَرَكَلْبٍ ...

وَهَجَمَتْ عَلَى ذِهْنِهِ تَصَوُّرَاتٌ نَابِعَةٌ مِنْ صُورَةِ الْكَلْبِ ، وَخُصُوصًا صُورَةَ كَلْبِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَأَصْبَحَتْ مُحَبَّبَةً إِلَيْهِ ... لاَيُنْكِرُهَا . وَلَمْ يَدْرِ لِمَاذَا ؟ لَمْ يَحْتَجَّ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ لِأَنَّهُ فَهِمَ أَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ صُدْفَةً بَلْ إِنَّ عَمَّهُ أَخَذَ مَوْقِفًا مَضْبُوطًا إِزَاءَهُ وَلَنْ يَتَزَحْزَحَ عَنْهُ ... تَبَيَّنَهُ بِالْحَدْسِ هَذِهِ

الْمَـرَّةَ . وَلكِـنَّ الأَحْـدَاثَ سَتُبْدِي لَـهُ مِـنَ الْمَوَاقِـفِ مَـا لَـمْ يَكُـنْ لِتَخْطُـرُ عَلَـى بَـالٍ .

أَمَّا حَامِد فَقَـدْ بَقِـيَ عَلَى حَالَـةٍ مِـنَ الْجِيئَـةِ وَالذَّهَـابِ بَيْـنَ الْبَـابِ وَالْغُرْفَـةِ الْمُسَـجَّى فِيهَـا الْمَيِّـتُ لاَ يَعْـرِفُ مَـا يَفْعَلُـهُ لِأَنَّـهُ عَـاجِزٌ عَـنِ الْجُلُـوسِ عَلَـى كُرْسِـيٍّ لِمُـدَّةٍ طَوِيلَـةٍ . كُـلُّ أَعْضَائِـهِ تَشْـهَدُ بِأَنَّـهُ مِـنْ أُولَئِـكَ الَّذِيـنَ لاَ يَسْتَقِرُّونَ عَلَى حَـالٍ : الْيَدَانِ فِي حَرَكَـةٍ دَائِمَـةٍ لاَ تَـدُلاَّنِ عَلَـى أَيِّ شَـيْءٍ تَقَـعُ . وَإِذَا اسْتَحْكَمَتْ بِهِمَـا الْعَطَالَـةُ انْطَلَـقَ مِنْهُمَـا إِصْبَـعٌ يُنَظِّـفُ مِنْخَرَيْـهِ وَآخَـرُ يَنْفَـذُ إِلَـى دَاخِـلِ الأُذُنِ يُقَلْقِلُهَـا عَلَّـهُ يُهَـدِّئُ مِـنْ غَلَيَـانِ خَلاَيَـا مُخِّـهِ . وَالْوَجْـهُ فَقَـدْ عَجَـزَ عَـنْ أَنْ يَثْبُـتَ عَلَى وِجْهَـةٍ وَاحِـدَةٍ فَهْـوَ يَـدُورُ كَأَنَّـهُ دَوَّارَةُ رِيـحٍ . وَالْعَيْنَـانِ وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الْعَيْنَيْـنِ فَهُمَـا تَطْرِفَـانِ إِذْ لاَ يَقِـفُ النَّظَـرُ الصَّـادِرُ عَنْهُمَـا عَلَى شَيْءٍ فِي الظَّـاهِرِ . وَالشَّـفَتَانِ فَهُمَـا تَتَحَرَّكَـانِ بِـالْكَلاَمِ وَبِـدُونِ كَـلاَمٍ . هُـوَ غَرِيـبُ الأَطْـوَارِ ، مُشَـاغِبٌ ، مُغَـامِرٌ ، فِي هِيَـاجٍ دَائِـمٍ ، بِهِ نَوْعٌ مِـنَ الْهَـوَسِ يَذْهَـبُ بِـهِ إِلَـى الدُّخُـولِ فِيمَـا تُـحْمَدُ عُقْبَـاهُ وَلاَ تُحْمَـدُ ، وَفِي الحَالَتَيْنِ تَسُـوءُ عَاقِبَتُـهُ فِـي آخِـرِ الأَمْـرِ .

وَحَفيِّـظ فَهْـوَ ذَاكَ الْهَـادِئُ الْمَظْهَـرِ ، وَلَكِنَّـهُ فِـي الْوَاقِـعِ مُضْطَـرِبُ الْمِـزَاجِ مُتَشَـائِمٌ ، مَيَّـالٌ إِلَـى الشَّـكِّ ، مُنْكِـرٌ لِلْحَيَـاةِ ، وَإِنْ أَقْبَـلَ عَلَيْهَـا بِنَهَـمٍ لاَ يَخْلُـو مِـنْ فَسَـادِ ذَوْقٍ . هُـوَ دَائِـمُ التَّقَهْـرِ ، سَـرِيعُ الْغَضَـبِ ، مُسْـتَحْكِمُ الأَنَانِيَّـةِ ، حَـادُّ النَّقْمَـةِ . لِـذَاكَ تَـرَاهُ مُتَجَهِّـمَ الْوَجْـهِ ، لاَ يَبْرَحُـهُ الْعُبُـوسُ ، نَفُـورًا ، زَادَهُ عَشَـاهُ وَتَعَجُّـنُ مَلاَمِحِـهِ تَقْطِيبًـا وَكَآبَـةً . وَمَـعَ هَـذَا فَهْـوَ لاَ يَعْـرِفُ لِلاِنْكِمَـاشِ بَابًا بَلْ بِـهِ نُـزُوعٌ إِلَـى مُهَاجَمَـةِ كُـلِّ مَـنْ أَلْحَـقَ بِـهِ ضَـرَرًا أَوْ تَوَهَّـمَ ذَلِـكَ لِأَنَّـهُ سَيِّئُ النِّيَّـةِ وَالظَّـنِّ بِالنَّـاسِ جِبِلَّـةً . وَسِـلاَحُهُ الظَّـاهِرُ الَّـذِي يَتَنَكَّبُـهُ هُـوَ الصَّلاَبَـةُ وَالْقَسْـوَةُ وَلَـذَّةُ إِلْحَـاقِ الإِذَايَـةِ بِـالْغَيْرِ وَتَصْرِيـفِ أَلْـوَانِ الشَّـرِّ لِلْـآخَرِ . وَهْـوَ

عَلَى

مَادَعَا لِلأَهُمْ إِلَى تَشْبِيهِهِ بِالثُّعْبَانِ وَبِأَخْطَرِ أَصْنَافِهَا أَلاَ وَهُوَ حَنَش بُوفَطِيرَة . وَلَكِنَّهُ كَمْ خَدَعَ مَنْ لاَيَعْرِفُهُ أَوْ لَمْ يَحْتَكَّ بِهِ كَثِيرًا ، إِذْ فِيهِ قُدْرَةٌ عَلَى التَّسَتُّرِ وَرَاءَ هَيْئَةٍ فِيهَا تَدْوِيرٌ إِسْتَعَانَتْ بِقِصَرٍ فِيْ الْقَامَةِ مُفْرِطٍ وَسِمْنَةٍ بَادِيَةٍ لِلْعِيَانِ تَتَلَفَّعَانِ ، إِذَا أَرَادَ ، بِلِحَافٍ مِنَ الطِّيبَةِ وَالْعَفَوِيَّةِ وَالتِّلْقَائِيَّةِ يُخْفِي بِهِ مَا تَنَكَّبَهُ مِنْ ظَاهِرِ سِلاَحِهِ وَيُعِينُهُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مُبْتَغَاهُ . وَلَقَدْ عَرَفَ فِيهِ عَلِي هَذِهِ الْهَيْئَةَ الَّتِي يَتَقَمَّصُهَا أَمَامَ وَالِدِهِ الْحَاج سَالِم وَأَخِيهِ عَامِر وَكُلِّ مَنْ لَهُ نُفُوذٌ أَدَبِيٌّ أَوْ سُلْطَوِيٌّ . وَالأَغْرَبُ مِنْ كُلِّ هَذَا اِنْقِلاَبُ حَفِيظ إِلَى حَمَلٍ وَدِيعٍ وَرَجُلٍ ذِي قَلْبٍ رَحِيمٍ فِي مُعَامَلَتِهِ الْخَدَّامَةَ إِنْ فَاجَأَهُ بِالْحُضُورِ مَنْ يَمُتُّ إِلَى أَصْحَابِ السُّلْطَةِ هَؤُلاَءِ بِسَبَبٍ . وَلَيْسَ انْقِيَادُهُ لِوَالِدِهِ وَانْصِيَاعُهُ لِأَخِيهِ الأَكْبَرِ وَانْبِطَاحُهُ أَمَامَ كُلِّ صَاحِبِ نُفُوذٍ إِلاَّ وَجْهًا يَتَنَاقَضُ مَعَ قَسْوَتِهِ وَصَلاَبَتِهِ وَغِلْظَتِهِ وَفَظَاظَةِ نَفْسِهِ عِنْدَمَا يَتَقَمَّصُ صُورَةَ رَبِّ الْعَمَلِ ، الآمِرِ النَّاهِي ، الْمُسْتَغِلِّ الْمُسْتَأْثِرِ بِالْفَائِدَةِ . فَاحْتِرَامُهُ لِأَبِيهِ وَطَاعَتُهُ لِأَخِيهِ الأَكْبَرِ وَمُجَامَلَتُهُ الْمُصْطَنَعَةُ الضَّارِبَةُ فِي النِّفَاقِ وَالْخِدَاعِ إِنَّمَا هِيَ كُلُّهَا ثَمَنٌ وَضَرِيبَةٌ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنْ تَكَالُبٍ عَلَى ضَرَاوَةِ الْكَسْبِ ، وَشَرَاسَةٍ فِي اسْتِغْلاَلِ الْغَيْرِ وَرُكُونٍ إِلَى سَلَفِيَّةٍ مَقِيتَةٍ وَمَاضَوِيَّةٍ بَشِعَةٍ ارْتَضَاهَا مِخَدَّةً تَهْنَأُ فَوْقَهَا جُمْجُمَةُ مَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ ضَمِيرُهُ وَيَرْتَاحُ عَلَيْهَا فِي اخْتِمَارِهِ خَدُّ تَقْوَاهُ الْمُعَجَّنُ .

وَجْهَانِ إِذَنْ لِعُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وُجِدَا عَلَى مَسْرَحِ الأَحْدَاثِ فِي هَذِهِ الدَّارِ . وَلَئِنْ تَنَافَرَا فِي الظَّاهِرِ لِتَنَاقُضِ مَصَالِحِهِمَا فَقَدِ اتَّفَقَا فِي الْوَاقِعِ عَلَى الْحَطِّ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْعَائِلَةِ الْمَنْكُوبَةِ . فَلاَ أَحَدَ يَجْرُؤُ عَلَى الْوُقُوفِ فِي وَجْهِ قَرَارَاتِهِمَا الْمُتَتَالِيَةِ . فَحَتَّى لِلأَهُمْ أَصَابَهَا نَوْعٌ مِنَ الْوُجُومِ

لِشُعُورِهَا بِجَلاَلِ الْمُصِيبَةِ وَخُطُورَةِ الْمَوقِفِ . وَفَهِمَتْ بِذَكَائِهَا الْفِطْرِيِّ وَبِرُؤْيَةِ تَقَاطُرِ عِلْيَةِ الْقَوْمِ ، وَهْوَ مَا لَمْ تَشْهَدْهُ عَيْنَاهَا أَبَدًا ، أَنَّ الرَّجُلَ الْمُسَجَّى أَمَامَهَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَشْعُرَ الإِنْسَانُ نَحْوَهُ بِالاِحْتِرَامِ وَالاِعْتِزَازِ . وَشَعُرَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهَا أَنَّ الْمَوْتَ الَّذِي يُصِيبُ قَرِيبًا مِنْ أَقْرِبَائِهَا لاَ يَتْرُكُ أَيَّ مَجَالٍ لِلتَّنَدُّرِ وَإِضْحَاكِ الْمُعَزِّينَ وَهْيَ وَهُمْ عَلَى رَأْسِ الْمَيِّتِ مِثْلَمَا دَرَجَتْ عَلَيْهِ عَادَةً .

وَبَيْنَمَا كَانَ حَفَيِّظ يُصْدِرُ أَوَامِرَهُ اسْتِعْدَادًا لِلرَّحِيلِ فِي فَظَاظَةٍ لاَ مَثِيلَ لَهَا وَفَسَادِ ذَوْقٍ هُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِ ، اِنْدَفَعَ حَامِد إِلَى وَسَطِ الدَّارِ وَصَاحَ :

ـ حَايِيم جَاء ... حَايِيم جَاء ...

وَدَخَلَ حَايِيم الْغُرْفَةَ ، وَلَجَأَتْ لِلاَّهُم إِلَى الْمَقْصُورَةِ تُرَاقِبُ مِنْ وَرَاءِ السِّتَارَةِ مَا ذَا سَيَحْدُثُ لِتَتَدَخَّلَ إِنْ وَجَبَ الأَمْرُ وَلَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ. فَأَمَّا حَفَيِّظ وَحَامِد فَقَدْ أَصَابَهُمَا الْوُجُومُ تَحَسُّبًا لِلْمَوْقِفِ الَّذِي سَيَنْجُمُ عَنْ هَذِهِ الزِّيَارَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي الْحِسْبَانِ . وَتَقَدَّمَ حَايِيم نَحْوَ عَلِي وَالأَسَفُ مَنْشُورٌ عَلَى مَلاَمِحِهِ وَقَالَ :

ـ الْبَرَكَة فِيك يَا وِلِيدِي عَلِي ... إِنْ شَاء اللّه تكُون خلِيفَة وَالِدِك ... كَان سِي عَامِر رَجُل عَظِيم ... رَحْمَة اللّه عَليه .

وَلَمَّا وَجَدَ نَفْسَهُ مُحَاصَرًا مِنْ حَفَيِّظ وَحَامِد فِي مَظْهَرٍ تَغْلُبُ عَلَيْهِ الْمُضَايَقَةُ قَالَ :

ـ يَا [illegible]نِي خَلُّونِي نتنَفّس ... أَنَا جِيتْ لِلصَّدَاقَة بِينِي وبِين الْمَرْحُوم خُويَ عَامِر ... هَذي بَقِيَّة الْكِمْبِيَالاَت ...

وَاخْتَطَفَهَا مِنْهُ حَفِيّظ ، وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ الْفُسْحَةَ لِإِتْمَامِ كَلاَمِهِ وجَرَّهُ إِلَى الْبَابِ وَحَامِد وَرَاءَهُ يَتْبَعُهُ . فَانْتَفَضَ حَايِيم وَتَخَلَّصَ مِنْ مَاسِكِهِ مَسْكَ ضَرِيرٍ وَ صَرَخَ فِي وَجْهِهِ :

ــ عُمْرِي مَارِيتْ ... سَيِّبْنِي ... وَفَاتْ الدّنْيَا ... آه يَا سِي عَامِر ... قُلْت لك ... لُوكَانْ الْخُو يَنْفَع خُوه مَا يَبْكِي حَدّ عَلَى بُوه ...

وَخَرَجَ حَايِيم غَاضِبًا . وَلَكِنَّ الطَّرَفَ الآخَرَ ارْتَاحَ : حَفِيّظ لِأَنَّهُ لَمْ يَتْرُكِ الْفُرْصَةَ لِحَايِيم لِيُعْلِمَ بِأَنَّ هَذِهِ الْكِمْبِيَالاَتِ خَالِصَةٌ وَلِلاَّهُمْ لِأَنَّ حَايِيم لَمْ يَجِدِ الْمَجَالَ لِيَتَحَدَّثَ عَنِ الصُّنْدُوقِ الَّذِي تَسَلَّمَهُ كَأَمَانَةٍ .

وَلَمْ يُفَوِّتْ حَفِيّظ الْفُرْصَةَ لِيَقُولَ أَمَامَ لِلاَّهُمْ وَكِيمَة وَحَامِد وَعَلِي :

ــ هَا قَدْ بَدَأَتِ الْمَشَاكِلُ ... هَذِهِ الْكِمْبِيَالاَتُ يَجِبُ خَلاَصُهَا ... مِنْ أَيْنَ لَنَا كُلُّ هَذِهِ الأَمْوَالِ ؟ يَا كِيمَة ... لُمِّي مَا خَفَّ وَسَنَتْرُكُ الدَّارَ كَمَا هِيَ ... ثُمَّ نَرْجِعُ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ لِنَقْلِ الأَدْبَاشِ وَتَسْلِيمِ الدَّارِ إِلَى أَصْحَابِهَا ... الدَّارُ لِأَصْحَابِهَا مَعْنَاهُ دَفْعُ الْكِرَاءِ ... زِيد عَاهَا زِيد ... يَاكَلب ... وَاقِفٌ وَتَنْظُرْ لِي بَعَيْنِ شَامِتٍ ... تَحَرَّكْ وَسَاعِدْ أُمَّكَ وَجَدَّتَكَ ...

وَلَمْ يُعِرْ عَلِي أَيَّ اهتِمَامٍ لِعَمِّهِ وَاتَّجَهَ نَحْوَ الْبَابِ بَاحِثًا عَنْ فُسْحَةٍ تَجِدُ فِيهَا نَفْسُهُ مُتَنَفَّسًا لِمَا رَانَ عَلَيْهَا مِنَ الضِّيقِ دَاخِلَ الدَّارِ . وَلَمْ يَخْطُ خُطُوَاتٍ أَمَامَ الْبَابِ حَتَّى رَأَى حَايِيم يَتَّجِهُ نَحْوَهُ فَبَادَرَهُ عَلِي قَائِلاً :

ــ يَاعَمّ حَايِيم جِئْتَ لِتَأْخُذَ فُلُوس الْكِمْبِيَالاَت .

ــ لاَ يَا ولِيدِي الْكِمْبِيَالاَت خَالِصَة ... مَعَزَّة سِي عَامِر هِيَ رَجّعتْنِي ... أَنَا جِيت لِحُضُور رَفْع الْجُثْمان ... يَا وِلِيدِي عَلِي قُلْ لِحَدِّكَ الْحَقِيقَة

... هَـذَا خَـالِك وِعَمِّــك ... اللّـه يَهْـدِي ... بَـاش يَـاكُلُولُكُم رِزْقكُـم ... دَافِعْ عَلَـى نَفْسِـكَ وَعَلَى وَخَيَّاتِكَ .

وَعِنْدَ ذَلِكَ وَصَلَتِ الْكَرُّوسَـةُ الأُولَـى ثُـمَّ الثَّانِيَـةُ ثُـمَّ الثَّالِثَـةُ وَنَـزَلَ الْمُرَاقِبُ الْمَدَنِيُّ وَرَئِيسُ الْمَحْكَمَـةِ وَوَكِيـلُ الدَّوْلَـةِ وَتَقَـاطَرَتِ الْوُفُـودُ وَرُفِـعَ الْجُثْمَـانُ وَكَانَ حَـامِد مُتَوَارِيًـا فِي هَـذِهِ الْمَـرَّةِ لِـأَنَّ حَفِيِّـظ هَـدَّدَهُ وَتَوَعَّـدَهُ بِـأَنْ يَشْـكُوَهُ لِلحَـاج سَـالِم إِنْ هُـوَ أَظْهَـرَ انْتِمَـاءَهُ إِلَـى الْعَائِلَـةِ وَهْـوَ فِـي ذَلِـكَ اللِّبَـاسِ الْمُشِينِ. وَقَـامَ حَـاجِبُ الْمَحْكَمَـةِ بِتَنْظِيـمِ الْمَوْكِـب وَحَفِيِّـظ يَتَلَقَّـى التَّعَـازِي وَيَحْـرِصُ فِـي كُـلِّ دَقِيقَـةٍ عَلَى إِبْعَـادِ عَلِي مِـنْ جَانِبِـهِ بِإِرْسَـالِهِ لِلقِيَـامِ بِخِدْمَـةٍ مِـنَ الْخِدْمَـاتِ تَافِهَــةٍ حَتَّـى لاَ يَقْبَـلَ التَّعْزِيَـةَ مَعَـهُ وَيُقَاسِـمَهُ ، لِخِسَّـةٍ فِـي النَّفْـسِ ، مَـايَعْتَبِرُهُ هَـذَا الْعَـمُّ الدَّنِيُّ فِي مِثْلِ هَـذَا الْمَقَـامِ وَجَاهَـةً لَيْـسَ ابْـنُ أَخِيهِ جَدِيـرًا بِهَـا .

وَلَـمْ تَمُـرَّ رُبْـعُ سَـاعَةٍ حَتَّـى كَـانَتِ الـدَّارُ مُقْفَلَـةً ، وَالْمَوْكِـبُ الْجَنَـائِزِيُّ يَسِيرُ فِـي اتِّجَـاهِ الْقَرْيَـةِ ، وَعَلِي فِـي رُكْـنٍ مِـنَ الْكَرُّوسَـةِ يَبْكِـي بِفَيْـضٍ مِـنَ الدَّمْعِ حَسْـرَةً عَلَـى وَالِـدِهِ وَخَوْفًـا مِمَّـا يَنْتَظِـرُهُ مِـنَ الْمَآسِـي الَّتِـي بَـدَأَ يَنْسُـجُهَا لَهُ عَمُّـهُ وَخَالُـهُ .

وَبَعْـدَ سُـوَيْعَاتٍ قَلِيلَـةٍ أَطَـلَّ الْمَوْكِـبُ عَلَـى الْقَرْيَـةِ . وَمَـا أَنْ وَصَـلَ إِلَـى مَشَـارِفِهَا حَتَّـى رَأَى عَلِي جُمُوعًـا غَفِـيرَةً تَنْتَظِـرُ وُصُـولَ الرَّكْـبِ . وَأَصَابَـهُ شَـيْءٌ مِـنَ الذُّهُـولِ وَأَصْبَـحَ ، عِنْـدَ بُلُـوغِ الْمَنْزِلِ ، يَمْشِـي وَرَاءَ جُثْمَـانِ وَالِـدِهِ كَأَنَّـهُ جُثَّـةٌ هَـامِدَةٌ . وَلَـمْ يُـولِ اهْتِمَـامًـا لاَ إِلَـى الْفَـتْرَةِ الزَّمَنِيَّـةِ الَّتِـي جُهِّـزَ فِيهَـا وَالِـدُهُ فِـي غُرْفَتِـهِ بِـدَارِ الْجَمَاعَـةِ ، وَلاَ إِلَـى سَيْـرِ الْجَنَـازَةِ وَهْـيَ تَشُـقُّ شَـوَارِعَ

الْقَرْيَةِ ، وَلاَ إِلَى الْمُعَزِّينَ فِي الْجَبَّانَةِ وَلَكِنَّهُ انْتَبَهَ فَقَطْ عِنْدَمَا وَقَفَ أَمَامَهُ وَكِيلُ الدَّوْلَةِ الْفَرَنْسِيُّ الَّذِي أَبَى إِلاَّ الْحُضُورَ قَائِلاً :

ـ الْبَرَكَةُ فِيكَ ... كُنْ شُجَاعًا ... كَانَ أَبُوكَ رَجُلاً فَاضِلاً ... أَنْتَ خَيْرُ خَلِيفَةٍ لَهُ ... لاَتَتَرَدَّدْ فِي الاِسْتِعَانَةِ بِي ...بَابُ مَكْتَبِي وَمَنْزِلِي مَفْتُوحَانِ لَكَ فِي أَيِّ وَقْتٍ .

وَتَذَكَّرَ كَذَلِكَ مَا بَادَرَهُ بِهِ عَمُّهُ عِنْدَ انْتِهَاءِ التَّعَازِي مِنْ تَسْآلٍ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ عَمَّا قَالَهُ لَهُ وَكِيلُ الدَّوْلَةِ ولَمْ يَنْسَ بِالْخُصُوصِ جَوَابَهُ الَّذِي يَرْشَحُ إِغَاظَةً لَهُ عِنْدَمَا قَالَ :

ـ أَلَحَّ عَلَيَّ وَكِيلُ الدَّوْلَةِ بِأَنْ أَشْكُوَ إِلَيْهِ كُلَّ مَنْ يَظْلِمُنَا مَهْمَا كَانَ . كَثَّرَ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهِ .

أَمَّا بَقِيَّةُ الْمُعَزِّينَ فَإِنَّهُ لاَ يَذْكُرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، إِذْ كَانُوا ، وَعَيْنَاهُ تَفِيضَانِ دَمْعًا ، يَمُرُّونَ أَمَامَهُ كَأَنَّهُمْ أَطْيَافٌ بِدُونِ مَلاَمِحَ وَأَشْبَاحٌ بَاهِتَةٌ .]

أَهْوَاءٌ

1

[قَالَ الطَّبِيبُ لِلجُنْدِيِّ عَلِي :

ـــ اِنْتَبِهْ يَا عَلِي ... أَمْسِكِ الرِّجْلَ بِقُوَّةٍ ... وَلاَ تَهْتَمَّ بِسِيلْفِي ... أَلاَ تَرَى أَنَّ الْعَمَلِيَّةَ خَطِيرَةٌ ... وَمِنَ الْمُسْتَعْجَلِ بَتْرُ سَاقِ هَذَا الْجُنْدِيِّ الْمِسْكِينِ ... لاَتَزِدْهُ أَلَمًا عَلَى أَلَمِهِ ...

ـــ يَا دُكْتُورُ ... إِنِّنِي لاَ أُطِيقُ النَّظَرَ إِلَى هَذَا الْمِنْشَارِ الَّذِي يَعْمَلُ فِي رِجْلِ هَذَا السِّينِغَالِيِّ الْمِسْكِينِ ... أَلاَ تَرَى أَنَّ الْغَازَ الْمُبَنِّجَ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ كَثِيرًا ...

ـــ لاَ يُمْكِنُ أَنْ نَزِيدَهُ قَدْرًا أَكْبَرَ مِنَ الْبُنْجِ وَإِلاَّ فَارَقَ الْحَيَاةَ ... فَإِمَّا صَبْرٌ عَلَى الأَلَمِ وَنَجَاةٌ ، أَوْ تَسْكِينٌ بَاتٌّ لِلأَوْجَاعِ وَمَوْتٌ ...

وَانْهَمَكَ الطَّبِيبُ يَنْشُرُ سَاقَ الْمِسْكِينِ الَّذِي كَانَ يَتَلَوَّى وَيَئِنُّ أَنِينًا فَاجِعًا مِنَ الأَلَمِ ، وَلَمْ يَفْطِنْ عَلِي إِلاَّ وَرِجْلُ الْجُنْدِيِّ كَانَتْ بِيَدِهِ .

جَرَى هَذَا الْحِوَارُ فِي قَاعَةٍ بِالْمَدْرَسَةِ الْفِلاَحِيَّةِ الَّتِي تَحَوَّلَتْ إِلَى مُسْتَشْفًى عَسْكَرِيٍّ ، وَذَلِكَ صَبَاحَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ خَرِيفِ سَنَةِ 1915 أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الأُولَى .وَقَدْ بَلَغَ عَلِي الْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ وَلَمْ يَجِدْ حِيلَةً لِلإِفْلاَتِ مِنَ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ .

وَلَكِنَّهُ مُنْذُ أَنْ نُقِلَ إِلَى هَذَا الْمُسْتَشْفَى هَدَأَتْ أَحْوَالُهُ بَعْدَ أَنْ عَصَفَتْ بِكِيَانِهِ الأَهْوَاءُ وَطَوَّحَتْ بِهِ رِيَاحُ الصُّدْفَةِ وَأَهْوِيَةُ الضَّرُورَةِ طِيلَةَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ ، فِي الْحَاضِرَةِ وَفِي عِدَّةِ مَنَاطِقَ مِنَ الإِيَالَةِ ، مُدُنًا وَقُرًى وَأَرْيَافًا . هُوَ فِي مَدٍّ وَجَزْرٍ لاَيَقِرُّ لَهُ قَرَارٌ ، كَأَنَّهُ فِي قَبْضَةِ إِعْصَارٍ يَأْخُذُ بِتَلاَبِيبِهِ بِعُنْفٍ وَيَرْمِيهِ مَرَّةً فِي قَرْيَتِهِ وَأُخْرَى فِي الْعَاصِمَةِ ، وَمَرَّاتٍ فِي أَمَاكِنَ قَصِيَّةٍ مِنَ الشَّمَالِ التُّونِسِيِّ وَأَخِيرًا أَوْقَعَهُ بَيْنَ مَخَالِبِ الْجَيْشِ فِي فَتْرَةٍ اشْتَعَلَتْ فِيهَا نِيرَانُ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الأُولَى ، وَأُلْقِيَ فِي أَتُونِهَا وَزَعَازِعِهَا بِالشُّبَّانِ التُّونِسِيِّينَ تَحْصِدُهُمْ فِي الْخُطُوطِ الأُولَى قَذَائِفُ الْمَدَافِعِ ، وَتَأْكُلُ نَضَارَتَهُمْ آفَاتُ الْخَنَادِقِ ، وَتُدَمِّرُ أَبْدَانَهُمْ مُكَابَدَةُ أَوْصَابِ الأَسْرِ فِي الْمُعَسْكَرَاتِ .

أَتَمَّ يَوْمَهُ ذَاكَ تَمَامًا مِثْلَ الْعِشْرِينَ يَوْمًا الَّتِي قَضَاهَا فِي هَذَا الْمُسْتَشْفَى ، وَهُوَ يَقُومُ بِإِعَانَةِ الْمُمَرِّضَتَيْنِ الْفَرَنْسِيَّتَيْنِ فِي قَاعَةِ التَّدَاوِي . وَلَمْ يَكُنْ لِيَعْرِفَ مِنْ قَبْلُ أَنَّ الْعَدِيدَ مِنَ جَرْحَى هَذِهِ الْحَرْبِ الضَّرُوسِ يُؤْتَى بِهِمْ هُنَا لِلتَّدَاوِي وَلَمْ يَكُنْ لِيَتَمَثَّلَ مَدَى مَا تُلْحِقُهُ هَذِهِ الْكَارِثَةُ مِنْ نُدُوبٍ فِي الأَبْدَانِ . وَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى نَجَاتِهِ مِنْ آفَاتِهَا ، وَشَكَرَ الْعِنَايَةَ الإِلَهِيَّةَ إِذْ أَلْقَتْ بِهِ فِي هَذَا الْمُسْتَشْفَى لِيَفْتَحَ عَيْنَيْهِ أَيْضًا أَوْ عَلَى الأَصَحِّ قَلْبَهُ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ لِيَتَصَوَّرَهُ فِي هَذَا الْمُحِيطِ الْكَئِيبِ مِنْ هُمُومِ الْحُبِّ وَمَتَاهَاتِ الْهَوى وَوَيْلاَتِ الصَّبَابَةِ بَلْ لَوَاعِجِ الْعِشْقِ وَلَوْعَاتِهِ .

دَخَلَ غُرْفَتَهُ الصَّغِيرَةَ لِيَتَهَيَّأَ لِلِقَاءِ حَبِيبَتِهِ سِيلْفِي الْفَرَنْسِيَّةِ مِنْ مُقَاطَعَةِ الأَلْزاسِ ، وَهِيَ أَلْمَانِيَّةُ الأَصْلِ فِي الْوَاقِعِ ، وَالْكَارِهَةُ لِهَذِهِ الْحَرْبِ . غَفَا قَلِيلاً ، وَدَفَعَتْ بِهِ ذَاكِرَتُهُ إِلَى اسْتِعْرَاضِ شَرِيطِ وُقُوعِهِ فِي قَبْضَةِ الْعَسْكَرِ

تذَكَّرَ أنَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ مَايَ سَنَةَ 1915 دَفَعَ بِهِ الصَّبَايحِي أَحْمَد فِي زَنْزانَةٍ مُظْلِمَةٍ بِدَارِ الْبَاي بِالْقَصَبَةِ ، وَعَالَجَ الْقَيْدَ الَّذِي بِيَدِهِ حَتَّى فَكَّهُ ، وَنظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَاحِصَةً ، فَالْتَقَتِ الأَنْظَارُ وَتَشَابَكَتْ ، ثُمَّ ارْتَدَّتْ فِي شِبْهِ تَعَجُّبٍ يُخَالِطُهُ إِنْكَارٌ غَرِيبٌ . فَتَرَاجَعَ أَحْمَد كَأَنَّهُ يَفِرُّ ، وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَسَلَّمَ الْمِفْتَاحَ إِلَى جُنْدِيٍّ مِنْ حَرَسِ الْبَاي وَمَضَى .

وَتَذَكَّرَ أَنَّهُ نَظَرَ حَوْلَهُ نَظْرَةً سَرِيعَةً ، وَطَأْطَأَ رَأْسَهُ فِي إِطْرَاقَةِ الْمَغْلُوبِ عَلَى أَمْرِهِ ، فَوَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى زِيِّهِ وَفَطِنَ أَنَّهُ كَانَ إِلَى الْبَارِحَةِ مُوَظَّفًا بَسِيطًا بِشَرِكَةِ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ يَسْهَرُ فِي بَيْتِهِ بِبَاجَة مَعَ الصَّبَايحِي أَحْمَد وَثُلَّةٍ مِنَ الأَصْحَابِ كَشَأْنِهِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ . لَقَدْ وَجَدَ فِيهِ بِالْخُصُوصِ الأَنِيسَ وَالْمُعِينَ عَلَى مَصَاعِبِ الْغُرْبَةِ وَهَوَاجِسِهَا ، يَبُثُّهُ مَخَاوِفَهُ وَأَحْزَانَهُ وَيَقُصُّ عَلَيْهِ أَخْبَارَ طُفُولَتِهِ الْمَلِيئَةِ تَقَلُّبَاتٍ وَتَصَارِيفَ وَيَصِفُ لَهُ مَرَارَةَ الْيُتْمِ وَأَوْصَابَهِ .

لَقَدْ آنَسَ مِنْ أَحْمَد مُنْذُ أَشْهُرٍ دَمَاثَةَ أَخْلاَقٍ وَطِيبَةَ نَفْسٍ ، وَسَلاَمَةَ طَوِيَّةٍ ، جَعَلَتْهُ يَمِيلُ إِلَيْهِ وَيَعْتَبِرُهُ صَدِيقًا مُخْلِصًا . وَكَانَ إِلَى الْبَارِحَةِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهُ هَرَمٌ مِنْ أَهْرَامِ مِصْرَ ، ضَخَامَةً وَرُسُوخَ قَدَمٍ . وَيُحِسُّ بِأَنَّ هَذَا الرَّأْسَ الْعَظِيمَ ، وَهَذَا الصَّدْرَ الْمُنْتَفِخَ وَهَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ الْغَلِيظَتَيْنِ هِيَ كُلُّهَا قُوَّةٌ جَبَّارَةٌ صَدِيقَةٌ تَدْفَعُ عَنْهُ ظُلْمَ الظَّالِمِينَ وَتُنْجِيهِ مِنْ سَطْوَةِ الصَّبَايحِيَّةِ وَظُلْمِ مَشَايِخِ التُّرَابِ . وَكَمْ سَاهَمَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ فِي يُتْمِ أَطْفَالٍ وَإِضَاعَةِ عِيَالٍ . وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى بُدْلَةِ أَحْمَد الزَّرْقَاءِ الْبَاهِتَةِ ، وَأَزْرَارِهَا اللاَّمِعَةِ وَإِلَى مُسَدَّسِهِ الْعَظِيمِ الْمَشْدُودِ إِلَى حِزَامٍ مِنْ جِلْدٍ أَحْمَرَ قَانٍ فَيَشْعُرُ بِطُمَأْنِينَةٍ وَدِفْءٍ لاَ مَثِيلَ لَهُمَا . لَقَدْ وَجَدَ فِي ظِلِّ الصَّدَاقَةِ مِنَ التَّفَهُّمِ وَالرِّعَايَةِ مَا لَمْ يَجِدْهُ فِي أَوَاصِرِ الْقَرَابَةِ .

تَذَكَّرَ اللَّيْلَةَ الْبَارِحَةَ وَقَدْ قَالَ لَهُ أَحْمَد :

ـ لِي أُسْبُوعٌ كَامِلٌ وَأَنَا أَبْحَثُ عَنِ الْمَدْعُوِّ عَلِي بِنْ عَامِر بِنْ الْحَاج سَالِم .

ـ وَلِأَيِّ سَبَبٍ ؟

ـ الْقَايد يَبْحَثُ عَنْهُ .

كَانَ الصَّبَايحِي أَحْمَد لاَ يَعْرِفُ مِنِ اسْمِ صَدِيقِهِ إِلاَّ أَنَّهُ يُدْعَى عَلِيًّا مَعَ نِسْبَتِهِ إِلَى قَرْيَتِهِ . وَلَمْ يُفَكِّرْ لَحْظَةً فِي أَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْهُ هُوَ مَاثِلٌ أَمَامَهُ . ظَنَّ عَلِي ، سَذَاجَةً مِنْهُ ، أَنَّ جَدَّهُ تُوُفِّيَ وَأَنَّ السُّلْطَةَ تَبْحَثُ عَنْهُ لِإِعْلاَمِهِ بِهَذَا الْخَبَرِ وَتَمْكِينِهِ مِنَ الإِرْثِ . فَقَالَ :

ـ أَنَا هُوَ عَلِي بِنْ الْحَاج سَالِم .

وَتَذَكَّرَ كَيْفَ وَجَمَ الصَّبَايحِي ثُمَّ وَدَّعَهُ بَعْدَ لَحَظَاتٍ وَغَادَرَ الْبَيْتَ عَلَى أَمَلِ اللِّقَاءِ بِهِ فِي صَبَاحِ الْغَدِ . وَتَذَكَّرَ كَيْفَ بَاتَ لَيْلَتَهُ تِلْكَ مُشَتَّتَ الأَفْكَارِ ، مَشْغُولَ الذِّهْنِ بِقَرْيَتِهِ الَّتِي غَادَرَهَا مُنْذُ أَشْهُرٍ فَحَنَّ إِلَيْهَا وَإِلَى أُمِّهِ وَإِخْوَتِهِ الصِّغَارِ وَاشْتَاقَ إِلَى رُؤْيَةِ زَيَاتِينِهَا الَّتِي سَيَكُونُ لَهُ قِسْطُهُ فِيهَا . غَيْرَ أَنَّهُ تَذَكَّرَ عَمَّهُ وَقَسْوَتَهُ وَظُلْمَهُ وَكُرْهَهُ لَهُ فَأَحَسَّ بِانْقِبَاضٍ يَأْخُذُ نَفْسَهُ أَخْذًا .

وَلَكِنْ مَا دَخْلُ عَمِّهِ الآنَ وَقَدْ ضَاعَتْ سُلْطَتُهُ بِوَفَاةِ الْجَدِّ وَانْتِفَاءِ التَّوْكِيلِ وَأَفْلَتَ مِنْ هَيْمَنَتِهِ جَانِبٌ كَبِيرٌ مِنَ الأَمْلاَكِ . وَلَمْ يَنْسَ كَيْفَ أَفَاقَ فِي الصَّبَاحِ وَوَجَدَ صَدِيقَهُ أَحْمَد أَمَامَ الْبَابِ يَنْتَظِرُهُ . وَلَكِنَّهُ نَسِيَ مَا دَارَ بَيْنَهُمَا مِنْ حَدِيثٍ وَهُمَا فِي طَرِيقِهِمَا إِلَى دَارِ الْعَمَلِ . بَيْنَما رَسَخَتْ

فِي ذَاكِرَتِهِ وَقْفَةُ الْعَامِلِ أَمَامَهُ وَإِعْلاَمُهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ قُرْعَةَ الْعَسْكَرِ رَغْمَ عِلْمِهِ بِذَلِكَ . لِذَا تَقَرَّر تَجْنِيدُهُ قَسْرًا بِاعْتِبَارِهِ فَارًّا مِنَ الْجُنْدِيَّةِ .

لَمْ تَغِبْ مِنْ ذِهْنِهِ تِلْكَ اللَّحْظَةُ الَّتِي شَعُرَ فِيهَا كَأَنَّ صَاعِقَةً قَدْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ وَلاَ كَيْفَ وَجَمَ وَنَظَرَ إِلَى الْعَامِلِ فَوَجَدَهُ يَتَفَحَّصُ مَلاَمِحَهُ وَسُرْعَانَ مَا قَالَ لَهُ :

ـ هَلْ لَكَ قَرَابَةٌ بِالْحَاكِمِ عَامِرِ بِنْ الْحَاج سَالِم .

ـ أَنَا ابْنُهُ .

ـ آهْ ، يَاحَسْرَةً ... دَرَسْنَا مَعًا بِجَامِعِ الزَّيْتُونَةِ وَأَمْضَيْنَا أَيَّامًا حُلْوَةً تَجْمَعُنَا صَدَاقَةٌ مَتِينَةٌ وَعِشْرَةٌ كُلُّهَا صَفَاءٌ وَوِدٌّ .

وَتَطَلَّقَتْ أَسَارِيرُ عَلِي وَاسْتَشَفَّ بَرِيقًا مِنَ الأَمَلِ فِيهِ خَلاَصُهُ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ . وَلَكِنَّ الْعَامِلَ عَاجَلَهُ قَائِلاً :

ـ يَاوَلِيدِي الْوَزَارَةُ الْحَرْبِيَّةُ فِي طَلَبِكَ وَلَيْسَ فِي إِمْكَانِ أَحَدٍ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنَ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ . غَايَةُ مَا يُمْكِنُ أَنْ أَقُومَ بِهِ ، مَعَزَّةً لِوَالِدِكَ الْمَرْحُومِ وَوَفَاءً لِذِكْرَاهُ ، هُوَ أَنْ أَتْرُكَكَ حُرًّا هَذِهِ اللَّيْلَةَ وَلاَ أُدْخِلَكَ السِّجْنَ كَمَا يَفْرِضُهُ عَلَيَّ الْقَانُونُ . وَغَدًا أُرْسِلُكَ إِلَى تُونِسَ عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ . ... هَلْ تَعْرِفُ هُنَا كَفِيلاً يَضْمَنُكَ وَهُوَ مَحَلُّ ثِقَتِكَ

ـ الصَّبَايِحِي أَحْمَد .

وَتَبَسَّمَ الْعَامِلُ وَقَالَ :

ـ هُوَ طَرَفٌ ... اِبْحَثْ عَنْ غَيْرِهِ ؟

ـ تَذَكَّرْتُ ... لِي اِبْنُ بَلْدَتِي أَحْمَد بِلْحَاج عَلِي يَعْمَلُ هُنَا وَهُوَ مِنَ الأَقْرِبَاءِ .

وَأَذِنَ الْعَامِلُ بِجَلْبِ الرَّجُلِ حَالاً . فَحَضَرَ تَوًّا وَقَالَ لَهُ :

ــ هَلْ فِي إِمْكَانِكَ أَنْ تَكُونَ ضَامِنًا لِابْنِ بَلْدَتِكَ وَقَرِيبِكَ ؟ هُوَ مَطْلُوبٌ مِنَ الْوَزَارَةِ الْحَرْبِيَّةِ .

ــ نَعَمْ .

وَتَذَكَّرَ أَنَّ الْعَامِلَ لَمْ يُمَانِعْ وَرُبَّمَا تَرَكَ لَهُ الْفُرْصَةَ لِيَتَوَارَى عَنْ أَعْيُنِ السُّلْطَةِ .

وَهُنَا ارْتَعَشَ عَلِي وَأَبَى أَنْ يُعِيدَ إِلَى ذَاكِرَتِهِ مَا وَقَعَ بَعْدَ ذَلِكَ . لَكِنَّ أَلَمًا خَفِيفًا فِي يَدِهِ أَلَحَّ عَلَيْهِ ، فَتَذَكَّرَ صَدِيقَهُ أَحْمَد وَأَيَّ صَدِيقٍ ، تَذَكَّرَهُ وَهُوَ يَضَعُ لَهُ الْقَيْدَ فِي يَدِهِ وَيَسُوقُهُ إِلَى الْقِطَارِ مَعَ لَفِيفٍ مِنَ الْمُجْرِمِينَ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَدْخُلُ مَدِينَةَ تُونِسَ مُكَبَّلاً مَدْحُورًا . وَكَمْ شَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَشُقَّ أَهَمَّ شَوارِعِ الْعَاصِمَةِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . وَخَفَّفَ عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَمَا تَصَوَّرَ الْهِرِلِّي صَاحِبَ النَّوَادِرِ وَالنُّكَتِ فِي بَلْدَتِهِ الَّذِي تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَ تُونِسَ وَلَوْ مُقَيَّدًا وَدَخَلَهَا يَرْسِفُ فِي الأَغْلاَلِ . وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُخَفِّفْ مِنْ مُصِيبَتِهِ عَلَى الْمَدَى الطَّوِيلِ . لِأَنَّهَا فِي وَاقِعِ الأَمْرِ ذَهَبَتْ بِاتِّزَانِهِ . هُوَ الْحُزْنُ حَجَبَ عَنْهُ الْوَاقِعَ الْمَرِيرَ . فَأَصْبَحَ فِي شِبْهِ غَيْبُوبَةٍ مَكَّنَتْهُ مِنْ أَنْ يُوَاصِلَ السَّيْرَ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ الْمُجْرِمِينَ بَلْ أَنْ يَبْقَى عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ وَالْقَيْدُ فِي يَدِهِ وَلاَ يَسْقُطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ كَمَدًا . وَمَاحِيلَتُهُ الآنَ إِلاَّ تَرْكُ كُلِّ حِيلَةٍ وَعَزَاؤُهُ الْوَحِيدُ هُوَ اعْتِقَادُهُ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ . وَكَيْفَ لاَ يَتَبَلَّدُ إِحْسَاسُهُ وَفِي كُلِّ مُنْعَطَفٍ مِنْ مُنْعَطَفَاتِ الطَّرِيقِ يَأْتِيهِ مَنْ يَعْرِفُهُ وَيَقُولُ لَهُ فِي أَسَفٍ :

ــ عَلِي ... مَاذَا أَصَابَكَ ... مَاهِيَ الْفِعْلَةُ الَّتِي فَعَلْتَهَا ..؟

فَيَقُولُ وَبَصَرُهُ لاَ يَبْرَحُ الأَرْضَ :
ــ الْعَسْكَر ... إِعْتَبَرُونِي هَارِبًا ... لَمْ أَحْضُرْ الْقُرْعَةَ .

وَيَضْرِبُ مُخَاطِبُهُ كَفًّا عَلَى كَفٍّ وَيَقُولُ :
ــ اللَّهُ يَلْطُفُ بِكَ ... إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَبْقَى فِي تُونِسَ وَلاَ يُرْسَلُ بِكَ إِلَى الْوَاجِهَةِ .

وَيَعْقِدُ الأَلَمُ عَقْدًا ، وَيَتَبَلَّدُ الإِحْسَاسُ حَتَّى يَدْخُلَ هَذِهِ الزَّنْزَانَةَ الْمُظْلِمَةَ . وَكَمْ شَقَّتْ عَلَيْهِ تِلْكَ النَّظْرَةُ الأَخِيرَةُ الَّتِي صَوَّبَهَا نَحْوَهُ الصَّبَايحِي فَرَأَى شَخْصًا قَدْ حُشِيَ حَشْوًا فِي بُدْلَةٍ لَمْ تُخَطْ لَهُ ، فَنَتَأَ بَطْنُهُ وَارْتَخَى مُؤَخَّرُهُ رَغْمَ سَرَاوِيلِهِ الْفَضْفَاضَةِ .إِنَّهُ شَعُرَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ بِأَنَّ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الأُولَى الَّتِي يَرَاهُ فِيهَا .

وَتَذَكَّرَ أَنَّ الْبَابَ فُتِحَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَسِيقَ بِهِ إِلَى ضَابِطٍ فَرَنْسِيٍّ يَقُودُ حَرَسَ الْبَايِ وَيُنَظِّمُ قُرْعَةَ الْعَسْكَرِ . فَوَقَفَ أَمَامَهُ وَتَغَيَّرَ مَا بِهِ وَزَالَ تَبَلُّدُ الإِحْسَاسِ وَانْقَشَعَتِ الْغَيْبُوبَةُ وَصَمَّمَ عَلَى الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ . قَالَ لَهُ الضَّابِطُ :
ــ كَيْفَ تَهْرُبُ هَكَذَا مِنَ الْجُنْدِيَّةِ .

وَهَالَتْهُ مِنَ الضَّابِطِ لَثْغَةٌ غَرِيبَةٌ ارْتَعَشَ لَهَا وَلَكِنَّهُ اسْتَقْوَى وَقَالَ:
ــ إِنَّنِي لَمْ أَهْرُبْ وَلَكِنْ مَا عَلِمْتُ بِوُقُوعِ الْقُرْعَةِ .

أَجَابَهُ الضَّابِطُ فِي حَنَقٍ وَكَأَنَّ لَثْغَتَهُ مِطْرَقَةٌ ضَخْمَةٌ تَنْزِلُ بِضَرَبَاتٍ مُتَوَالِيَةٍ ، مُتَكَالِبَةٍ عَلَى رَأْسِهِ :
ــ كَيْفَ لَمْ تَعْلَمْ بِذَلِكَ وَالْحَالُ أَنَّ شَيْخَ التُّرَابِ أَعْلَمَكَ عَنْ طَرِيقِ عَمِّكَ وَهُوَ شَاهِدٌ عَلَيْكَ ؟

وَأَحَسَّ عَلِي حِينَذَاكَ بِوحْدَةٍ شَامِلَةٍ وَبعَرَاءٍ لاَ تُظَلِّلُهُ لاَ الصَّدَاقَةُ وَلاَ الْقَرَابَةُ . أُضْطُرَّ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ وَحْدَانِيًّا . وَلَكِنَّهَا وَحْدَانِيَّةٌ تَبْعَثُ فِي النَّفْسِ قُوَّةً وَتَدْفَعُ صَاحِبَهَا إِلَى الصُّمُودِ . قَالَ :

ـ إِنَّنِي عَائِلُ أُسْرَتِي . أُمِّي أَرْمَلَةٌ وَإِخْوَتِي صِغَارٌ وَالْقَانُون لاَيَسْمَحُ بِتَجْنِيدِي .

ـ إِنَّكَ هَارِبٌ .

ـ قُلْتُ لَكَ إِنِّي لَمْ أَهْرَبْ .

ـ مَهْمَا كَانَ الأَمْرُ فَإِنَّكَ سَتُجَنَّدُ فِي الزَّوَافِ الرَّابِعِ .

ـ إِنَّنِي لَنْ أَذْهَبَ أَبَدًا ... وَعَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ فَاسْمَحْ لِي بِالانْضِمَامِ إِلَى حَرَسِ الْبَاي .

صَاحَ الضَّابِطُ :

ـ هَلْ أَنْتَ الآمِرُ هُنَا ؟ أَرْجِعُوهُ إِلَى السِّجْنِ .

وَدَخَلَ عَلِي مَرَّةً ثَانِيَةً الزِّنْزَانَةَ وَجَلَسَ يُفَكِّرُ فِي أَمْرِهِ ... وَتَذَكَّرَ أَسْمَاءَ أَقْرِبَائِهِ الَّذِينَ مَاتُوا فِي هَذِهِ الْحَرْبِ الَّتِي قَلَّ أَنْ يَعُودَ مِنْهَا أَحَدٌ سَالِمًا . وَغَرِقَ فِي بُحْرَانٍ مِنَ الْخَيَالاَتِ وَالأَوْهَامِ . تَخَيَّلَ نَفْسَهُ فِي الصُّفُوفِ الأَمَامِيَّةِ وَهْوَ يُطْلِقُ الرَّصَاصَ وَالْعَدُوُّ يَزْحَفُ عَلَيْهِ . إِنَّ فِي أُذْنِهِ لَهَوِيٌّ وَفِي رَأْسِهِ لَمَعْرَكَةٌ مَهُولَةٌ . فَلَكَأَنَّ الْحَرْبَ الْقَائِمَةَ بَيْنَ الأَلْمَانِ وَالْفَرَنْسِيِّينَ انْتَقَلَتْ إِلَى دِمَاغِهِ . وَأَفَاقَ مِنْ تَهْوِيمَاتِهِ عَلَى صَرِيرِ الْبَابِ يُفْتَحُ كَأَنَّهُ طَلْقَةُ رَصَاصٍ أَصَابَتْهُ وَعَلَى صَوْتِ الْجُنْدِيِّ يَصِيحُ :

ـ عِلِي بِنْ الْحَاج سَالِم ... هَيَّا ...

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَقَفَ بَعْدَ قَلِيلٍ مَرَّةً ثَانِيَةً أَمَامَ الضَّابِطِ الْفَرَنْسِيِّ :

ــ مَا اسْمُكَ ؟

ــ عَلِي الْغَافِل .

ــ أَتَتَهَكَّمُ بِي ؟ إِسْمُكَ عَلِي بِنْ الْحَاج سَالِم ... أَتُرِيدُ أَنْ تُنْكِرَ اسْمَكَ الآنَ .

ــ لاَ ... يَاحَضْرَةَ الضَّابِطِ ... أَمَّا أَنَا فَغَافِلٌ مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ وَإِلاَّ مَا وَقَعْتُ فِي هَذَا الْفَخِّ .

وَظَهَرَ عَلَى مَلاَمِحِ الضَّابِطِ شَيْءٌ مِنَ الاِسْتِحْسَانِ ، خُصُوصًا أَنَّ عَلِي تَكَلَّمَ بِفَرَنْسِيَّةٍ نَظِيفَةٍ . وَلاَ بُدَّ أَنَّ الضَّابِطَ اسْتَمْلَحَ هَذِهِ الرُّوحَ الْمَرِحَةَ الصَّادِرَةَ عَنْ رَجُلٍ فِي أَسْوَإِ حَالٍ. قَالَ :

ــ أَتُصِرُّ عَلَى الاِمْتِنَاعِ ؟

ــ نَعَمْ .

وَالْتَفَتَ الضَّابِطُ الْفَرَنْسِيُّ إِلَى مُسَاعِدِهِ التُّونِسِيِّ وَقَالَ :

ــ إِنَّهُ يُحْسِنُ الْفَرَنْسِيَّةَ وَنَحْنُ الآنَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مِثْلِهِ فِي حَرَسِ الْبَاي . أَرْسِلْهُ إِلَى بَارْدُو ؟

ــ نَعَم مُونْ كُومَنْدَانْ .

وَتَعَجَّبَ عَلِي كَيْفَ لَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ وَاحِدٍ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ هَذَا الأَمْرُ . وَفَهِمَ أَنَّهُ مِثْلَ أَغْلَبِيَّةِ التُّونِسِيِّينَ الْمُتَعَاوِنِينَ مَعَ الْفَرَنْسِيِّينَ لاَهَمَّ لَهُمْ إِلاَّ خُوَيْصَةُ أَنْفُسِهِمْ . فَلاَ إِنْسَانِيَّةَ وَلاَ رَأْفَةَ وَلاَ شَفَقَةَ وَلاَ رَحْمَةَ .

وَالْتَفَتَ الضَّابِطُ الْفَرَنْسِيُّ إِلَى عَلِي وَقَالَ :

ــ أَنْتَ مَسْرُورٌ الآنَ .

ـ نَعَمْ . مَسْـرُورٌ مُـون كُومَنْـدَانْ إِنْ أَرَدْتَ . وَأَكُـونُ مَسْـرُورًا أَكْـثَرَ لَـوْ أَطْلَقْـتَ سَـرَاحِي .

وَضَحِكَ الضَّابِطُ وَقَالَ :

ـ أَنْـتَ تَطْلُـبُ الْكَثِيرَ . إِقْتَنِعْ الآنَ بِهَـذَا .

وَأَحَسَّ عَلِي بِرَأْسِهِ يَخِفُّ . فَرَفَعَهُ وَنَظَرَ إِلَى الضَّابِطِ نَظْـرَةَ وِدٍّ وَشَـعُرَ بِأَنَّ تِلْـكَ اللَّثْغَةَ قَرِيبَةٌ الآنَ مِنْ نَفْسِـهِ بَـلْ حَبِيبَـةٌ إِلَيْـهِ وَكَأَنَّهَـا هِـيَ الَّتِـي انْتَصَرَتْ لَـهُ وَأَنْقَذَتْـهُ مِـنَ الْمَـوْتِ . فَالْغَرَابَـةُ أَحَـبُّ إِلَيْـهِ مِـنْ صَدَاقَـةِ الأَصْدِقَـاءِ وَقَرَابَـةِ الأَقْرِبَـاءِ . لَقَـدْ وَجَـدَ فِيهَـا الـدِّفْءَ وَالْحَـرَارَةَ . وَكَـمْ غَرِيـبٍ أَسْـنَى رَأْفَةً وَأَوْفَـى شَـفَقَةً أَحْيَانًـا مِـنَ الصَّدِيـقِ وَالْقَرِيـبِ . وَالأَغْـرَبُ مِـنْ كُـلِّ هَـذَا هُـوَ أَنَّهُ بَـدَأَ يَشْـعُرُ بِتَحَسُّـنٍ كَبِيرٍ فِي حَالَتِـهِ عِنْدَمَـا فَقَـدَ الأَمَـلَ فِي الإِفْـلاَتِ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ .وَكَـانَ يَقُـولُ فِي نَفْسِـهِ كَيْـفَ يَكُـونُ ذَلِـكَ ؟ هَـلِ الإِنْسَـانُ عِنْدَمَا يَتَخَلَّى عَـنْ أَمَلِهِ يُحِسُّ بِأَنَّ حَالَـهُ تَحَسَّـنَ .]

3

[لَمْ يَشْعُرْ عَلِي بِالْوَقْتِ يَمُرُّ وَانْشَغَلَ بِهَذَا الشَّرِيطِ الَّذِي لَمْ يَبْرَحْ ذِهْنَهُ ، حَتَّى سَمِعَ دَقَّاتٍ خَفِيفَةً عَلَى الْبَابِ . فَنَهَضَ مُلْتَاعًا وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـ لَعَلَّ سِيلْفِي انْتَظَرَتْنِي طَوِيلاً ثُمَّ هَا هِيَ تَأْتِي .

فُتِحَ الْبَابُ . فَوَجَدَ سِيلْفِي وَاقِفَةً فَحَمْلَقَ عَيْنَيْهِ لِيَتَبَيَّنَ هَلْ أَنَّ الَّذِي أَمَامَهُ طَيْفٌ أَمْ حَقِيقَةٌ ؟

(وَهُنَا كَفَّ عَبْدُ اللَّطِيفِ عَنِ الاِضْطِلاَعِ بِمُهِمَّةِ الرَّاوِيَةِ وَخَيَّرَ أَنْ يَتْرُكَ جَدَّهُ يَتَحَدَّثُ بِنَفْسِهِ . لَعَلَّهُ لَمْ يَجِدْ كَلِمَاتٍ أَرْشَقَ وَأَدَقَّ مِنْ لُغَةِ عَلِي ، لُغَةِ مَنِ اكْتَوَى بِنَارِ الْحُبِّ وَأَفْصَحَ عَنْهُ كَارِعًا مِنْ مَعِينِهِ ، عَبًّا عَذْبًا عَذَابًا . أَوْ هُوَ أَوْهَمَنَا بِذَلِكَ لِأَنَّ جَدَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ فِي الْوَاقِعِ عَلَى الْكِتَابَةِ الأَدَبِيَّةِ وَفَضَّلَ عَبْدُ اللَّطِيفِ أَنْ يَلْبَسَ قِنَاعًا وَيَتْرُكَ لِنَفْسِهِ الْحُرِّيَّةَ لِيَقُولَ أَو يَكْتُبَ مَا يُرِيدُ مُتَسَتِّرًا وَرَاءَ جَدِّهِ) .

وَمَهْمَا كَانَ الأَمْرُ فَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ عَلِي وَالْعُهْدَةُ عَلَى عَبْدِ اللَّطِيفِ :

سِيقَ بِي إِلَى هَذَا الْمُسْتَشْفَى الْعَسْكَرِيِّ وَأَمْضَيْتُ فِيهِ الْيَوْمَ الأَوَّلَ وَالثَّانِيَ وَأَنَا أُظْهِرُ لِلطَّبِيبِ وَلِلضَّابِطِ الصَّغِيرِ الْفَرَنْسِيِّ ، الَّذِي وُضِعْتُ

تَحْتَ إِمْرَتِهِ ، مَدَى اسْتِيعَابِي لِكُلِّ تَفَاصِيلِ مُهِمَّتِي . وَمَا أَنْ طَلَعَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ حَتَّى حَفِظْتُ كُلَّ مَا يَجِبُ أَنْ أَقُومَ بِهِ . وَلَكِنَّ الضَّجَرَ بَدَأَ يَأْخُذُنِي . هِيَ حَالَةٌ لَمْ أَتَعَوَّدْهَا فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ الَّتِي أَمْضَيْتُهَا خَارِجَ الْقَرْيَةِ وَخُصُوصًا فِي الثُّكْنَاتِ أَوِ الْمُعَسْكَرَاتِ أَوْ مَرَاكِزِ الْحِرَاسَةِ . فَالْجُهْدُ الْمَطْلُوبُ هُنَاكَ لاَ يَكَادُ يُطِيقُهُ الْبَدَنُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ . وَالتَّعَبُ الْمُذْكِي لِمَنَازِعِ الْحَيَاةِ لاَ يَتْرُكُ لِلْمَرْءِ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الضَّجَرِ الْقَاتِلِ ؛ وَأَبْوَابُهُ وَنَوَافِذُهُ عَدِيدَةٌ مِنْهَا الرَّاحَةُ وَالْعُزْلَةُ وَالرَّتَابَةُ وَفَرَاغُ الْفِكْرِ . أَمَّا أَنَا فَقَدْ كُتِبَ عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ دَائِمًا لُعْبَةً بَيْنَ أَمْوَاجِ الْجُهْدِ مُهْتَزًّا ، وَطَرِيدًا مِنْ عَوَالِمِ الْعُزْلَةِ مُعَنًّى ، وَعَدُوًّا لِجَنَبَاتِ الرَّتَابَةِ مُضْنًى . وَمَا ذَا فِي إِمْكَانِي أَنْ أَقُومَ بِهِ غَيْرَ أَنْ أَلْبَسَ لِبَاسًا مَدَنِيًّا وَهْوَ مَسْمُوحٌ لِي بِهِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، وَهْيَ نِعْمَةٌ لَمْ أَكُنْ لأَنْتَظِرَهَا ، وَأَتْرُكَ لِسَاقَيَّ الْحُرِّيَّةَ لِتَسُوقَنِي إِلَى سِينِمَا بِنْ كَامِلَةَ وَإِلَى مُخَالَطَةِ الأَصْدِقَاءِ وَالْخِلاَّنِ ؟ ثُمَّ اسْتَطَبْتُ الْبَقَاءَ فِي الْمُسْتَشْفَى لَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا فِي أَوَّلِ الأَمْرِ ؟ وَقُلْتُ : هَذِهِ الْحَدِيقَةُ الْجَمِيلَةُ ، بِأَشْجَارِهَا الْغَرِيبَةِ وَأَزْهَارِهَا الْمُتَنَوِّعَةِ تَسْحَرُ الأَلْبَابَ تَحْتَ ضِيَاءِ الْقَمَرِ فَلأَتَأَمَّلْ ظِلاَلَهَا وَأَتَنَشَّقْ عَبِيرَ نُوَّارِهَا وَأَسْرَحَ بَيْنَ خُضْرَتِهَا . فَوَجَدْتُنِي فِي اللَّيْلَةِ الأُولَى مِنْ قَرَارِي نَشْوَانَ قَدِ اسْتَيْقَظَتْ فِيَّ كُلُّ حَوَاسِّي وَتَضَمَّخَتْ أَنْفَاسِي بِكُلِّ مَا فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ مِنْ كَوَامِنِ الطَّبِيعَةِ وَأَسْرَارِهَا . فَلَكَأَنِّي أَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ وَلَمْ أَجِدْهُ أَوْ لَكَأَنِّي أَنْتَظِرُ حَدَثًا وَلَمْ يَأْتِ . وَنِمْتُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ نَوْمًا هَادِئًا ، عَمِيقًا لَمْ يُرَاوِدْهُ أَيُّ حُلْمٍ . وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ ، بَيْنَمَا كُنْتُ أَجُوسُ خِلاَلَ الأَشْجَارِ وَالْقَمَرُ فِي تَمَامِهِ يَفْضَحُ كُلَّ حَرَكَةٍ إِذَا بِي أَلْمَحُ طَيْفًا يَتَهَادَى فَاقْتَرَبْتُ فَوَجَدْتُ الْمُمَرِّضَةَ سِيلْفِي فَقَالَتْ :

ـ آ... عَلِي ... أَنْتَ تُحِبُّ الطَّبِيعَةَ .

ـ وَأَيُّ شَيْءٍ أَجْمَلُ مِنَ الطَّبِيعَةِ إِلاَّ ...

ـ إِلاَّ ... (وَضَحِكَتْ)

ـ جَمَالُكِ ...

وَخَطَوْنَا خُطُوَاتٍ وَأَنَا مُحْتَارٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي وَأَقُولُ : بِمَ عَسَايَ أَنْ أُخَاطِبَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ، الأَرُسْتُقْرَاطِيَّةَ أَصْلاً ، الْفَرَنْسِيَّةَ جِنْسِيَّةً قَسْرًا ، الَّتِي فَضَّلَتْ ، وَهِيَ فِي الثَّلاَثِينَ مِنْ عُمْرِهَا ، أَنْ تَكُونَ فِي هَذَا الْمُسْتَشْفَى مُمَرِّضَةً بَعْدَ أَنِ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُ زَوْجِهَا الضَّابِطِ فِي الْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ الْخَائِضِ لِهَذِهِ الْحَرْبِ الْكَرِيهَةِ . هِيَ عَوَالِمُ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالثَّقَافَةِ تَقِفُ حَاجِزًا بَيْنِي وَبَيْنَهَا . وَلَكِنَّ الَّذِي شَجَّعَنِي عَلَى الإِقْدَامِ عَلَى مُحَاوَرَتِهَا لُطْفٌ مُتَنَاهٍ ، وَتَوَاضُعٌ لاَ يُجِيزُهُ مَا فِي هَذَا الْجَمَالِ مِنْ غُرُورٍ وَشُمُوخٍ ، وَمَخَايِلُ نُبْلٍ تُحَرِّضُ عَلَى طَرْقِ أَبْوَابِ الْحَظِّ . ثُمَّ إِنَّ الَّذِي زَادَنِي إِقْدَامًا لُغَتُهَا الْفَرَنْسِيَّةُ الضَّعِيفَةُ مِمَّا جَعَلَنِي أَعْتَبِرُ نَفْسِي صَقْرًا مِنْ صُقُورِ لُغَةِ فُولْتِيرَ .

وَسَأَلَتْنِي عَنْ سِنِّي فَقُلْتُ : عِشْرُونَ . فَقَالَتْ فِي فَرَنْسِيَّةٍ تَغْلِبُ عَلَيْهَا أَيْضًا نَبْرَةٌ جِرْمَانِيَّةٌ زَادَتْهَا دَلاَلاً :

ـ أَحْلَى فَتْرَةٍ مِنْ فَتَرَاتِ الْحَيَاةِ .

وَلَعَلَّهَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ مِنِّي أَنْ أُحَدِّثَهَا عَنْ هُمُومِي وَضَنْكِ الْعَيْشِ فِي بِلاَدِنَا وَهْيَ تَشْهَدُهُ يَوْمِيًّا . وَلَكِنَّنِي خَيَّرْتُ أَنْ أُضْحِكَ وَتَضْحَكَ ؛ وَطَفِقْتُ أَقُصُّ عَلَيْهَا نَوَادِرَ جُحَا وَمُلَحَ أَشْعَبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا أَلِفْتُ وَنَمَّقْتُ فِي الْحِينِ . فَضَحِكَتْ ضَحَكَاتٍ عَالِيَةً ، وَقَفَزَتْ بَيْنَ الأَشْجَارِ

كَأَنَّهَا غَزَالَةٌ شَارِدَةٌ ، تَعْبِيرًا عَمَّا دَاخَلَهَا مِنْ سُرُورٍ وَبَهْجَةٍ وَدَعَتْنِي إِلَى الجُلُوسِ عَلَى العُشْبِ . وَأَصْبَحَتْ تَنْظُرُ إِلَيَّ بِعَجَبٍ وَأَنَا مَسْحُورٌ بِرِقَّتِهَا ، وَعَيْنَايَ سَارِحَةٌ فِي فِرْدَوْسِ جَمَالِهَا ، وَيَدِي تُلاَمِسُ أَصَابِعَهَا ، فَتَحَرَّأْتُ وَقَبَّلْتُ يَدَهَا الرَّقِيقَةَ كَمَا يَفْعَلُ النُّبَلاَءُ . ثُمَّ أَبْقَيْتُهَا فِي حَوْزَتِي فَلَمْ تُمَانِعْ وَأَثْنَيْتُ عَلَى جَمَالِهَا فَلَمْ تَتَبَاعَدْ . وَفَارَتْ حُمَيَّاهُ الحَوَاسِّ فِينَا فَالْتَقَتْ شِفَاهُنَا ذَائِبَةً فِي لَذَّةٍ قُصْوَى تَمْهِيدًا لاِلْتِحَامِ جَسَدَيْنَا عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ . وَسُرْعَانَ مَا فَاجَأَتْنِي بِبُكَاءٍ زَادَ عَيْنَيْهَا سِحْرًا ، وَبِعَبْرَةٍ أَحْكَمَتْ إِسْكَاتَهَا فِي نُبْلٍ وَحَيَاءٍ وَقَالَتْ :

ـ أَنَا أَعِيشُ مَأْسَاةً ... وَلاَ حَاجَةَ لِشَرْحِهَا ... فَاعْذِرْنِي يَا عَلِي ، وَلَكِنَّكَ قَدْ سَرَّيْتَ عَنِّي وَأَرْجَعْتَ لِي سَاعَاتِ سُرُورِي وَمَرَحِي ... فَشُكْرًا لَكَ أَلْفَ شُكْرٍ .

وَلَسْتُ أَدْرِي مَا الَّذِي دَعَانِي إِلَى أَنْ أَتَفَلْسَفَ وَقَدْ رَاوَدَتْنِي ثِقَةٌ فِي النَّفْسِ عَجِيبَةٌ فَأَكَّدْتُ عَلَى كَلِمَةِ مَأْسَاةٍ وَقُلْتُ مَزْهُوًّا بِطَلاَقَةِ لِسَانٍ .

ـ لَنْ تَكُونَ الحَيَاةُ مَأْسَاةً بِأَتَمِّ مَعْنَى الكَلِمَةِ ، مَأْسَاةً هَدَّامَةً لِلْكِيَانِ مُزَعْزِعَةً لِحَيَاةِ الكَائِنِ إِلاَّ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا المَرْءُ نَظْرَةَ الجِدِّ القَاتِلِ . أَمَّا إِذَا اسْتَهَانَ بِهَا وَتَحَدَّاهَا فِي سُخْرِيَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ ، عِنْدَ ذَلِكَ يَقْتَحِمُ الحَيَاةَ كَالتَّيَّارِ الجَارِفِ وَيَتَفَطَّنُ إِلَى أَنَّ الجِدَّ السَّابِقَ وَالنَّظَرَ الرَّصِينَ لَيْسَا إِلاَّ مُدَاعَبَةً لِهَذِهِ الحَيَاةِ وَمُشَاهَدَةً عَنْ بُعْدٍ لَهَا . وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنْ تَعْبَثَ بِهَا وَتَنْتَهِكَهَا مُعَرْبِدًا إِذْ تَكُونُ عِنْدَ ذَلِكَ الطَّامَّةُ الكُبْرَى . وَالشُّعُورُ الحَادُّ بِالمَأْسَاةِ لَنْ يَكُونَ إِلاَّ فِي اللَّهْوِ فِي أَنْبَلِ مَعَانِيهِ وَأَعْمَقِ أَبْعَادِهِ الفَلْسَفِيَّةِ . .

وَظَنَنْتُ أَنَّنِي أَرْصِفُ الْكَلاَمَ مُجَرَّدَ رَصْفٍ وَلَكِنَّنِي بُوغِتُّ عِنْدَمَا قَالَتْ لِي :

ـ مَا تَقُولُهُ حَقٌّ . إِنَّ الْمَأْسَاةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَنْ تَكُونَ إِلاَّ فِي اللَّهْوِ . أَلاَ تَرَى أَنَّ الْمَأْسَاةَ فِي الْحُبِّ هِيَ أَنْ تَكُونَ بِدَايَتُهُ ، مَهْمَا كَانَتْ مَرَاتِبُهُ ، لَهْوًا وَشِبْهَ عَبَثٍ وَلاَ عَبَثًا ، أَنْ تَسْتَهِينَ بِهِ وَتَسْتَخِفُّ ثُمَّ إِذَا بِهِ يُصْبِحُ هَدَّامًا ، مُزَعْزِعًا لِلْكِيَانِ ، حَيْرَةً وَرُعْبًا وَقَلَقًا ، وَهْوَ الصِّدْقُ بِعَيْنِهِ .

أَحْسَسْتُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِخُطُورَةِ الْمَوْقِفِ وَبِأَنَّ هَذَيَانِي أَصْبَحَ جِدًّا . وَشَعُرْتُ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوفِ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لِأَبْتَعِدْ عَنِ الْمَوْضُوعِ حَتَّى أَسْلَمَ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ الَّتِي رُبَّمَا قَادَتْنِي إِلَى السِّجْنِ وَأَنَا ذَاكَ الْجُنْدِيُّ الْبَسِيطُ لاَسَنَدَ لَهُ وَلاَ مُعِينَ ، رِيشَةٌ فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ فِي أَيْدِي هَذِهِ الْقُوَى الْجَبَّارَةِ . وَتَصَوَّرْتُ أَنَّ مُجَرَّدَ نَبْرَةٍ يَحْبُكُهَا ضَابِطٌ صَغِيرٌ عُنْصُرِيٌّ أَوْ غَيُورٌ حَسُودٌ بِتُهْمَةِ الاغْتِصَابِ تَرْمِينِي فِي الْوَاجِهَةِ فَأَلْحَقُ بِزَوْجِهَا فِي مَجَاهِلِ الْحَرْبِ . وَتَطَيَّرْتُ وَقُلْتُ جَادًّا :

ـ لَوْ أَخْلَصْتِ لِنَفْسِكِ وَنَظَرْتِ إِلَى الْكَوْنِ نَظْرَةَ الْحَقِّ لَمَا وَجَدْتِ لِلْحَقِيقَةِ أَصْلاً إِلاَّ اللَّحْظَةَ الَّتِي تَحْيَاهَا ، إِلاَّ الْحَاضِرَ مُمْتَلِئًا أَوْ فَارِغًا . فَالْمَاضِي قَدْ أَفْلَتَ مِنْكِ وَغَيَّرَهُ الْحَاضِرُ وَلَوَّنَهُ وَكَيَّفَهُ كَأَشَدِّ مَايَكُونُ التَّلْوِينُ وَالتَّكْيِيفُ . وَالْمُسْتَقْبَلُ لاَحَقِيقَةَ لَهُ إِذِ الْحَاضِرُ هُوَ الَّذِي يَدْعُوكِ إِلَى أَنْ تَرَيْهِ كَمَا تَرَيْنَهُ .فَتَقَبَّلِي الْحَاضِرَ وَاحْيَيْهِ كَأَشَدِّ مَا تَكُونُ الْحَيَاةُ وَامْلَئِيهِ بِكُلِّ مَاتَقْدِرُ عَلَيْهِ ، تَقَبَّلِيهِ لاَعِبَةً عَابِثَةً إِنْ عَزَّ لَدَيْكِ كُلُّ مَنْزَعٍ لاَهٍ .

ـ حَتَّى يَعْلَقَ بِي وَيَكُونَ حَقِيقَةً كَحَقِيقَةِ الْمَأْسَاةِ .

وَنَهَضْتُ وَنَهَضَتْ ، وَيَدِي فِي يَدِهَا وَهْيَ تَخطُو خُطُوَاتٍ وَئِيدَةً ، أَبْرَزَتْ رَشَاقَةَ قَدِّهَا وَكَمَالَ حُسْنِ شَعْرِهَا . وَبَدَأَ الْجِدُّ يَحِلُّ بِي مَحَلَّ اللَّهْوِ وَشَعُرْتُ بِأَنَّ حِبَالَ حُسْنِهَا بَدَأَت تُطَوِّقُنِي وَتَنَهَّدْتُ وَخَرَجَتْ مِنَ الأَعْمَاقِ زَفْرَةٌ أَنْطَقَتْهَا قَائِلَةً :

ـ سَلِمْتَ مِنْ هَذَا الْهَمِّ الشَّدِيدِ .

وَاسْتَغْرَبْتُ ذَلِكَ مِنِّي وَفَطِنْتُ إِلَى أَنَّ الزَّفْرَةَ خَرَجَتْ عَنِ الْمَأْلُوفِ وَلَمْ تَصْدُرْ إلاَّ عَنِ انْشِغَالِ الضَّمِيرِ وَفَهِمْتُ أَنَّهُ بِدَايَةُ الْعِشْقِ لاَمَحَالَةَ . يَا لَمُصِيبَتِي كَيْفَ دَبَّ فِيَّ هَذَا الْهَوَى وَاسْتَوْلَى علَى كِيَانِي وَأَنَا فِي غَفْلَةٍ مِنْ أَمْرِي .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْمُوَالِي فَطِنَ الطَّبِيبُ إِلَى أَنَّ ذِهْنِي يَهُوِّمُ فِي أَجْوَاءٍ أُخْرَى ، وَعَرَفَ بِحَدْسِهِ أَنَّ نَظَرَاتِي وَنَظَرَاتِ سِيلْفِي تَتلاَقَى فِي تَوَاطُؤٍ إِنْ خَفِيَ عَلَيَّ وَعَلَيْهَا فَلَمْ يَخْفَ عَلَى مُلاَحِظٍ بَصِيرٍ مِثْلِ الطَّبِيبِ . وَزَادَ خَوْفِي عِنْدَمَا أَبْصَرْتُ رِجْلَ الْجُنْدِيِّ السِّينِغَالِيِّ الْمِسْكِينِ الْمَبْتُورَةَ حَاصِلَةً فِي يَدِي . وَقُلْتُ فِي دَخِيلَتِي : هَذَا أَخَفُّ الأَضْرَارِ إِنْ أَلْقِيَ بِي فِي أَتُونِ الْوَاجِهَةِ .

وَارْتَعَشَتْ يَدِي لاَ كَمَا ارْتَعَشَتْ فِي يَدِ سِيلْفِي اللَّيْلَةَ الْبَارِحَةَ ، وَتَذَكَّرْتُ بُكَاءَهَا . فَجَالَتْ بِنَفْسِي غَيْمَةٌ مِنَ الْحُزْنِ لَسْتُ أَدْرِي هَلْ هُوَ الْحُزْنُ عَلَيْهَا أَمْ عَلَيَّ .

وَعِنْدَمَا انْتَهَتْ حِصَّتِي مِنَ الشُّغْلِ وَنَوَيْتُ أَنْ أَقْضِيَ السَّهْرَةَ مَعَ الأَصْدِقَاءِ وَالْخِلاَّنِ فِي سِينِمَا بِنْ كَامِلَة ثُمَّ فِي مَكَانٍ آخَرَ يَحْلُو فِيهِ

الْقَصْفُ وَالْمُجُونُ قَالَتْ لِي سِيلْفِي بَعِيدًا عَنِ الْعُيُونِ :
ـ نَلْتَقِي اللَّيْلَةَ فِي نَفسِ الْمَكَانِ .

لَمْ أُغَيِّرْ زِيِّي الْعَسْكَرِيَّ وَغَايَةُ مَا قُمْتُ بِهِ هُوَ نَزْعُ اللِّبَاسِ الأَبْيَضِ الْفَوْقِيِّ ، وَتَسْوِيَةُ شَوَارِبِي الْمُذَبَّبَةِ وَتَشْعِيثُ حَاجِبَيَّ حَتَّى أُضْفِيَ عَلَى مَلاَمِحِي مَسْحَةً مِنَ الْفُحُولَةِ ، وَشَيْئًا مِنْ شَرَاسَةِ الْمُحَارِبِ ، وَأَنَا بَيْنَ الْمُحَبِّذِ لِهَذِهِ الصُّحْبَةِ وَالْكَارِهِ لَهَا .

اِنْتَصَبْتُ كَالْحَارِسِ بَيْنَ الأَشْجَارِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ مَسْرَحًا لِلِقَائِنَا الْبَارِحَةَ . وَانْتَظَرْتُ سَاعَةً ثُمَّ أُخْرَى ، وَتَمَشَّيْتُ وَهِمْتُ فِي الْخَيَالِ ، وَنَاجَيْتُ الْقَمَرَ وَلاَ مِنْ مُجِيبٍ ، وَغُرْتُ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِي أَسْبُرُهَا وَأَحْسَسْتُ بِوَحْدَتِي . فَرَجَعْتُ أَجُرُّ سَاقَيَّ جَرًّا وَدَخَلْتُ غُرْفَتِي . وَفِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ بَيْنَمَا أَنَا مُمَدَّدٌ عَلَى الْفِرَاشِ أُدَخِّنُ وَأَنَا عَلَى أَسْوَإِ حَالٍ إِذْ طَرَقَ الْبَابُ طَرْقًا خَفِيفًا فَظَنَنْتُ أَنَّهُ زَمِيلِي الْجُنْدِيُّ أَحْمَدُ . وَإِذَا بِالْبَابِ يُفْتَحُ وَتَدْخُلُ سِيلْفِي ، فَتَهَيَّأْتُ لِمُعَاتَبَتِهَا وَإِنْهَاءِ كُلِّ عَلاَقَةٍ بَيْنَنَا وَلَكِنَّهَا عَاجَلَتْنِي قَائِلَةً :
ـ الْمَعْذِرَةُ لَقَدْ طَالَ الْعَشَاءُ مَعَ عَدَدٍ مِنَ الأَصْدِقَاءِ ، وَشَرِبْتُ شَيْئًا مِنَ الْخَمْرِ وَأَنَا الآنَ مُتْعَبَةٌ . لَيْلَتُكَ سَعِيدَةٌ .

وَقَبَّلَتْنِي قُبْلَةً أَحْسَسْتُ حُمَيَّاهَا تَصْعَدُ إِلَى رَأْسِي كَسَوْرَةِ الْخَمْرِ . وَلَمْ تُسْعِفْنِي حَتَّى أَنْهَضَ وَأَغْلَقَتِ الْبَابَ وَمَضَتْ . فَأَطْفَأْتُ النُّورَ وَحَاوَلْتُ النَّوْمَ . وَإِذَا بِالْبَابِ يُفْتَحُ مَرَّةً أُخْرَى وَيُشْعِلُ زَمِيلِي النُّورَ وَيَقُولُ لِي :
ـ هَلْ أُصَدِّقُ عَيْنَيَّ ... أَلَمْ تَأْتِكَ الآنَ سِيلْفِي الْمُمَرِّضَةُ ... أَلَمْ تَكُنْ فِي

غُرْفَتِكَ ... ظَنَنْتُكُمَا ...

ـــ أَلاَ تَسْتَحِي يَا رَجُلُ ..؟ وَهَبْ أَنَّهَا فِي غُرْفَتِي ، أَمِنَ الآدَابِ أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْنَا بِدُونِ اسْتِئْذَانٍ..؟ الْبَدَوِيُّ الْخَالِي مِنَ الشَّهَامَةِ وَالنُّبْلِ يَبْقَى جِلْفًا ... مَا أَبْعَدَ مَكَّةَ عَلَى بُو حِمَارٍ .

وَخَرَجَ مُضْطَرِمَ النَّفْسِ غَضَبًا وَخَيْبَةَ أَمَلٍ . وَبِتُّ وَمَا إِنْ يُرَاوِدِ النَّوْمُ عَيْنَيَّ حَتَّى أُفِيقَ مُرَوَّعًا مُلْتَاعًا مِنَ الأَحْلاَمِ الْمُزْعِجَةِ الَّتِي لَمْ تَبْرَحْ مُخَيِّلَتِي : مَدَافِعُ تُجَلْجِلُ ، وَشَظَايَا قَذَائِفَ تَتَطَايَرُ ، وَدِمَاءٌ تَسِيلُ ، وَأَيْدٍ وَأَرْجُلٌ مَبْتُورَةٌ تَتَنَاثَرُ ، وَأَنِينُ جَرْحَى يَمْلأُ سَمْعِي ، وَغُبَارٌ مُثَارٌ وحِجَارَةٌ مُتَسَاقِطَةٌ ، وَأَنَا أَزْحَفُ عَلَى يَدَيَّ فِي ذَاكَ الْخِضَمِّ ثُمَّ أُفِيقُ . وَأَحْلُمُ مِنْ جَدِيدٍ وَأَتَصَوَّرُنِي أُسَاقُ بَيْنَ كَوْكَبَةٍ مِنَ الْجُنْدِ إِلَى الْمَحْكَمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ . فَيَحْكُمُ عَلَيَّ بِالإِعْدَامِ لِأَنِّي جُنْدِيٌّ هَارِبٌ عَابِثٌ ، وَأَقِفُ وَالْبَنَادِقُ مُصَوَّبَةٌ نَحْوَ صَدْرِي وَأَسْتَيْقِظُ وَكَأَنَّ قَلْبِي قَدْ طَارَ مِنْ بَيْنِ ضُلُوعِي . وَأَقُولُ فِي نَفْسِي : خَرَجْتُ مِنْ وَرَطَاتٍ لاَ تُحْصَى وَلاَ تُعَدُّ وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ أَرْسَلَهَا الشَّيْطَانُ لِتُقِضَّ مَضْجَعِي بَعْدَ أَنْ حَسِبْتُ أَنِّي ابْتَعَدْتُ عَنْ مِنْطَقَةِ الْعَوَاصِفِ وَالأَعَاصِيرِ .

وَكَمْ فَرِحْتُ عِنْدَمَا انْبَلَجَ الصُّبْحُ وَوَجَدْتُنِي سَلِيمًا مُسَلَّمًا . وَأَسْرَعْتُ لِمُبَاشَرَةِ عَمَلِي وَأَنَا أُمَنِّي نَفْسِي بِنِسْيَانِ لَيْلَتِي الْعَاصِفَةِ وَبِالْبَتِّ فِي عَلاَقَتِي بِهَذِهِ الْمَرْأَةِ . وَلَكِنَّهَا دَسَّتْ فِي جَيْبِي وَرَقَةً بَعْدَ أَنْ أَقْبَلَتْ عَلَيَّ مُصَبِّحَةً ، وَبَدَتْ لِي وَهْيَ بِلاَ زِينَةٍ وَلا بَهْرَجٍ حُورِيَّةً مِنْ حُورِيَّاتِ الْجَنَّةِ تَسْبِي أَرْصَنَ الْعُقُولِ . وَانْزَوَيْتُ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنِ الْعُيُونِ وَقَرَأْتُ بِضْعَةَ أَسْطُرٍ عَلَى وَرَقَةٍ بَنَفْسَجِيَّةٍ بِخَطٍّ جَمِيلٍ رَقِيقٍ : إِعْذِرْنِي لِتَخَلُّفِي الْبَارِحَةَ عَنْ مُلاَقَاتِكَ فَقَدِ اضْطُرِرْتُ إِلَى الْبَقَاءِ مَعَ بَعْضِ الزُّمَلاَءِ . وَثِقْ بِأَنَّ صُحْبَتَكَ

خَيْرٌ لِي أَلْفَ مَرَّةٍ مِنْ صُحْبَةِ أُولَئِكَ الأَدْعِيَاءِ . نَلْتَقِي اللَّيْلَةَ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ . مَعَ قُبُلاَتِي النَّارِيَّةِ . مِنَ الْمُولَعَةِ بِكَ ، سِيلْفِي .

لَمْ يَكُنْ مَا فِي الْوَرَقَةِ أَقَلَّ وَقْعًا مِنَ الأَحْلاَمِ الْمُزْعِجَةِ الَّتِي رَوَّعَتْنِي اللَّيْلَةَ الْبَارِحَةَ . وَلَكِنَّ طَيْشَ الشَّبَابِ وَفَوْرَتَهُ زَيَّنَا لِي الْمَوْقِفَ وَأَغْرَيَانِي بِوُلُوجِ هَذَا الْبَابِ الْخَطِيرِ وَهَيَّجَا حَوَاسِّي لِتَتَقَبَّلَ الْمَزِيدَ مِنْ عَبِيرِ سِيلْفِي وَالتَّنَعُّمِ بِرِقَّتِهَا وَالذَّوَبَانِ فِي حُمَّى شِفَاهِهَا وَالاطْمِئْنَانِ إِلَى دِفْءِ أَحْضَانِهَا . وَمَا حِيلَتِي وَالْمَرْأَةُ بَدَأَتْ تَمِيلُ إِلَيَّ وَبَدَأْتُ أَمِيلُ إِلَيْهَا . وَانْتَظَرْتُ سَاعَةَ اللِّقَاءِ بِفَارِغِ صَبْرٍ ، وَقَدْ زَالَتْ مِنِّي ، بِسِحْرِ سَاحِرٍ، كُلُّ خِشْيَةٍ وَتَبَدَّدَتْ كُلُّ مَخَاوِفِي . وَاعْتَبَرْتُ أَنَّ الْعَوَالِمَ الَّتِي كَانَتْ تَفْصِلُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا قَدْ تَبَخَّرَتْ حَتَّى هَوَّنْتُ عَلَى نَفْسِي الزَّوَاجَ بِهَا ، بَعْدَ أَن كُنْتُ لاَ أَتَصَوَّرُ ذَلِكَ . ثُمَّ أَقُولُ هِيَ مُتَزَوِّجَةٌ فَكُفَّ يَا عَلِي عَنْ هَذَا الْهُرَاءِ . وَلَكِنَّ صَوْتًا يُلِحُّ عَلَيَّ وَيَقُولُ : هِيَ مَهْزَلَةٌ لاَ بُدَّ مِنْ وَضْعِ حَدٍّ لَهَا، وَمِمَّا يُسَاعِدُنِي عَلَى ذَلِكَ أَنَّ عَلاَقَتِي بِسِيلْفِي مَازَالَتْ فِي أَوَّلِهَا وَأَنَا أَعْتَبِرُهَا مُجَرَّدَ عَبَثٍ وَلَكِنَّ جَنَاحًا مِنْ نَفْسِي يَرُدُّ سَاخِرًا : هَيْهَاتَ . "]

3

(لَسْتُ أدْرِي الأَسْبَابَ الَّتِي دَفَعَتْ عَبْدَ اللَّطِيفِ لِيَضَعَ حَدًّا لِرِوَايَةِ الشَّيْخِ عَلِي لِلأَحْدَاثِ كَمَا جَاءَتْ حَرْفًا بِحَرْفٍ فِي الأَشْرِطَةِ المُسَجَّلَةِ حَسْبَ قَوْلِهِ . وَآثَرَ أنْ يَصُوغَ هُوَ مَا جَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ عَلِي وَسِيلْفِي مِنْ أطْوَارٍ فِي عَلاَقَتِهِمَا . لَعَلَّهُ كَرِهَ أنْ يَنْقُلَ كَثِيرًا مِنَ الأَقْوَالِ بِالعَامِّيَّةِ التُّونِسِيَّةِ كَمَا هِيَ ، لِأَنَّ عَلِي غَيَّرَ مِن اسْتَرَاتِجِيَّتِهِ وَأرَادَ أنْ يُطْلِعَهَا بِكُلِّ دِقَّةٍ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَعَلَى مَا قَاسَاهُ فِي صِبَاهُ بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدِهِ وَمَا خَاضَهُ مِنْ مُغَامَرَاتٍ قَبْلَ دُخُولِهِ الجَيْشَ حَتَّى لِقَائِهِ بِهَا . وَعَبْدُ اللَّطِيفِ هُوَ مِنْ تِلْكَ المَدْرَسَةِ اللُّغَوِيَّةِ الصَّفَوِيَّةِ لاَ الزَّيْتُونِيَّةِ الَّتِي وَرِثَتْ رَأْسًا عَنْ فُقَهَاءِ اللُّغَةِ المَنْهَجَ الكَلاَسِيكِيَّ بَلِ الاسْتِشْرَاقِيَّةِ الحَاذِقَةِ لِمَنْهَجِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِهَا تَتَعَلَّقُ بِالنَّصِّ بِاعْتِبَارِهِ أثَرًا أرْكِيُولُوجِيًّا قَدْ حُنِّطَ بَعْدُ وَأصْبَحَ يُتَعَامَلُ مَعَهُ مِنَ الخَارِجِ كَكَائِنٍ فَقَدَ الحَيَاةَ وَلَكِنَّهُ مَعَ هَذَا تُحْفَةٌ فَنِّيَّةٌ جَدِيرَةٌ بِأنْ يَتَفَاعَلَ مَعَهَا المَرْءُ وَيَهِيمَ بِهَا وَيَصْنَعَ مِنْهَا مَاشَاءَ لَهُ مِنَ النُّسَخِ وَالنَّمَاذِجِ . وَهَذِهِ المَدْرَسَةُ تَضَعُ الأدَبَ فَوْقَ وَاقِعِ المُجْتَمَعِ وَتَمِيلُ إلَى التَّجْرِيدِ وَالتَّحْلِيقِ فِي أجْوَاءٍ تُوحِي بِالمِنْوَالِ الَّذِي ارْتَضَاهُ فَطَاحِلُ الأدَبِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ مِنْ أمْثَالِ الجَاحِظِ وَأبِي حَيَّانٍ التَّوْحِيدِيِّ وَأبِي الفَرَجِ الأَصْبَهَانِيِّ وَأبِي العَلاَءِ

الْمَعَـرِّيِّ مَـعَ تَذْرِيحَـةٍ اسْتِشْـرَاقِيَّةٍ وَهَـذِهِ الْمَدْرَسَـةُ لاَ تُؤْمِـنُ طَبْعًـا بِـأَدَبٍ تُونِسِيٍّ نَـابِعٍ مِـنَ الْيَوْمِـيِّ إِذْ هِـيَ فِـي الْوَاقِـعِ تَعْتَـبِرُ الْمُجْتَمَـعَ التُّونِسِـيَّ غَـيْرَ جَدِيـرٍ بِـأَنْ يَكُـونَ مَـادَّةً لِلْـأَدَبِ وَإِنْ كَـانَ فَهْـوَ رَكِيـكٌ بَعِيـدٌ عَـنِ الْمُسْـتَوَى اللُّغَوِيِّ الرَّفِيـعِ الْمَطْلُـوبِ فِـي مِثْـلِ هَـذَا الْمَقَـامِ .أَمَّـا إِذَا كَـانَ أَدِيبًـا عَصْرِيًّـا قَـدْ عَـرَفَ مِـنَ الآدَابِ الأَجْنَبِيَّـةِ مَـا شَـاءَتْ لَـهُ قِرَاءَاتُـهُ وَدِرَاسَـاتُهُ فَلْيَنْـحُ نَحْـوَ الْوُجُودِيِّـينَ وَفَلاَسِـفَةِ الْغَـرْبِ وَلْيُضْـفِ عَلَـى الْوَقَـائِعِ مِـنَ الْغُمُـوضِ وَالتَّعَـالِي مَايَجْعَلُهَـا تَسْـمُو فِـي ذِهْنِـهِ عَـنِ السَّفْسَـافِ وَالْمُبْتَـذَلِ مِـنْ حَيَـاةِ الشَّـعْبِ الْيَوْمِيَّـةِ وَتَبْتَعِـدُ عَمَّـا لاَ يَلِيـقُ بِـأَدِيبٍ يَحْـتَرِمُ نَفْسَـهُ . وَغَـابَ عَنْـهُ أَنَّ الأَدَبَ الْعَرَبِيَّ انْطَلَـقَ فِـي أَوَّلِـهِ مِـنَ الْعَـامِّيِّ الشَّـفَهِيِّ وَفِيـهِ مِـنَ الضِّمْنِـيِّ وَالْمَسْـكُوتِ عَنْـهُ وَغَـيْرِ الْمَنْطُـوقِ بِـهِ الْكَثِـيرُ وَحَـاوَلَ أَنْ يَسْـمُوَ إِلَـى الْكِتَـابِيِّ وَلَكِنَّـهُ لَـمْ يَتَخَلَّـصْ مِـنْ هَـذِهِ السِّـمَاتِ وَفَـرَضَ عَلَيْـهِ فُقَهَـاءُ اللُّغَـةِ نَهْجًـا تَغْلِـبُ عَلَيْـهِ الْقَدَاسَـةُ وَالصَّرَامَـةُ فَـابْتَعَدَ بِـهِ عَـنْ وَاقِـعِ اللُّغَـةِ الْمُتَطَـوِّرِ الْحَـيِّ وَعَمَّـقَ الْفَجْـوَةَ بَيْـنَ الْفُصْحَـى وَالْعَامِّيَّـةِ. وَلَـوْلاَ الصَّحَافَـةُ وَوَسَـائِلُ الإِعْـلاَمِ السَّـمْعِيَّةُ وَالْبَصَرِيَّـةُ لَمَـا قُـدِّرَ لِلْعَرَبِيَّـةِ أَنْ تَتَطَـوَّرَ . وَعَلَـى كُـلٍّ فَلَيْـسَ لِـي مِـنْ حِيلَـةٍ إِلاَّ نَقْلُ مَا دَوَّنَهُ عَبْـدُ اللَّطِيـفِ حَسْـبَ قَنَاعَاتِـهِ اللُّغَوِيَّـةِ وَمَـا اتَّسَـمَتْ بِـهِ مِـنْ نِقَـاطِ ضُعْـفٍ أَمَـامَ هَيْبَـةِ اللُّغَـةِ الْعَرَبِيَّـةِ وَجَلاَلِهَـا . بِمَـا فِـي ذَلِـكَ مَـا اسْـتَطَابَهُ فِـي بَعْـضِ الأَحْيَـانِ مِـنَ الْعِبَـارَاتِ وَالْفُـرُوقِ اللُّغَوِيَّـةِ الَّتِـي اشْـتَمَلَتْ عَلَيْهَـا الْعَامِّيَّـةُ وَلَعَلَّ عُذْرَهُ فِي ذَلِكَ أَنَّـهُ لَـمْ يَجِـدْ لَهَـا نَظِيرًا فِي الْفُصْحَى . أَوْ لَعَلَّـهُ لَـمْ يَنْـسَ مَـا قَالَـهُ الْجَـاحِظُ الَّـذِي ، وَإِنِ انْتَهَـجَ بِـالْقَوْلِ نَهْـجَ فُقَهَـاءِ اللُّغَـةِ الرَّسْـمِيِّينَ ، فَإِنَّـهُ فِـي التَّطْبِيـقِ لَـمْ يَتَنَكَّـبْ عَـنْ أُصُـولِ فَـنِّ الْكِتَابَـةِ الصَّحِيـحِ . بَـلْ صَـرَّحَ بِذَلِـكَ بِـدُونِ مُوَارَبَـةٍ وَدَلَّ عَلَـى أَنَّ هُنَـاكَ تَيَّـارَيْنِ لُغَوِيَّـيْنِ : تَيَّـارُ الأَعْـرَابِ الَّـذِي أَنَـاخَ عَلَـى الْفُصْحَـى بِكَلْكَلِـهِ ، وَتَيَّـارُ الْعَامِّيَّـةِ الَّـذِي مِـنْ شَـأْنِهِ أَنْ

يُضْفِي عَلَى الْفُصْحِى نَفَسًا جَدِيدًا وَإِيقَاعًا طَرِيفًا . وَلاَ حَاجَةَ إِلَى زِيَادَةِ بَيَانِ مَنْحَى عَبْدِ اللَّطِيفِ لِأَنَّ كِتَابَتَهُ هِيَ وَحْدَهَا الْكَفِيلَةُ بِفَضْحِهِ . كَتَبَ إِذَنْ عَبْدُ اللَّطِيفِ :

[الْتَقَى عَلِي بِسِيلْفِي بَيْنَ الأَشْجَارِ وَقَدْ بَدَأَ نُورُ الْقَمَرِ يَتَقَلَّصُ . وَارْتَمَتْ فِي أَحْضَانِهِ وَأَشْفَى غَلِيلَهَا وَأَشْفَتْ غَلِيلَهُ قُبَلاً وَرَشْفًا لِرَحِيقِ شِفَاهِهَا وَضَمًّا وَعِنَاقًا حَتَّى احْتَضَنَهُمَا عُشْبُ الأَرْضِ . وَعِنْدَ ذَلِكَ طَفِقَتْ تَبْكِي بُكَاءً يُقَرِّحُ الْقُلُوبَ . وَلَمْ يَسَعْ عَلِي إِلاَّ أَنْ أَوْهَمَهَا أَنَّهُ يَبْكِي مِثْلَهَا وَأَحَسَّ بِالْجَانِبِ الْهَزْلِيِّ الْمُضْحِكِ لِلْحُبِّ وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا أَصْبَحَ يَبْكِي حَقِيقَةً ، وَهُوَ يَمْسَحُ دُمُوعَ حَبِيبَتِهِ وَلَمْ يَفْهَمْ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مَا اعْتَرَاهُ وَلَكِنَّهُ تَيَقَّنَ لاَحِقًا أَنَّهُ أَصْبَحَ يُحِبُّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ وَأَنَّهَا مَلَكَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهُ كُلَّمَا ازْدَادَتْ قُرْبًا مِنْهُ وَتَيَقَّنَ أَنَّ هُنَاكَ تَجَاوُبًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا وَأَنَّ مُيُولَهَا مُشَابِهَةٌ لِمُيُولِهِ أَوْ ظَنَّ ذَلِكَ وَأَنَّ رُدُودَ فِعْلِهَا قَرِيبَةٌ مِنْ رُدُودِ فِعْلِهِ . قَالَتْ :

ـــ أَمْرٌ غَرِيبٌ كَأَنَّ الْعَلاَقَةَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ لَهَا دُهُورٌ . كَيْفَ تَقَلَّصَتِ الْمَسَافَاتُ الثَّقَافِيَّةُ وَاقْتَرَبْتُ مِنْكَ وَاقْتَرَبْتَ مِنِّي . لَعَلَّ شَاعِرَنَا قُوتَه الَّذِي عَرَفَ الْحَضَارَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ وَأَشَادَ بِهَا هُوَ الَّذِي قَرَّبَنَا ... أَلَمْ تَقْرَأْ قُوتَه (بَقِيَ عَلِي يَنْظُرُ إِلَيْهَا مَشْدُوهًا لِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ أَبَدًا بِهَذَا الاسْمِ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ مِنَ الأَدَبِ الأَجْنَبِيِّ فِي الْمَرْحَلَةِ الابْتِدَائِيَّةِ مِنْ تَعَلُّمِهِ إِلاَّ عَدَدًا قَلِيلاً مِنْ كُتَّابِ وَشُعَرَاءِ فَرَنْسَا وَغَايَةُ مَا يُوحِي إِلَيْهِ الاسْمُ هُوَ أَحَدُ مُشْتَقَّاتِ اللَّبَنِ) إِنَّهُ يَقُولُ : " تَمُرُّ خُيُولُ الزَّمَانِ الشَّمْسِيَّةُ ، وَكَأَنَّ أَسْوَاطَ الأَرْوَاحِ الْخَفِيَّةِ تُلْهِبُهَا وَهْيَ تَجُرُّ الْعَرَبَةَ ، عَرَبَةَ مَصِيرِنَا الْهَشَّةَ . فَلاَ يَسَعُنَا إِلاَّ أَنْ نُمْسِكَ بِالْمِقْوَدِ بِقُوَّةٍ وَإِرَادَةٍ ، تَارَةً نَمِيلُ إِلَى الْيَمِينِ

وَطَوْرًا إِلَى الْيَسَارِ لِنَقْدِرَ عَلَى دَفْعِ الْعَجَلاَتِ بَيْنَ الصَّخْرَةِ وَالْهُوَّةِ . وَبَعْدُ فَإِلَى أَيْنَ نَحْنُ سَائِرُونَ ؟ وَهَلْ فِي إِمْكَانِ أَحَدٍ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ ؟ وَالْحَالُ أَنَّنَا لاَ نَتَذَكَّرُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْ أَيْنَ أَتَيْنَا . "

وَلَمَّا بَقِيَ عَلِي صَامِتًا مُنْدَهِشًا مِنْ تَطَوُّرِ الْحَدِيثِ إِلَى مَجَالٍ لَيْسَ لَهُ فِيهِ لاَ بَاعٌ وَلاَ ذِرَاعٌ وَلاَ نَاقَةٌ وَلاَ جَمَلٌ وَاصَلَتْ قَائِلَةً :

ـ وَقَالَ هَذَا الْعَبْقَرِيُّ الْمُلْهَمُ : " لَيْسَ أَبْلَغُ أَثَرًا مِنَ الْحُبِّ يَكْبُرُ فِي الصَّمْتِ ، وَمِنَ الْوَفَاءِ يَنْمُو فِي السِّرِّ ، ثُمَّ يَظْهَرُ وَيَنْكَشِفُ فِي اللَّحْظَةِ الْمُوَاتِيَةِ لِذَلِكَ الَّذِي بَقِيَ إِلَى تِلْكَ الدَّقِيقَةِ بِالْحُبِّ غَيْرَ حَقِيقٍ . "

وَبَعْدَ وَقْفَةٍ قَصِيرَةٍ وَاصَلَتْ سَرْدَهَا لِدُرَرٍ قُوتَهُ قَائِلَةً فِي نَشْوَةٍ ظَاهِرَةٍ:

ـ " فِي أَصْفَى صَفَاءِ النَّفْسِ تَهْفُو رَغْبَةٌ مُلِحَّةٌ تَدْفَعُنَا إِلَى أَنْ نَسْتَسْلِمَ بِسَخَاءٍ وَحُرِّيَّةٍ إِلَى كَائِنٍ مَجْهُولٍ أَكْبَرَ صَفَاءً وَأَسْمَاهُ لِيَجِدَ لَنَا حَلاًّ لِلُّغْزِ الدَّائِمِ الَّذِي عَزَّ أَنْ يُسَمَّى ." وَأَنْتَ يَا عَلِي هُوَ هَذَا الْكَائِنُ الْمَجْهُولُ الَّذِي بَدَأَ يَكْشِفُ لِي عَنْ لُغْزِ حَيَاتِي .

بَقِيَ عَلِي فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ أَمَامَ هَذِهِ الأَقْوَالِ الْعَمِيقَةِ لِشَاعِرٍ لَمْ يَسْمَعْ بِهِ أَبَدًا وَلَكِنَّهُ أَصْبَحَ حُجَّةً عَلَيْهِ وَسَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ وَرْطَتِهِ . وَتَذَكَّرَ خَبَرَ مَجْنُونِ لَيْلَى وَانْطَلَقَ يَقُصُّهُ عَلَيْهَا بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ لَبَاقَةٍ مُبَيِّنًا لَهَا أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الْحُبِّ مَا لاَ يُثْمِرُ شَيْئًا بَلْ يَقُودُ إِلَى الْهَلاَكِ . وَلَكِنَّهَا أَحَبَّتْ ذَلِكَ وَاسْتَزَادَتْ وَأَمْعَنَتْ فِي الاسْتِفْسَارِ عَنْ هَذَا الْحُبِّ الْعُذْرِيِّ وَعَنْ هَذَا الأَدَبِ الَّذِي لاَ تَعْرِفُ أَيَّ شَيْءٍ عَنْهُ وَزَادَ فُضُولُهَا وَحُبُّ اطِّلاَعِهَا كَمَا زَادَ قُرْبُهَا مِنْهُ وَأَسْنَدَتْ رَأْسَهَا إِلَى كَتِفِهِ وَقَالَتْ لَهُ :

ـ حَدِّثْنِي عَنْ طُفُولَتِكَ وَمَا قَاسَيْتَهُ مِنَ الْيُتْمِ . وَتَزَحْزَحَتْ سِيلْفِي مِنْ

مَكَانِهَا وَأَلْقَتْ بِشَعْرِهَا عَلَيْهِ ثُمَّ وَضَعَتْ رَأْسَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ بِحَيْثُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا وَأَخَذَ يُدَاعِبُ خَصْلَةً مِنْ شَعْرِهَا وَيَقُولُ :

ــ فَتَحْتُ عَيْنَيَّ فِي قَرْيَتِي بَيْنَ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي فِي دَارٍ كَبِيرَةٍ فَسِيحَةِ الأَرْجَاءِ يَرْأَسُهَا جَدِّي الْحَاج سَالِم . وَهُوَ شَيْخٌ جَلِيلٌ بِلِحْيَةٍ بَيْضَاءَ وَهَيْبَةٍ وَقُورَةٍ . كَانَ يَحْتَكِمُ إِلَيْهِ كُلُّ أَهْلِ الْحَيِّ ، وَلاَ رَادَّ لِحُكْمِهِ كَأَنَّهُ مِنْ سُلاَلَةِ أُولَئِكَ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ حَدَّثَنَا عَنْهُمْ الإِنْجِيلُ . وَكَانَ كُلُّ أَعْمَامِي يَسْكُنُونَ تِلْكَ الدَّارَ وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَخْتَصُّ بِغُرْفَةٍ كَأَنَّهَا بَيْتٌ مُسْتَقِلٌّ يَنْفَرِدُ بِهَا هُوَ وَزَوْجَتُهُ وَأَبْنَاؤُهُ فَيَأْوُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الأَعْمَالِ الْمُشْتَرَكَةِ . وَلَكِنَّ قِسْمًا كَبِيرًا مِنْ هَذِهِ الدَّارِ مُخَصَّصٌ لِلْمَرَافِقِ وَمُسْتَلْزَمَاتِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي تَتَعَدَّى مَا يَحْتَاجُهُ سَاكِنُو الْمَنْزِلِ إِلَى كُلِّ الْعَمَلَةِ الَّذِينَ يَنْتَشِرُونَ مُنْذُ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ لِلْعَمَلِ فِي الزَّيَاتِينِ وَالضَّيْعَاتِ الَّتِي عَلَى مِلْكِ الْحَاج سَالِم . وَبِهَذِهِ الصُّورَةِ لاَ يَبْقَى فِي الدَّارِ طِيلَةَ الْيَوْمِ إِلاَّ النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ .

وَكُنَّا نَجْتَمِعُ كُلُّنَا مَرَّتَيْنِ عَلَى الطَّعَامِ . فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ ، الذُّكُورُ فَقَطْ أَمَّا النِّسَاءُ وَالْفَتَيَاتُ فَإِنَّهُنَّ يَتَوَارَيْنَ فِي الْمَطْبَخِ وَتَوَابِعِهِ وَلاَ يَأْكُلْنَ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ نَفْرَغَ نَحْنُ وَنَشْبَعَ . وَتَخْتَلِفُ الأَكْلَةُ عَلَى حَسَبِ الْفُصُولِ وَالْجُهْدِ الَّذِي يَتَطَلَّبُهُ الْعَمَلُ الْيَومِيُّ . وَعِنْدَ الظُّهْرِ فَالأَكْلَةُ بَسِيطَةٌ وَقَلَّ أَنْ يَجْتَمِعَ الْكِبَارُ لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ مُوَزَّعِينَ إِمَّا بَيْنَ الزَّيَاتِينِ أَوْ فِي الضَّيْعَاتِ أَوْ فِي الأَسْوَاقِ . وَلَكِنَّ كُلَّ الذُّكُورِ يَجْتَمِعُونَ مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ حَوْلَ مَائِدَةِ الشَّيْخِ الْحَاجّ سَالِم وَيَأْكُلُونَ خُصُوصًا الْكُسْكُسِي .

وَلَقَدْ نَسِيتُ فِي الْوَاقِعِ مَا يَحْدُثُ فِي حَلَقَاتِ الأَكْلِ لِتَتَابُعِهَا وَرَتَابَتِهَا . وَجُلُّ مَا أَذْكُرُهُ هُوَ الْتِزَامُنَا كُلُّنَا بِالسُّلُوكِ الْمِثَالِيِّ أَمَامَ كَبِيرِ

الدّار، أبْنَاءً وأحْفَادًا ، وكَذَلِكَ الصَّرَامَةُ الّتِي كَانَتْ تَسُودُ هَذِهِ اللّقَاءَاتِ وَالدُّرُوسُ الّتِي كُنّا نَتَلَقّاهَا كُلَّ يَوْمٍ ، وَالْعِظَاتُ الّتِي كَانَ لاَيَفتَأُ يُكَرِّرُهَا عَلَى مَسَامِعِنَا بِطُرُقٍ تَرْبَوِيّةٍ شَيِّقَةٍ فِيهَا الْحِكَايَةُ وَالأَخْبَارُ النّابِعَةُ مِنَ تَجْرِبَتِهِ الطّوِيلَةِ وَفِيهَا الزّجْرُ وَالشِّدَّةُ إِنْ لَزِمَ الأَمْرُ . وَكَانَ يَتَحَاشَى أَنْ يَخُوضَ مَعَ أَبْنَائِهِ الْكِبَارِ فِي أيِّ مَوْضُوعٍ يَتَعَلّقُ بالْمَشَاكِلِ الْعَائِلِيَّةِ أَوْ بِالتّصَرُّفِ فِي الأَمْلاَكِ ؛ فَذَاكَ مَسْرَحُهُ الْمَقْعَدُ الْفَسِيحُ الْمَفْتُوحُ عَلَى الطّرِيقِ وَفِيهِ يَسْتَقْبِلُ الزّائِرِينَ وَالشّاكِينَ وَيَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ وَيُزَوِّدُهُمْ بِنَصَائِحِهِ وَأَحْكَامِهِ النّافِذَةِ طَوْعًا ، وَفِيهِ يَتَنَاوَلُ بِالدَّرْسِ مَعَ أَبْنَائِهِ الشُّؤُونَ الْخَاصَّةَ وَيَبُتُّ فِيهَا عِنْدَمَا يَنْفَضُّ الْجَمْعُ .

وَلَكِنَّ هُنَاكَ أَمْرَيْنِ لَمْ يَبْرَحَا ذِهْنِي ، أَحَدُهُمَا مُحْزِنٌ وَالآخَرُ مُضْحِكٌ : الْمُحْزِنُ يَتَمَثّلُ فِي خُلُوِّ مَكَانِ وَالِدِي عَامِرٍ لِأَنّهُ كَانَ فِي الْغَالِبِ مُتَغَيِّبًا وَيَحْرِصُ جَدِّي عَلَى ذِكْرِهِ وَإِبْقَاءِ مَكَانِهِ فَارِغًا إِلَى جَانِبِهِ . أَمَّا الْمُضْحِكُ فَهْوَ سُلُوكُ أَصْغَرِ أَبْنَائِهِ وَهْوَ مِنْ أَنْدَادِي . وَقَدِ اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى تَصْغِيرِ اسْمِهِ ؛ فَلاَ يَدْعُونَهُ أَبَدًا صَالِح بَلْ صُوَيْلِح لاَ مِنْ بَابِ التّذْلِيلِ بَلِ التّحْقِيرِ وَالسُّخْرِيَّةِ . وَيَظْهَرُ أَنّهُ وُلِدَ عَلَى عَتَهٍ بَدَأَهُ وَهْوَ صَغِيرٌ بِظَوَاهِرَ بَسِيطَةٍ يَضْحَكُ لَهَا أَهْلُ الدّارِ وَيَسْتَزِيدُونَهُ ، ثُمَّ كَبُرَتْ مَعَهُ وَلاَزَمَتْهُ . وَكَانَ وَلَعُهُ الّذِي لاَ يُفَارِقُهُ هُوَ الْجُلُوسُ فِي مَكَانِ وَالِدِي . فَيَدُورُ الْحِوَارُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّي عَلَى هَذَا النّسَقِ مَرَّتَيْنِ فِي الْيَوْمِ عَلَى الأَقَلّ

ـ قُمْ .

ـ لاَ .

ـ هَذِهِ بُقْعَةُ أَخِيكَ الْكَبِيرِ عَامِر .

ـ أَخِي غَيْرُ مَوْجُودٍ . تَرَكَنَا وَتَرَكَ أَوْلاَدَهُ وَابْنَةَ عَمِّهِ وَرَاحَ إِلَى سَبِيلِهِ وَلَمْ

عَلِي

يَرْضَ بِالْعَيْشِ مَعَنا .

ـ قُمْ وَإِلاَّ ضَرَبْتُكَ بِالْعَصَا .

وَيَرْمِي جَدِّي يَدَهُ عَلَى الْعَصَا فَيَقُومُ صُوَيْلَح فِي الْحِينِ ، لِأَنَّهُ يَعْرِفُ مَزَايَاهَا ، وَيَجْلِسُ فِي الْمَكَانِ الْمُعَيَّنِ لَهُ وَيَقُولُ حَنِقًا :

ـ رَجُلٌ كَبِيرٌ وَلاَ تَعْدِلُ بَيْنَ أَبْنَائِكَ ، وَتَفْصِلُ الْقَضَايَا بَيْنَ النَّاسِ...مَجَانِين هَؤُلاَءِ النَّاس .

وَيَسْكُتُ وَفِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يَدُورُ حِوَارٌ آخَرُ يَدُلُّ عَلَى نَقْصٍ فِي عَقْلِ عَمِّي

ـ بَابَا ...

ـ نَعَمْ .

ـ لِمَاذَا أَنْتَ تَأْكُلُ أَكْبَرَ لَحْمَةٍ وَنَصِيبُنَا نَحْنُ اللَّحَمَاتُ الصَّغِيرَة

ـ أُسْكُتْ مَا أَقَلَّ تَرْبِيَتَكَ .

ـ لاَ أَسْكُتُ أَيْنَ الْعَدْلُ ؟ أَنْتَ كَبِيرٌ الآنَ وَلَسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الطَّعَامِ الْكَثِيرِ ... أَمَّا نَحْنُ الصِّغَارَ فَمُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لِنَقْوَى وَنَكْبُرَ .

ـ لِيَكْبُرَ بِكَ الْجُنُونُ ... مُصِيبَةٌ أَصَابَنِي بِهَا اللَّهُ .

وَفِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ يَرْمِي الْحَاج سَالِم الْجُزْءَ الْبَاقِيَ مِنَ اللَّحْمَةِ أَوِ السَّمَكَةِ أَوِ الْبَيْضَةَ الزَّائِدَةَ وَيَقُولُ لَهُ :

ـ كُلْهَا وَلاَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا .

فَيَأْخُذُهَا وَيَأْكُلُهَا بِنَهَمٍ وَشَهِيَّةٍ وَيَضْحَكُ ضَحَكَاتِهِ الْبَلْهَاءِ وَيَقُولُ وَفَمُهُ مَا يَزَالُ مَلْآنَ :

ـ مَا أَلَذَّهَا ... هِيَ خَيْرٌ مِنْكَ ...

فَنَهْمِسُ فِيمَا بَيْنَنَا بِدُونِ أنْ يَسْمَعَنَا الْحَاجّ سَالِم :
ـ إعْمَلْ نَفْسَكَ هَابِلاً تَعِشْ بَلْ تَغْنَمْ .

وَكَانَتْ سِيلْفِي تَخْلِسُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ ، وَتَضْحَكُ ضَحَكَاتٍ عَالِيَةً ، وَتَحْتَضِنُ عَلِي وَتُعَانِقُهُ ، وَتَشْتَعِلُ بَيْنَهُمَا الْقُبَلُ ثُمَّ تَقُولُ :
ـ لَقَدْ أَدخَلْتَ السُّرُورَ عَلَى نَفْسِي ... وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ عَرَّفْتَنِي بِعَالَمٍ لَمْ أَكُنْ لِأَتَخَيَّلَهُ .

وَيَسْتَرْسِلُ عَلِي فِي الْحَدِثِ عَنْ صُوِيلَح وَيَقُولُ :
ـ لاَ يَخْلُو أُسْبُوعٌ مِنْ هَيْعَتَيْنِ أَوْ ثَلاَثٍ نَشْهَدُهَا فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ ... إِذْ مَا أنْ نَفْتَحَ أَعْيُنَنَا حَتَّى نَسْمَعَ صُرَاخَ صُوِيلَح فِي وَسَطِ الدَّارِ وَنَرَاهُ رَاكِضًا كَالْحِصَانِ الْهَائِجِ يَبْحَثُ عَنِ التُّرَابِ فِي مَنْبَتِ الأَشْجَارِ الْمَزْرُوعَةِ لِلزِّينَةِ وَالتَّظَلُّلِ فَيَأْخُذُهُ وَيُلَوِّثُ بِهِ شَعْرَ رَأْسِهِ الْمُبَلَّلِ وَيَصِيحُ : ـ أَنَا أَقُولُ لَكُمْ شَعْرِي نَظِيفٌ ... وَأَنْتُمْ تَبْلُونَهُ لِي ... وَاللَّهِ أُوَسِّخُهُ لَكُمْ ... هَكَذَا ... هَكَذَا ...

وَيَأْخُذُ التُّرَابَ وَيَحْثُوهُ عَلَى شَعْرِهِ . وَلاَ يَنْتَهِي الْمَشْهَدُ إِلاَّ بِتَدَخُّلِ عَصَا الْحَاجّ سَالِم وَإِرْجَاعِ ابْنِ الْعَمِّ الْهَائِجِ إِلَى الْمُسْتَحَمِّ وَإِعَادَةِ غَسْلِ شَعْرِهِ وَلاَ تُفْتَحُ الْغُرْفَةُ إِلاَّ عِنْدَمَا يَهْدَأُ وَيَجِفُّ مَا بِهِ مِنْ مَاءٍ . وَكَانَ أَبُوهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَقُولُ :
ـ الْوَلَدُ كَالْكَلْبِ الْمَكْلُوبِ يَكْرَهُ الْمَاءُ... مُصِيبَةٌ أَصَابَنِي بِهَا اللَّهُ .

وَبَعْدَ أنْ ضَحِكَتْ سِيلْفِي مَا شَاءَ لَهَا أنْ تَضْحَكَ قَالَتْ :
ـ إِنِّنِي أَحْسَسْتُ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَرْدِ هَيَّا نَرْجِعْ (ضَاحِكَةً) إِلَى حَظِيرَتِنَا . (وَهَامِسَةً فِي أُذُنِهِ) نَدْخُلُ فُرَادَى ... لاَفَائِدَةَ فِي لَفْتِ الأَنْظَارِ ... ثُمَّ

بَعْدَ رُبْعِ سَاعَةٍ نُكْمِلُ السَّهْرَةَ ... فِي غُرْفَتِي ... يَاحَبِيبِي ... أَنْتَ ، أَنْتَ الْوَحِيدُ الَّذِي أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ ...بِعَفْوِيَّتِكَ وَإِنْسَانِيَّتِكَ وَانْتِمَائِكَ إِلَى عَائِلَةٍ نَبِيلَةٍ أَصِيلَةٍ أَنْتَ أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ أَبْنَاءِ جِلْدَتِي الْمَوْجُودِينَ فِي هَذَا الْمُسْتَشْفَى ... الْعُنْصُرِيَّةُ وَالْكِبْرِيَاءُ وَالرِّضَا اللاَمُتَنَاهِي عَنِ النَّفْسِ وَالأَنَانِيَّةُ ... جَمِيعُ ذَلِكَ قَتَلَ فِيهِمْ كُلَّ رُوحٍ إِنْسَانِيَّةٍ وَشَهَامَةٍ... أَمَّا خِيَارُنَا الرِّجَالُ الرِّجَالُ فَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ ... إِسْمَعْ يَا حَبِيبَ قَلْبِي وَأَنِيسَ رُوحِي لَنْ يَتَجَرَّأَ أَحَدٌ وَيَدْخُلَ غُرْفَتِي أَمَّا غُرْفَتُكَ فَهِيَ مُعَرَّضَةٌ لِمُرَاقَبَةِ زُمَلاَئِكَ وَمَسْؤُولِيكَ . لاَ تَنْسَ بَعْدَ رُبْعِ سَاعَةٍ بِالضَّبْطِ ...

وَظَنَّ عَلِي أَنَّ السَّهْرَةَ سَتَكُونُ مُوَاصَلَةً لِحَدِيثِهِ الَّذِي رَاقَ لِحَبِيبَتِهِ وَأَيْقَنَ أَنَّهُ مِنَ الأَحْسَنِ لَهُ أَنْ يَبْقَى حُبُّهُ عُذْرِيًّا وَعَلَيْهِ أَنْ يَكْبَحَ جِمَاحَ غَرِيزَتِهِ إِلَى أَبْعَدِ الْحُدُودِ وَأَنْ يَكُونَ فِي نَظَرِهَا ذَاكَ الْمِثَالِيَّ الإِنْسَانِيَّ الَّذِي يَتَحَكَّمُ فِي غَرَائِزِهِ بَيْنَمَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَايَجِيشُ فِي نَفْسِهِ وَمَا يَحْدُثُ دَاخِلَ ثِيَابِهِ .

وَلَمَّا تَسَلَّلَ عَلِي عَبْرَ الْمَجَازِ شِبْهِ الْمُظْلِمِ وَطَرَقَ طَرَقَاتٍ خَفِيفَةً عَلَى بَابِ الْغُرْفَةِ وَهْوَ يَلْتَفِتُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً إِنْفَتَحَ لَهُ وَظَهَرَتْ سِلْفِي وَهْيَ فِي هَيْئَةٍ يُرْثَى لَهَا ، شَعْرُهَا مُرْسَلٌ وَكَأَنَّهُ مَنْفُوشٌ وَعَيْنَاهَا مُخضَلَّتَانِ بِالدَّمْعِ وَقَالَتْ لَهُ بِالأَلْمَانِيَّةِ :

ـ لَوْسْ ... لَوْسْ ..

لَمْ يَفْهَمْ عَلِي مَا قَالَتْهُ ... فَتَنَبَّهَتْ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ قَصْدَهَا فَأَرْدَفَتْ :

ـ إِمْشِ الآنَ ... إِمْشِ ...

وَانْصَرَفَ عَلِي مُحتَارًا وَلَمَّا آوَتْهُ غُرْفَتُهُ وَرَامَ أَنْ يَخْلُوَ إِلَى نَفْسِهِ فُتِحَ الْبَابُ وَدَخَلَ أَحْمَدُ قَائِلاً :

ــ أَيْنَ كُنْتَ يَاعَلِي ... أَنَا أَبْحَثُ عَنْكَ مُنْذُ سَاعَةٍ ... أَحْضَرْتُ أَوْرَاقَ اللَّعِبِ .

ــ كُنْتُ فِي الْحَدِيقَةِ ... الطَّبِيعَةُ أَحْسَنُ لِي مِنْ وَجْهِكَ وَمِنْ لَعِبِ الأَوْرَاقِ ... أَنَا مُتْعَبٌ ... لاَيَعْرِفُ الْجَمْرَةَ إِلاَّ مَنْ يَعْفِسُهَا ... صُبِّحْتَ عَلَى خَيْرٍ .]

4

[لاَ تَسَلْ كَيْفَ بَاتَ عَلِي لَيْلَتَهُ تِلْكَ ، وَهُوَ يَنْدُبُ حَظَّهُ الَّذِي وَلِعَ بِأَنْ يَدْفَعَ فِي طَرِيقِهِ بِكُلِّ مَا يُقِضُّ مَضْجِعَهُ وَيُشَوِّشُ عَلَيْهِ فِكْرَهُ ، وَيَجْعَلُهُ يَتَجَرَّعُ مَرَارَةَ الْعَيْشِ وَيَذُوقُ طَعْمَهَا بَيْنَ أَسْنَانِهِ .

وَمَرَارَةُ الْعَيْشِ أَذَاقَهَا لَهُ عَمُّهُ بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدِهِ بِأَفَانِينَ مِنَ الْخُبْثِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلاَّ كُلُّ حَقِيرٍ خَسِيسٍ . وَلَكِنَّهَا أَقَلُّ مَرَارَةً مِمَّا ذَاقَهُ فِي تَجْوَالِهِ عَبْرَ شَوَارِعِ الْعَاصِمَةِ وَهُوَ جَوْعَانُ . كَانَ يَشْعُرُ قَبْلَ ذَلِكَ بِالْفَاقَةِ الْكُبْرَى : بِخَلاَءِ نَفْسِهِ وَانْعِدَامِ الْعَوْنِ وَفِقْدَانِ السَّنَدِ وَالتِّيهِ فِي دُرُوبِ الْحَيَاةِ وَلاَ مُرْشِدَ وَلا دَلِيلَ ؛ كُلُّ مَا حَفِظَهُ فِي بِيئَتِهِ لِيَقِيَهُ مِنَ الضَّيَاعِ بَاتَ مُهَدَّدًا بِالتَّلاشِي ، تَعْصِفُ بِهِ ضَرُورَاتُ الْحَيَاةِ وَمُلاَبَسَاتُهَا . كُلُّ هَذَا ، وَإِنْ لَمْ يَقْرَأْ لَهُ حِسَابًا ، فَقَدِ احْتَمَلَهُ . وَلَكِنَّ الْجُوعَ لَمْ يَعْرِفْهُ وَلَمْ يَتَعَوَّدْهُ . لَقَدْ زَلْزَلَهُ وَأَذَاقَهُ طَعْمَ حَيَوَانِيَّتِهِ ، وَحْشِيَّتِهِ . غَيْرَ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ عَدَّهُ عَسَلاً مُصَفًّى عِنْدَ مُقَارَنَتِهِ بِمَا لاَقَاهُ وَهُوَ تَحْتَ السِّلاَحِ كُرَةً بَيْنَ أَرْجُلِ الْعُرَفَاءِ وَالرُّقَبَاءِ الَّذِينَ لاَ يَرْقُبُونَ لِلْكَائِنِ الْبَشَرِيِّ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً . وَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ مِحْنَةَ الْحَرْبِ . وَهَذَا هُوَ عَزَاؤُهُ الْوَحِيدُ

الّـذِي بَقِيَ لَـهُ ، وَجَنَـاحُ الرَّحْمَـةِ الّـذِي تُظِلُّـهُ بِـهِ الْعِنَايَـةُ الْإِلَهِيَّـةُ أيْ أنْ يَبْقَـى حَيًّا وَلَكِنْ وَبِـأيِّ ثَمَـنٍ .

فِـي الصَّبَـاحِ الْمُوَالِـي لِتِلْـكَ اللَّيْلَـةِ الّتِـي ذَكَّرَتْـهُ بِأيَّـامِ تَعَاسَـتِهِ شَـرِبَ قَهْوَتَـهُ وَحَيَّـى الرَّقِيـبَ الْفَرَنْسِيَّ تَحِيَّـةً عَسْـكَرِيَّةً وَدَّ لَـوْ أنّـهُ أعْفَـى نَفْسَـهُ مِنْهَـا لِـأنَّ هَـذَا الرَّهْـطَ لاَ يَسْتَحِقُّ أنْ يُنْظَـرَ إلَيْـهِ وَلَـوْ بِشِيـقِّ النَّظَـرِ .ثُـمَّ أرَادَ أنْ يَلْتَحِـقَ بِقَاعَةِ التَّدَاوِي وَإذَا بِالرَّقِيبِ يُنَادِيهِ بِرَقْمِهِ قَائِلاً :

ــ إيِ 1111 ... سَتَبْقَى اللَّيْلَـةَ فِـي قَاعَـةِ الْهَـاتِفِ إلَـى مُنْتَصَـفِ اللَّيْـلِ ... مَفْهُـومٌ ...

لَمْ يُحِرْ عَلِي جَوَابًا وَحَيَّـاهُ لِـأنَّ أوَامِـرَ الضَّـابِطِ مَهْمَـا كَـانَ صَغِيـرًا مُطَاعَـةٌ وَإلاَّ تَعَـرَّضَ إلَـى الْعِقَـابِ . وَدَخَـلَ الْقَاعَـةَ وَألْـفَى سِيلْفِي قَـدْ سَبَقَتْهُ وَجَاءَتْـهُ مُعْتَذِرَةً وَقَالَتْ :

ــ أنَـا أعْـرِفُ أنّـكَ تَفْهَمُنِـي فَـاعْذِرْنِي ... وَلاَ تُؤَاخِذْنِـي إنْ تَصَرَّفْـتُ مَعَـكَ الْبَارِحَةَ ذَاكَ التَّصَرُّفَ فَالّذِي ألَمَّ بِي يَفُوقُ طَاقَتِي .

ــ لاَ عَلَيْـكِ ... فَـأنْتِ حَبِيبَتِي تَفْهَمُنِـي وَأفْهَمُـكِ وَنَحْـنُ سِـيَّانِ فِـي هَـذِهِ الْحَيَـاةِ قَـدْ نَاشَـتْنِي وَنَاشَـتْكِ بِسِـهَامِهَا الْجَارِحَـةِ .

وَنَظَـرَ عَلِي إلَـى عَيْنَيْهَـا وَإلَـى سِـهَامِ لَحْظِهَـا الّتِـي أصْبَحَـتْ تُدْمِـي قَلْبَـهُ وَتُؤْلِمُـهُ ألَمًـا لَـمْ يَألَفْـهُ مِـن قَبْـلُ وَهُـوَ الّـذِي ذَاقَ ألْوَانًـا مِنْـهُ صَغِيـرًا وَشَـابًّا . وَتَبَيَّـنَ أنَّ هَـذَا الضَّـرْبَ مِـنَ الألَـمِ لاَ يَكُـونُ إلاَّ مِـنْ آثَـارِ الْحُـبِّ . وَلَعَلَّهَـا فَهِمَتْهُ بِحَدْسِ الْمَرْأةِ فَقَالَتْ :

ــ نَعَمْ أنَا حَبِيبَتُكَ مَـا فِـي ذَلِـكَ شَـكٌّ ...

وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهَا بِالدُّمُوعِ وَانْصَرَفَتْ إِلَى عَمَلِهَا . وَإِذَا بِالرَّقِيبِ يَدْخُلُ الْقَاعَةَ وَيَقُولُ :

ــ إِي 1111 ... يَظْهَرُ أَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِعَمَلِكَ ... سَأُرَاقِبُكَ عَنْ كَثَبٍ مِنْ هُنَا فَصَاعِدًا ... أَلَيْسَ صَحِيحًا يَاسِيلْفِي ؟

ــ دَعْ عَلِي وَشَأْنَهُ فَهُوَرَجُلٌ طَيِّبٌ وَلاَ تَحْسِبْهُ مِنَ الْبَدْوِ الْمُتَوَحِّشِينَ ... هُوَ مِنْ أُولَئِكَ الْعَرِيقِينَ فِي الْمَدَنِيَّةِ أَكْثَرَ مِنَ الْكَثِيرِينَ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِنَا .

ـ هَكَذَا يَا سِيلْفِي ... وَمَنْ أَدْرَاكِ بِذَلِكَ ؟

ــ أَنَا لِي مَعْرِفَةٌ بِالنَّاسِ وَأُفَرِّقُ بَيْنَ الطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ وَالْخَيِّرِ وَالشِّرِّيرِ .

ـ وَأَنَا فِي أَيِّ الأَصْنَافِ تَضَعِينَنِي . أَنَا لَسْتُ بِصَدَدِ الْحَدِيثِ عَنْكَ .

وَأَعْرَضَتْ عَنْهُ ، فَخَرَجَ لاَيَلْوِي عَلَى شَيْءٍ . وَبَقِيَ عَلِي بَيْنَ مُحَبِّذٍ لِهَذِهِ الْحِرَاسَةِ اللَّيْلِيَّةِ الَّتِي سَتُنْقِذُهُ مِنْ مِحْنَةٍ أُخْرَى وَجَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ مَعَ سِيلْفِي لَعَلَّهَا سَتَكُونُ أَقْسَى مِنْ أَخَوَاتِهَا ؛ وَبَيْنَ الْحَسْرَةِ عَلَى حِرْمَانِهِ مِنْ لِقَاءِ حَبِيبَتِهِ وَإِشْبَاعِ هَذِهِ الْعَاطِفَةِ الْجَيَّاشَةِ الَّتِي لَمْ يَقْدِرْ عَلَى التَّغَلُّبِ عَلَيْهَا .

وَمَرَّ يَوْمُهُ ذَاكَ ثَقِيلاً يَزِيدُ وَطْأَتَهُ شِدَّةً تَسَلُّطُ الرَّقِيبِ الْفَرَنْسِيِّ عَلَيْهِ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالأُخْرَى : حَطًّا مِنَ الْكَرَامَةِ ، وَأَلْفَاظًا سُوقِيَّةً نَابِيَةً تَنْضَحُ عُنْصُرِيَّةً وَاسْتِعْمَارًا وَاسْتِعْبَادًا . وَلَكِنْ مَا حِيلَتُهُ وَهَذَا الضَّابِطُ الصَّغِيرُ التَّافِهُ مُصَدَّقٌ عَلَيْهِ أَلْفَ مَرَّةٍ إِنْ صِدْقًا وَإِنْ كَذِبًا وَفِي إِمْكَانِهِ أَنْ يَبْعَثَ بِهِ إِلَى الْوَاجِهَةِ . وَمَاذَا فِي وِسْعِ الْمَرْءِ الْقِيَامُ بِهِ أَمَامَ الطُّغْيَانِ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ وَطْأَةً مِنَ الاِسْتِبْدَادِ ، إِذَا كَانَ وَحِيدًا أَعْزَلَ مِنْ كُلِّ سَنَدٍ وَرُوحِ تَضَامُنٍ . وَنَجَاعَةُ الطُّغْيَانِ فِي إِقْرَارِ نِظَامٍ يَكُونُ أَدَاةً فِي يَدِ الطَّاغِيَةِ بِهَا يَصْعُبُ أَنْ يَتِمَّ بَيْنَ

الأَفْـرَادِ أيُّ تَـضَامُنٍ وَتَكَـاتُفٍ وَذَلِـكَ بِشَـتَّى الْوَسَـائِلِ ، بِالإِقْصَـاءِ وَبَـثِّ الرُّعْـبِ وَالْخَـوْفِ فِـي النُّفُـوسِ وَضَـرْبِ الْقِيَـمِ مُثُـلاً أَوْ أَشْـخَاصًا وإِحْـلاَلِ الطَّمَـعِ وَالـرَّدَاءَةِ وَنشْرِ الْمَحْسُوبِيَّةِ وَالرَّشْـوَةِ وَقَطْـعِ دَابِـرِ كُـلِّ نُـزوعٍ إِلَـى الْحُرِّيَّةِ وَمَيْـلٍ إِلَـى النَّقْـدِ .

سَكَتَ عَنْ مَضَضٍ حَتَّى تَوَلَّى الْحِرَاسَةَ كَمَـا حُـدِّدَتْ لَـهُ ، وَعَلِـمَ أَنَّ الرَّقِيـبَ اغْتَنَـمَ الْفُرْصَـةَ لِيَلْتَحِقَ فِي الْعَاصِمَةِ بِبَعْضِ خِلاَّنِهِ لِلَّهْوِ وَالْقَصْـفِ . وَارْتَـاحَ إِلَـى أَنَّـهُ لَـنْ تُتَـاحَ لِهَـذَا الْوَحْـشِ الْفُرْصَـةُ لِتَنْغِيـصِ السَّـهْرَةِ عَلَيْـهِ وَأَنَّـهُ سَيَخْلُو إِلَى نَفْسِـهِ وَيُرَتِّـبُ شُؤُونَهَا مَـا قَـدَرَ عَلَـى ذَلِـكَ .

وَلَمَّـا دَقَّـتْ سَـاعَةُ الْمُسْتَشْـفَى الْعَاشِـرَةَ فُوجِـئَ بِدُخُـولِ سِـيلْفِي غُرْفَـةَ الْهَاتِفِ وَعَلَيْهَا عَلاَمَاتُ الارْتِيَاحِ وَالانْتِشَاءِ وَقَالَتْ :

ــ الطَّبِيعَـةُ بَدِيعَـةٌ فِي هَـذِهِ اللَّيْلَـةِ . لَقَـدِ انْتَشَـيْتُ بِـالْهَوَاءِ الرَّائِـقِ وَالنَّسِـيمِ الْمُنْعِشِ ، وَتَيَقَّظَـتْ حَوَاسِّي إِلَـى كُـلِّ مَـا فِي الْحَدِيقَـةِ مِنْ عَبِيرٍ هُـوَ الطِّيـبُ فِي عَرْفِهِ وَالزَّهْـرُ فِـي أَرِيجِهِ وَانْطَلَقَـتْ مُخَيِّلَتِـي تُنَـاغِي بَدِيعَ الـرُّؤَى وَمُخْتَلَـجَ الأَحْـلاَمِ . لَـنْ يُـرَاوِدَ النَّـوْمُ أَجْفَـانِيَ اللَّيْلَـةَ ... أَتَوَسَّـلُ إِلَيْـكَ أَنْ تَزُورَنِـي بَعْـدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْـلِ فِـي غُرْفَتِـي ...

وَلَمَحَـتْ فِـي عَيْنَـيْ عَلِـي إِنْكَـارًا يُفْصِـحُ عَـمَّـا جَـالَ فِـي نَفْسِـهِ مِـنْ خَـوْفٍ . كَـانَ يَخْشَـى أَنْ يُطْـرَدَ كَالْبَارِحَـةِ . فَاسْـتَدْرَكَتْ وَقَـالَتْ :

ــ أَعِـدُكَ وَعْـدًا صَادِقًا بِـأَنْ أَمْلِـكَ أَعْصَـابِي ... وَأَحْلِـفُ لَـكَ بِـأَعَزِّ كَـائِنٍ عِنْدِي بِـأَنْ أَكُـونَ سَوِيَّةً ، هَادِئَـةً ، عَاقِلَـةً .

وَصَـاحَبَتْ هَـذِهِ الْكَلِمَـاتِ ضَحْكَـةٌ كُلُّهَـا دَلاَلٌ ، وَخُطُـوَاتٌ رَفِيقَـةٌ هِـيَ الرِّقَّةُ وَالرَّشَاقَةُ . وَعَاجَلَهَا عَلِي قَائِلاً :

ـ وَمَنْ هُوَ أَعَزُّ كَائِنٍ عِنْدَكِ ؟
ـ هُوَ أَنْتَ ... لاَشَكَّ عِنْدِي فِي ذَلِكَ .

وَكَانَ وَقْعُ كَلاَمِهَا بِمَثَابَةِ الصَّدْمَةِ الَّتِي حَيَّرَتْهُ ؛ فَقَدْ أَحْزَنَتْهُ بِقَدْرِ مَا أَفْرَحَتْهُ . وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَشْعُرْ مُنْذُ زَمَانٍ بِصَدْرٍ حَنُونٍ يَحْتَضِنُه بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدِهِ . حَتَّى أُمُّهُ آثَرَتْ أَخَاهَا ، جَهْلاً وَغَرِيزَةً عَمْيَاءَ . وَحَتَّى جَدُّهُ الشَّيْخُ الْهَرِمُ سَلَّمَهُ فَرِيسَةً بَيْنَ مَخَالِبِ عَمِّهِ وَرِيشَةً فِي مَهَبِّ عَوَاصِفِ الأَحْدَاثِ ، ضُعْفًا وَشَيْخُوخَةً .

وَضَعَ عَلَى شَفَتَيْهَا قُبْلَةً أَحَسَّ فِيهَا لاَعِجَ الشَّوْقِ وَذَوْبَ الصَّبَابَةِ وَحُرْقَةَ الْعِشْقِ وَشَعَرَ أَنَّهُ أَصْبَحَ أَخَفَّ مِنَ الْهَوَاءِ وَأَنَّ نَفْسَهُ تَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ إِلَى عَوَالِمَ لاَ تَعْرِفُ لِنَشْوَةِ الْوُجُودِ حَدًّا وَلاَ لاِكْتِمَالِ الْحَيَاةِ سُدًّا .

وَأَمْضَى جُزْءًا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ يَذْرَعُ الرِّوَاقَ أَمَامَ غُرْفَةِ الْهَاتِفِ جِيئَةً وَذَهَابًا ، وَبَدَتْ لَهُ السَّاعَاتُ طَوِيلَةً ثَقِيلَةً حَتَّى دَقَّتْ سَاعَةُ الْمُسْتَشْفَى مُؤْذِنَةً بِحُلُولِ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ . وَجَاءَ زَمِيلُهُ الْجُنْدِيُّ أَحْمَد لِيُعَوِّضَهُ وَاتَّجَهَ عَلِي نَحْوَ غُرْفَتِهِ وَهُنَاكَ أَجْرَى لَمَسَاتٍ عَلَى هِنْدَامِهِ وَهَيْئَتِهِ وَتَسَلَّلَ إِلَى رِوَاقٍ آخَرَ يُفْضِي إِلَى مَبْنَى إِسْتَقَلَّ فِيهِ كِبَارُ الضُّبَّاطِ الأَطِبَّاءِ بِالسُّكْنَى . وَكَانَ الصَّمْتُ مُخَيِّمًا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَاحِ .

طَرَقَ الْبَابَ وَبِسُرْعَةٍ أَطَلَّتْ مِنْهُ سِيلْفِي وَهْيَ فِي أَبْهَى حُلَّةٍ كَأَنَّهَا فِينُوسُ . وَغَلَّقَ الْبَابُ . وَبَعْدَ أَنْ أَطْفَيَا لَهِيبَ الشَّوْقِ فِي الْقُبَلِ وَالضَّمِّ انْتَبَهَ عَلِي إِلَى أَنَّ الْغُرْفَةَ رُتِّبَتْ أَحْسَنَ تَرْتِيبٍ . وَكَانَتْ مُضَاءَةً بِالشُّمُوعِ وَالْمِدْفَأَةُ تَتَّقِدُ بِهُدُوءٍ . فَقَالَتْ سِيلْفِي :
ـ أَشْعَلْتُ الْمِدْفَأَةَ لِتَكُونَ مُتَّقِدَةً كَمَا يَتَّقِدُ الْحُبُّ فِي قَلْبَيْنَا ... أَلاَ تَرَى

إِلَى هَـذِهِ الْكَعْكَـةِ وَالشَّـمْعَاتِ الثَّـلاَثِ ... الْيَـوْمَ عِيـدُ مِيـلاَدِي الثَّلاَثِـينَ ... قَـرَّرْتُ أَنْ أَحْتَفِـلَ بِـهِ مَعَـكَ وَلاَ أَحَـدَ غَـيْرُكَ ... شَـمْعَةٌ لَـكَ وَشَـمْعَةٌ لِـي وَالثَّالِثَـةُ مُهْـدَاةٌ إِلَى الرُّوحِ الْمُرَفْرِفَـةِ فَوْقَنَـا ... أُنْظُـرْ إِلَـى تِلْـكَ الْبَاقَـةِ مِـنَ الزُّهُورِ ... الطَّبِيبُ هُوَ الَّذِي أَهْدَاهَا لِي ...

ـ لِمَاذَا لَمْ تَقُولِي ؟ ... كُنْتُ ...

ـ لاَ أُرِيـدُ أَنْ تُكَلِّـفَ نَفْسَـكَ فَـوْقَ طَاقَتِهَـا ... أَنْـتَ بِنَفْسِـكَ هَدِيَّـةٌ بَعَثَهَـا لِـيَ الرَّبُّ فِي عِيـدِ مِيـلاَدِي ... مَـا أَكْرَمَـهُ وَأَعْدَلَـهُ .

لَـمْ يغِـبْ عَلَى عَلِي أَنَّ هَـذِهِ الْمَـرْأَةَ ، وَإِنْ كَـانَتْ صَادِقَـةً فِـي حُبِّهَـا لَـهُ ، فَإِنَّ هُنَاكَ مَـنْ لاَيَـزَالُ يُقَاسِمُهُ قَلْبَهَـا . وَهْـيَ إِلَى ذَلِـكَ مَشْـدُودَةٌ إِلَـى عَوَاطِـفَ دِينِيَّـةٍ عَمِيقَـةٍ تَجْعَلُهَـا فِـي صِـرَاعٍ دَائِـمٍ مَـعَ نَفْسِـهَا . لَـمْ تَتَبَيَّـنْ طَرِيقَهَـا بَعْـدُ . وَعَلِي الَّـذِي يُحِبُّهَـا مَـا فِـي ذَلِـكَ شَـكٌّ شَـعُرَ بِعَاطِفَـةٍ أُخْـرَى تَحْتَـلُّ قَلْبَـهُ وَهْـوَ الإِشْفَاقُ عَلَيْهَـا . وَغَلَبَـهُ حُبُّـهُ لَهَـا وَرُبَّمَـا اغْتِنَـامُ اللَّحْظَـةِ وَالْعُـزُوفُ عَـنْ إِفْسَـادِ سَعَادَةِ هَذَا اللِّقَـاءِ فَـامْتَنَعَ عَـنْ مُحَاوَرَتِهَـا فِـي هَـذَا الَّـذِي يُقِـضُّ مَضْجِعَهَـا وَفِـي مَا يُحَـيِّرُهُ مِـنْ أَمْـرِ الـرُّوحِ الْمُرَفْرِفَـةِ وَكَـادَ يَقُـولُ لَهَـا : شِـرْعَةُ الْحُـبِّ لاَ تَقْبَـلُ الشَّـرِيكَ وَلَكِنَّـهُ أَرْجَـأَ الْخَـوْضَ فِـي هَــذَا الْمَوْضُـوعِ إِلَـى مُنَاسَـبَةٍ أُخْـرَى . وَتَنَاجَيَا وَاحْتَضَنَهَا وَاحْتَضَنَتْهُ ثُمَّ قَالَ لَهَا :

ـ أَيْ حَبِيبَتِي مَا هَذِهِ الآلَةُ الَّتِي أَرَاهَا ؟

ـ هِـيَ الْفُونُوغْـرَافُ وَهْـوَ أَحْـدَثُ مَـا اخْتُــرِعَ . هِـيَ هَدِيَّـةٌ مِـنْ وَالِـدِي الْبَـارُونْ

وَأَخَذَتْ تُعَـالِجُ الآلَـةَ حَتَّـى سَـمِعَ مُوسِـيقَى لَـمْ يَعْهَدْهَـا وَلَـمْ يَعْرِفْهَـا أَبَـدًا .

قَالَ :

ـ لَعَلَّكِ سَتُوقِظِينَ النِّيَامَ وَتُلْفِتِينَ انْتِبَاهَ جِيرَانِكِ .

ـ لاَ... فَالَّذِينَ يَسْمَعُونَنَا تَعَوَّدُوا ذَلِكَ وَهُمْ يُحَبِّذُونَ هَذِهِ اللَّفْتَةَ مِنِّي ... عِنْدِي مَجْمُوعَةٌ مِنَ الفَالْس لِيُوهَان سَتْرَاوِس الابْن ... أَلَمْ تَسْمَعْ بَالدَّانُوبِ الأَزْرَقِ الْجَمِيلِ وَبِحَيَاةِ الْفَنَّانِ وَبِصَوْتِ الرَّبِيعِ وَفَالْسْ الإمْبَرَاطُورِ ، وَالْحُبِّ وَالشَّرَابِ وَالْمَأْكَلِ ، كُلُّهَا عِنْدِي ... إِسْمَعْهَا وَلْنَرْقُصْ عَلَى أَنْغَامِهَا .

ـ يَا سِيلْفِي إِنَّ مُوسِيقَانَا مُغَايِرَةٌ لِمُوسِيقَاكُمْ الَّتِي لاَ أَعْرِفُ مِنْهَا شَيْئًا كَمَا لاَ تَعْرِفِينَ أَنْتِ مِنْ مُوسِيقَانَا شَيْئًا .

ـ أَعْرِفُ ذَلِكَ ... وَلَكِنَّنِي سَأُسْمِعُكَ لِأَنَّ الْمُوسِيقَى هِيَ لُغَةٌ عَالَمِيَّةٌ لاَ تَحْتَاجُ إِلَى تَرْجَمَةٍ . وَلْنَبْدَأْ بِشُرْبِ شَيْءٍ مِنَ الشَّمْبَانِيَا .

وَجَدَ عَلِي نَفْسَهُ فِي جَوٍّ لَمْ يَحْلُمْ بِهِ أَبَدًا وَلَمْ يَنْسُجْهُ لَهُ خَيَالُهُ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ صِبَاهُ وَمُرَاهَقَتِهِ . وَبَدَأَتْ تُعَلِّمُهُ الرَّقْصَ وَاحْتَمَلَتِ الدَّوْسَ عَلَى أَقْدَامِهَا . وَكَانَتْ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ تَرْتَمِي فِي أَحْضَانِهِ وَتَضْحَكُ سَاخِرَةً مِنْهُ بِلُطْفٍ حَتَّى لَعِبَتِ الْخَمْرَةُ بِعَقْلَيْهِمَا فِي نَشْوَةٍ خَفِيفَةٍ جَعَلَتْ عَلِي يَرْقُصُ رَقَصَاتٍ تُونِسِيَّةً خَلِيعَةً كَانَتْ تَهْتَزُّ لَهَا سِيلْفِي ضَحِكًا وَمَرَحًا وَتَقُولُ وَقَدْ دَبَّ فِيهَا الشَّرَابُ وَأَكْسَبَهَا فَرَحًا هَزَّازًا :

ـ الرَّقْصُ الشَّرْقِيُّ يُرَكِّزُ عَلَى مَا يُوحِي بِالاتِّصَالاَتِ الْجِنْسِيَّةِ أَكْثَرَ مِنَ الرَّقْصِ الْغَرْبِيِّ . هُوَ مُنْبَنٍ عَلَى طُقُوسِ الْخِصْبِ . ألاَ تَرَى إِلَى رَقْصَةِ الْبَطْنِ هِيَ فِي الْوَاقِعِ تُؤَكِّدُ عَلَى مَا تَحْتَ الْبَطْنِ وَهْيَ بِدَائِيَّةٌ إِذَا قُورِنَتْ بِرَقَصَاتِ الشَّرْقِ الأَقْصَى الْمُحَرِّكَةِ لِلأَيْدِي وَالأَرْجُلِ وَفِيهَا رِقَّةٌ مُتَنَاهِيَةٌ .

وَأَخَذَتْ فِي مُدَاعَبَةِ عَلِي قَائِلَةً لَهُ عِنْدَمَا تَعِبَا مِنَ الرَّقْصِ وَاحْتَضَنَهُمَا الفِرَاشُ :

ـ أُنْظُرْ يَا عَلِي كَيْفَ بَدَأْتَ بِتَعْرِيَةِ نِصْفِكَ الأَسْفَلِ بَيْنَمَا بَادَرْتُ أَنَا بِنَزْعِ

ثِيَابِ نِصْفِي الأَعْلَى ... عَلَى كُلٍّ أَنْتُمُ الْعَرَبَ مَعْرُوفُونَ بِفُحُولَتِكُمْ ... لاَ أَظُنُّكَ تَغْضَبُ مِمَّا أَقُولُ فَأَنَا أَمْزَحُ .

لَمْ يُحِرْ عَلِي جَوَابًا لِأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ أَبَدًا فِي هَذِهِ الْقَضَايَا . فَهُوَ بِعَفَوِيَّتِهِ وَغَرَابَتِهِ أَثَارَ فِي سِيلْفِي مَا لَمْ يُثِرْهُ فِيهَا وَاحِدٌ مِنْ بَنِي جِلْدَتِهَا وَهُوَ مَعَ هَذَا كَانَ مُنْشَغِلاً بِشَهْوَةٍ عَارِمَةٍ بَدَأَ يَطْفَحُ كَيْلُهَا . وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى أَلاَّ يَخْطُوَ أَيَّةَ خُطْوَةٍ إِلاَّ بِحَذَرٍ خَوْفًا مِنْ رَدِّ فِعْلِهَا الْمُفَاجِئِ حَتَّى كَانَ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَحْوَالِ . وَلَكِنَّ الَّذِي لَمْ يَدُرْ بِحُسْبَانِهِ هُوَ أَنَّهُ عِنْدَمَا بَلَغَتِ اللَّذَّةُ أَوجَهَا لَمْ يَعْرِفْ هَلْ أَنَّ شَهَقَاتِهَا كَانَتْ مِنْ جَرَّاءِ الْبُكَاءِ أَوِ الإِيغَافِ أَوِ الاِثْنَيْنِ مَعًا . فَقَالَ:

ـ مَا بِكِ يَا عَزِيزَتِي .

ـ لاَ شَيْءَ ، إِنَّنِي وَعَدْتُكَ بِأَنْ أَكُونَ سَوِيَّةً هَادِئَةً . لاَ تَتَحَرَّكْ إِنَّهَا أَحْلَى أَوْقَاتِ السَّعَادَةِ ... أَنْتَ كَنْزِي ... وَمَلاَذِي ... وَوَاحَةُ نَفْسِي ...

وَلَمَّا اسْتَرْجَعَا أَنْفَاسَهُمَا قَالَتْ لَهُ :

ـ أَنَا مُشْتَاقَةٌ إِلَى مَعْرِفَتِكَ أَكْثَرَ .. حَدِّثْنِي عَنْ طُفُولَتِكَ وَمَا قَاسَيْتَهُ كَمَا قُلْتَ ... لاَتَنْهَضْ لِنَبْقَ هَكَذَا .

وَبَدَأَ عَلِي يَقُصُّ عَلَيْهَا أَطْوَارَ حَيَاتِهِ وَقَدْ سَكَنَتْ وَشَعُرَتْ بِالسَّعَادَةِ بَيْنَ أَحْضَانِهِ وَأَحَسَّ هُوَ بِأَنَّهُ بُعِثَ مِنْ جَدِيدٍ وَأَنَّ إِنْسَانِيَّتَهُ الَّتِي نِيلَ مِنْهَا جُذْوَةً بَعْدَ جُذْوَةٍ أَخَذَ أُوَارُهَا فِي الاِكْتِمَالِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَهَدَأَ هُدُوءًا أَرْجَعَ إِلَى فِكْرِهِ بَعْضَ أَدَوَاتِهِ الَّتِي كَانَتْ مُعَطَّلَةً .]

(وَهُنَا آثَرَ عَبْدُ اللَّطِيفِ أَنْ يَعْمَدَ إِلَى الاخْتِصَارِ وَالْحَذْفِ خَوْفًا مِنَ لِتِكْرَارِ وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ أَنْ يَتْرُكَ عَلِي يَرْوِي بِنَفْسِهِ الأَحْدَاثَ بَعْدَ أَنْ حَذَفَ كُلَّ مَا ذُكِرَ فِي الصَّفَحَاتِ السَّابِقَةِ .)

[قَالَ عَلِي لِسِيلْفِي :" بَعْدَ أَنْ دُفِنَ وَالِدِي ، وَاهْتَزَّتِ الْقَرْيَةُ لِذَلِكَ الْحَدثِ وَانْتَهَيْنَا مِنْ كُلِّ الْمَرَاسِمِ وَسَكَتَتِ الأَلْسُنُ عَنْ ذِكْرِ الْفَقِيدِ وَبَدَأَ الزَّمَانُ يَطْوِي ذِكْرَهُ وَيُصْبِحُ فِي وَاقِعِ النَّاسِ ذِكْرَى بَاهِتَةً قَرَّر جَدِّي أَنْ يَقُومَ بِمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْفَظَ مَصَالِحَنَا تَكْرِيمًا لِلَّذِي كَانَ يَعْتَبِرُهُ السَّنَدَ القَوِيَّ الْمُنْهَارَ ، فَدَعَا عَدْلَيْنِ وَأَمَرَهُمَا بِأَنْ يُنَزِّلاَنَا مَنْزِلَةَ وَالِدِنَا فِي الإِرْثِ بِحَيْثُ يَكُونُ مَنَابُنَا عِنْدَ وَفَاةِ الْجَدِّ هُوَ نَفْسُ مَنَابِ كُلٍّ مِنْ أَعْمَامِنَا . وَجُنَّ جُنُونُ حَفَيِّظ وَحَقَدَ عَلَيْنَا وَأَعْلَنَهَا حَرْبًا لاَ هَوَادَةَ فِيهَا .

بَادَرَ بِالسَّفَرِ وَحْدَهُ إِلَى سُوسَةَ ، وَبَاعَ كُلَّ الأَثَاثِ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلاَّ بِأَشْيَاءِ لاَ قِيمَةَ لَهَا ، مُدَّعِيًا أَنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى خَلاَصِ كِرَاءِ الْكِمْبِيَالاَتِ لِلْيَهُودِي حَايِيم . وَاتَّهَمَ وَالِدَتِي وَأُمَّهَا وَخَالِي حَامِد بِأَنَّهُمْ سَرَقُوا كُلَّ مَا فِي الْخَزْنَةِ مِنْ حِلْيٍ وَنُقُودٍ . وَتَذَكَّرْتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْمَشْؤُومَ الَّذِي حَادَلَ فِيهِ عَمِّي خُصُومَهُ . وَلَكِنَّ الْغَلَبَةَ كَانَتْ لَهُ ، لِأَنَّ جَدَّتِي وَرَّطَتْ نَفْسَهَا بِصُورَةٍ لَمْ يَعُدْ لِي ، وَأَنَا الطِّفْلُ الصَّغِيرُ مَجَالٌ لِلْبَوْحِ بِمَا أَوْصَانِي بِهِ حَايِيم لَقَدِ اتَّهَمَتْ حَفَيِّظ بِتُهَمٍ خَطِيرَةٍ مُسْتَنِدَةً إِلَى أَوْرَاقٍ كَانَتْ فِي الْخَزْنَةِ لِلتَّدْلِيلِ عَلَى سُوءِ تَصَرُّفِ عَمِّي فَقَالَ لَهَا جَدِّي :
ـ وَمِنْ أَيْنَ لَكِ هَذِهِ الأَوْرَاقُ لَوْ لَمْ تَأْخُذِيهَا مِنَ الْخَزْنَةِ بِإِعَانَةِ وَلَدَيْكِ ؟ وَاللَّهِ لَوْلاَ مَخَافَةُ اللَّهِ وَصِدْقُ مَحَبَّتِي لِعَامِر رَحِمَهُ اللَّهُ وَرِعَايَةً لِأَوْلاَدِهِ الأَبْرِيَاءِ لَأَطْرَدْتُكُمْ كُلُّكُمْ مِنْ بَيْتِي وَسَلَبْتُكُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

وَضَاعَتْ كُلُّ أَرْزَاقِنَا وَأَصْبَحْنَا لاَ نَمْلِكُ شَيْئًا خَاصًّا بِنَا وَصَارَتْ الأَرْضُ الَّتِي اشْتَرَاهَا وَالِدِي لِبِنَاءِ دَارٍ لَنَا مِلْكًا لِلْجَمِيعِ وَالْمَالُ الَّذِي سَلَّمَهُ لِلطَّيِّبِ الْقُلِّي ضَاعَ بَيْنَ هَذَا الأَخِيرِ وَعَمِّي ؛ أَمَّا الأَرَاضِي وَالزَّيَاتِينُ الْمُشْتَرَاةُ مِنْ عَرَقِ جَبِينِ وَالِدِي فَقَدْ انْضَمَّتْ إِلَى مِلْكِ الْجَمَاعَةِ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا مَبْدَئِيًّا ثُمَّ بِمُرُورِ الزَّمَنِ وَانْدِثَارِ الْعُقُودِ بَيْنَ أَيْدِي عَمِّي اُعْتُبِرَتْ أَمَامَ النَّاسِ جَمِيعًا مِلْكًا لِلْحَاجِّ سَالِم . أَمَّا حَامِد خَالِي فَقَدِ انْتَظَرَ مَا يَقْرُبُ مِنْ عَامَيْنِ ثُمَّ بَدَأَ يَخْرُجُ لِلنَّاسِ لاَبِسًا أَفْخَرَ الْجَبَابِ وَالْبَرَانِسِ ، وَفَتَحَ دُكَّانًا مِنْ أَحْدَثِ الدَّكَاكِينِ مُجَهَّزًا أَكْمَلَ تَجْهِيزٍ وَاشْتَرَى كَرُّوسَةً بِأَرْبَعَةِ خُيُولٍ لِنَقْلِ الْمُسَافِرِينَ بَيْنَ الْقَرْيَةِ وَمَدِينَةِ سُوسَةَ . وَحَنِقَ عَمِّي حَنَقًا لاَ مَثِيلَ لَهُ وَجَاءَ لِجَدَّي وَقَالَ :

ـ أَرَأَيْتَ كَيْفَ أَنَّ حَامِد الْمُعْدَمُ ، كَلْبُ السُّوقِ ، الْمُفْلِسُ يُصْبِحُ تَاجِرًا كَبِيرًا . أَلَيْسَ هَذَا دَلِيلاً عَلَى أَنَّ كِيمَة سَلَّمَتْهُ مَا خَلَّفَهُ أَخِي وَتَرَكَتْنَا نَجُرُّ ثِقَلَ الدُّيُونِ ؟

ـ كِيمَة ضَعِيفَةٌ ... وَأُمُّهَا هِيَ السَّبَبُ فِي كُلِّ الْمَصَائِبِ ... أَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تَقُمْ بِوَاجِبِكَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ ... لَقَدْ تَوَاطَأْتُمْ كُلُّكُمْ عَلَى سَلْبِ هَؤُلاَءِ الأَيْتَام ...لِذَا لاَ فَائِدَةَ فِي مَلْءِ أُذُنَيَّ بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ ... كُلُّكُمْ حَطَبٌ لِجَهَنَّمَ ... لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْخُوخَةَ الَّتِي تَمْنَعُ مِنْ تَأْدِيبِ أَمْثَالِكُمْ وَأَخْذِ الْقَرَارِ اللاَّزِمِ وَتَنْفِيذِهِ ... اُغْرُبْ عَنْ وَجْهِي .

وَسَكَتَ عَمِّي عَنْ مَضَضٍ وَصَادَفَنِي فِي طَرِيقِهِ وَفَهِمَ أَنَّنِي سَمِعْتُ كُلَّ مَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَاجِّ سَالِم وَلاَحَظَ عَلَى وَجْهِي الاِنْبِسَاطَ وَالاِرْتِيَاحَ وَلَمْ يَغِبْ عَنْهُ أَنَّنِي أَنَا هُوَ الَّذِي أَوْغَرَ صَدْرَ وَالِدِهِ عَلَيْهِ بِمَا أَوْصَانِي بِهِ حَايِيم . فَدَفَرَنِي بِقُوَّةٍ وَكِدْتُ أَسْقُطُ وَصَاحَ :

ـ يَا كَلْب ، وَاللّهِ سَأُرِيكَ النُّجُومَ فِي الْقَائِلَةِ .

ـ كُلُّ وَاحِدٍ يُجَازِيهِ اللّهُ فِي الآخِرَةِ بِمَا فَعَلَتْهُ يَدَاهُ .

ـ هَاتِ الآنَ وَالآخِرَةُ أَمْرٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مَوْلاَيَ .

وَهَرَبْتُ مِنْهُ لِأَنَّهُ هَمَّ بِتَأْدِيبِي وَأَمْعَنَ فِي مُضَايَقَتِي بِإِصْرَارٍ حَقُودٍ مُحَاوِلاً صَرْفِي عَنِ التَّعَلُّمِ وَتَكْلِيفِي بِأَعْمَالٍ فِلاَحِيَّةٍ شَاقَّةٍ ، وَلَكِنَّنِي كُنْتُ أَسْتَظِلُّ بِجَدِّي وَكَانَ دَائِمًا إِلَى جَانِبِي ؛ أَمَّا عَمِّي فَيَكْتَفِي مَغْلُوبًا بِإِطْلاَقِ الْعِنَانِ لِصَرِيفِ أَسْنَانِهِ حَنَقًا وَغَيْظًا . "]

(هُنَا رَجَعَ عَبْدُ اللَّطِيفِ إِلَى سَرْدِهِ الْخَاصِّ بِهِ) .

[وَمَضَى هَزِيعٌ مِنَ اللَّيْلِ وَسِيلْفِي تُنْصِتُ إِلَى عَلِي بِإِمْعَانٍ ، وَبَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ تَسْتَيْقِظُ أَحَاسِيسُهُ وَأَحَاسِيسُهَا مِنْ جَدِيدٍ فَيَنْسَاقَا إِلَى اللَّذَّةِ كَأَعْتَى مَا تُتِيحُهُ الصَّبَوَاتُ الشَّبَقِيَّةُ . وَلَمْ يَقِفْ دُونَ هَذَا التَّوَاصُلِ إِلاَّ انْبِلاَجُ الصُّبْحِ . فَكَانَ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ وَهُوَ الْفِرَاقُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ . وَبَكَتْ سِيلْفِي وَبَكَى عَلِي ، وَأَخْضَلَتْ وَجْهَهُ وَأَخْضَلَ وَجْهَهَا بِالدُّمُوعِ فِي مَوْكِبٍ مِنَ الْقُبَلِ الَّتِي لَمْ يَهْدَأْ شُوَاظُهَا وَلاَخَبَا لَهِيبُهَا .

عَاجَلَهُ الصَّبَاحُ بِمَوْكِبٍ آخَرَ مِنَ الْعَنَاءِ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُكَحِّلِ النَّوْمُ أَجْفَانَهُ . فَمَا أَنِ اتَّجَهَ إِلَى مَكَانِ الْعَمَلِ حَتَّى رَأَى الرَّقِيبَ الْفِرَنْسِيَّ يُشِيرُ إِلَيْهِ لِيَلْتَحِقَ بِهِ . فَلَعَنَ الشَّيْطَانَ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : اللَّهُ سَاتِرٌ مِنْ هَذَا الْمَارِدِ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَالَ لَهُ :

ـ خَدَمَكَ الْحَظُّ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ... لَقَدْ رُقِّيتَ إِلَى رُتْبَةِ عَرِيفٍ ... لَقَدْ فَتَّشْتُ عَنْكَ فِي اللَّيْلِ فَلَمْ أَعْثُرْ عَلَيْكَ . فَلَكَأَنَّ الأَرْضَ ابْتَلَعَتْكَ ... خُذْ بَقْطَاجَكَ (مَتَاعُ الْجُنْدِيِّ) وَارْحَلْ مِنْ هُنَا قَبْلَ أَنْ تُشْعِلَ النَّارَ فِي

الْمُسْتَشْفَى ... إِنَّكَ نُقِلْتَ إِلَى حَلْقِ الْوَادِي حَيْثُ طَائِفَةُ الطُّبْجِيَّةِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا ... لَقَدْ أَرَاحُونَا مِنْكَ وَنِعْمَ مَا فَعَلُوا .

نَزَلَ الْخَبَرُ عَلَى عَلِي وَهْوَ لاَيَدْرِي كَيْفَ يَتَقَبَّلُهُ : بِسُرُورٍ أَوْ بِحُزْنٍ كَبِيرٍ ؛ بِسُرُورٍ لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ وَضْعِ الْجُنْدِيِّ الْبَسِيطِ الْمُعَرَّضِ لِكُلِّ الإِهَانَاتِ إِلَى وَضْعِ الضَّابِطِ الصَّغِيرِالَّذِي يَفْتَحُ الْبَابَ لِلتَّرْقِيَاتِ الْمُتَتَالِيَةِ وَلِلْمُعَامَلَةِ الْكَيِّسَةِ وَيَضَعُ حَدًّا لِلْقِيَامِ بِالأَشْغَالِ الْمُهِينَةِ وَالْمُحِطَّةِ بِالْكَرَامَةِ . وَبِحُزْنٍ كَبِيرٍ لِأَنَّهُ سَيُفَارِقُ الْمَرْأَةَ الَّتِي أَحَبَّهَا بِكُلِّ جَوَارِحِهِ . وَكَانَ بِوِدِّهِ أَنْ يَرْفُضَ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ التَّرْقِيَةَ انْتَظَرَهَا طَوِيلاً وَهْوَ الَّذِي أَمْضَى فِي مَدْرَسَةِ الضُّبَّاطِ الصِّغَارِ أَشْهُرًا ذَاقَ الْمُرَّ فِيهَا أَثْنَاءَ الْقِيَامِ بِالتَّمْرِينَاتِ الْمُنْهِكَةِ الصَّعْبَةِ .

أَسْرَعَ عَلِي بِإِعْلاَمِ سِيلْفِي فَنَزَلَ عَلَيْهَا الْخَبَرُ كَالصَّاعِقَةِ وَحَاوَلَ أَنْ يَبْعَثَ فِي نَفْسِهَا الطُّمَأْنِينَةَ مُؤَكِّدًا أَنَّهُ سَيَزُورُهَا دَائِمًا وَقَدْ أَصْبَحَ يَنْعَمُ بِشَيْءٍ مِنَ الْحُرِّيَّةِ . وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ سَاكِتَةً غَيْرَ قَادِرَةٍ حَتَّى عَلَى تَهْنِئَتِهِ . وَأَرَادَ أَنْ يَخْتَلِيَ بِهَا فِي رُكْنٍ مِنْ غُرْفَةِ التَّدَاوِي فَلَمْ يُفْلِحْ وَتَرَكَهَا سَاهِمَةً . وَجَمَعَ مَتَاعَهُ وَوَدَّعَ الْجَمِيعَ وَسِيلْفِي مَعَهُمْ وَغَابَ بَيْنَ الأَشْجَارِ .

وَفِي الأَحَدِ الْمُوَالِي سَعَى إِلَى أَنْ يُرَخَّصَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الثُّكْنَةِ . فَطَارَ مِنْ حَلْقِ الْوَادِي بِأَجْنِحَةِ الشَّوْقِ إِلَى حَبِيبَتِهِ . وَلَكِنَّ الرَّقِيبَ تَلَقَّاهُ بِبُرُودَةٍ وَنَظَرَ إِلَيْهِ شَزْرًا قَائِلاً :

ـ مَاالَّذِي أَتَى بِكَ ؟

ـ أَرَدْتُ تَحِيَّتَكُمْ فَأَنْتُمْ أَصْدِقَاءُ .

– رُحْ إِلَى حَالِكَ يَارَجُلُ ... أَنْتَ السَّبَبُ فِي ضَيَاعِ سِيلْفِي
– وَمَاالَّذِي صَنَعْتُهُ أَنَا .
– يَوْمَ أَنْ رَحَلْتَ مِنْ هُنَا جَاءَهَا إِعْلاَمٌ بِأَنَّ زَوْجَهَا قُتِلَ فِي الْوَاجِهَةِ
– وَمَا ذَنْبِي أَنَا وَالْحَرْبُ هِيَ الَّتِي قَتَلَتْهُ .
– مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ دَخَلَتْ سِيلْفِي فِي هَوَسٍ عَمِيقٍ وَأَصْبَحَتْ لا تَقُولُ إِلاَّ كَلِمَتَيْنِ : عَلِي مَاتَ ، وَهْيَ الآنَ سَاهِمَةٌ تَائِهَةٌ فِي الْحَدِيقَةِ بَيْنَ الأَشْجَارِ

وَلَمْ يُرِدْ عَلِي الدُّخُولَ فِي مُهَاتَرَاتٍ مَعَ هَذَا الضَّابِطِ الصَّغِيرِ الْحَقِيرِ وَخَرَجَ إِلَى الْحَدِيقَةِ يَبْحَثُ عَنْ حَبِيبَتِهِ وَلَمَحَهَا بَيْنَ الأَشْجَارِ فَخَفَّ إِلَيْهَا وَنَادَاهَا بِصَوْتٍ كُلُّهُ شَوْقٌ وَحَنَانٌ :
– سِيلْفِي ... أَنَا حَبِيبُكَ ... لَمْ أَنْسَكَ ... انا عَلِي ...

وَلَمْ تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ ، فَالْتَحَقَ بِهَا وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا يُرِيدُ تَقْبِلَهَا وَلَكِنَّهَا وَاصَلَتْ سَيْرَهَا ثُمَّ وَقَفَتْ وَقَالَتْ
– عَلِي مَاتَ ... عَلِي مَاتَ ...

وَفَهِمَ عَلِي أَنَّ حَبِيبَتَهُ فَقَدَتْ كُلَّ ذَاكِرَتِهَا وَلاَ فَائِدَةَ فِي مُحَاوَلَةِ إِرْجَاعِ الصَّوَابِ إِلَيْهَا . وَمَضَى إِلَى حَالِ سَبِيلِهِ يُجَرِّرُ رِجْلَيْهِ وَيَـ... حَظَّهُ الَّذِي لاَ يُلْقِي بِهِ إِلاَّ فِيمَا يُبْقِي فِي نَفْسِهِ النُّدُوبَ وَيُقِيمُ لَهُ الْمُحَـ... تِلْوَ الْحُجَّةِ عَلَى أَنَّهُ لاَ حَوْلَ لَهُ وَلاَقُوَّةَ أَمَامَ الأَحْدَاثِ فِي عَالَمٍ لَيْسَ بِـ... إِمْكَانِهِ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ وَلَوْ أَبْسَطَ تَأْثِيرٍ إِذِ الْخُيُوطُ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ لاَ يَعْتَبِرُهُ دُمْيَةٍ تَتَنَفَّسُ وَتَتَأَلَّمُ وَتَخْشَى الْمَوْتَ لاَ مَحَالَةَ وَتَظُنُّ أَنَّ لَهَا فِي الصِّـ... وَالْمَحَبَّةِ وَالْقَرَابَةِ سَنَدًا وَمَوْئِلاً ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ ... لِأَنَّ الْوَحْدَةَ الـ... هِيَ الْحَقِيقَةُ الْوَحِيدَةُ الْمَاثِلَةُ لِلْعِيَانِ الْبَاقِيَةُ .]

5

[وَبَيْنَمَا كَانَ عَلِي يَمْشِي مُتَّجِهًا نَحْوَ الْمَحَطَّةَ الَّتِي سَيَمْتَطِي مِنْهَا قِطَارَ حَلْقِ الْوَادِي رَجَعَتْ بِهِ الذَّاكِرَةُ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقَدْ سِيقَ بِهِ مَغْلُولاً إِلَى دَار الْبَايِ وَكَيْفَ أَمْكَنَ لَهُ بِمَحْضِ الصُّدْفَةِ أَنْ يُفْلِتَ مِنَ الْحَرْبِ .

تَذَكَّرَ كَيْفَ خَرَجَ يَسُوقُهُ الشَّاوُش وَهُوَ مَسْرُورٌ بِنَصْرِهِ ، مَزْهُوٌّ بِمَوْقِفِهِ مِنَ الْفَرَنْسِيِّ وَتَغَلُّبِهِ عَلَيْهِ ، مُهْتَزًّا فَرَحًا بِإِفْلاَتِهِ مِنْ مَصِيرٍ لاَ شَكَّ مَحْتُومٌ هُوَ الْمَوْتُ أَوِ الأَسْرُ أَوالإِعَاقَةُ بَيْنَمَا طَاقَةُ الْحَيَاةِ الْكَامِنَةُ فِيهِ تَدْعُوهُ إِلَى أَنْ يَحْيَا ، إِلَى أَنْ يُذَلِّلَ الصِّعَابَ وَيَقْتَحِمَ الأَخْطَارَ وَيَغْرِفَ مِنَ الدُّنْيَا الْكَثِيرَ ، أَمَّا أَنْ يَتَعَرَّضَ إِلَى هَذَا الَّذِي لَيْسَ فِي قُدْرَتِهِ مُصَارَعَتُهُ وَيَكُونَ مَصِيرُهُ مَصِيرَ وَالِدِهِ فَهُوَ الَّذِي لاَ يَرْضَى بِقَبُولِهِ أَبَدًا ... إِنَّهُ أَحَسَّ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِأَنَّهُ صَرَعَ الْمَوْتَ ... نَعَمْ صَرَعَ الْمَوْتَ وَانْتَقَلَ إِلَى عَالَمٍ بَعِيدٍ عَنِ انْقِطَاعِ الْحَيَاةِ ، بَعِيدٍ عَنْ نُضُوبِ مَعِينِ الاِنْطِلاَقَةِ نَحْوَ الْفَضَاءِ الأَوْسَعِ . وَتَقُولُ سِيلْفِي : عَلِي مَاتَ ... عَلِي مَاتَ ... وَلَكِنَّ عَلِي يَمْشِي وَبِقُوَّةٍ وَيَتَحَرَّكُ ... وَكَانَ يَمْشِي فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَيَمْشِي الآنَ وَلَكِنَّ حَيَاتَهُ دَائِمًا لَيْسَتْ بِإِرَادَتِهِ ... يَتَصَرَّفُ فِيهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ غَيْرُهُ .

تَذَكَّرَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالشَّاوُشُ يَسُوقُهُ أَمَامَهُ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَإِذَا بِهِ يَرَاهُ عَيْنَةً مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الْمَجْهُول . وَتَجَهَّمَ وَجْهُهُ وَدَقَّ قَلْبُهُ دَقَّاتٍ سَرِيعَةً وَانْتَقَلَ

فِكْرُهُ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ ، عَالَمِ طُفُولَتِهِ وَقَرْيَتِهِ فَحَنَّ إِلَيْهِ وَأَحَسَّ بِرَغْبَةٍ إِلَى الإِنْدِفَاعِ نَحْوَ الْوَرَاءِ . وَثَقُلَتْ خُطَاهُ وَتَنَاوَشَتْ نَفْسَهُ أَطْيَافُ الْمَاضِي وَتَجَاذَبَتْهَا أَغْوَارُ الْمُسْتَقْبَلِ ، فَشَعُرَ بِالْهَاوِيَةِ تَنْشَقُّ تَحْتَ رِجْلَيْهِ وَبِأَنَّهُ تَهَاوَى إِلَى عَالَمٍ آخَرَ هُوَ عَالَمٌ مِنَ الْغَيْبُوبَةِ فِيهِ تَتَوَقَّفُ عَجَلَةُ الْفِكْرِ جَامِحَةً حَرُونًا وَفِيهِ تَغُوصُ النَّفْسُ فِي أَوْحَالِ التَّرَدُّدِ وَتَشَتُّتِ الإِرَادَةِ .

ـ مِنْ هَنَا يَا سِي الشَّبَّاب .

أَفَاقَ عَلِي عَلَى صَيْحَةِ الشَّاوُشِ الَّذِي عَطَفَ بِهِ نَحْوَ طَرِيقِ المَلاَّسِين . فَانْحَدَرَ مَعَهَا وَكَأَنَّهُ لاَيَضْبِطُ مِنْ حَرَكَتِهِ شَيْئًا . لَقَدْ تَرَكَ الأَقْدَارَ تَسِيرُ بِهِ كَمَا تَشَاءُ وَتَقُودُهُ نَحْوَ هَذَا الْعَالَمِ الْمَجْهُولِ .

ـ إِسْمُكَ يَا دِين الْكَلْب .

ـ عَلِي الْغَافِل .

ـ آ ... تَهَنِّينَا

ـ قُلْ لِي إِتْصُكُّ التَّالِي وَلاَّ الْقُدَّام .

ـ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا .

ـ صَاحِبْنَا مُصَتِّك... شَيْء جَمِيل ... مَعْنَاه تَعْرِف تَقْرا بِالْفِرَنْسِيَّة أَوِ الْعَرَبِيَّة .

ـ أَعْرِفُ الإِثْنِين .

ـ وَتَعْرِفُ الإِثْنَيْن زَادَه ... أُمُّكَ الْكَلْبَة ... وَاللَّهِ إِلاَّ مَا نَحْرِث عَلَيْهَا ... سَأَقْصِفُك مِنَ الأَوَّل قَبْلَ أَنْ تَطْلَع قِرِينَاتِك ... سَتَرَى وَقْت الصَّكَ وَالرَّك نَحْن جلاَص الْبَهَايِم .

وَسَمِعَ عَلِي غَمْغَمَةً ثُمَّ صَرِيفَ أَسْنَان . فَاقْشَعَرَّ بَدَنُهُ وَالْتَفَتَ إِلَى" رَفِيقِ الطَّرِيقِ " فَوَجَدَهُ قَصِيرَ الْقَامَةِ وَلَكِنَّهُ عَظِيمُ الْكَرَادِيسِ كَبِيرُ

الرّأسِ ، قَوِيُّ الْعَضَلاَتِ تَتَأَرْجَحُ مِنْهُ يَدَانِ قَدْ جُمِعَتْ قَبْضَتُهُمَا فِي تَحَدٍّ وَتَشَنُّجٍ وَلَمْ يَسَعْهُ إلاّ السُّكُوتُ أَمَامَ النَّجْمَاتِ الأَرْبَعِ ، مِنْ نُحَاسٍ لاَمَحَالَةَ ، إشَارَةً إلَى رُتْبَةِ هَذَا الشَّاوُشِ ، وَلَمْ يَتَسَنَّ لَهُ إلاّ الاِسْتِسْلاَمُ إلَى بَوَادِرِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَجْهُولِ ، وَظَنَّ أَنَّهُ غَرَقَ وَلَمْ يَدْرِ أَنَّهُ انْزَلَقَ .

ـ يَا شَاوُش فَرج ، يَا شَاوُش مُخْتَار ، يَاشَاوُش عُثْمَان .

هَكَذَا أَخَذَ الشَّاوُش يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ عِنْدَمَا وَصَلَ ثُكْنَةَ بَارْدُو وَلَمَّا حَضَرَ هَؤُلاَءِ وَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ :

ـ آشْ بِيكْ تَصْرَخْ يَا قَحْطَار ؟

ـ هَاوْ جَاكُمْ إِلِّي اِيصُكْ التَّالِي وِالْقُدَّام ... رُدُّوا بَالْكُمْ مِنُّو ... يِلْزِمْ تَحْجِيمْ إِقْرِينَاتُو ...

كُلُّ هَذَا وَعَلِي لاَيَهُمُّهُ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْكَلاَمِ شَيْءٌ وَشُعُورُهُ هُوَ أَنَّهُ لاَ يَعْرِفُ ، وَالْحَالَةُ هَذِهِ ، الْحَدَّ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَبِرَ فِيهِ الإِنْسَانُ الإِهَانَةَ إِهَانَةً وَالإِكْرَامَ إِكْرامًا . فَكَمِ الْتِفَاتَةٌ ظَنَّهَا إِكْرَامًا وَلَكِنَّ بَاطِنَهَا مَهَانَةٌ وَكَمْ حَقَارَةٌ اعْتَبَرَهَا إِذْلاَلاً وَهْيَ إِكْرَامٌ . اخْتَلَطَتِ الْمَقَايِيسُ وَتَلاَشَتِ الْحُدُودُ وَاضْطَرَبَتِ الأَفْكَارُ وَتَهَاوَتِ الْقِيَمُ : صُنْعُ الإِنْسَانِ بِأَخِيهِ الإِنْسَانِ عِنْدَمَا يَنفَرِدُ بِالْمُصِيبَةِ وَيَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ فِي عَالَمٍ غَرِيبٍ أَطْوَارُهُ عَجِيبَةٌ

* * *

تَذَكَّرَ أَنَّهُ سَمِعَ بَعْدَ ذَلِكَ صُرَاخًا يَقُولُ :

ـــ إِلَى السِّلاَح ... إِلَى السِّلاَح ...(بِالْفَرَنْسِيَّةِ : أُوزَارْمْ) ...(ثُمَّ بِالتُّونِسِيَّةِ) الْكَلْبَةُ جَاتْ ...الْكَلْبَةُ يَا أَوْلاَد القحـــ ...

وَلَمَحَ أَمَامَ بَابِ الثُّكْنَةِ الْحَارِسَ فِي اسْتِعْدَادٍ وَرَأَى كَلْبَةً تُهَرْوِلُ فِي اتِجَاهِ الْجُنْدِيِّ . فَالْتَفَتَ إِلَى الْقَوْمِ وَإِذَابِهِمْ يَخِرُّونَ ... يَخْتَفِي الْبَعْضُ وَيَظْهَرُ آخَرُونَ ، وَتُزَالُ الأَوْسَاخُ بِسُرْعَةٍ وَتُسْمَعُ حَرَكَةٌ حَثِيثَةٌ وَوَقْعُ أَقْدَامٍ مَلْهوفَةٍ وَيَظْهَرُ الضُّبَّاطُ وَهُمْ يُسَوُّونَ بَدْلاَتِهِمْ وَيُزِيلُونَ الْغُبَارَ عَنْهَا . أَشْكَالٌ غَرِيبَةٌ ، مِنَ الطَّوِيلِ إِلَى الْقَصِيرِ ، إِلَى الْبَطِينِ الْمُمْتَلِئِ شَحْمًا إِلَى النَّحِيفِ الْمُفْرِطِ فِي النَّحَافَةِ .

وَقَفَ الْجَمِيعُ أَمَامَ الثُّكْنَةِ يَنْتَظِرُونَ وَأَعْنَاقُهُمْ مُمْتَدَّةٌ نَحْوَ الطَّرِيقِ . وَإِذَا بِجَوَادٍ يُطِلُّ وَفَوْقَهُ ضَابِطٌ فَرَنْسِيٌّ ... وَاتَّضَحَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ . وَبَدَأَتِ التَّحِيَّاتُ الْمَكْبُوسَةُ وَفَرْقَعَاتُ الأَحْذِيَةِ الْمُتَكَرِّرَةُ وَالانْحِنَاءَاتُ الذَّلِيلَةُ الْمَوْكُوسَةُ وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ وَمَسْحَةُ الاسْتِخْذَاءِ وَالْخُنُوعِ . وَبَيْنَمَا كَانَ عَلِي يَنْظُرُ وَيُحَاوِلُ الدُّخُولَ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَإِذَا بِأَحَدِ ضُبَّاطِ الصَّفِّ يَجُرُّهُ بِعُنْفٍ إِلَى غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ وَيَأْمُرُهُ بِالْبَقَاءِ فِيهَا إِلَى حِينٍ .

* * *

تَذَكَّرَ أَيْضًا أَنَّهُ عِنْدَمَا لَبِسَ لِبَاسَ الْجُنْدِ وَاصْطَفَّ مَعَهُمْ لِيَتَلَقَّى التَّمْرِينَاتِ ظَهَرَ فِي بَلاَهَةٍ لاَحَدَّ لَهَا وَغَفْلَةٍ لا يُمْكِنُ أَنْ تَصْدُرَ إِلاَّ عَنْ أُمِّيٍّ جَهُولٍ . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ قَصْدٍ . بَلْ دَخَلَ فِي حَالَةٍ مِنَ الدَّهْشَةِ مِنْ أَثَرِ الصَّدْمَةِ جَعَلَتْهُ لاَيَفْهَمُ شَيْئًا وَلاَ يُمَيِّزُ بَيْنَ مَا يُعْرَضُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْبَسِيطَةِ حَتَّى أَنَّ الرَّقِيبَ قَالَ لَهُ :

ــ يَا وَلَدِي لاَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ أَنْتَ وَقَعْتَ فِي الشَّرَاكِ ... وَالْفَرْخُ الْحُرُّ عِنْدَمَا يَسْقُطُ فِي الشَّرَكِ لاَ يَتَخَبَّطُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُهُ أَلَمًا ... وَأَنْتَ مُتَعَلِّمٌ وَفِي إِمْكَانِكَ أَنْ تَرْتَقِيَ إِلَى رُتْبَةٍ أَفْضَلَ وَتَتَخَلَّصَ مِنَ الأَشْغَالِ

الْمِهنَةِ وَمِنْ تَسَلُّطِ ضُبَّاطِ الصَّفِ الأُمِّيِّينَ وَهُمْ كَثِيرُونَ هُنَا لاَيَعْرِفُونَ عَدْلاً وَلاَ خَيْرًا وَلاَ اسْتِقَامَةً ... أَنَا أَنصَحُكَ أَنْ تَدْخُلَ مَدْرَسَةَ ضُبَّاطِ الصَّفِّ وَأَنْتَ عَارِفٌ باللُّغَتَيْنِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَفِي إِمْكَانِكَ أَنْ تَتَفَوَّقَ ... وَهَذَا الْمُلاَزِمُ أَمَامَكَ ... اِذْهَبْ إِلَيْهِ وَاطْلُبْ مِنْهُ هَذِهِ الْمَزِيَّة .

وَلَمْ يَفْهَمْ عَلِي كَيْفَ حُسِمَ الأَمْرُ بِسُرْعَةٍ رَغْمَ أَنَّ الدُّرُوسَ بَدَأَتْ بَعْدُ ، وَرَغْمَ احْتِرَازِ الْمُلاَزِمِ وَقَوْلِهِ لِعَلِي : أَنْتَ تُرِيدُ رُكُوبَ الْقِطَارِ وَهُوَ يَسِيرُ . وَمَعَ هَذَا قُبِلَ بِالْمَدْرَسَةِ وَأَصْبَحَ مِنَ الْمُتَفَوِّقِينَ فِي بِضْعَةِ أَيَّام وَتَذَكَّرَ أَنَّهُ بَعْدَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا يُعَيَّنُ فِي الْحِرَاسَةِ وَهْيَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ لَمْ يَشْعُرْ فِيهَا بِوَحْشَةٍ .

كَانَ الظَّلاَمُ شَدِيدًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّهُمَّ إلاَّ بَعْضَ النُّجُومِ الْمُتَدَلِّيَةِ مِنَ السَّمَاءِ تَنْطَفِئُ تَارَةً وَطَوْرًا تَظْهَرُ مُتَحَدِّيَةً الأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا . وَلَكِنَّهُ أَنِسَ إِلَى هَذِهِ الظُّلْمَةِ فَأَخَذَ يَذْرَعُ الْمَكَانَ جِيئَةً وَذَهَابًا ، وَقَدْ شَدَّ إِلَيْهِ بُنْدُقِيَّتَهُ ، وَالْتَفَّ فِي ثِيَابِهِ خَوْفًا مِنْ بَرْدِ الْهَزِيعِ الأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ . أَرْكَانُ الْمَيْدَانِ الْفَسِيحِ تَظْهَرُ لَهُ ، بِحِجَارَتِهَا ، بِأَكْدَاسِ الْحَطَبِ وَالْفَحْمِ الْمُبَعْثَرِ هُنَا وَهُنَاكَ ؛ وَتَظْهَرُ لَهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ظِلاَلُهَا الَّتِي يُحَرِّكُهَا الرِّيحُ ، فَيَخْتَلِطُ فِي نَظَرِهِ الْفَحْمُ بِظِلِّهِ وَالْحَطَبُ بِأَشْبَاحِ الْحَطَبِ ، وَالْحِجَارَةُ بِأَشْبَاهِ الْحِجَارَةِ . أَمَّا بَابُ الْبُرْجِ الْمُنْتَصِبِ فِي أَقْصَى السَّاحَةِ ، فَهُوَ حَقِيقَةٌ وَاقِعَةٌ ، لَقَدْ تَحَدَّى الظَّلاَمَ وَكَفَرَ بِالظِّلِّ وَالأَشْبَاحِ وَالأَشْبَاهِ وَصَمَدَ أَمَامَ عَوَاصِفِ الزَّمَنِ وَتَقَلُّبَاتِ الدَّهْرِ وَزَوَالِ الدُّوَلِ ، فَظَهَرَ عَارِيًا مِنْ كُلِّ لُبْسٍ عَظِيمًا . هَذَا الْعَالَمُ كُلُّهُ وَضَعَ نَفْسَهُ تَحْتَ تَصَرُّفِ عَلِي ، يَحْرُسُهُ وَيَمْنَعُ عَنْهُ كُلَّ دَخِيلٍ ، وَسَمَحَ كَذَلِكَ بِأَنْ يَنْفُذَ بِعَيْنَيْهِ إِلَى خَبَايَاهُ مِثْلَمَا تَفْعَلُهُ فَوْقَ رَأْسِهِ نُجُومِ السَّمَاءِ .

هِيَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ بَعْدَ الْقَبْضِ عَلَيْهِ لاَيُحِسُّ فِيهَا بِوحْشَةِ الظَّلاَمِ ، لِأَنَّ هَـذَا الظَّلاَمَ ، وَهَـذِهِ الأَشْبَاحَ وَهَـذَا الْعَـالَمَ الْمُضْطَـرِبَ بَيْـنَ الْحَقِيقَـةِ وَالْخَيَـالِ يُذَكِّرُهُ لَيَالِيَ قَرْيَتِـهِ الْحَبِيبَـةِ إِلَـى نَفْسِـهِ الَّتِي غَادَرَهَـا قَسْرًا وَهَاجَرَهَـا هَرَبًـا مِـنْ ظُلْـمِ عَمِّـهِ وَخَوْفًـا عَلَـى إِخْوَتِـهِ الصِّغَـارِ مِـنْ أَنْ يُطْـرَدُوا مِـنْ دَارِ جَدِّهِـمْ وَيُسْلَبَ وَيُسْـلَبُوا مِـنَ الـرِّزْقِ .

تَدَاعَـتْ حَرَكَتُـهُ إِلَـى الطُّمَأْنِينَـةِ وَالرَّاحَـةِ ، فَاخْتَـارَ مَكَانًـا بَيْـنَ الْحِجَـارَةِ وَجَلَسَ خِلاَفًـا لِلتَّرَاتِيبِ ، مُتَّكِئًـا عَلَـى بُنْدُقِيَّتِـهِ يَسْـتَمْتِعُ بِهَـذِهِ الْوَحْـدَةِ الَّتِـي نَسِيَهَا مُنْذُ أَيَّامٍ . إِنَّهَـا تُشْعِرُهُ بِأَنَّ لَـهُ وَزْنًـا وَأَنَّـهُ يَحْيَـا ، وَتَرَامَـتْ بِـهِ الْخَوَاطِـرُ بَعِيـدًا إِلَـى الْـوَرَاءِ ، سَرِيعَةَ الإِنْتِقَالِ ، غَائِصَـةً فِـي لَفَـائِفِ الْمَـاضِي السَّـحِيقِ ، مُخْتَرِقَـةً كَثَافَـةَ اللَّيْـلِ إِلَـى لَيْـلٍ آخَـرَ كَـانَ يَجْتَـازُ فِيـهِ زُقَـاقَ قَرْيَتِـهِ الطَّوِيـلَ مَـعَ إِخْوَانِـهِ وَأَبْنَـاءِ عَمِّـهِ وَبَنَـاتِ عَمِّـهِ لِيَقْضُـوا السَّـهْرَةَ عَلَـى شَـاطِئِ الْبَحْـرِ الْمُـتَرَامِي الأَطْـرَافِ . وَكَـمْ لَعِبُـوا وَرَكَضُـوا وَسَـبَحُوا لاَ هَـمَّ لَهُـمْ إِلاَّ أَنْ يَبْتَعِـدُوا عَـنْ عُيُـونِ الآبَـاءِ وَالأُمَّهَـاتِ وَيُطْلِقُـوا لِرَغَبَـاتِهِمْ الْعِنَـانَ فِـي سَـذَاجَةٍ وَبَسَـاطَةٍ وَعَفْوِيَّـةٍ لاَ يُرْهِقُهَـا الْمَـاضِي ، وَهُـمْ خِلْـوٌ مِـنْ كُـلِّ مَـاضٍ ، وَلاَ يُكَبِّلُهَـا الْمُسْـتَقْبَلُ وَيُقَيِّدُهَـا التَّفْكِـيرُ وَتَطْمِـسُ مَعِـينَ اللَّـذَّةِ مِنْهَـا الأَوْهَـامُ وَالْخَيَـالاَتُ وَأَلْـوَانُ الـتَّرَدُّدِ .

غَـيْرَ أَنَّ تِلْـكَ اللَّيْلَـةَ لَـمْ تَكُـنْ مِثْـلَ اللَّيَـالِي الأُخْرَى لِأَنَّـهُ أَحَسَّ بِتَغَيُّرٍ فِـي كِيَانِـهِ وَبِحَاجَـةٍ مُلِحَّـةٍ لاَ يَـدْرِي هَـلْ هِـيَ مِـنْ صُنْـعِ خَيَالِـهِ وَتَفْكِـيرِهِ أَمْ فَرَضَتْهَـا عَلَيْـهِ غَرَائِـزُهُ وَنُمُـوُّ جِسْـمِهِ .عَلَـى كُـلٍّ فَقَـدْ شَـعُرَ بِأَنَّـهُ يَجِـبُ أَنْ يُحِـبَّ وَاجْتَهَـدَ فِي أَنْ يُحِـبَّ ، فَوَجَـدَ فِـي ابْنَـةِ عَمِّـهِ مَرْيَـمَ مَـا يُرْضِـي هَـذِهِ الرَّغْبَـةَ . إِنَّـهُ شَـعُرَ فِـي تِلْـكَ اللَّيْلَـةِ بِأَنَّـهُ فَـارَقَ رِفَاقَـهُ ، فَسُـلِبَتْ عَنْـهُ عَفْوِيَّتُـهُ وَأَصْبَـحَ يَـرَى الأَشْـيَاءَ بِغَـيْرِ النَّظْـرَةِ الَّتِـي كَـانَ بِهَـا يَرَاهَـا لِأَنَّهَـا أَصْبَحَـتْ

مُضْطَرِبَةً لاَ تَخْضَعُ إِلَى أيِّ مِقْيَاسٍ .تَذَكَّرَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ مِنِ ابْنَةِ عَمِّهِ وَأَمْسَكَ بِيَدِهَا ، وَنَظَرَ فِي عَيْنَيْهَا الْوَاسِعَتَيْنِ وَضَمَّهَا إِلَيْهِ فَلَمْ تُمَانِعْ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا وَلَمْ تَقُلْ هِيَ شَيْئًا . وَذَهَبَ فِي ظَنِّهِ أَنَّهَا تُحِبُّهُ وَأَنَّهُ يُحِبُّهَا حَتَّى فَارَقَ قَرْيَتَهُ بَعْدَ أَيَّامٍ .

وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَهْوَ فِي هَذِهِ السَّاحَةِ الْمُظْلِمَةِ حَاوَلَ أَنْ يَتَذَكَّرَ مَلاَمِحَ مَرْيَمَ وَيَعْرِفَ هَلْ أَنَّ عَيْنَيْهَا زَرْقَاوَان أَمْ شَهْلَوَان فَلَمْ يُفْلِحْ ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَصَوَّرَهَا كَمَا هِيَ فَلَمْ يَتَوَفَّقْ ، وَسَاءَلَ نَفْسَهُ هَلْ أَنَّهُ سَيَعْرِفُهَا لَوْ وَقَفَتْ أَمَامَهُ أَمْ سَيَرَاهَا غَرِيبَةً عَنْهُ . بَقِيَ مُحْتَارًا لاَيَعْرِفُ هَلْ أَنَّ هَذَا مِنْ آثَارِ الْحُبِّ أَمْ هُوَ مِنْ تَأْثِيرِ تَغَيُّرِهِ وَخُرُوجِهِ مِنْ سَذَاجَتِهِ وَعَفْوِيَّتِهِ وَخَوْضِهِ فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ الأَخِيرَةِ خِضَمًّا مِنَ الأَحْدَاثِ وَالْمَوَاقِفِ الْمُنْهِكَةِ . وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ شَعُرَ بِهَا فِي فَتْرَةٍ حَاسِمَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ عِنْدَمَا شَارَفَ السَّادِسَةَ مِنْ عُمُرِهِ وَبَقِيَتْ كَامِنَةً تَنْمُو فِي بَاطِنِهِ حَتَّى انْفَجَرَتْ صَارِخَةً فِي لَيْلَةِ حُبِّهِ .

نَعَمْ كَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ أَفَاقَ فِيهِ عَلِي مَذْعُورًا مِنْ حُلْمٍ مُرْعِبٍ . لَقَدْ رَأَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ أَنَّ مَوْجَ الْبَحْرِ طَفِقَ يَعْلُو شَيْئًا فَشَيْئًا وَأَخَذَ عَلِي يَتَعَلَّقُ بِعُنُقِ جَمَلِهِ الْمُحَبَّبِ إِلَيْهِ هَرَبًا مِنَ اللُّجَجِ الْمُتَعَاظِمَةِ . وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَإِذَا بِهَا تَقْتَرِبُ مِنَ الأَرْضِ وَيَعُمُّهَا سَوَادٌ مُفْجِعٌ . فَتَعْظُمُ الشَّمْسُ فِيهَا وَتَتَحَرَّكُ ثُمَّ تُسْرِعُ فِي الْحَرَكَةِ ثُمَّ تَجْرِي إِلَى أَنْ تَسْتَقِرَّ بِالْبَحْرِ وَتَنْطَفِئُ فِيهِ .فَتَشْتَدُّ حَرَارَةُ الْمَاءِ وَيَتَعَاظَمُ الْمَوْجُ فَيَقْتَرِبُ مِنْ قُبَّةِ السَّمَاءِ وَتَتَزَحْزَحُ السَّمَاءُ وَتَدْنُو مِنْهُ . ثُمَّ يَلْتَقِيَان فِي صَخَبٍ وَلَجَبٍ وَحَرَارَةٍ مُتَنَاهِيَةٍ وَيَتَشَبَّثُ عَلِي فِي مَرَارَةٍ بِعُنُقِ الْحَيَوَانِ وَيُحَاوِلُ رُكُوبَهُ وَإِذَا بِهِ يَلْمَحُ مُؤَدِّبَ الْقَرْيَةِ مُنْتَصِبًا فَوْقَ الْجَمَلِ مُتَحَدِّيًا الْمَوْجَ : الْوَجْهُ

مُتجَهِّمٌ وَالْجَبِينُ مُقطَّبٌ وَالْعَيْنُ حَوْلاَءُ مُخِيفَةٌ ، فَيُنَادِيهِ عَلِي وَيَمُدُّ إِلَيْهِ يَدَهُ وَلَكِنَّ الْمُؤَدِّبَ يَرْكُلُهُ بِقُوَّةٍ فَيَصْرَخُ عَلِي بَاكِيًا وَيَهْدِرُ الْجَمَلُ إِعْيَاءً ثُمَّ تَغْمُرُهُمَا اللُّجَّةُ .

أَفَاقَ مَذْعُورًا فَوَجَدَ نَفْسَهُ يَمُوجُ عَرَقًا وَالدَّمْعُ يَسِيلُ مِنْ مَآقِيهِ وَالْعَبْرَةُ تَتَرَجْرَجُ فِي حَلْقِهِ . وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَغَمَرَهُ نُورُ الشَّمْسِ وَقَدْ ظَهَرَتْ كِسْرَةٌ مِنْهَا مِنَ الْكُوَّةِ الْمُقَابِلَةِ . وَنَظَرَ إِلَى مَدْخَلِ الْغُرْفَةِ وَهْيَ غُرْفَةُ الْعَائِلَةِ بِأَجْمَعِهَا فَلَمَحَ رَأْسَ جَمَلِهِ يَمِيلُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، هَادِئَ الْمَظْهَرِ ، رَضِيَّ النَّفْسِ ثُمَّ انْتَهَى بَصَرُهُ إِلَى رُكْنٍ قَصِيٍّ مِنَ السَّاحَةِ قُرْبَ قِسْمِ مَرَافِقِ الْبَيْتِ فَوَجَدَ أُمَّهُ فِي حَيَوِيَّتِهَا الْمَعْهُودَةِ تُوقِدُ الْفُرْنَ فَيَتَصَاعَدُ الدُّخَانُ وَيَنْتَشِرُ. ثُمَّ أَمَرَّ نَظْرَهُ عَلَى كُلِّ مَا فِي الْغُرْفَةِ مِنْ جِرَارٍ وَأَوَانٍ وَفُرُشٍ ، إِذِ الْغُرْفَةُ وَهْيَ الْكَبِيرَةُ كِبَرًا غَيْرَ مَعْهُودٍ ، بِمَثَابَةِ الْمَنْزِلِ فِي دَارِ الْجَمَاعَةِ حَوَتْ كُلَّ مَا تَمْلِكُهُ عَائِلَتُهُ الصَّغِيرَةُ . فَاطْمَأَنَّ عِنْدَ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ وَاطْمَأَنَّ لِجَمَلِهِ وَأَنِسَ إِلَى الشَّمْسِ وَارْتَاحَ لِرُؤْيَةِ أُمِّهِ وَانْشَرَحَ صَدْرُهُ لِأَثَاثِ الْغُرْفَةِ . فَكَأَنَّ الْحَيَاةَ ، بَعْدَ أَنْ فَارَقَتْهُ فِي حُلْمِهِ ، أَخَذَتْ تَدِبُّ فِي جِسْمِهِ دَبِيبًا فَانْتَعَشَ وَخَفَّ عَنْهُ ذُعْرُهُ وَهَدَأَ خَوْفُهُ وَتَيَقَّنَ أَنَّ مَا أَلَمَّ بِهِ إِنَّمَا هُوَ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ .

نَزَلَ مِنَ الدُّكَّانَةِ وَوَقَفَ فِي عَتَبَةِ الْبَابِ قُبَالَةَ الْجَمَلِ . وَنَظَرَ إِلَيْهِ ثُمَّ تَعَلَّقَ بِعُنُقِهِ وَأَخَذَ يَتَأَرْجَحُ فِي غِبْطَةٍ وَسُرُورٍ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى تَحَوَّلَ بَصَرُهُ إِلَى سَنَامِ الدَّابَّةِ فَتَجَهَّمَ وَجْهُهُ وَتَذَكَّرَ حُلْمَهُ الْمُرْعِبَ وَوَجْهَ الْمُؤَدِّبِ الْعَابِسَ وَعَيْنَهُ الْحَوْلاَءَ الْمُخِيفَةَ وَنَظْرَتَهُ الْقَاسِيَةَ . هِيَ نَفْسُ النَّظْرَةِ الَّتِي صَوَّبَهَا الْمُؤَدِّبُ نَحْوَهُ أَمْسِ حِينَ كَانَ يَجْمَعُ الْفُولَ فِي الْحَقْلِ . وَمُؤَدِّبُ الْقَرْيَةِ شَغُوفٌ بِالْفُولِ وَالسَّقْيِ وَرِعَايَةِ شُجَيْرَاتِهِ

الصَّغِـيرَةِ . فَكَـانَ يَـوْمُ أَمْـسِ هُـوَ نِهَايَـةُ التَّعَـبِ إِذْ قَـرَّرَ الْمُـؤَدِّبُ جَمْـعَ مَحْصُولِـهِ . فَـانْحَنَى عَلِي مِثْـلَ أَقْرَانِــهِ يُفَـــتِّشُ عَـنْ قَـرْنِ الْفُـولِ فِـي كُـلِّ شُـجَيْرَةٍ . وَانْتَصَـبَ الْمِـدَّب الْفَـالِت يُشَـجِّعُ تَلامِذَتَـهُ وَمَـرَّ بِـالْقُرْبِ مِـنْ عَلِـي وَابْتَسَمَ لَهُ مِثْلَ عَادَتِهِ وَقَالَ :

ـ هَلْ حَصَلْتَ عَلَـى الْكَثِـيرِ يَـا سِـي عَلِـي

وَكَـانَ مُؤَدِّبُـهُ يَدْعُـوهُ بِسِـي عَلِـي مِثْـلَ جَمِيـعِ النَّـاسِ تَقْدِيـرًا لِأَبِيـهِ وَكَـانَ عَلِـي يَعْـزُو ذَلِـكَ إِلَـى إِتْقَانِـهِ لِحِفْـظِ الْقُـرْآنِ وَمُثَابَرَتِـهِ عَلَـى الْعَمَـلِ الْمَطْلُـوبِ مِنْـهُ . أَجَـابَ الطِّفْـلُ عَلَـى سُـؤَالِ الْمُـؤَدِّبِ وَهْـوَ يُعَـالِجُ شُـجَيْرَةً أَطْـوَلَ مِـنَ الأُخْرَيَاتِ وَلَمْ يُرْضِهِ مَا وَجَدَهُ فِيهَا مِنْ فُولٍ :

ـ الطَوِيـلُ لاَ يَحْصَـلُ

وَكَـانَ الْمِـدَّب الْفَـالِت طَوِيـلَ الْقَامَـةِ عَظِيـمَ الْهَامَـةِ عَرِيـضَ الْمَنْكِبَيْـنِ وَقُـورًا كَمَـا يُقَـالُ فِـي الأَدَبِ الْبَلِيـغِ . فَنَظَـرَ إِلَـى عَلِـي شَـزْرًا وَازْوَرَّ عَنْـهُ حَنِقًـا ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ هَذَا الطِّفْـلَ الصَّغِـيرَ الَّـذِي لَـمْ يَتَجَـاوَزْ الثَّامِنَـةَ مِـنَ الْعُمُـرِ قَـدْ عَـرَّضَ بِـهِ . . تَذَكَّـرَ عَلِـي كُـلَّ ذَلِـكَ فَكَـفَّ عَـنِ التَّـأَرْجُحِ وَفَطِـنَ إِلَـى أَنَّـهُ أَبْطَـأَ فِـي الذَّهَـابِ إِلَـى الْكُتَّـابِ . فَجَـرَى يَغْسِـلُ وَجْهَـهُ فِـي إِنَـاءٍ مَوْجُـودٍ فِـي الزَّرِيبَـةِ وَهْـوَ يُبْعِـدُ الدَّجَـاجَ تَـارَةً وَيُطْـرِدُ الـدَّوَابَّ أُخْـرَى وَأُمُّـهُ تَصِيـحُ بِـهِ أَلاَّ يَفْعَـلَ ذَلِـكَ فِـي هَـذَا الْمَـاءِ . وَمَسَـحَ وَجْهَـهُ بِسُـرْعَةٍ وَمَـرَّ بِجَـدِّهِ فِـي الْمَقْعَـدِ فَقَبَّلَـهُ ثُـمَّ جَرَى إِلَـى الْبَـابِ وَخَـرَجَ

سَـارَ فِـي الطَّرِيـقِ الْمُؤَدِّيَـةِ إِلَـى الْكُتَّــابِ وَحَـاوَلَ أَنْ يُسْـرِعَ فِـي خَطْـوِهِ وَلَكِنَّهُ أَحَـسَّ لِـأَوَّلِ مَـرَّةٍ بِانْقِبَـاضٍ فِـي نَفْسِـهِ وَبِتَثَـاقُلٍ فِـي خَطْـوِهِ . لَقَـدْ أَثَّـرَتْ فِيهِ نَظْـرَةُ مُؤَدِّبِـهِ وَتَـرَكَ الْحُلْـمُ فِـي نَفْسِـهِ أَنْوَاعًـا مِـنَ الْخَـوْفِ وَالرُّعْـبِ وَلَكِنَّـهُ

طَمْأَنَ نَفْسَـهُ إِذْ عَائِلَتُـهُ كُلُّهَـا تُحِبُّـهُ كَثِـيرًا وَقْتَـذَاكَ : جَـدُّهُ وَعَمُّـهُ وَإِخْوَتُـهُ وَأَبُوهُ الْمُوَظَّـفُ الْكَبِـيرُالْمُحْتَرَمُ فِـي بَلْدَتِـهِ رَغْـمَ غِيَابِـهِ الطَّوِيـلِ .

مَـرَّ بِالْمَكَـانِ الَّـذِي يَلْتَقِـي فِيـهِ بِأَصْدِقَائِـهِ الثَّلاَثَـةِ ، حَمَّـةَ وَالصَّـادِقِ وَعَبْدَاللَّهِ . وَجَـسَّ جَيْبَـهُ فَوَجَـدَ ذَخِيرَةَ التِّبْـغِ الَّتِـي اتَّفَـقَ ثَلاَثَتُهُـمْ عَلَـى أَنْ تَبْقَـى عِنْـدَهُ لِـأَنَّ الْمُـؤَدِّبَ لَـهُ ثِقَـةٌ عَظِيمَـةٌ فِيـهِ فَـلاَ يَتَطَـرَّقُ إِلَيْـهِ الشَّـكُّ فِـي شَـأْنِهِ . وَمَـرَّتْ صُوَرُهُـمْ بِذِهْنِـهِ فَاطْمَـأَنَّ لَهَـا وَوَجَـدَ فِيهَـا مَـا يُهَـوِّنُ عَلَيْـهِ وَحْشَـتَهُ فِـي هَـذَا الْيَـوْمِ . وَرَغْـمَ تَفَـاوُتِ السِّـنِّ بَيْنَـهُ وَبَيْنَهُـمْ فَقَـدْ رَضُـوهُ صَدِيقًـا لَهُـمْ وَمَحَـلَّ ثِقَتِهِـمْ : يُطْلِعُونَـهُ عَلَـى كُـلِّ مَـا يَـدُورُ بِخَلَدِهِـمْ وَيُدَخِّنُـونَ مَعَـهُ لُفَافَاتِ التِّبْغِ فِي خَمِيلَـةٍ مُظْلِمَـةٍ تَقَـعُ عَلَـى حَافَّـةِ الطَّرِيـقِ .

لَقَـدِ اتَّصَـفَ بِـالصَّمْتِ وَالاِقْتِصَـادِ فِـي الْكَـلاَمِ فَهْـوَ وَإِنْ بَـادَلَهُمُ الْحَدِيـثَ فَبِمِقْـدَارٍ ، وَإِنْ لَهَـا أَوْ عَبَـثَ فَـإِلَى حَـدٍّ مَحْـدُودٍ . وَلِهَـذَا فَكَثِـيرًا مَـا يَتَـأَخَّرُ عَنْهُـمْ فِـي الطَّرِيـقِ وَيَتَـأَثَّرُ خُطَاهُمْ وَقَـدْ ذَهَـبَ بِـهِ الْخَيَـالُ إِلَـى أَبْعَـدِ حَـدٍّ ، وَانْتَهَـى بِـهِ التَّفْكِـيرُ إِلَـى مَجَـاهِلَ هُـوَ نَفْسُـهُ عَـاجِزٌ عَـنْ تَوْضِيحِهَـا ؛ وَمَـا ذَنْبُـهُ وَهْـوَ ذَاكَ الطِّفْـلُ الصَّغِيرُ الَّـذِي لَيْـسَ لَـهُ مِـنِ اتِّسَـاعِ الآفَـاقِ مَـا يَسْـمَحُ لَـهُ بِـالتَّحْلِيقِ فِـي أَجْـوَاءِ عَالِيَـةٍ اللَّهُـمَّ إِلاَّ مَـا تُوحِـي إِلَيْـهِ بَعْـضُ الآيَـاتِ الْقُرْآنِيَّـةِ الْمَفْهُومَـةِ مِـنْ وَصْـفٍ لِلْجَنَّـةِ وَتَصْوِيـرٍ لِجَهَنَّـمَ وَذِكْـرٍ لِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ وَمَـا تُلْهِمُـهُ الأَسَاطِيرُ وَالْخُرَافَـاتُ الشَّعْبِيَّـةُ مِـنْ تَصَـوُّرَاتٍ خَالِيَـةٍ مِـنْ كُـلِّ مَعْنًـى عَمِيـقٍ .

اِقْـتَرَبَ مِـنَ الْكُتَّـابِ فَعَلَـتْ الضَّجَّـةُ وَكَـثُرَ الصِّيَـاحُ فَـأَحَسَّ عَلِـي بِوَخْـزَةٍ فِـي قَلْبِـهِ وَقَـالَ فِـي نَفْسِـهِ إِنَّ كُـلَّ شَـيْءٍ يُـؤْذِنُ بِالْكَارِثَـةِ . لاَ مَنَـاصَ الْيَـوْمَ مِـنَ الْعِقَـابِ : الْحُلْـمُ الْمُرْعِـبُ ثُـمَّ غَضَـبُ الْمُـؤَدِّبِ وَهَـذَا التَّـأَخُّرُ ، لاَ بُـدَّ أَنْ

يَكُونَ لِكُلٍّ هَذَا نَصِيبٌ مِنَ الصِّحَّةِ ، لاَ بُدَّ أَنْ يَتحقَّقَ الْحُلْمُ .وَأَخَذَ يَقْرَأُ آيَاتِ الْكُرْسِيِّ فِي خُشُوعٍ وَاسْتِسْلاَمٍ لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لا مَثِيلَ لَهُمَا .

* * *

أَطَلَّ عَلِي مِنْ بَابِ الْكُتَّابِ وَخَلَعَ حِذاءَهُ ثُمَّ انْحَنَى يَلْتَقِطُ لَوْحَتَهُ وَأَرَادَ أَنْ يَمِيلَ بِهَا إِلَى رُكْنٍ بَعِيدٍ عَنِ الْمُؤَدِّبِ فَنَادَاهُ الْمِدِّب الْفَالِتْ وَابْتَسَمَ لَهُ وَقَالَ :

ـ أَظُنُّ سِي عَلِي تَعِبَ مِنْ أَشْغَالِ أَمْسِ . اِقْتَرِبْ خُذْ مَكَانَكَ الْمُعْتَاد .

اِرْتَاحَ عَلِي لِهَذِهِ الْبَادِرَةِ وَعَزَاهَا إِلَى التَّقْدِيرِ الَّذِي يُكِنُّهُ لَهُ مُؤَدِّبُهُ . وَجَلَسَ أَمَامَهُ ثُمَّ الْتَفَتَ فَلَمَحَ حَمَّة وَهْوَ فِي آخِرِ الصَّفِّ مُشْتَغِلٌ بِلَعِبِ الْخَرْبَقَةِ مَعَ أَحَدِ الرِّفَاق . وَالْمُؤَدِّبُ لاَيَهْتَمُّ كَثِيرًا بِمَا يَقُومُ بِهِ حَمَّة مِنْ أَعْمَالٍ إِذْ هُوَ الْمَسْؤُولُ الثَّانِي عِنِ الْكُتَّابِ وَهْوَ صَاحِبُ الشُّرْطَةِ وَهْوَ الَّذِي يُشْرِفُ عَلَى مَوْسِمِ الْفُولِ وَيَسْهَرُ عَلَى كُلِّ شُؤُون هَذِهِ الْمُؤَسَّسَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الدُّرُوسِ . وَلاَغَرْوَ أَنْ تَكُونَ مِرْآةً لِكُلِّ مُؤَسَّسَاتِ الْبِلاَدِ السُّلْطَوِيَّةِ . فَيَتَرَبَّى النَّابِتَةُ عَلَى نَسَقٍ هُوَ السَّائِدُ مُنْذُ الأَحْقَابِ . الطَّاعَةُ ثُمَّ الطَّاعَةُ ثُمَّ الطَّاعَةُ وَلاَشَيْءَ غَيْرُذَلِكَ إِزَاءَ كُلِّ سُلْطَةٍ وَكُلِّ مَنْ يُمَثِّلُهَا . وَفِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ يَكُونُ مُؤَدِّبُنَا فِي حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ مُمْتَازَةٍ : فَتَرَاهُ يُصْلِحُ هِنْدَامَهُ وَيَحْلِقُ لِحْيَتَهُ كُلَّ يَوْمٍ وَيُمَازِحُ التَّلاَمِذَةَ وَيُعْرِضُ عَنِ الْعَصَا وَالْفَلْقَةِ . فَلاَ غَرْوَ أَنْ يَكُونَ حَمَّة عَاطِلاً مِنْ كُلِّ عَمَلٍ أَثْنَاءَ الدَّرْسِ ، وَلاَ غَرْوَ أَنْ يَنْكَبَّ عَلَى الْخَرْبَقَةِ يَشْحَذُ بِهَا قَرِيحَتَهُ الْمَكْدُودَةَ مَعَ رَفِيقٍ يَخْتَارُهُ هُوَ . فَمَكَانَتُهُ بَيْنَ أَوْلاَدِ الْكُتَّابِ كَبِيرَةٌ وَخَوْفُهُمْ مِنْهُ

وتقديرُهِمْ لَهُ أَشَدُّ وَأَكْبَرُ .فَلَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ فِي شَيْءٍ الاِسْتِخْفَافُ بِهِ أَوْ إِغْضَابُهُ فِي أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ لِأَنَّ الْعَاقِبَةَ تَكُونُ وَخِيمَةً

وَلَوْ نَظَرْتَ إِلَيْهِ نَظْرَةً خَاطِفَةً لَهَالَكَ هُزَالُهُ الْمُشِينُ وَلَتَعَجَّبْتَ مِنْ نَحَافَةِ وَجْهِهِ كَأَنَّهُ الْمُوسَى وَاسْتَغْرَبْتَ صِغَرَ عَيْنَيْهِ وَدِقَّةَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ؛ وَإِنْ لَمَحْتَهُ يَمْشِي وَجَدْتَهُ مُخْتَلِجَ الْخَطْوِ يَتَسَاقَطُ تَسَاقُطًا تَكَادُ تُقْسِمُ أَنَّهُ سَيُعَانِقُ التُّرَابَ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا . أَمَّا لَوْ أَسْعَفَكَ الْحَظُّ وَشَاهَدْتَهُ فِي الْكُتَّابِ يَصُولُ وَيَجُولُ لَكَانَ عَجَبُكَ أَكْبَرَ وَدَهْشَتُكَ أَشَدَّ . إِنَّكَ تَنْسِبُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى الْقُوَّةِ الْجَبَّارَةِ وَالْحَيَوِيَّةِ الْمُتَنَاهِيَةِ . وَتَفْهَمُ أَنَّهُ هُوَ دِعَامَةُ الْكُتَّابِ وَأَيَّةُ دِعَامَةٍ . فَهْوَ الْقُوَّةُ الَّتِي تُخِيفُ وَالْيَدُ الَّتِي تَقْبِضُ ولا ترْحَم . هُوَ موضِع سِرِّ الْمِدَبِّ الْفَالِت وَسَيْفُ نَقْمَتِهِ . فَكَأَنَّهُ خُلِقَ لِيَفْهم ما يُخْفِيهِ صدر سَيِّدِهِ . وَتَرَاهُ يُعَلِّقُ قُرُونَ الْفُولِ فِي سَقْفِ الْكُتَّابِ وَإِذَا بِهَا تَتَدَلَّى وَهْيَ فِي اخْضِرَارِهَا لِتَشْرَحَ صَدْرَ مُؤَدِّبِنَا وَتَبْعَثَ فِي نَفْسِهِ الرَّاحَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ . وَلاَ يَفُوتُهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى الْجِدَارِ قَرِيبًا مِنَ السَّقْفِ بِالْفَحْمِ وَبِالْخَطِّ الْغَلِيظِ وَبِأَحْرُفٍ بِدَائِيَّةٍ كَأَنَّهَا قُرُونُ فُول : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ

أَمَّا مُؤَدِّبُنَا فَقَدْ بَحَثَ طَوِيلاً عَنْ آيَةٍ ذُكِرَ فِيهَا الْفُولُ فَلَمْ يَعْثُرْ عَلَيْهَا وَهْوَ الْمُؤْمِنُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ حَوَى كُلَّ شَيْءٍ . وَكَانَ لاَ يَرْتَاحُ كَثِيرًا إِلَى آيَةِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُون ...وَيَقُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ : كَيْفَ يَكُونُ الْقَسَمُ بِهَاتَيْنِ الثَّمْرَتَيْنِ وَيُغْفَلُ عَنْ فاكِهَةٍ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أَنْفَعُ وَأَجَلُّ وَأَسْمَى . فَهْيَ صَالِحَةٌ لِأَلْوانٍ مِنَ الطَّعَامِ ، مُغَذِّيَةٌ وَهْيَ إِنْ عَزَّتِ الْمُكَسَّرَاتُ حَلَّتْ مَحَلَّهَا وَهْيَ مَشْوِيّة وَفَوَائِدُهَا لاَ تُحْصَى وَلاَ تُعَدُّ .وَلَكِنَّهُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ لَمْ يَسْتَسْلِمْ وَأَخَذَ يَبْحَثُ حَتَّى وَجَدَ ضَالَّتَهُ فِي آيَةٍ قَرَأَهَا قِرَاءَةً شَاذَّةً

وَهُوَ الّذِي زَعَمَ أَنَّهُ عَرَفَ عِلْمَ الْقِرَاءَاتِ وَدَرَّسَهُ لَهُ بَعْضُ شُيُوخِهِ وَيَظْهَرُ أَنَّهُ لاَ يَفْهَمُ شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ هَذَا الْعِلْمِ الْجَلِيلِ . وَنَبَّهَهُ بَعْضُ أَصْدِقَائِهِ وَعَدَدٌ مِنَ الأَوْلِيَاءِ وَلَكِنَّهُ تَمَسَّكَ بِجَوَازِ الاجْتِهَادِ فِي الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَخْطَأَ فَلَه أَجْرٌ وَاحِدٌ . وَعَلَى كُلٍّ فَغُنْمُهُ حَاصِلٌ مَهْمَا كَانَ الأَمْرُ . وَاعْتَبَرَ جُلُّ الْعَارِفِينَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَنَّ ذَلِكَ بَعْضًا مِنْ حَمَاقَاتِ الْمُؤَدِّبِينَ وَأَوْصَوْا أَبْنَاءَهُمْ بِالْقِرَاءَةِ الصَّحِيحَةِ فَامْتَثَلُوا لِذَلِكَ خُصُوصًا أَنَّ الْمُؤَدِّبَ لاَ يُلِحُّ بَلْ يَكْتَفِي بِالامْتِعَاضِ وَلاَ يَتَعَنَّتُ فِي التَّصْوِيبِ عَلَى قِرَاءَتِهِ وَشَذَّ بَعْضُ الْخُبَثَاءِ أَوِ اللّحَّاسَةِ جِبِلَّةً وَمُنْذُ الصِّغَرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُرْضُونَ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ حَمَاقَتَهُ .

كَانَ يَتْلُو : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَ قِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا﴾ وَعِوَضًا عَنْ فُومِهَا يَقْرَأُ فُولِهَا . فَتَرَاهُ إِذَا تَلاَ بَعْضُ الْخُبَثَاءِ أَوِ اللّحَّاسَةِ الآيَةَ عَلَى قِرَاءَتِهِ يُمْسِكُ بِطَرَفِ أُذُنِهِ وَيَمِيلُ بِهَا إِلَى مَصْدَرِ الصَّوْتِ حَتَّى يَلْتَذَّ بِتِلْكَ اللاَّمِ فَيَتَمَلْمَلُ فِي مَكَانِهِ وَتَتَطَلَّقُ أَسَارِيرُهُ وَيَفْتَرُّ فَمُهُ عَنْ أَسْنَانٍ بَرَّاقَةٍ لَمَّاعَةٍ حَاذِقَةٍ لِكَسْرِ شَوْكَةِ الْفُولِ الْيَابِسِ الْمَشْوِيِّ . ثُمَّ يَسْتَزِيدُ وَيَسْتَزِيدُ وَالطِّفْلُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يُكَعْبِرُ لِسَانَهُ بِاللاَّمِ إِلَى أَنْ يُحِسَّ بِهِ وَقَدْ تَرَضَّضَ مِنْ فَرْطِ احْتِكَاكِهِ الشَّدِيدِ بِأَسْنَانِهِ ، فَتَضْعُفُ نَبْرَةُ اللاَّمِ وَيَزْوَرُّ عَنْهُ الْمُؤَدِّبُ وَتَضِيعُ النَّشْوَةُ الأُولَى . وَانْتَهَى الأَمْرُ إِلَى نُدْرَةِ مَنْ يَتْلُو الآيَةَ بِتِلْكَ الْقِرَاءَةِ الْخَاطِئَةِ إِلاَّ مَنْ اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ اضْطِرَارًا لِيَنْجُوَ مِنَ الْعَصَا وَالْفَلْقَةِ ، وَالْعُنْفُ كَالْجُوعِ كَافِرٌ بِاللَّهِ وَبِالإِنْسَانِ يَدْفَعُ الْمَرْءَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ إِنْسَانِيَّتِهِ فَيَنْحَدِرُ بِهِ قِيَمِيًّا إِلَى أَحَطِّ دَرَكَاتِ الْبَشَاعَةِ وَالْقُبْحِ وَالدَّمَامَةِ

وَلَكِنْ إِنْ مَالَتْ قُرُونُ الْفُولِ الْمُتَدَلِّيَةِ إِلَى السَّوَادِ فَإِنَّ الْعَاصِفَةَ تَهُبُّ ، وَالرِّيحَ تَعْصِفُ عَاتِيَةً ، وَالْعَصَا تَقْتَرِبُ مِنَ الْمُؤَدِّبِ ، وَالْفَلْقَةُ تَدْنُو مِنْ حَمَّة ، وَتَكُونُ الْكَوَارِثُ ، وَهْيَ أَصْعَبُ فَتْرَةٍ يَجْتَازُهَا تَلاَمِيذُ الْكُتَّابِ . وَفِيهَا يُهْمِلُ الْمُؤَدِّبُ مِنْ شَأْنِهِ ، وَيَنْسَى حَلْقَ لِحْيَتِهِ إِلاَّ عِنْدَمَا تَطُولُ ، وَأَثْنَاءَهَا يَنْتَصِبُ حَمَّة فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ وَهْوَ عَلَى أُهْبَةِ الاِنْقِضَاضِ عَلَى فَرِيسَتِهِ : الْعَيْنُ الْحَوْلاَءُ سَاهِرَةٌ لاَتَنَامُ ، وَالْيَدُ مُتَشَنِّجَةٌ لاَ تَرْتَاحُ وَلاَ تُرِيحُ . وَكَانَ التَّلاَمِذَةُ يَتَنَدَّرُونَ بِإِيعَازٍ مِنْ أَحَدِ أَقْرَانِهِمْ النُّبَهَاءِ وَأَصْحَابِ الرُّوحِ النَّقْدِيَّةِ الْمَرِحَةِ فَيُرَدِّدُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْخُبْثِ وَالشَّمَاتَةِ :دَوْلَةُ سِيدِي الْمِدِّب دَوْلَةُ فُولٍ لاَ مِشْمِشٍ .

اِنْقَضَى الْيَوْمُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ وَخَرَجَ أَرْبَعَتُهُمْ ، حَمَّة وَالصَّادِق وَعَبْدَاللّه وَعَلِي ، وَهُمْ فَرِحُونَ بِزَوَالِ كُلِّ رَقَابَةٍ وَتَفَرُّغِهِمْ لِلَّعِبِ . فَحَمَّة لَمْ يُجْهِدْ نَفْسَهُ كَثِيرًا وَعَلِي قَدْ تَحَصَّنَ بِآيَاتِ الْكُرْسِيِّ فَأَزَالَ اللَّهُ عَنْهُ غَضَبَ الْمُؤَدِّبِ وَوَقَاهُ شَرَّ ذَلِكَ الْحُلْمِ الْمُرْعِبِ ، وَعَبْدَ اللّه نَامَ طَوِيلاً وَرَاءَ لَوْحَتِهِ وَنَجَا كَالْعَادَةِ مِنْ عَاقِبَةِ الاِسْتِظْهَارِ بِحِيلَةٍ ظَرْفِيَّةٍ يَسْتَنْبِطُهَا حَمَّة فِي كُلِّ يَوْمٍ . أَمَّا الصَّادِق فَإِنَّهُ خَرَجَ مُجْهَدًا كَشَأْنِهِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ ؛ هُوَ أَسْمَرُ شَدِيدُ السُّمْرَةِ ، مُسْتَدِيرُ الْوَجْهِ ، رَقِيقُ الأَنْفِ ، حُلْوُ الْعَيْنَيْنِ ، فِي شَمَائِلِهِ مَخَايِلُ مِنَ الْجَمَالِ وَفِي وَقْفَتِهِ بَقَايَا نُبْلٍ مَوْرُوثَةٍ ، وَفِي نَظْرَتِهِ عَلاَمَاتُ الذَّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ . وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ طَرَأَ عَلَيْهِ وَتَيَقَّنَ أَنَّ فَتْرَةَ الطُّفُولَةِ قَدِ انْقَضَتْ وَأَنَّهُ الآنَ يُحِسُّ بِنَفْسِهِ رَجُلاً مُكْتَمِلَ الرُّجُولَةِ . وَعَلَى هَذِهِ الْمُعْطَيَاتِ الْجَدِيدَةِ فَارَقَ الصَّفَّ الأَمَامِيَّ وَتَسَلَّحَ بِلَوْحَةٍ عَرِيضَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَتَوَارَى عَنْ نَظَرِ الْمُؤَدِّبِ ، وَأَصْبَحَ يَنْتَصِبُ وَرَاءَ كُلِّ مَنْ نَضَرَ وَجْهُهُ وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلاَمَاتُ الْغَضَارَةِ وَالرِّقَّةِ ،

فَتَرَاهُ يَقْتَرِبُ مِنْهُ فِي لُطْفٍ وَيُسِرُّ فِي أُذُنِهِ عِبَارَاتٍ ـ اللَّهُ أَعْلَمُ وَالطِّفْلُ عَلَى عِلْمٍ بِهَا وَلاَ شَكَّ ـ فَإِنِ ابْتَسَمَ لَهَا صَاحِبُهُ وَرَضِيَهَا تَمَادَى فِي غِيِّهِ، وَإِنْ سَخِطَ عَلَيْهِ أَوْ أَبْدَى امْتِعَاظًا فَسُرْعَانَ مَا يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانِهِ فِي رِفْقٍ وَتُؤَدَةٍ لِيُعِيدَهَا كَرَّةً ثَانِيَةً مَعَ خَدِينٍ آخَرَ. فَلاَ يَنْفَكُّ طِيلَةَ يَوْمِهِ فِي مَدٍّ وَزَجْرٍ وَفِي طَوَافٍ وَإِحْرَامٍ وَهَمْزٍ وَلَمْزٍ وَحَرَكَاتٍ مُرِيبَةٍ حَتَّى تَنْقَضِي الْحِصَّةُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ بِفَضْلِ رِعَايَةِ حَمَّة. وَلَكِنَّ حَمَّة أَصْبَحَ مُتَحَرِّجًا مِنْهُ إِذْ عَلَيْهِ تَخْلِيصُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ غَضَبِ الْمُؤَدِّبِ. وَلاَحَظَ عَلَيْهِ تَغْيِيرًا جَذْرِيًّا فِي طِبَاعِهِ وَعَادَاتِهِ وَكَلاَمِهِ. وَأَضْحَى زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ يُدَخِّنُ أَكْثَرَ مِنْ لُفَافَةٍ فِي الْيَوْمِ وَيَطْمَعُ فِي قِسْطِ عَلِي فَيَفْتَكُّهُ مِنْهُ وَيَقُولُ لَهُ: مَازِلْتَ صَغِيرًا.

* * *

تَذَكَّرَ عَلِي أَنَّهُ مَرَّتْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الظَّرْفِ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ لَمْ يَحْدُثْ فِيهَا شَيْءٌ جَدِيدٌ. غَيْرَ أَنَّهُ بَقِيَ مُضْطَرِبًا مُلاَزِمًا الصَّمْتَ، مُعْرِضًا عَنْ كُلِّ لَعِبٍ وَعَبَثٍ. وَاسْتَيْقَظَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ عَلَى صَوْتٍ مُزْعِجٍ، فَذُعِرَ مِنْ ذَلِكَ وَانْتَصَبَ قَائِمًا وَإِذَا بِأُمِّهِ تَأْتِيهِ فِي حَالَةٍ لَمْ يَرَهَا فِيهَا أَبَدًا وَقَالَتْ لَهُ:

ـ بُوكْ مَاتْ.

وَانْقَلَبَتْ تَنْدُبُ وَتُعْوِلُ مُنْضَمَّةً إِلَى حَلْقَةٍ مِنَ النِّسَاءِ فِي وَسَطِ الدَّارِ. وَهَالَهُ مَا رَأَى مِنْ خُدُودٍ مُجَرَّحَةٍ وَ عُيُون مُنْتَفِخَةٍ حَمْرَاءَ تَدِرُّ بِوَابِلٍ مِنَ الدُّمُوعِ. فَتَأَثَّرَ مِنْ هَذَا الْمَنْظَرِ أَكْثَرَ مِنْ تَأَثُّرِهِ بِخَبَرِ الْمَوْتِ. وَلِمَاذَا يَتَأَثَّرُ وَهُوَ لَمْ يَرَ أَبَاهُ كَثِيرًا فِي طُفُولَتِهِ الأُولَى وَفِي حَنَان جَدِّهِ الْبَدِيلُ الأَوْفَى.

فسَوَاءٌ عِنْدَهُ غِيَابُ أَبِيهِ أو مَوْتُهُ . وَاعْتَقَدَ فِي ذِهْنِهِ آنَذَاكَ أَنْ لَيْسَ هُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَينَ الْمَوْتِ وَالْغِيَابِ . فَالأَوَّلُ غِيَابٌ بِلاَ رَجْعَةٍ وَالثَّانِي مَحْدُودٌ فِي الزَّمَنِ . فَالْمَوْتُ إِذَنْ غِيَابٌ دَائِمٌ . وَالْتَفَتَ إِلَى حَمَلِهِ فَوَجَدَهُ يَتَرَنَّحُ طَرَبًا . هُوَ لَمْ يُفَرِقْ بَيْنَ النَّادِبَاتِ النَّائِحَاتِ وَبَيْنَ الْمُحْتَفِلاَتِ الْمُغَنِّيَاتِ . " فَسَوَاءٌ عِنْدَهُ صَوْتُ النَّعِيِّ وَصَوْتُ الْبَشِيرِ " . وَتَعَلَّقَ عَلِي بِعُنُقِ الْحَمَلِ وَأَخَذَ يَتَأَرْجَحُ كَعَادَتِهِ وَإِذَا بِهِ يَسْمَعُ صَوْتَ عَمِّهِ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

ـ تَوَّة مَاتِخْشِمْشْ ... أَيَّ اهْبَطْ يَا طُفُلْ عَلِي .

تَأَثَّرَ عَلِي مِنْ ذَلِكَ إِذْ هِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ يَنْهَرُهُ فِيهَا عَمُّهُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ وَكَانَ لاَ يَدْعُوهُ فِي السَّابِقِ إِلاَّ بِعِبَارَةِ سِي عَلِي بِمَا فِيهَا مِنْ تَقْدِيرٍ وَتَسْلِيمٍ بِعُلُوِّ الْمَقَامِ . وَعَزَا الطِّفْلُ ذَلِكَ إِلَى تَأَثُّرِ عَمِّهِ بِخَبَرِ الْمَوْتِ . وَضَاقَتْ بِهِ الدَّارُ وَتَوَجَّهَ إِلَى الْكُتَّابِ وَهُوَ فِي بُحْرَانٍ مِنَ التَّفْكِيرِ مُحَاوِلاً الْمُقَارَنَةَ بَيْنَ مَا رَآهُ فِي حُلْمِهِ وَبَيْنَ مَوْتِ أَبِيهِ . . فَوَجَدَ الرُّؤْيَا أَكْبَرَ وَقْعًا وَأَشَدَّ هَوْلاً .

اِلْتَقَى بِأَصْدِقَائِهِ الثَّلاَثَةِ فَأَخْبَرَهُمْ بِالنَّبَإِ فَلَمْ يَتَأَثَّرْ مِنهمْ أَحَدٌ . وَشَعُرَ وَكَأَنَّهُ غَرِيبٌ عَنْهُمْ لَمْ يَرْبِطْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ لاَ وِدٌّ وَلاَ صُحْبَةٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ . وَلَمْ يَفْهَمِ الأَمْرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ إِلاَّ عِنْدَمَا جَرَّبَ أَهْلَ قَرْيَتِهِ فِي إِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةِ بَعْدَ أَنْ غَادَرَ الْجُنْدِيَّةَ فِي خِدْمَتِهِ الأُولَى وَتَبَيَّنَ أَنَّ حَسَدَ صَاحِبِ النِّعْمَةِ وَالْجَاهِ وَالطَّمَعَ فِيهِ هُمَا دَائِمًا الْمُحَرِّكَانِ الْقَوِيَّانِ لَهُمْ . وَبِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْوَاضِحَةِ تَتَكَيَّفُ الْعَلاَقَةُ بَيْنَ الأَفْرَادِ عَلَى حَسَبِ دَوَامِ النِّعْمَةِ وَالْجَاهِ وَانْقِطَاعِهِمَا . وَلَيْسَ مِنَ الْغَرِيبِ أَن يَقُولَ الشَّاعِرُ :

وَحَيْثَمَا أَضْحَيْتَ فَاقْصُدْ إِلَى صُحْبَةِ مَنْ تَرْجُوهُ فِي نُصْرَتِكْ

طَلَبَ مِنْهُ أَصْدِقَاؤُهُ الثَّلاَثَةُ ذَخِيرَةَ التِّبْغِ وَعَرَّجُوا عَلَى الْخَمِيلَةِ وَأَخَذُوا يُدَخِّنُونَ وَحْدَهُمْ وَحَرَمُوهُ قِسْطَهُ فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : هَلْ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَمُوتُ وَالِدُهُ يُحْرَمُ مِنَ التَّدْخِينِ ؟ وَصَبَرَ حَتَّى انْتَهَوْا وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَرُدُّوا لَهُ الذَّخِيرَةَ ، وَمَضَوْا فِي طَرِيقِهِمْ لاَيَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَهُمْ بِدُونِ أَنْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ . دَخَلَ جَمِيعُهُمْ الْكُتَّابَ وَأَسَرَّ حَمَّة إِلَى الْمُؤَدِّبِ طَوِيلاً بِأَمْرٍ فَهِمَ جَلِيَّتَهُ عَلِي بَعْدَ ذَلِكَ . . وَمَا أَنْ خَطَا عَلِي خُطُوَاتٍ وَقَدْ تَبَاطَأَ فِي الدُّخُولِ حَتَّى صَاحَ بِهِ الْمِدَّب الْفَالِتْ قَائِلاً :

ـ إِقْتِرِبْ ... يَا سِي الْكَلْب .

إِقْتَرَبَ عَلِي صَامِتًا وَأَمْسَكَهُ الْمُؤَدِّبُ مِنْ تَلاَبِيبِهِ وَشَرَعَ يَفْحَصُ جَيْبَ الصَّدْرِيَّةِ . فَوَجَدَ شَيْئًا مِنَ التِّبْغِ فَشَمَّهُ وَقَالَ :

ـ تُدَخِّنْ يَا سِي الْكَلْب .

وَلَمْ يَفْطَنْ عَلِي إِلاَّ وَحَمَّة يَقْلِبُهُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ ، وَيُسَوِّي رِجْلَيْهِ فِي الْفَلْقَةِ فَلَمْ يُمَانِعْ وَاسْتَسْلَمَ إِلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، وَتَذَكَّرَ حُلْمَهُ الْمُرْعِبَ . وَلَكِنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ لَمْ يَرَ وَجْهَ الْمُؤَدِّبِ ، لِأَنَّ حَمَّة وَجَّهَهُ نَحْوَ التَّلاَمِذَةِ فَرَآهُمْ وَقَدْ ضَمُّوا أَرْجُلَهُمْ وَأَخْفَوْهَا فِي حَذَرٍ وَشَرَعُوا يَقْرَؤُونَ فِي سُرْعَةٍ جُنُونِيَّةٍ : الأَفْوَاهُ مَفْتُوحَةٌ وَالأَجْسَامُ تَهْتَزُّ جِيئَةً وَذَهَابًا كَالْقِرَبِ تُمْخَضُ لَبَنًا ، وَالْمَنَاخِرُ مُنْفَرِجَةٌ كَأَبْشَعِ مَا تَكُونُ الْبَشَاعَةُ ، حَتَّى عَبْدَ اللَّه أَفَاقَ مِنْ إِغْفَاءَتِهِ وَأَبْرَزَ لِمَّتَهُ وَجَبْهَتَهُ وَبَعْضَ عَيْنَيْهِ مِنْ فَوْقِ اللَّوْحَةِ كَالسُّلَحْفَاةِ الَّتِي تُخْرِجُ رَأْسَهَا مِنْ قَوْقَعَتِهَا فِي تَرَدُّدٍ وَوَجَلٍ . وَنَظَرَ آكِلُ الْعَصَا إِلَى السَّقْفِ فَلَمَحَ قُرُونَ الْفُولِ الْمُتَدَلِّيَةَ وَقَدْ بَدَأَتْ تَسْوَدُّ وَتَبَيَّنَ آيَةَ " أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ " مَكْتُوبَةً بِخَطٍّ رَدِيءٍ . وَقَالَ فِي نَفْسِهِ وَالْعَصَا تَنَالُ

مِنْ قَدَمَيْهِ : أَلَمْ نَضْـرِبْ لَـكَ قَدَمَيْـكَ . ثُـمَّ أَدَارَ رَأْسَـهُ قَلِيـلاً إِلَـى حَمَّـة فَوَجَـدَهُ لاَيَحْمِلُ سَرَاوِيلَ تَحْتَ كَدْرُونِهِ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ سَمِعَ الْمُؤَدِّبَ يَقْـرَأُ : : " وَلاَ يُغَيِّرُ اللَّهُ مَابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَـا بِأَنْفُسِـهِمْ " . وَانْهَـالَ عَلَـى أَقْـدَامِ عَلِـي ضَرْبًـا تَدْفَعُـهُ دِينَامِيَّةُ الْعُنْـفِ وَنَـوَازِعُ الْغِـلِّ وَالْحِقْـدِ . وَتَعَـالَى صِيَـاحُ الأَوْلاَدِ وَكَـانَ عَلِـي لاَ يَسْمَعُهُمْ إِلاَّ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ إِذْ كُلَّمَا وَقَعَتِ الضَّرْبَةُ عَلَى قَدَمَيْهِ صَمَّـتْ أُذُنَـاهُ . وَلَكِنَّهُ تَبَيَّنَ مَا كَانَ يَقُولُهُ الْمُؤَدِّبُ عِنْدَمَا أَسْرَعَ فِي الضَّرْبِ :

ـ هَاوْ الطَّوِيل يَخْصَل ... هَاوْ الطَّوِيل يَخْصَل .

ثُمَّ كَفَّ الضَّرْبُ مِنْ فَرْطِ الإِعْيَاءِ وَسَقَطَ عَلِي يَبْكِي ، فَحَمَلَهُ حَمَّة إِلَى رُكْنٍ قَصِيٍّ قُرْبَ أَوَانِي مَحْوِ الأَلْوَاحِ وَسَمِعَ الْمُؤَدِّبُ يَقُولُ لاَهِثًا مِنْ طُـــولِ الْجُهْـدِ :

ـ شُوف قَلِيل الْحَيَاء ... مَا مَاتَ بُوهُ إِلاَّ مِنْ رَكَاكْتُو .

بَكَى عَلِي لاَ مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا لِأَنَّهُ وَعَى الآنَ بِأَنَّ أَبَاهُ مَاتَ . نَعَمْ لَقَدْ مَاتَ فِي تِلْكَ الدَّقِيقَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ . وَتَبَيَّنَ حِينَذَاكَ أَنَّ الْغِيَابَ وَالْمَوْتَ أَمْـرَانِ مُخْتَلِفَانِ . فَلَوْ كَانَ أَبُوهُ غَائِبًا فَقَطْ لَمَا وُشِيَ بِهِ وَلَمَا ضُـرِبَ . وَلَـوْ بَقِـيَ وَالِـدُهُ حَيًّا فِي أَذْهَانِ النَّاسِ وَعَامَلُوهُ كَمَا اعْتَادُوا أَنْ يُعَـامِلُوهُ لَـأَصْبَحَ الْغِيَـابُ وَالْمَـوْتُ شَيْئًا وَاحِدًا وَلَكِنْ ...

وَانْقَضَى الصَّبَاحُ وَخَرَجَ عَلِي مِـنَ الْكُتَّـابِ بَاكِيًـا وَجَـرَى إِلَـى الْمَـنْزِلِ وَهْـوَ يُعْوِلُ وَيَصِيحُ :

ـ بَابَا مَات ... بَابَا مَات ...

وَلَكِنَّهُ وَجَدَ الْمَنْزِلَ هَادِئًا ، وَأَلْفَى أُمَّهُ وَإِخْوَتَهُ وَكُـلَّ مَـنْ فِـي الـدَّارِ مُهْتَمِّـينَ بِأَشْغَالِهِمْ فَبَادَرَتْهُ أُمُّهُ قَائِلَةً :

ـ أُسكُتْ ... بُوك مَا مَاتِشْ ... الْبَرِيدْ اغْلَطْ ... حَامِد بِالْحَاج عَبْدَاللّه اِحْخْشَـةْ هُوَ لِّي مَات ...

عِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ عَلِي قَدَمَيْهِ وَالأَلَمَ الَّذِي بَرَّحَ بِهِ وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُعْوِلاً:
ـ آه ... آه ... الْمِدّْب قَتْلْنِي .

فَجَرَتْ إِلَيْهِ جَدَّتُهُ مَعَ مَنْ خَفَّ إِلَيْهِ وَأَخَذَتْ تُعَايِنُ قَـــــدَمَيْهِ وَقَالَتْ:
ـ مَا عَادِشْ تِمْشِي لِلْكُتَّاب ... لاَ قْرِيتْلُو ...

وَابْتَسَمَ عَلِي لِسَذَاجَةِ جَدَّتِهِ وَهُوَ يسِيرُ عَلَى قَدَمَيْهِ مُتَّجِهًا نَحْوَ مَحَطَّةِ الْقِطَارِ لِيَلْتَحِقَ بِطَائِفَةِ الطُّبْجِيَّةِ وَقَدْ بَدَأَ الْحِذَاءُ الْجَدِيدُ اللَّمَّاعُ يُؤْلِمُهُ .

* * *

وَلَكِنَّ ذِكْرَيَاتِ تِلْكَ الْمِحْنَةِ عَادَتْ إِلَى ذِهْنِهِ بِكُلِّ أَبْعَادِهَا وَتَذَكَّرَ أَنَّـهُ دَخَـلَ فِي صَبَاحِ الْيَـوْمِ الْمُوَالِي الْكُتَّـابَ وَأَخَـذَ لَوْحَـةً كَبِيرَةً وَانْتَصَـبَ فِـي الصَّـفِّ الأَخِيرِ كَأَنَّهُ يَتَرَبَّصُ بِالْمُؤَدِّبِ الدَّوَائِرَ .وَنَادَاهُ الْمِدّْبْ الْفَالِت فَلَمْ يَأْبَهْ لَـهُ . وَغَـادَرَ الْمُؤَدِّبُ الْكُتَّابَ كَعَادَتِهِ بَعْدَ سَاعَةٍ لِيَقُومَ بِبَعْضِ شُؤُونِهِ . وَسَكَتَتِ الأَصْوَاتُ عَنِ الْقِرَاءَةِ . وَإِذَا بِالأَوْلاَدِ يَسْمَعُونَ صَوْتًا شَجِيًّا يُغَنِّي أُغْنِيَّةً شَائِعَةً : خُرُص الطَّارْبِيقَة ...وَمَا كَانَ مِنَ التَّلاَمِيذِ إِلاَّ أَنِ انْضَمُّوا إِلَيْهِ وَرَدَّدُوا اللاَّزِمَةَ : يَضْبَحْ .

وَتَكَرَّرَ الْغِنَاءُ وَنَسِيَ جُلُّهُمْ أَنَّهُمْ فِي الْكُتَّابِ حَتَّى أَطَلَّ عَلَيْهِـمْ سَيِّدُهُمْ وَسَدَّ الْبَابَ بِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةِ فَسَكَتُوا وَعَلِي مَعَهُمْ . فَأَلَحَّ عَلَيْهِمْ الْمُؤَدِّبُ بِالرُّجُوعِ إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ وَالْغَضَبُ يَهُزُّ أَعْطَافَهُ . فَأَعَادَ عَلِي الأُغْنِيَّـةَ . وَيَظْهَـرُ أَنَّ الْمِـدِّب أَخَـذَهُ النَّغَمُ وَانْتَشَى بِأَصْوَاتِ الأَطْفَالِ الشَّجِيَّةِ فَانْسَاقَ مَعَهُمْ وَعَصَاهُ فِي يَـدِهِ يُوَقِّـعُ بِهَـا عَلَى الأَرْضِ وَيَصِيحُ مَعَهُمْ بِغَضَبٍ وَقُوَّةٍ : يَضْبَحْ .

وَلَمْ تَمْضِ بِضْعُ دَقَائِقَ حَتَّى وَقَفَ آبَاءُ وَأَوْلِيَاءُ الأَوْلاَدِ أَمَامَ الْكُتَّابِ وَنَادَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِبْنَهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ حَمَّة وَعَلِي . فَنَهَضَ عَلِي وَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْبَابِ وَهْوَ يَقْرَأُ : " لاَ يُغَيِّرُ اللَّهُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . " وَخَرَجَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ .

وَكَانَ مِمَّا انْهَالَ عَلَى عَلِي وَهْوَ فِي الْحِرَاسَةِ مِنَ التَّذَكُّرِ الْمَرْكُومِ وَانْتَقَشَ فِي دِمَاغِهِ مَا قَالَهُ الْمُعَلِّمُ الْفَرَنْسِيُّ لِحَمَّة بَعْدَ أَنْ دَخَلَ جُلُّ مَنْ فِي الْكُتَّابِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ الْفَرَنْكُو عَرَبِيَّةِ بِسَعْيٍ مِنَ الْمُدِيرِ الْمُعَلِّمِ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ وَبِإِغْرَاءِ الْمُؤَدِّبِ وَإِعْطَائِهِ مُكَافَأَةً قَدْرُهَا عَشْرَة صُورْدِي عَلَى كُلِّ رَأْسٍ مِنَ التَّلاَمِيذِ إِذَا هُوَ أَقْنَعَ وَلِيَّهُ بِأَنَّ تَعَلُّمَ الْفَرَنْسِيَّةِ لَيْسَ كُفْرًا بَلْ فِيهِ غُنْمٌ كَبِيرٌ وَإِعْفَاءٌ مِنَ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لِكُلِّ مَنْ يَنْجَحُ فِي الشَّهَادَةِ الاِبْتِدَائِيَّةِ . كَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ رَأَى الْمُعَلِّمُ أَنْ يُحَدِّثَنَا فِيهِ عَنِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَإِعْلاَنِ حُقُوقِ الإِنْسَانِ . وَكَانَ يُورِدُ الْجُمْلَةَ بِالْفَرَنْسِيَّةِ ثُمَّ يُتَرْجِمُهَا بِعَامِّيَّةٍ تُونِسِيَّةٍ غَيْرِ دَقِيقَةٍ يَسْخَرُ مِنْهَا التَّلاَمِذَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْفَصْلِ وَتَكُونُ مَحَلَّ تَنَدُّرٍ بِالْمُحَاكَاةِ وَالتَّمْثِيلِ فِي خَلَوَاتِهِمْ . وَتَطَرَّقَ إِلَى الْعَدْلِ وَطُرُقِ تَوْجِيهِ التُّهْمَةِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ ، فَقَالَ مُتَرْجِمًا جُمْلَةً فَرَنْسِيَّةً كَالآتِي :

ـ عُمْرُكْ مَا اِتْهِزِّ تْهِيمَة عَلَى وَاحِد إِلاَّ إِذَا ...الخ .

وَيَعْنِي أَنَّهُ لاَيَحُقُّ لَكَ أَبَدًا أَنْ تُوَجِّهَ تُهْمَةً إِلَى أَحَدٍ إِلاَّ الخ ...وَلَمَحَ حَمَّة يَضْحَكُ فَأَرَادَ امْتِحَانَهُ وَطَلَبَ مِنْهُ إِعَادَةَ الْجُمْلَةِ . فَقَالَ حَمَّة :

ـ عُمْرُكْ مَا اِتْهِزِّ بْهِيمَة عَلَى وَاحِد .

وَكَانَ ضَحِكُ الْجَمِيعِ فَنَادَى الْمُعَلِّمُ الْفَرَنْسِيُّ حَمَّة ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهُ أَعْطَاهُ عَشَرَةَ صُورْدِي وَأَمْسَكَهُ مِنْ أُذُنِهِ وَصَرَخَ فِي وَجْهِهِ :

ـ أَعْطِ سَيِّدَكَ الْمِدِّبْ الْعَشْرَة صُورْدِي وَقُلْ لَهُ أَنَا حَمَّة الْبَهِيم ، أُذُنَايَ أَطْوَلُ مِنْ

أُذُنَيْ بَهِيم لاَ أَصْلُحُ إلاَّ لِتَعْلِيمِ الْكُتَّابِ وَلِلْعَصَا وَالْفَلْقَةِ والْهَمَجِيَّة وَأَسَالِيبِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى. اِذْهَبْ وَلاَ أُرِيدُ أَنْ أَرَى وَجْهَكَ هُنَا مِنْ هُنَا فَصَاعِدًا .

وَلَمَّا مَرَّ هَذَا الْمَشْهَدُ بِذِهْنِهِ وَهْوَ مَاسِكٌ بِالْبُنْدُقِيَّةِ قَالَ فِي نَفْسِهِ :
ـ يَا إِلَهِي ، أَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ هَذَا الْمُعَلِّمَ الْفَرَنْسِيَّ صَادِقٌ . وَأَنَا الَّذِي رَأَيْتُ الْمُجْتَمَعَ التُّونِسِيَّ عَنْ كَثَبٍ فَوَجَدْتُهُ عَلَى اخْتِلاَفِ أَنْمَاطِهِ كَتَاتِيبَ وَمَدَادِيبَ وَحَمَّاتٍ وَعَبَادِلَةٍ وَصَوَادِقَ (وَابْتَسَمَ فِي تِلْكَ الظُّلْمَةِ وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ) وَخَوَازِقَ مِنَ الْبَايِ إِلَى الْوَزِيرِ الأَكْبَرِ إِلَى الْعَامِلِ إِلَى ... إِلَى ... إِلَى الْمُرَاقِبِ إِلَى نِظَامِ الْحِمَايَةِ الَّذِي لاَ يُرِيدُ فِي الْوَاقِعِ تَغْيِيرَ أَيِّ شَيْءٍ عَدَا بَعْضَ الْفَرَنْسِيِّينَ الأَحْرَارِ .

وَاعْتَرَضَتْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَهْوَ يَحُثُّ الْخُطَى نَحْوَ مَحَطَّةِ ت.ج.آمْ . ، جَنَازَةٌ فَتَذَكَّرَ مَا قَالَتْهُ لَهُ سِيلْفِي : عَلِي مَات ... عَلِي مَات ... وَقَارَنَ بَيْنَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ وَالْعِبَارَةِ الَّتِي صَدَمَتْ مَشَاعِرَهُ يَوْمَ أَنْ رُفِعَتْ رِجْلاَهُ لِلْفَلْقَةِ وَضُرِبَ بَالْعَصَا عَلَى بَاطِنِ قَدَمَيْهِ ـ وَقَدْ أَحَسَّ بِالأَلَمِ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِمَا الآنَ مِنْ طُولِ الْمَشْيِ وهُمَا فِي هَذَا الْحِذَاءِ الْعَسْكَرِيِّ الْخَشِنِ ـ تِلْكَ الْعِبَارَةُ الَّتِي لاَ تَزَالُ تَرِنُّ فِي أُذُنَيْهِ : بُوك مَات ... بُوك مَات ...

وَسَاوَرَتْهُ هَوَاجِسُ كُلُّهَا تَشَاؤُمٌ تَحُومُ حَوْلَ خَوْفِهِ مِنْ مَصِيرٍ شَبِيهٍ بِمَصِيرِ أَبِيهِ وَهْوَ الَّذِي حَذَّرَهُ مِنَ الاسْتِسْلاَمِ وَمِنَ ارْتِكَابِ أَخْطَاءٍ لاَتُغْتَفَرُ وَيَكُونَ الْمَآلُ الرَّحِيلُ الْمُبَكِّرُ وَضَيَاعُ الإِخْوَةِ وَكُلِّ عَزِيزٍ عَلَيْهِ . تَذَكَّرَ كُلَّ هَذَا وَلَمْ يَنْسَ وَلَوْ جُزْئِيَّةً وَاحِدَةً وَمِنْهَا تِلْكَ الدَّقَائِقَ الأَخِيرَةَ مِنْ حِصَّتِهِ فِي الْحِرَاسَةِ أَثْنَاءَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ . لَقَدْ أَحَسَّ بِرَأْسِهِ يَثْقُلُ عَلَى يَدَيْهِ الْمُمْسِكَتَيْنِ بِالْبُنْدُقِيَّةِ وَبِأَوْصَالِهِ تَرْتَخِي ، فَغَفَا غَفْوَةً وَلَمْ يَشْعُرْ إِلاَّ بِسِلاَحِهِ يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ وَبِرَجَّاتٍ عَنِيفَةٍ تُدَوِّي فِي

السَّاحَةِ ؛ فَانْتَصَبَ عَلَى قَدَمَيْهِ ، وَالْتَقَطَ بِسُرْعَةٍ الْبُنْدُقِيَّةَ وَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ مَصْدَرِ الرَّجَّةِ . فَمَا رَاعَهُ إِلاَّ وَبابُ الْبُرْجِ يَنْتَفِضُ انْتِفَاضًا كَأَنَّهُ قَدْ ثَقُلَ عَلَيْهِ الزَّمَنُ فَأَرَادَ التَّخَلُّصَ مِنْهُ . وَاقْشَعَرَّ بَدَنُ عَلِي وَوَقَفَ شَعْرُ رَأْسِهِ حَتَّى ظَنَّ أَنَّ شَاشِيَّتَهُ عَلَى وَشْكِ السُّقُوطِ فَأَمْسَكَهَا بِيَدِهِ الْمُرْتَعِشَةِ وَهَمَّ بِأَنْ يُطْلِقَ سَاقَيْهِ لِلرِّيحِ أَوْ يَصْرَخَ صَرَخَاتٍ مُدَوِّيَةً يَسْمَعُهَا الْحُرَّاسُ الآخَرُونَ . وَلَكِنَّهُ تَشَجَّعَ وَصَوَّبَ بُنْدُقِيَّتَهُ نَحْوَ الْبَابِ وَاتَّجَهَ بِخُطًى ثَابِتَةٍ إِلَيْهِ وَلَكِنَّ الدَّوِيَّ كَفَّ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ مِنَ الْبُرْجِ وَانْقَطَعَ كُلُّ صَوْتٍ وَسَكَنَتِ الرِّيحُ . فَتَرَاجَعَ إِلَى حَيْثُ كَانَ وَإِذَا بِالْبَابِ يَعُودُ إِلَى انْتِفَاضِهِ ، فَيُعِيدُ الْكَرَّةَ وَيَصِلُ إِلَى الْبُرْجِ مِنْ جَدِيدٍ فَتَنْتَهِي كُلُّ رَجَّةٍ . وَاعْتَقَدَ أَنَّ الْجِنَّ السَّاكِنَةَ بِالْبُرْجِ تَعْبَثُ بِهِ وَتَضْحَكُ مِنْهُ فِي لَيْلَتِهِ الأُولَى مِنَ الْحِرَاسَةِ . وَقَرَّرَ أَنْ يَبْقَى ثَابِتَ الْجَأْشِ . فَتَأَخَّرَ شَيْئًا مَا عَنْ مَوْضِعِهِ وَكَأَنَّهُ أَفَاقَ مِنْ شِبْهِ غَشْيَتِهِ وَدَاخَلَهُ شَيْءٌ مِنَ الْوَعْيِ فَفَطِنَ إِلَى أَنَّ تِلْكَ الأَصْوَاتَ إِنَّمَا هِيَ صَدًى لِقَرْقَعَةِ عَجَلاَتِ الْكَرَارِطِ السَّالِكَةِ طَرِيقَ بَنْزَرْتَ . وَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ ذِكْرَيَاتِهِ سَمِعَ طَقْطَقَةَ عَجَلاَتِ كَرِّيطَةٍ تَمُرُّ بِجَانِبِهِ . فَأَوْقَفَهَا وَطَلَبَ مِنْ صَاحِبِهَا أَنْ يُرَافِقَهُ عَلَى مَتْنِهَا فَأَذِنَ لَهُ .]

6

[مَا أَنْ صَعِدَ الْكَرِّيطَةَ حَتّى قَالَ لَهُ الْكَرَارِطِي :

ـ آشْ سَمَّاكْ رَبِّي ؟

ـ عَلِي وَأَنْت ؟

ـ قُدُورَة يَضْـرِبْ الْعِينْ يَخَلِّيهَا عُـورَة .

وَلَـمْ يَتَخَـوَّفْ عَلِي مِنْ هَــذَا الْكَـلامِ لِأَنَّـهُ يَتَمَتَّـعُ بِقُـوَّةٍ بَدَنِيَّـةٍ جَيِّـدَةٍ ، وَيَعْـرِفُ أَنَّ اللُّصُوصَ وَقُطَّـاعَ الطَّرِيـقِ لاَيَطْمَعُـونَ فِي الْجُنْـدِ وَهُـمْ فِي أَغْلَـبِ الأَحْيَـانِ مُعْدَمُـونَ وَيَخْشَـوْنَهُمْ لِمُمَارَسَـتِهِمْ الْفُنُونَ الْحَرْبِيَّـةَ فَقَـالَ لِلْكَرَارِطِـي فِي سُخْرِيَّةٍ وَاضِحَةٍ :

ـ أَنَا عَلِي الْغَـافِل يَضْـرِبْ الجَمَـلْ يَخَلِّيـهْ جَـافِلْ .

وَضَحِـكَ الْكَرَارِطِي وَقَـالَ (يَتَـأَرْجَحُ عَبْدُ اللَّطِيـفِ فِي إِيـرادِ الْحِـوَارِ بَيْـنَ الْعَامِّيَّةِ الصِّرْفِ وَبَيْنَ الْحِرْصِ عَلَى تَهْذِيبِهَا شَيْئًا مَا) :

ـ أَنَـا كُنْـتُ مُنْـذُ سَنَتَيْنِ مِثْلَـكَ فِي الطُّبْجِيَّـةِ مَعَ الشَّـاوِش مَعَمَّـر ... أَنْـتَ كَبْرَان (عَرِيـفٌ) تبَـارَكَ اللّـه ... لاَزْم قَـارِي ... أَمَّـا أَنَـا عُقوبَـةُ اللّـه ... حَمِـدْتُ رَبِّـي لَمَّـا خَرَجْـتُ مِـنَ الْعَسْكَر لِـأَنِّي أَصْبَحْـتُ فَرِيـد فِـي الْعَائِلَـة وَتَزَوَّجْتُ وَلِـي وَلَـد وَلَـمْ أُدْعَ لِلعَسْكَر مِـنْ جَدِيـد وَإِلاَّ أَكَلَتْنِي الْحَـرْب .

وَنظَرَ عَلِي إِلَى قُدُورة فَوَجَدَهُ صُورَةً مُطَابِقَةً لِأَصْحَابِ هَذِهِ الْمِهْنَةِ: فَمَلاَمِحُ الْوَجْهِ صَلْبَةٌ ، فِيهَا قَسَاوَةٌ وَحِدَّةٌ ، وَالشَّارِبَانِ طَوِيلاَنِ مُذَبَّبَانِ ، وَالنَّظْرَةُ تَشْتَعِلُ جُرْأَةً وَتَحَدِّيًا ، وَالْعَضَلاَتُ مَفْتُولَةٌ . كَذَلِكَ اللِّبَاسُ فِيهِ خُشُونَةٌ وَخُصُوصًا الزِّمَالَةَ الْمَلْفُوفَةَ حَوْلَ الشَّاشِيَّةِ . وَبَدَأَ الْجَوُّ يَصْفُو بَيْنَهُمَا وَيَتَبَادَلاَنِ الذِّكْرَيَاتِ . وَوَجَدَ عَلِي الْفُرْصَةَ لِيَخْرُجَ مِنْ صَمْتِهِ وَيُحَدِّثَ مَنْ يَفْهَمُهُ لِأَنَّهُ مَرَّ بِمَا مَرَّ بِهِ هُوَ مِنْ صُعُوبَاتٍ وَقَالَ لَهُ :

ـ تَعْرِفُ يَا قُدُورَة أَنِّنِي كُنْتُ أَضْحَكُ مِنْ هَذَا اللِّبَاسِ ، فِي دَاخِلِي بِالطَّبْعِ ... وَخُصُوصًا الشَّمْلَةَ الَّتِي أَلُفُّهَا عَلَى وَسَطِي .

ـ الشَّمْلَةُ صَالِحَةٌ لِلصِّحَّةِ ... تَشُدُّ الأَجْنَاب وَتَحْمِي منَ الْبَرْد .

ـ الآنَ أَصْبَحْتُ أَشْتَمِلُ فِي أَقَلِّ مِنْ لَحْظَةٍ ... أَمَّا السَّرَاوِيلُ الْخَشِنَةُ الثَّقِيلَةُ فَلَمْ أَتَعَوَّدْ بِهَا إِلاَّ بَعْدَ مُدَّةٍ . وَالْحِذَاءُ الثَّقِيلُ أَيْضًا . وَالشَّاشِيَّةُ ذَاتُ الشُّرَّابَةِ ، لَقَدْ أَحْسَسْتُ فِي الأَوَّلِ ، وَهْيَ تَحْتَكُّ بِرَقَبَتِي ، بِدَبِيبٍ كَدَبِيبِ النَّمْلِ . كُنْتُ أَعْتَبِرُ كُلَّ هَذَا مُصِيبَةً يَا قَدُّور ، وَلَكِنِ الآنَ هَانَ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ ... وَهَوَّنَ عَلَيَّ الأَمْرَ الشَّاوُش مَعَمَّر عِنْدَمَا عُيِّنْتُ لِمُسَاعَدَتِهِ واتَّمَنَنِي عَلَى الدَّفَاتِرِ وَأَعْفَانِي مِنَ التَّمَارِينِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَكَفَّ عَنِّي صَوْلَةَ الْكَبْرَانَاتِ وَالشُّوَّاشِ وَبِالْخُصُوصِ الشَّاوُش الْقَحْطَار .

ـ آ...وخزيتْ... هَذَا يَنْقم عَلَى كُلّ مَنْ يَقْرَا وَيَكْتب .

ـ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ هُوَ مِنْ مُخَلَّفَاتِ حَرْب الْمَرُّوك (الْمَغْرِبُ الأَقْصَى) وَلاَقَى نِكَايَةً مِنَ الْوَطَنِيِّينَ. وَمُدَّ لِلذَّبْح مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَتَرَكُوهُ عَرْيَانَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ عُرْضَةً لِكُلِّ الأَخْطَار وَكَانَ فِي حُسْبَانِهِمْ أَنَّهُ سَيَتَعَذَّبُ عَذَابًا لاَ يُطَاقُ ثُمَّ يَمُوتُ شَرَّ مِيتَةٍ وَيَكُونُ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ يَتَطَوَّعُ لِمُحَارَبَةِ إِخْوَانِهِ فِي الدِّينِ . وَلَكِنَّهُ أَسْعَفَهُ الْحَظُّ فَنَجَا بِمَحْضِ الصُّدْفَةِ ، أَنْقَذَهُ جُنْدٌ فَرَنْسِيُّونَ

فَأَصبَحَ يَعْبُدُ فَرَنْسَا عِبَادَةً وَيَنْقَمُ عَلَى الْعَرَبِ نَقْمَةً لاَ مَثِيلَ لَهَا .

ـ عَذَّبَنَا ... أَهْلَكَهُ اللَّهُ ... هُوَ وَالْقُبْطَان عُمُر الضَّبْعَة ... هَلْ لَمْ يَمْسَحْ بِهِ الدَّهْرُ دُبْرَهُ ؟

ـ رَأْسَانِ فِي خَرْ... هُوَ وَالْقَحْطَار ... لَمْ أَرَ أَجْهَلَ مِنْهُ وَلاَ أَكْثَرَ طَمَعًا وَسُهُولَةَ انْقِيَادٍ ... يَقُودُهُ الشَّاوُش الْقَحْطَار مِنْ أَنْفِهِ .

وَضَحِكَ عَلِي فَقَالَ لَهُ قَدُّورَة :

ـ مَالَكَ تَضْحَكُ ؟

ـ تَذَكَّرْتُ الْقُبْطَان الضَّبْعَة ...وَ لاَ يُمْكِنُ لِي أَلاَّ أَضْحَكَ كُلَّمَا تَذَكَّرْتُهُ . عِنْدَمَا أَرَادَ الشَّاوش مَعَمَّر تَقْدِيمِي إِلَيْهِ بِصِفَتِي مَاسِكًا لِلدَّفَاتِرِ اجْتَزْنَا الدِّهْلِيزَ مَعًا . وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى مُنْتَهَاهُ سَمِعْنَا حَرَكَةً غَيْرَ عَادِيَةٍ وَوَقْعَ أَقْدَامٍ . وَإِذَا بِضَابِطٍ فَرَنْسِيٌّ مَعَ ثُلَّةٍ مِنَ الضُّبَّاطِ التُّونِسِيِّينَ وَكَبِيرُهُمْ عُمَر الضَّبْعَة يَتَقَدَّمُونَ . فَانْضَمَمْنَا إِلَيْهِمْ . وَلَمَحَ الضَّابِط الْفَرَنْسِيُّ أَوْسَاخًا فِي الدِّهْلِيزِ فَقَالَ بِالْفَرَنْسِيَّةِ :

ـ ثِي عُمَر (وَبِهِ لَثْغَةٌ يُحَوِّلُ السِّينَ ثَاءً) ... مَاهَذَا ؟

وَبِمَا أَنَّ الْقُبْطَان (نَقِيبٌ) الضَّبْعَة لاَيَعْرِفُ الإِجَابَةَ بِالْفَرَنْسِيَّةِ فَإِنَّهُ يَلْتَفِتُ إِلَى الْمُلاَزِمِ الطُّوزِي وَيَقُولُ لَهُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ :

ـ يَا طُوزِي اِهْلِكْتِنِي ... خَلِيتِلِي بِيتِي يِخْلِي بِيتِكْ .

وَيَفْطِنُ الْفَرَنْسِيُّ إِلَى ذَلِكَ فَيَقُولُ :

ـ مَا الَّذِي وَقَعَ ثِي عُمَر ... مَا الَّذِي وَقَعَ ثِي عُمَر ؟

ـ لاَ ... لاَ ... شَيْ ...

وَبَعْدَ قَلِيلٍ يَقِفُ صَاحِبُ اللَّثْغَةِ أَمَامَ زُجَاجِ نَافِذَةٍ مُكَسَّرٍ فَيَسْأَلُ عَنِ السَّبَبِ وَلِمَاذَا لَمْ يُصْلَحْ فَيَقُولُ الضَّبْعَة :

ـ أُوفْ بُومْ كَسِيرْ .

فَيَفْهَمُ رَئِيسُهُ أَنَّ الرِّيحَ أَغْلَقَتِ الْبَابَ بِعُنْفٍ فَكَسَّرَتِ الزُّجَاجَ . وَيَعْرِفُ أَنَّ هَذَا الضَّابِطَ الْمِسْكِينَ لاَيَسْمَحُ بِمَنْ يَتَقَدَّمُ لِلتَّرْجَمَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ يُعَدُّ اسْتِقَالَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ .

ـ وَهَذَا ثِي عُمَر (وَهُوَ لاَ يَدْعُوهُ بِرُتْبَتِهِ أَبَدًا وَتَعَمَّدُ الْقَوْمُ تَرْقِيَتَهُ لِيَسُدُّوا الْبَابَ أَمَامَ الْعَارِفِينَ نِسْبِيًّا) .

ـ صَا (يَقُولُهَا بِالْفَرَنْسِيَّةِ) لِي بِيشْ بِيشْ ... لِي بُومْ كَسِيرْ .

وَيَفْهَمُ الْفَرَنْسِيُّ أَنَّ قِطًّا مِنَ الْقِطَطِ الْكَثِيرَةِ بِبَارْدُو هُوَ صَاحِبُ الْفَعْلَةِ .وَيَدْخُلُ الْجَمْعُ إِلَى الْمَطْبَخِ فَيَشُمُّ الضَّابِطُ رَائِحَةً طَيِّبَةً وَيَسْأَلُ عَنِ السَّبَبِ وَيَعْجِزُ صَاحِبُنَا عَنِ الْجَوَابِ فَيَقُولُ :

ـ لِي فِيتْ أَفِيكْ ... أَفِيكْ (أَيْ مَصْنُوعٌ بِ... بِ...) .

وَيَلْتَفِتُ إِلَى عَجِيزَتِهِ فِي انْحِنَاءَةٍ مَعَ إِبْرَازِهَا مُرَبِّتًا عَلَيْهَا قَائِلاً :

ـ لِي فِيتْ أَفِيكْ ... لِي مُوتُونْ .

وَيَفْهَمُ الضَّابِطُ أَنَّ سَبَبَ الرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ هُوَ شَحْمُ أَلْيَةِ الْكَبْشِ . وَيَضْحَكُ قُدُورَة وَمُرَافِقُهُ طَوِيلاً . وَيُرْدِفُ عَلِي :

ـ لَمْ أَعْرِفْ هَذَا الْوَضْعَ الْمُضْحِكَ إِلاَّ بَعْدَ أَنِ الْتَحَقْتُ بِالْمَكْتَبِ . وَلَكِنَّ الشَّاوُش مَعَمَّر ، عِنْدَمَا فَطِنَ إِلَى أَنَّنِي شَاهَدْتُ كُلَّ هَذِهِ الْمَهَازِلَ غَضِبَ وَأَمَرَنِي بِالاِلْتِحَاقِ بِمَكَانِ عَمَلِي . وَلَكِنَّ الأَغْرَبَ مِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ لِي عِنْدَمَا وَصَلَتْنِي بَرْقِيَّةٌ تُعْلِمُنِي بِأَنَّ جَدِّي مَرِيضٌ . وَحَاوَلْتُ مَعَ الشَّاوُش

مَعَمَّـر أَنْ يُقْنِـعَ الْيوزْبَاشِـي الضَّبْعَـة بتَـمْكِينِي مِـنْ عُطْلَـةٍ لِـأَعُودَ جَـدِّي .
وَبَيْنَمـا كُنْتُ مُنْكَبًّـا عَلَى الدَّفَـاتِرِ إِذْ وَجَـدْتُ أَمَـامِي بَلاَنْتـو الْقُبْطَـان يَقُـولُ :
ـ العَسْكَرِي نومْرُو 1111 ... مُونْ قُبْطَان يُنَـادَيك .

ـ أَحْسَسْتُ بِفَـرَحٍ عَظِيـمٍ وَوَدِدْتُ لَـوْ أَلْتَقِـي بِالْبَـاشْ شَـاوُش مَعَمَّـر فِـي طَرِيقِـي فَأَشْـكُرُهُ وَأُحَيِّيـهِ تَحِيَّـةً حَـارَّةً . وَرَمَيْـتُ بِـالأَوْرَاقِ مِـنْ يَـدِي وَانْدَفَعْتُ إِلَـى الْبَـابِ وَاجْتَزْتُ الدِّهْلِيزَ الطَّوِيـلَ فِي طَرْفَـةِ عَيْـنٍ وَوقَفْتُ أَمَـامَ مَكْتَـبِ الضَّـابِطِ وَتَـرَدَّدْتُ فِي طَرْقِـهِ ، ثُـمَّ أَقْدَمْـتُ عَلَى ذَلِـكَ وَدَخَلْـتُ بَعْـدَ أَنْ أُذِنَ لِـي .

وَجَـدْتُ الضَّـابِطَ وَاقِفًـا وَأَمَامَـهُ الْبَـاش شَـاوش مَعَمَّـر وَجُنْـدِيٌّ آخَـرُ دَمِيـمُ الْخِلْقَـةِ قَصِيرُ الْقَامَـةِ . فَـأَدَّيْتُ التَّحِيَّـةَ وَبَقِيتُ جَـامِدًا فِي مَكَـانِي أَنْظُـرُ تَـارَةً إِلَى رَئِيسِـي وَهُـوَ مُهْتَـمٌّ بِهَـذَا الْجُنْـدِيِّ وَأُخْـرَى إِلَـى صَدِيقِـي مَعَمَّـر فِـي ارْتِيَـاحٍ عَظِيـمٍ . كَـانَ الضَّـابِطُ طَوِيـلَ الْقَامَـةِ ، فِـي وَقْفَتِـهِ نُبْـلٌ فِـي الظَّـاهِرِ وَلَكِـنِ انْطَبَـعَ الطَّمَـعُ فِـي قَسَـمَاتِ وَجْهِـهِ وَكَمَـنَ فِـي عَيْنَيْـهِ الْخُبْـثُ . وَأَنْكَـرْتُ شَاشِيَّتَهُ النَّازِلَـةَ إِلى حَاجِبَيْـهِ وَشَـرَّابَتَهَا الطَّوِيلَـةَ الَّتِي لَـمْ تَنْقَطِعْ عَـنِ الاضْطِـرَابِ كَذَيْـلِ بَغْـلٍ . وَدَارَ حِـوَارٌ مُضْحِـكٌ بَيْـنَ الضَّبْعَـةِ وَالْجُنْـدِيِّ مُحْتَوًى وَلَهْجَةً :
ـ تَحِبّ تَاخُذْ بَرْمَسُونْ (تُرِيدُ أَنْ تَأْخُذَ إِجَازَةً) ؟
ـ إِي نعَمْ مُونْ قُبْطَان .
ـ لُوَاهْ هَالْبَرْمَسُونْ (لِمَاذَا هَذِهِ الإِجَازَةَ) ؟
ـ الْعَائِلَة فَقِـيرَة وَالْمَوْسِـم طَيِّـب وَأُرِيـد إِعَانَـة أَهْلِي .

- وَيَقْتَرِبُ الضَّابِطُ مِنْ عُنُقِ الْجُنْدِيِّ وَيَمُدُّ فِي تَقَزُّزٍ إِصْبَعَيْنِ طَوِيلَيْنِ فِيهِمَا خُشُونَةٌ وَبِدَائِيَّةٌ وَيُمْسِكُ بِهِمَا رَقَبَةَ الْقَمِيص ثُمَّ يُنْعِمُ النَّظَرَ وَعَيْنَاهُ فِي نِصْفِ إِغْمَاضَةٍ وَيَصِيحُ :

- تَكَلْبْتْ ... تَحَنِّيتْ ... مْقَمِّلْ وَطَالِبْ بَرْمَسُونْ ... بَاشْ شَاوُشْ (بِتَفْخِيمٍ فَادِحٍ) قَيِّدْلاَ أَرْبَعْ أَيَّامْ صَالْ بُولِيسْ (أَيْ عَاقِبْهُ بِأَرْبَعَةِ أَيَّامِ سِجْنًا) ... سَمَّتْشْ (مَعْنَاهُ سَمَعْتِشْ بِإِسْقَاطِ الْعَيْنِ ... وَلِهَذَا سُمِّيَ الْقُبْطَان سَمَّتْشْ) .

- وَهَكَذَا ادَّعَى عَلَيْهِ بِالْوَسَخِ إِذْ كَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَتَجَرَّأَ جُنْدِيٌّ وَيَطْلُبَ إِجَازَةً وَعَلَى قَمِيصِهِ آثَارُ الْقُمَّلِ وَهُوَ فِي الْوَاقِعِ مَحْضُ ادِّعَاءٍ وَلَيْسَ لِلْجُنْدِيِّ مِنْ ذَنْبٍ إِلاَّ الْفَقْرُ الَّذِي لاَ يُمَكِّنُهُ مِنَ الإِتْيَانِ بِهَدِيَّةٍ لِلضَّابِطِ الْهُمَامِ . وَانْتَهَى أَمْرُ الْمِسْكِينِ وَالْتَفَتَ إِلَيَّ هَاشًّا بَاشًّا وَقَدِ انْتَفَتْ انْحِنَاءَتُهُ وَاتَّسَعَتْ عَيْنَاهُ وَأَلْقَى بِرَأْسِهِ إِلَى الْوَرَاءِ وَسَدَّدَ نَحْوَ عِلِي ذَقْنًا هُوَ الْعَظْمُ لاَ لَحْمَ بِهِ وَلاَشَحْمَ فَلَكَأَنَّهُ مُسَدَّسٌ عَلَى أُهْبَةِ الطَّلْقِ حَتَّى ظَهَرَتْ رَقَبَةُ الْقَمِيصِ عَفِنَةً وَسِخَةً . قَالَ :

- الْبَاش شَاوُش قَالْ لِي جَدِّكْ مَرِيض أُوتِبْغِي بَرْمَسُّون .

- إِي نَعَمْ مُونْ قُبْطَان

- لُوَاهْ هَاالْبَرْمَسُونْ .

- جَدِّي مَرِيض وَعَمِّي مُكَلَّف بِالرِّزْق وَأَنَا خَائِف لاَيَاكُلْ الرِّزْق .

- إِمَّا لَه لاَ بَاس عَلَيْكُمْ ...

- إِي نَعَمْ مُونْ قُبْطَان .

- عَنْدكُمْ الدَّجَاج (بِتَرْقِيقٍ وَإِمَالَةٍ فَاحِشَتَيْنِ) وَالبَقَر وَالزُّبْدَة وَالْعَظْم (الْبَيْض) وَ...

ـ إِي نَعَمْ مُونْ قُبْطَان .

ـ إِمَّالَه عَمَى (مَعَ) هَضَا الْكُلْ جِيبْ لِي حَنَّانَة دَجَاجَة بِفلاَلِيسِهَا أَنَا نِبْغِيهَا .

وَتَدَلَّى ذَقْنُهُ وَكَادَ يَسِيلُ لُعَابُهُ وَتَلَوَّى فِي قَامَتِهِ . وَاسْتَغْرَبْتُ (هُنَا تَدَاخَلَتْ رِوَايَةُ عَلِي مَعَ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّطِيف) هَـذَا الطَّلَبَ وَنَظَرْتُ إِلَى الْبَاش شَاوُش فَأَشَارَ إِلَيَّ بِأَنْ أَقْبَلَ الْعَرْضَ فَقُلْتُ :

ـ إِي نَعَمْ مُونْ قُبْطَان .

ـ تَعْرِف الدَّار .

ـ لاَ مُونْ قُبْطَان .

وَالْتَفَتَ الْقُبْطَان سَمِتْش إِلَى الشَّاوش مَعَمَّروقَالَ مُسْتَنْكِرًا :

ـ مَانِي قُلْت لَكْ لاَزِمْ الْعَسْكَر يَعْرفُو الدَّارْ . لُوكَانْ تَقع حَاجَة آشْنَعْمِلُو... مِنْ وَاجِبكْ كُلْ جُمْعَة تَخْتَار جَمَاعَة مِلْعَسْكَر وَتعَرْفْهُمْ الدَّار ... سَمِتْش... أَيَّ تَوَّة قَيَّد لِلْبَحْبُوحْ عِشْرِينْ يُومْ بَرْمَسُونْ .

قَالَ مَعَمَّر :

ـ مُونْ قُبْطَان الدَّجَاجَة إِيجِبْلْهَا أَكْثَر مِن عِشْرِين يُومْ بَاشْ تَفَقّسْ ...

ـ صَحِيح قَيِّدْلاَ شَهَرْ ... سِمِتْشْ .

ـ وَلَكِنْ مُونْ قُبْطَان آشْكُونْ يعِينْنِي فِي الْبِيرُو ؟

ـ مَانعْرَفْشْ ... دَبَّرْ رَاسِكْ .

وَبَعْدَ شَهْرٍ بِالضَّبْطِ وَقَفَ الْقُبْطَان سَمِتْشْ فِي الْمَيْدَان يُرَاقِبُ الْجُنُودَ وَهُمْ يَقُومُونَ بِالتَّمَارِينِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَأَنَا مَعَهُمْ . ذَلِكَ أَنَّ الْبَاش شَاوُش غَضِبَ عَلَيَّ وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّ الإِجَازَةَ لاَ تَتَعَدَّى الأُسْبُوعَ أَمَّا وَقَدْ وَصَلَتْ

إِلَى الشَّهْرِ فَهْوَ أَمْرٌ لاَ يُحْتَمَلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ خُصُوصًا أَنَّهُ لا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى مُعَاكَسَةِ الْقُبْطَانِ .وَغَايَةُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ بِهِ هُو إِرْجَاعُ عَلِي لِلصَّفِّ وَإِعْطَائِهِ دَرْسًا قَاسِيًا حَتَّى لاَ يَعُودَ إِلَى صَنِيعِهِ . وَفِي الْمَيْدَانِ كُنْتَ لاَتَسْمَعُ مِنَّا إِلاَّ طَرَقَاتِ أَقْدَامِنَا وَهْيَ تَضْرِبُ الأَرْضَ بِعُنْفٍ وَتَسِيرُ عَلَى نَبَرَاتِ الْبَاش شَاوُش مَعَمَّر وَهْوَ يَصْرَخُ بِالأَرْقَامِ 1 ، 2 ، 3 ، 4 بِفَرَنْسِيَّةٍ هَجِينَةٍ . وَكُنْتَ لاَ تَرَى إِلاَّ صَفًّا مُتَرَاصًّا يَجُوبُ الْمَيْدَانَ طُولاً وَعَرْضًا .

وَاقْتَرَبَ الضَّابِطُ الضَّبْعَة وَصَاحَ :

ـ بَاش شَاوُش ... شُوفْ أَكِلْعَسْكِرِي مُكَحْلْتَه مَعَوَّجَة .

وَبَعْدَ بِضْعِ دَقَائِقَ يَصْرَخُ مَرَّةً أُخْرَى :

ـ بَاش شَاوُش ... شُوفْ أَكِلْعَسْكِرِي بُكُلّ عَوَجْ ... نَابِيهُولِي ... سَمْتْش .

وَغَمْغَمَ كَلِمَاتٍ غَيْرَ مَفْهُومَةٍ . وَمَا وَسِعَ البَاش شَاوُش إِلاَّ أَنْ أَوْقَفَ التَّمْرِينَ وَقَادَنِي بِعُنْفٍ أَمَامَ الضَّابِطِ فَسَأَلَنِي .

ـ آشِنْهُو نُومُرُوكْ .

ـ 1111 مُونْ قُبْطَان .

ـ آشْبِيكْ اِبْكُلّكْ عَوَجْ ... وَاللَّهِ تَوَّه نَضْرِبكْ إِبْبُونِيَة نَطَّلَعْ مِنّكْ دَجَاجَة بِفلاَلِيسَهَا .

وَفَهِمْتُ عِنْدَ ذَلِكَ سَبَبَ إِبْعَادِي مِنَ الْمَكْتَبِ وَمَا حِيلَتِي ، وَأَنَا بَيْنَ أَهْلِي أُصَارِعُ عَمّي ، وَقَدْ نَسِيتُ الدَّجَاجَةَ وَفِرَاخَهَا .ثُمَّ إِنَّ الْبَاش شَاوُش نَصَحَنِي بِأَلاَّ أَهْتَمَّ بِالأَمْرِ وَهْوَ فِي الْوَاقِعِ حَقَدَ عَلَيَّ لِأَنَّنِي لَمْ أُرَاعِ مَصْلَحَتَهُ وَصُعُوبَةَ تَعْوِيضِي فِي ذَلِكَ الْمَنَاخِ الَّذِي عَشَّشَتْ فِيهِ الأُمِّيَّةُ وَفَرَّخَتْ أَلْوَانٌ مِنَ الْجَهْلِ وَالْخُبْثِ وَالْغَدْرِ وَالْمَكْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفِسْقِ

وَالْفُجُورِ . وَأَحْسَسْتُ بِدُوَارٍ وَقُلْتُ وَأَنَا لاَ أَفْقَهُ مَا أَقُولُ :

ـ عَلَى خَاطِرْ مَا جِبْتِشْ الدَّجَا...

وَغَابَتْ آخِرُ الْكَلِمَاتِ فِي صَدْرِي فَصَاحَ الْقُبْطَان :

ـ بَاشْ شَاوُشْ ... شُوفْ مَا أَقْبَحَا ...

ـ إِي نَعَمْ مُونْ قُبْطَانْ نَعْرُفُو اِقْبِيحْ .

ـ أَيَّ هِزّْ الْكَلْبْ لاَكَ الْحَبْس الْبَاهِي .

وَافْتَكَّ مِنِّي الْبَاش شَاوُش الْبُنْدُقِيَّةَ وَدَفَعَنِي أَمَامَهُ وَكُنْتُ أَعْرِفُ الْحَبْسَ الْبَاهِي وَسِرْتُ بِدُونِ أَنْ أَلْتَفِتَ وَكَأَنَّنِي أَخْرِي . وَوَقَفْتُ أَمَامَ الْبَابِ ، فَفَتَحَهُ مَعَمَّر وَزَجَّ بِي مَعَ الْجُنُودِ الْمُعْتَقَلِينَ فِي انْتِظَارِ الْبَاخِرَةِ الَّتِي تُقِلُّنَا إِلَى سَاحَةِ الْقِتَالِ بِفَرَنْسَا ؛ وَأَغْلَقَ عَلَيَّ الْبَابَ وَمَضَى .

قَالَ قُدُورَة :

ـ مَلاًّ وَرْطَه ... أُوكِيفَاشْ خَرَجْتْ مِنْهَا ... بَعْدْ مَا ضَحَكْنَا نَزَّلْتْ لِي الرُّعْبْ فِي رَكَايِبِي .

وَالْتَفَتَ قُدُورَة فَلَمَحَ عَجُوزًا تَنْطَلِقُ مِنْ طَابِيَةِ الْهِنْدِي كَأَنَّهَا سَعْلاَةٌ وَرَاحَتْ تُهَرْوِلُ بَحْثًا عَنِ الْحَطَبِ . فَمَا كَانَ مِنْ مُرَافِقِي إِلاَّ أَنْ أَخَذَ فِي التَّصْفِيقِ مُهْتَزًّا فَوقَ الْكَرِّيطَةِ وَطَفِقَ يُغَنِّي :

" الْعَزَايِزْ هَمّْ زَايِزْ

وِلِّي إِيجِنّْ عَلْعَزَايِزْ

اللَّهْ لاَ يجِنْ عَلِيهْ

وَظَنَّ قُدُورَة أَنَّنِي سَأَنْضَمُّ إِلَيْهِ وَإِذَا بِي أَقُولُ لَهُ :

ـ عِيبْ ... عِيبْ ... يَا قُدُورَة ... لَوْ كَانَتْ الْعَجُوز هَذِي أُمُّكَ أَوْ

خَالَتُكَ أَوْ عَمَّتُكَ أَوْ أُخْتُكَ الْكَبِيرَةَ ... وَلَوْ خَرَجَ لَكَ أَوْلاَدُهَا وَمَهَّدُوكَ بِالْعَصَا .

ـ آشْنُوًّا تَحْكِي لِي حكَايَاتْ تَحَزّنْ ... وَتْمَنْعْنِي بَاشْ نِتْفَرْهِدْ ... أَنَا قُدُورَة وَمَا أَدْرَاك نخرُجْ مِنْ عَشْرَة ... أَوْلاَدْهَا وَإِلاَّ قبيلتْهَا ... أَيَّ قَوْلْ يِفَاشْ خَرَجْتْ مِلْ وَرْطَة ... يا بُو قَلْبْ ...

ـ الْبَاشْ شَاوُشْ مَعمَّر قَلْبُهُ طَيِّب فِي آخِرِ الأَمْرِ... أَلَحَّ عَلَى الْقُبْطَان بِأَنْ يُلْحِقَنِي بِالْمَكْتَبِ مِنْ جَدِيد إِذْ هُوَ فِي حَاجَةٍ أَكِيدَةٍ لِي .وَرَجَعْتُ إِلَى شُغْلِي السَّابِقِ

ـ خُونَا ... إِنْتَ مَدَمَّرْ وِتْلَوّجْ عَلْ الْبَلاَء ... وَتَلْعَبْ دِيمَة مَعَ الْكبَارْ ... لاَ أَنَا خُوكْ مَا نَلْعَبْ إِلاَّ مَعَ أَنْدَادِي ... إِنْتَ مُخُّكْ يَدُورْ فُوقْ اللاَّزِمْ ... أَنْتمْ الْقُرَّايْ صعَابْ تَعَقّدُو لُومُورْ السَّاهْلَه .

وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سَمِعْنَا وَقْعَ أَقْدَامٍ حَثِيثَةٍ فَالْتَفَتْنَا فَلَمَحْنَا أَرْبَعَةً مِنَ الصَّعَالِيكِ بِأَيْدِيهِمْ هَرَاوَاتٍ . وَلَمَّا فَهِمُوا أَنَّنَا تَفَطَّنَّا إِلَيْهِمْ بَدَؤُوا فِي السَّبِّ وَالشَّتْمِ . فَقُلْتُ لِقُدُورَة :

ـ شُفْتْ .

وَحَثَّ مُرَافِقِي سَيْرَ الْبَغْلِ وَلَكِنَّ الصَّعَالِيكَ أَدْرَكُونَا وَلَمَّا وَجَدُوا عَسْكَرِيًّا عَلَى الْكَرِّيطَةِ كَفُّوا عَنِ اللَّغَطِ وَبَادَرْتُهُمْ قَائِلاً :

ـ أَيَّ غَلْطَة ... وَقُدُورَة يَعْتَذِر ... وَمَا فَاتْ سَوْ :

ـ وَاللَّهِ لُوكَان مِشْلَكْ إِنْتَ رَانَا عَوّجْنَا هَا لْقَبِّيحْ وَكَسَّرْنَا عَلَى ظَهْرَا هَا الْهَرَاوَاتْ وَذَوَّقْنَاهْ إِذَا لطَفْ بِيهْ رَبّي حْلِيبْ أُمَّه بِينْ سِنِّيهْ وَإِلاَّ مَاعَادِشْ أُمَّه تنَادِي بِاسْمَه .

قَالَ قُدُورَة مِنْ دُونِ أَنْ يُظْهِرَ أَيَّ خَوْفٍ أَوْ وَجَلٍ وَكَأَنَّ الْجَمَاعَةَ مِنَ

مَعَارِفِهِ :

ـ وَمْنِينْ بَاشْ نَعْرِفْ إِلّي الْعَزُوزَة أُمُّكُمْ ."

وَسَكَتَ عَلِي وَقَدْ أَيْقَنَ أَنَّ طَرِيقَهُ ، مَهْمَا أَسْرَفَ فِي الاحْتِيَاطِ ، مَحْفُوفَةٌ بالأَشْوَاكِ ، وَأَنَّهُ يَمْشِي دَائِمًا عَلَى حَافَّةِ الْهُوَّةِ لاَ يَعْرِفُ لِرَاحَةِ الْبَالِ بَابًا وَلاَ لِلطُّمَأْنِينَةِ فُسْحَةً وَمَجَالاً . كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْقَى فِي يَقَظَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ لِأَنَّ الأَمْرَ لاَيَتَعَلَّقُ بِتَنْغِيصِ الْعَيْشِ وَبِالأَلَمِ وَالْهَمِّ وَالْحُزْنِ فَتِلْكَ قِسْمَةُ الْبَشَرِ كُلِّهِمْ بَلْ بِشُعُورِهِ بِأَنَّ حَيَاتَهُ مُعَرَّضَةٌ عَلَى الدَّوَامِ لِلْخَطَرِ وَذَلِكَ نَصِيبُ قِلَّةٍ مِنَ النَّاسِ . وَكَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : لِمَاذَا قُدِّرَ عَلَيَّ أَنْ يَتَعَقَّبَنِي شَبَحُ الْمَوْتِ دَائِمًا وَأَنْ يَكُونَ حِرْصِي الْمُتَوَاصِلُ هُوَ الإِفْلاَتُ مِنْهُ لاَ التَّوْقُ إِلَى السَّعَادَةِ وَالنَّعِيمِ وَالْهَنَاءِ وَمَا كَانَ طَبْعِي طَبْعَ مُغَامِرٍ وَلاَ مُتَهَوِّرٍ ؟ أَنْ أَجْهَدَ إِلَى بِنَاءِ حَاضِرِي وَغَدِي بِالتَّعَبِ وَالْعَرَقِ وَتَذْلِيلِ الصُّعُوبَاتِ فَذَاكَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ وَهُوَ قَدَرُ كُلِّ الْبَشَرِ أَمَّا أَنْ أَصْرِفَ جُهْدِي لِدَفْعِ الأَخْطَارِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ وَخُصُوصًا الْمَوْتَ وَالتَّلاَشِيَ ، وَأَنَا مَا أَنَا لاَ أُكِنُّ عَدَاوَةً لِأَحَدٍ وَلاَ أَعْمَدُ إِلَى تَهْدِيدِ مَصْلَحَةِ أَيٍّ كَانَ ، فَتِلْكَ قِسْمَةُ قِلَّةٍ مِنَ النَّاسِ . فَكَأَنَّ تَابِعًا أَوْ تَابِعَةً فِي مُطَارَدَةٍ دَائِمَةٍ لِي . وَكَيْفَ يَتَسَنَّى لِي عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ أُوَاجِهَهُ أَوْ أُوَاجِهَهَا وَلَرُبَّمَا كَانَا مَعًا يَتَقَاسَمَانِ الأَدْوَارَ وَهُمَا يَتَعَقَّبَانِ خُطَايَ ؟ فَهَلْ قُدِّرَ عَلَيَّ أَنْ أَخُوضَ دَائِمًا مَعَارِكَ السَّاقَةِ وَجَيْشِ الْقَهْقَرَى ؟ وَمَا حِيلَتِي إِذَنْ ، وَعَدُوِّي مُتَوَارٍ ، مُتَخَفٍّ ، مُقَنَّعٍ ، شَبَحٌ لاَ يُطَالُ ، غَيْرُ الْفِرَارِ وَالْقَفْزِ عَلَى كُلِّ الْحَوَاجِزِ وَالْعَقَبَاتِ مُعَرِّضًا نَفْسِي لِلسُّقُوطِ وَالْهَلاَكِ . وَأَتَعَجَّبُ كَيْفَ أَجِدُنِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيَّ وَقَدْ أَفْلَتُّ مِنْ قَبْضَةِ مُتَعَقِّبِي مُسْتَرْجِعًا أَنْفَاسِي بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ لِتَعُودَ الْمِحْنَةُ مِنْ جَدِيدٍ .

وَاغْتَنَمَ عَلِي قُرْبَهُ مِنَ الْعُمْرَانِ لِيُوَدِّعَ قُدُورَة وَيَتَّجِهَ نَحْوَ مَحَطَّةِ التَّرَامِ وَيَمْتَطِيه لِتَعُودَ بِهِ الذَّاكِرَةُ قَسْرًا عَنْهُ إِلَى الأَشْهُرِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي قَضاهَا وَهْوَ عَونٌ بِهَذِهَ الشَّرِكَةِ وَخَرَجَ مِنْهَا مَطْرُودًا .

كَانَ التَّرَامُ يُهَدْهِدُهُ وَلاَ يَمْنَعُ انْثِيَالَ الذِّكْرَيَاتِ عَلَى ذِهْنِهِ بَلْ كَانَتْ تَنْدَفِعُ مُلِحَّةً وَلاَ تَتْرُكُهُ يَنْسَى قَسَاوَةَ عَمِّهِ الَّتِي أَجْبَرَتْهُ وَهْوَ صَغِيرُ السِّنِّ إِلَى النُّزوُحِ إِلَى الْعَاصِمَةِ وَالانْضِمَامِ إِلَى مَا سَمَّاهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَدْرَسَةَ الْفَسَادِ . فَفِيهَا وَجَدَ الأَقْرَانَ الَّذِينَ لَمْ يَضِنُّوا عَلَيْهِ بِتَلْقِينِهِ أَنْوَاعَ الانْحِرَافِ وَتَدْرِيبِهِ عَلَى الانْسِيَاقِ إِلَى غَرَائِزِهِ وَشَهَوَاتِهِ . وَهْوَ الشَّابُّ الْمُرَاهِقُ الَّذِي لَمْ يَتَجَاوَزْ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ، لاَ رَادِعَ يَرْدَعُهُ عَنْ وُلُوجِ أَبْوَابِ الطَّيْشِ وَالانْزِلاَقِ فِي مَتَاهَاتِ الْغَوَايَةِ الْمُتَاحَةِ فِي الْعَاصِمَةِ ، وَلاَ نَصِيرَ لَهُ أَيْضًا يَمْنَعُهُ مِنَ الإِحْسَاسِ بِالْجُوعِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً . نَعَمْ الإِحْسَاسُ بَالْجُوعِ وَهْوَ يَجُوبُ شَوَارِعَ تُونِسَ خَاوِيَ الْبَطْنِ . وَلَكِنَّهُ جُوعٌ لا مُبَرِّرَ لَهُ مَنْطِقِيًّا وَهْوَ الْمُنْحَدِرُ مِنْ أُسْرَةٍ لَمْ تَعْرِفِ الْفَقْرَ أَبَدًا وَ لَمْ تَشْعُرْ بِالدُّونِ وَالْغَلَبَةِ نِسْبِيًّا فِي بِلاَدٍ اعْتَادَتْ الطُّغْيَانَ وَالاسْتِبْدَادَ وَالظُّلْمَ . هُوَ جُوعٌ غَرِيبٌ ، جُوعٌ مُحَالٌ ، جُوعٌ مُرَكَّبٌ . جُوعُ صَاحِبِ الْجَاهِ وَالْمَالِ : هُوَ الْجُوعُ الْمَادِيُّ لاَ مَحَالَةَ الَّذِي يَعِزُّ فِيهِ الطَّعَامُ فِي آخِرِ الْمَطَافِ حَقِيقَةً لاَ مَجَازًا وَيَعْصِرُ الْمَعِدَةَ عَصْرًا وَيَحْفِرُهَا حَفْرًا ، وَيَتْرُكُ فَرَاغًا فِي الدِّمَاغِ يَحْتَدُّ بِهِ الذِّهْنُ فِي الأَوَّلِ ثُمَّ تَخُورُ مَعَهُ الْقُوَى وَيَتَلاَشَى مِنْ جَرَّائِهِ كُلُّ مَا يَرْبِطُهُ بِعَالَمِ الْبَشَرِ لِيُشَارِفَ عَالَمَ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ وَالْوَحْشِيَّةِ الَّتِي لاَتَعْرِفُ الْمُثُلَ وَالْقِيَمَ . وَلَكِنَّهُ جُوعٌ يَنْتَفِي عِنْدَ الظَّفَرِ بِالطَّعَامِ وَالْتِهَامِهِ . وَالْوَجْهُ الآخَرُ مِنْ هَذَا الْجُوعِ الْمُحَالِ هُوَ النَّفْسَانِيُّ الصَّادِرُ عَنْ وَعْيٍ حَادٌّ بِهِ لِأَنَّ مَصْدَرَهُ هُوَ الإِقْصَاءُ وَالطَّرْدُ وَالْحِرْمَانُ مِنَ

الْحَقِّ وَلِأَنَّـهُ فِـي الْوَاقِـعِ جُـوعٌ وَعَطَـشٌ إِلَـى الإِنْصَـافِ وَالْعَـدْلِ لاَ يُطْفِـئُ أُوَارَهُمَـا لاَ مَـأْكَلٌ وَلاَ مَشْـرَبٌ .

تَذَكَّرَ تِلْـكَ الْجَوْعَـةَ الأُولَـى بَعْـدَ ثَـلاَثِ سَنَوَاتٍ مِـنْ حُلُولِـهِ بِالْعَاصِمَـةِ مَـعَ خَالِـهِ الْعَمَّـارِي الْمُعَلِّـمِ ، لِيَدْخُـلَ جَـامِعَ الزَّيْتُونَـةِ إِثْـرَ طَـرْدِهِ مِـنَ الْمَدْرَسَـةِ الْفَرَنْكُـو عَرَبِيَّـةِ بِبَلْدَتِـهِ بِسَبَـبِ رِسَـالَةٍ شَكَـى فِيهَـا هُـوَ وَأَصْحَابُـهُ وَمِـنْ بَيْنِهِـمْ الطَّـاهِرُ الْمُدِيـرَ الْفَرَنْسِـيَّ لِتَهَاوُنِـهِ فِـي أَدَاءِ رِسَـالَتِهِ . الطَّـرْدُ هُـوَ قِسْـمَتُهُ ، الطَّـرْدُ مِـنَ الْمَدْرَسَـةِ ، ثُـمَّ تَهْدِيـدُهُ بِـالطَّرْدِ مِـنْ دَارِ جَـدِّهِ لِـأَنَّ عَمَّـهُ يُرِيـدُ اسْتِعْبَادَهُ وَإِقْصَـاءَهُ مِـنَ التَّعْلِيـمِ بِشَـتَّى الْوَسَـائِلِ مُتَّهِمًـا إِيَّـاهُ بِأَنَّـهُ مُنْحَـازٌ إِلَـى أَخْوَالِـهِ مَـعَ أُمِّـهِ وَغَرَضُـهُ فِـي آخِـرِ الأَمْـرِ حِرْمَانُـهُ هُـوَ وَإِخْوَتُـهُ مِـنَ الإِرْثِ بِإِيغَـارِ صَـدْرِ جَـدِّهِ عَلَيْـهِ وَدَفْعِـهِ إِلَـى الرُّجُـوعِ فِـي تَنْزِيلِهِمْ مَنْزِلَـةَ أَبِيهِـمْ فِـي الإِرْثِ .

لَمْ يَنْسَ أَنَّهُ جَاءَ يَوْمًا إِلَى جَدِّهِ وَقَالَ لَهُ :

ــ يَـاجَدِّي الْعَزِيـزَ ، أَرَأَيْـتَ كَيْـفَ طُـرِدْتُ مِـنَ الْمَدْرَسَـةِ ظُلْمًـا ... لَـمْ يَبْـقَ لِـي وَأَنْـتَ فِـي مَقَـامِ أَبِـي إِلاَّ أَنْ أَدْخُـلَ جَـامِعَ الزَّيْتُونَـةِ مِثْلَـكَ وَمِثْـلَ أَبِـي وَعَمِّي .

ــ يَا وَلَدِي أَنَا وَكَّلْـتُ عَمَّـكَ فِـي خُصُـوصِ الـرِّزْقِ وَهْـوَ أَعْلَـمَ بِإِمْكَانِيَّاتِنَـا .

وَلَـمْ يَنْـسَ كَذَلِـكَ الْيَـوْمَ الْمَشْـؤُومَ الَّـذِي خَـاطَبَ فِيـهِ عَمَّـهُ بِكُـلِّ لُطْـفٍ مُوهِمًا إِيَّاهُ أَنَّ جَدَّهُ لا يَرَى مَانِعًا إِذْ صَاحَ فِيهِ :

ــ يَـاكَلْب ... الـرِّزْقْ سَـايِب ... وَأَنَـا وَحْـدِي إِنْهَـزّ فِـي رَاسِـي وَنَلْطَـخْ ... وَسِيدِي هَـارِبْ مِالْخِدْمَـةِ ... وَأَنَـا مَـازِلْتْ أَدْفَـعْ دِيـنْ بُـوكَ ...دِيـنْ ... قُـولْ لُمَّـكْ تَعْطِيـكْ إِلِّـي تعْطِيـه لِحَـامِدْ خُوهَـا ... قِلَّـةِ الْحَيَـاء ... قُـومْ وخُـوذْ

مَعَاكْ فُطُور الْخَدَّامَة أُو آقِفْ عَلِيهُمْ ... آقِفْ عَلَى رِزْقْكُمْ يَا دِينِي ... صَنْوَة إِمْعَوَّجَة ... أيَّ إقْلِبْ وِجْهِكْ .

وَتَذَكَّرَ أَنَّهُ بَكَى وَكَأَنَّهُ فَقَدَ أَبَاهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ . وَرَغْمَ هَذَا لَمْ تَخُنْهُ الْحِيلَةُ ، إِذِ اتَّجَهَ إِلَى خَالِهِ الْعَمَّارِي الْمُتَأَهِّبِ لِلسَّفَرِ إِلَى الْعَاصِمَةِ لِيَلْتَحِقَ بِمَرْكَزِعَمَلِهِ ، وَقَالَ لَهُ بِدُون مُوَارَبَةٍ :
ـ يَا خَالِي ... الْفَضْلُ كُلُّ الْفَضْلِ لِوَالِدِي فِي ضَمَانِ مُسْتَقْبَلِكَ فَهُوَ الَّذِي أَعَانَكَ حَتَّى أَصْبَحْتَ مُعَلِّمًا وَالآنَ مَا عَلَيْكَ إِلاَّ أَنْ تَرُدَّ الْجَمِيلَ وَتَصْحَبَنِي مَعَكَ إِلَى تُونِسَ .

وَضَحِكَ الْعَمَّارِي ضَحْكَتَهُ الْحُلْوَةَ الْمُفْتَرَّةَ عَنْ أَسْنَانٍ بَيْضَاءَ مُنْتَظِمَةٍ جَمِيلَةٍ سَلِيمَةٍ لَمْ يُعَفِّنْهَا لاَ التِّبْغُ وَلاَ النَّفَّةُ وَلاَ بَقَايَا الطَّعَامِ . وَقَالَ لَهُ :
ـ أَعْجَبَتْنِي صَرَاحَتُكَ ... وَأَنَا لاَ أُمَانِعُ عَلَى شَرْطِ أَنْ تَتَزَوَّدَ بِالْكُسْكُسِي وَالْمَحَمَّص وَالْبَسِيسَة وَالزَّيْت .

وَسَكَنَ مَعَ خَالِهِ بِوَكَالَةِ الْخَلْدُونِيَّةِ بِالْعَطَّارِين ، ثُمَّ بِوَكَالَةِ التُّوتَة بِالسَّكَّاجِين . وَعَلاَوَةً عَلَى مُسَاهَمَتِهِ بِالْكُسْكُسِي وَغَيْرِهِ مِمَّا تُزَوِّدُهُ بِهِ أُمُّهُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ كَانَ يَقُومُ بِدَوْرِ الطَّبَّاخِ وَالْقَيِّمِ عَلَى تَرْتِيبِ شُؤُون الْغُرْفَةِ . وَكَانَ يَكْتَفِي بِأَنْ يَسْمَعَ مِنْ خَالِهِ عِبَارَةَ :" صَحِيتْ يَا عَلِي " الَّتِي يُعْطِيهَا صَاحِبُهَا نَبْرَةً فِيهَا الْحَنَانُ وَالإِشْفَاقُ تَصْحَبُهَا ابْتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ مُشْرِقَةٌ .

وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ الدِّرَاسِيَّةِ فُوجِئَ بِنُقْلَةِ خَالِهِ إِلَى بَاجَةَ . وَتُرِكَ وَحْدَهُ يُجَابِهُ لُقْمَةَ الْعَيْشِ وَكِرَاءَ الْغُرْفَةِ . وَانْقَطَعَ الْمَدَدُ مِن أَهْلِهِ لِأَسْبَابٍ يَعْلَمُهَا وَأُخْرَى يَجْهَلُهَا . وَلَمْ يَمْضِ شَهْرَانِ حَتَّى نَفَدَ كُلُّ شَيْءٍ وَجَاءَهُ عَمّ

بريّك التّواتي صَاحِبُ الْوَكَالَةِ وَقَالَ لَهُ :

ـ يَا وليدِي السَّمَاح فِي كِرَاءِ الشَّهر ... وَسَلّمْ الْمِفْتَاحْ وربِّي إِيوَاجْهك خِيرْ.

وَلَمْ يَعْلَمْ الْعَمّ بريّك وَلَعَلّهُ تَوَقَّعَ أَنَّ عَلِي لاَ يَأْكُلُ فِي الْيَوْمِ وَفِي أيّام الرَّخَاءِ إِلاَّ كَأْسًا مِنَ الْحِمَّصِ الْمَطْبُوخِ ثَمَنُهُ صُوردِي يَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيَّاطَيْنِ الْمُنْتَصِبَيْنِ قُبَالَةَ الْوَكَالَةِ . كَانَ عَلِي يُعِينُهُمَا عَلَى خِيَاطَةِ سِجَافِ الْجَبَايِبِ وَالْبَرَانِسِ .وَلَمْ يَتَسَنَّ لَهُ ذَلِكَ إِلاَّ بَعْدَ مُشَادَّةٍ غَرِيبَةٍ مَعَ أَحَدِهِمَا . وَصُورَةُ الأَمْرِ أَنَّ عَلِي الَّذِي لاَيَرْتَادُ الْمَقَاهِيَ لِقِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ تَعَوَّدَ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى الْخَيَّاطَيْنِ فِي الدُّكَّان ، فَيَتَجَاذَبُ مَعَهُمَا الْحَدِيثَ حَتَّى رَآهُمَا فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ وَقَدْ كَبُرَ حَجْمُ الشُّغْلِ عِنْدَهُمَا وَعَجَزَا عَنْ تَلْبِيَةِ رَغَبَاتِ الزَّبَائِنِ فِي الْمَوْعِدِ الْمَضْرُوبِ ؛ فَخَاطَبَ أَحَدَهُمَا قَائِلاً :

ـ أَنَا جَالِسٌ أُقَضِّي الْوَقْتَ فِي الْحَدِيثِ لَوْ أَعَنْتُكُمَا فِي خِيَاطَةِ سِجَافِ الْجَبَايِبِ وَالْبَرَانِسِ .

ـ وَاللَّهِ فِكْرَةٌ مَعْقُولَةٌ ... وَلَكِنْ هَلْ تَعْرِفُ كَيْفَ تُشَغِّلُ الإِبْرَةَ ؟

ـ أُحَاوِلُ .

وَأَخَذَ عَلِي الإِبْرَةَ وَانْهَمَكَ فِي الْعَمَلِ بِإِتْقَانٍ ، وَإِذَا بِالْخَيَّاطِ يَصِيحُ وَيَقُولُ:

ـ أُخْرُجْ ... إِذْهِبْ مِنْ هَنَا .

ـ لِمَاذَا يَا عَمّ الطَّاهِر؟ :

ـ مُنْذُ زَمَان وَأَنْتَ جَالِسٌ هُنَا وَهَمُّكَ أَنْ تَسْرِقَ الصِّنَاعَةَ ... وَالآنَ تُرِيدُ أَنْ تَمُرَّ إِلَى التَّطْبِيقِ ... تَشْغِيلُكَ لِلْإِبْرَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ لَسْتَ بُوجَادِي ... شُوفْ هَالْوَحيِّدْ ... أَيّ أُخْرُجْ مِنْ هُنَا ... فِقْنَا بِيكْ ...

وَإِذَا بِزَمِيلِهِ سِي عَبْدِ السَّلاَمِ يَنْهَرُهُ قَائِلاً :

ـ لاَ ، هَذَا عَيْب ... هُوَ تِلْمِيذ لاَيَمْلِكُ شَيْئًا ... أَتَظُنُّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى فَتْحِ دُكَّانٍ وَمُزَاحَمَتِنَا ... هَذَا هَبَال .

وَأَمْكَنَ بِذَلِكَ لِعَلِي أَنْ يُمَدِّدَ إِقَامَتَهُ بِتُونِسَ بِضْعَةَ أَسَابِيعَ لِيَتَرَدَّدَ عَلَى جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ . وَكَانَ سَيْفُ الطَّرْدِ وَالْجُوعِ مَاثِلاً بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، سَيْفٌ حَادٌّ بَرِيقُ شَفْرَتِهِ يَحِزُّ فِي نَفْسِهِ حَزَّاتٍ مُؤْلِمَةٍ ، يَحِزُّهُ فِي مَعِدَتِهِ وَخْزًا كَالإِبَرِ ، كَإِبْرَةِ عَمِّ الطَّاهِرِ الْخَيَّاطِ . وَعَرَفَ الْجُوعَ فِي تِلْكَ الأَسَابِيعِ وَاعْتَادَ السُّهَادَ فِي الْغُرْفَةِ بِالْوَكَالَةِ وَأَحَسَّ بِوَطْأَةِ الشَّقَاءِ وَهُوَ يَجُوبُ الأَنْهُجَ وَالأَزِقَّةَ . شُعُورُهُ بِالْكَرَامَةِ كَانَ يَدْفَعُهُ إِلَى أَنْ يَفِرَّ مِمَّنْ يَعْتَرِضُهُ مِنْ أَهْلِ الْبَلْدَةِ حَتَّى لاَ يُضْطَرَّ إِلَى دَعْوَتِهِ إِلَى شُرْبِ قَهْوَةٍ فَيَنْكَشِفُ أَمْرُهُ عِنْدَمَا لاَ يَتَكَرَّمُ بِدَفْعِ ثَمَنِ الْقَهْوَتَيْنِ وَلَوْ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ . وَعِزَّةُ النَّفْسِ تَقُودُهُ إِلَى الازْوِرَارِ عَنِ الْجُلُوسِ بَيْنَ أَقْرَانِهِ وَهُوَ طَائِشُ الْفِكْرِ مِنْ هَذَا الْجُوعِ الْمُرَكَّبِ حَتَّى لاَ تَنِمَّ مَلاَمِحُهُ وَحَدِيثُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ ضَنْكٍ .

كَانَ يَخْتَارُ التَّسَكُّعَ فِي الطُّرُقَاتِ هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ يَنْظُرُ إِلَى الْخَيْرَاتِ مُكَوَّمَةً فِي الدَّكَاكِينِ وَالْوَاجِهَاتِ ، وَيَرْمُقُ بِعَيْنَيْنِ مَلْهُوفَتَيْنِ الْفَوَاكِهَ الْمُعَرَّمَةَ ، وَالْمُرَصَّفَةَ أَمَامَ بَاعَتِهَا وَهُمْ يَتَفَنَّنُونَ فِي ذِكْرِ مَحَاسِنِهَا . وَكَمْ كَانَ يَشُقُّ عَلَى أُذُنَيْهِ أَنْ يَسْمَعَهُمْ بَيْنَمَا كَانَ فِي الْعَادَةِ يَلْتَذُّ بِنَبَرَاتِهِمْ وَبَرَاعَتِهِمْ فِي اخْتِيَارِ الأَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا إِمْعَانًا فِي الْوَصْفِ وَالتَّغَزُّلِ . كَانَ الْهَوِيُّ يَسْتَحْكِمُ بِهِمَا وَيُلِحُّ عَلَيْهِ إِلْحَاحًا ، يُمَطْرِقُ دِمَاغَهُ الْفَارِغَ وَيُوحِي إِلَيْهِ بِأَنْ لاَنَجَاةَ لَهُ إِلاَّ فِي الصَّبْرِ وَالْقَنَاعَةِ وَبِأَنَّ مَنْزِلَتَهُ هِيَ فِي آخِرِ الأَمْرِ أَنْ يَهْلِكَ جُوعًا .

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْسَ أَبَدًا أَنَّهُ ، كُلَّمَا مَرَّ فِي اللَّيْلِ بَعْدَ تَطْوَافٍ طَوِيلٍ مِنْ نَهْجِ سُوقِ النُّحَاسِ ، كَانَ يَسْمَعُ مُوسِيقَى رَائِعَةً تَنْبَعِثُ مِنْ دَارٍ كَبِيرَةٍ تُرَافِقُهَا أَصْوَاتٌ شَجِيَّةٌ نِسَائِيَّةٌ وَرِجَالِيَّةٌ تَدْخُلُ شَغَافَ قَلْبِهِ . فَيَجْلِسُ عَلَى عَتَبَةِ الدَّارِ وَيَبْقَى السَّاعَاتِ وَهُوَ يُنْصِتُ إِلَيْهَا . وَكَانَ أَثْنَاءَ ذَلِكَ يَنْسَى جُوعَهُ وَهُمُومَهُ وَيَسْرَحُ فِي عَالَمٍ فِيهِ الْبَهْجَةُ وَالارْتِيَاحُ . وَعَرَفَ بَعْدَ ذَلِكَ ، لَمَّا انْضَمَّ فِي بَلْدَتِهِ إِلَى مَجْلِسٍ مِنَ الْخِلاَّنِ فِيهِ مَنْ تَمَرَّسَ بِالْمُوسِيقَى ، أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَالُوفُ . فَأَحَبَّهُ وَحَفِظَ النَّوْبَاتِ جَمِيعَهَا وَعَدَّهُ حَبْلَ النَّجَاةِ فِي عَالَمِ الأَسَى وَالْحُزْنِ .

سَلَّمَ مِفْتَاحَ الْغُرْفَةِ لِعَمّ بَرَيِّك وَشَكَرَهُ عَلَى رَأْفَتِهِ بِهِ وَتَعَفُّفِهِ عَنْ مُطَالَبَتِهِ بِالْكِرَاءِ . وَأَخَذَ مَتَاعَهُ وَلَمْ يَرَ غَيْرَ أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى ابْنِ بَلْدَتِهِ وَقَرِيبِهِ الشَّيْخ حَسَن السَّاكِن بِمَدْرَسَةِ سِيدِي الْعَجَمِي بِنَهْجِ الرَّكَّاج . أَخَذَتْهُ الرَّأْفَةُ بِهِ فَآوَاهُ أُسْبُوعَيْنِ أَكْلاً وَشُرْبًا وَمَبِيتًا . وَاقْتَنَعَ بَعْدَ ذَلِكَ أَلاَّ مَفَرَّ لَهُ مِنِ امْتِطَاءِ كَرِّيطَةِ الْعَمّ قَاسِم الْحَمَّار بَيَّاع النَّار وَوَضْعِ ثَمَنِ السَّفْرَةِ دَيْنًا عَلَى عَاتِقِهِ وَقَضَاءِ ثَلاَثَةِ أَيَّام بِلَيَالِيهَا لِيَصِلَ إِلَى الْقَرْيَةِ فِي أَسْوَإِ حَالٍ ، تَمامًا كَمَا جَرَى لِلطَّاهِر عِنْدَمَا دَخَلَ تُونِسَ . وَلَكِنَّ الطَّاهِرَ فُتِحَ لَهُ بَابُ الْعَرْشِ أَمَّا هُوَ فَقَدِ انْسَدَّتْ أَمَامَهُ أَبْوَابُ الْخَيْرِ وَفُتِحَتْ فِي وَجْهِهِ أَرْتِجَةُ جَهَنَّمَ . وَدَخَلَ الْقَرْيَةَ وَكَأَنَّهُ قَدْ طُلِيَ بِالسَّوَادِ مِنَ الأَوْسَاخِ وَلَفَحَاتِ الشَّمْسِ وَالْغُبَارِ وَتَقَاطُرِ النَّدَى فِي اللَّيْلِ . وَتَحَاشَى شَقَّ الطَّرِيقِ الْمَأْلُوفِ مُتَوارِيًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ حَتَّى سَكَنَتْ كُلُّ نَأْمَةٍ وَدَخَلَ دَارَ الْجَمَاعَةِ رَأْسًا إِلَى غُرْفَةِ أُسْرَتِهِ الصَّغِيرَةِ لِيُفَاجِئَ أُمَّهُ وَقَدِ اسْوَدَّ مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إِلَى أَخْمُصِ قَدَمَيْهِ فَتَحْتَضِنُهُ وَالدُّمُوعُ تُضَمِّخُ وَجْهَ ابْنِهَا وَتَخْتَلِطُ بِالسَّوَادِ .

كُلُّ هَذَا تذَكَّرَهُ عَلِي عَلَى هَدْهَدَةِ التَّرَام حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَحَطَّةِ حَلْقِ الْوَادِي . وَنَزَلَ مِنْهُ مُتَّجِهًا نَحْوَ الْبُرْجِ الْقَدِيمِ حَيْثُ انْتَصَبَتْ طَائِفَةُ الطُّبْجِيَّةِ بِمَدَافِعِهَا الْقَلِيلَةِ بِقِيَادَةِ ضُبَّاطٍ فَرَنْسِيِّينَ وَمُهِمَّتُهَا هِيَ مَنْعُ قِطَعِ الْعَدُوِّ الْبَحْرِيَّةِ مِنَ الاقْتِرَابِ مِنَ الْمِينَاءِ وَكَذَلِكَ حِرَاسَةُ سِجْنِ الْكَرَّاكَةِ الشَّهِيرِ .

كَانَ عَلِي يُجَرِّرُ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يُسَاقُ إِلَى السِّجْنِ تَمَامًا مِثْلَمَا دَخَلَ تُونِسَ يَقُودُهُ الصَّبَايحِي مُسَلْسَلاً . كَانَ يُحِسُّ بِأَنَّ سَلاَسِلَ قَدْ شَدَّتْ أَوَاصِرَ قَلْبِهِ إِلَى تِلْكَ الَّتِي رَآهَا هَائِمَةً فِي الْحَدِيقَةِ . قَلْبُهُ هَذَا الَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ امْتَلأَ حُبًّا وَشَوْقًا وَعِشْقًا وَفَتَحَ لَهُ آمَالاً عِرَاضًا وَحَوَّلَ حَيَاتَهُ مِنَ الرَّتَابَةِ وَالضَّحَالَةِ وَالْفَرَاغِ وَالْجُوعِ إِلَى رِحَابٍ فِيهَا يَشْعُرُ بِاكْتِمَالِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَاسْتِتْمَامِ تَوَازُنِهَا وَاسْتِجْمَاعِ قُدُرَاتِهَا . وَإِذَا بِهِ يُحِسُّ بِأَنَّ ذَاكَ الْجُوعَ الْغَرِيبَ يَغْزُوهُ مِنْ جَدِيدٍ وَيَنْفُثُ فِي دِمَاغِهِ الْفَرَاغَ وَفِي نَفْسِهِ الأَسَى وَالْحُزْنَ وَيَنْسِفُ كُلَّ مَا كَانَ يَعْمُرُهُ نَسْفًا مِثْلَمَا تَنْسِفُ الْمَدَافِعُ الَّتِي يَرَاهَا أَمَامَهُ كُلَّ صَرْحٍ قَائِمٍ .]

7

[كَانَ عَلِي يَنْتَظِرُ حِصَّتَهُ الْمُتَمَثِّلَةَ فِي مُرَاقَبَةِ الْجُنْدِ الْمُكَلَّفِينَ بِالْحِرَاسَةِ وَتَلَقِّي الأَوَامِرِ بِالْهَاتِفِ مِنَ الْقِيَادَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ . كَانَ وَاقِفًا يَنْظُرُ إِلَى الْبَحْرِ . وَإِذَا بِسَجَّانِ الْكَرَّاكَةِ يُحَيِّيهِ وَيَقُولُ لَهُ :

ـ يُظْهِرْ عَلِيكْ قَالِقْ...مَاكِشْ قَدْ بَعْضِكْ . تحِبّ نَعْمْلُو دوُرَة فِي الْكَرَّاكَةِ ... أَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّكَ لَمْ تَزُرْهَا أَبَدًا ... هَيَّا نُرَوِّحْ عَلَى أَنْفُسِنَا .

ـ وَهَلْ فِي زِيَارَةِ الْحَبْسِ رَاحَةٌ وَمُتْعَةٌ ؟

ـ لاَ... إِتْشُوفْ الْمُجْرِمِينْ مُسَلْسَلِينْ ... شَيْ مِنْ حُبِّ الإطِّلاَع ...

اِنْسَاقَ عَلِي وَقَدِ اسْتَوَى عِنْدَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، الْفَرَحُ وَالْحُزْنُ ، الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ ، الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ . وَمَا قِيمَةُ الإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الأَجْوَاءِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالإِسْتِبْدَادِ الَّتِي لاَ تُعْرَفُ لَهُ فِيهَا كَرَامَةٌ وَلاَ تُصَانُ لَهُ حُرْمَةٌ . نَزَلاَ الاِثْنَانِ دَرَجَاتٍ قَلِيلَةً وَتَوَغَّلاَ فِي مَجَازٍ شِبْهِ مُظْلِمٍ حَتَّى وَصَلاَ إِلَى زَنْزَانَاتٍ فِيهَا الْمَسَاجِينُ مُثْقَلُونَ بِالسَّلاَسِلِ فِي أَسْوَإِ حَالٍ يَنْظُرُونَ إِلَى السَّجَّانِ وَجِلِينَ مُتَخَوِّفِينَ مِنْ هَذِهِ الزِّيَارَةِ الْمُفَاجِئَةِ . قَالَ السَّجَّانُ :

ـ هُمْ فِي أَحْسَنِ حَالٍ لَوْ رَأَيْتَ الْكَرَّاكَةَ الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي كَانَ يُسْجَنُ فِيهَا الْمُجْرِمُونَ قَبْلَ الْحِمَايَةِ ... اللّه يُرْضِي عَلَى الْعَكْرِي (الْعَكْرِي مَعْنَاه فَرَنْسَا) .

نَـزَلاَ دَرَجَـاتٍ أُخْـرَى وَهَالَـهُ مَـا رَأَى وَاقْشَـعَرَّ بَدَنُـهُ مِـنْ هَـذِهِ الْحِلَـقِ الْكَبِيرَةِ الْمُثْبَتَـةِ فِي الْجُـدْرَانِ وَهَـذِهِ السَّلاَسِـلِ الضَّخْمَـةِ وَهَـذِهِ الأَرْضِ الَّتِـي تَرْشَحُ مَاءً . قَالَ السَّجَّانُ :

ــ هَكَـذَا كَـانَ يُسْجَنُ الْمُجْرِمُونَ فِي الْمَـاءِ مُسَلْسَلِينَ ، لاَيَـرَوْنَ النُّـورَ وَمَـنْ خَـرَجَ مِنْهُـمْ حَيًّـا وَقَلِيـلٌ ذَلِـكَ فَإِنَّـهُ لاَيَسْلَمُ مِـنَ الأَمْـرَاضِ الْمُزْمِنَـةِ وَالْعَمَـى ، عِيشَـتُهُمْ عِيشَـةُ كِـلاَبٍ أَوْ الْكِـلاَب أَحْسَـن وَكَـانَتْ الْفِـئْرَان الْعَظِيمَـة تُقَاسِمُهُمْ أَكْلَهُـمْ وَتُضَـايِقُهُمْ فِي نَوْمِهِـمْ وَ يَقَظَتِهِـمْ وَتَسْطُو عَلَيْهِـمْ وَتَعَضُّهُـمْ فِي بَعْـضِ الأَحْيَـانِ وَهُـمْ نِيَـامٌ ... تَعْـرِفُ أَنَـا حَضـرْتُ ذَلِـكَ فِـي أَوَّلِ خِدْمَتِـي قَبْلَ الْحِمَايَةِ ... كُنْـتُ أُعِينُ وَالِـدِي رَحِمَـهُ اللّه عَلَـى هَـؤُلاَءِ الْمُجْرِمِـين .

وَالْتَفتَ السَّـجَّانُ فَلَـمْ يَجِـدْ عَلِـي الَّـذِي لَـمْ يَلْبَـثْ أَنِ انْسَـحَبَ وَقَـدْ أَصَابَـهُ الْقَـرَفُ وَتَمَلَّكَـهُ التَّعَجُّـبُ مِـنَ الْكَـائِنِ الْبَشَـرِيِّ كَيْـفَ يُصْبِـحُ أَقْسَـى مِـنَ الْوَحْـشِ ، يَتَلَهَّـى بِعَـذَابِ الْمُعَذَّبِينَ وَيَجِـدُ مُتْعَـةً فِي مُشَـاهَدَةِ بُـؤْسِ الإِنْسَـانِ وَتَهَافُتِـهِ .

وَمَـا أَنْ وَصَـلَ حَتَّـى شَـاهَدَ الْكُولُونِيـل الْفَرَنْسِيَّ (عَقِيـد) رَئِيـسَ الْـوَزَارَةِ الْحَرْبِيَّـةِ وَمعَـهُ كُومَنْـدَان (مُقَـدَّم) يَتَّجِهَـانِ نَحْـوَ مَرْكَـزِ الْحِرَاسَـةِ . فَنَبَّـهَ الشَّـاوُش عَمِـيرَة إِلَـى مَقْـدَمِ الرَّئِيـسِ وَلَكِـنَّ نَوْعًـا مِـنَ الدَّهْشَـةِ أَصَابَتْـهُ فَتَسَـمَّرَ فِـي مَكَانِـهِ وَبَقِـيَ مَشْـدُوهًا لاَ يَـدْرِي مَـايَفْعَلُ وَلاَ مَـا يَقُـولُ وَهْـوَ فَـوْقَ ذَلِـكَ يَجْهَلُ الْفَرَنْسِيَّةَ ، حَتَّىاقْتَرَبَ مِنْهُ الْكُولُونِيل وَقَالَ لَهُ :

ــ أَيْنَ الْيُوزْبَاشِي ... وَالْمُلاَزِمُ ؟

ــ ....

ــ مَا ذَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ ؟

عِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ عَلِي الْجُنْدَ بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَبِحَزْمِ الضُّبَّاطِ بِأَنْ يَأْخُذُوا أَمَاكِنَهُمْ حِذْوَ الْمَدَافِعِ الْمُنْتَصِبَةِ هُنَاكَ وَيُؤَدُّوا التَّحِيَّةَ الْمُنَاسِبَةَ . فَقَالَ الْكُولُونِيل لِلشَّاوُش عَمِيرَة :

ـ لَوْ جَاءَكَ إِذْنُ بِالْهَاتِفِ يُعْلِمُكَ بِأَنَّ قِطْعَةً بَحْرِيَّةً لِلْعَدُوِّ تَوَغَّلَتْ فِي مِيَاهِنَا عَلَى بُعْدِ أَرْبَعَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ مَاذَا تَفْعَلُ ؟

لَمْ يَفْهَمْهُ الشَّاوُش فَتَقَدَّمَ عَلِي وَأَذِنَ الْجُنْدَ بِتَهْيِئَةِ الْمَدَافِعِ حَسْبَمَا ذَكَرَهُ الْكُولُونِيل وَأَمَرَ بِوَضْعِ الْقَذَائِفَ مِنْ عِيَارِ كَذَا ، وَانْتَظَرَ الإِشَارَةَ . قَالَ الْكُولُونِيل :

ـ كَفَى ... حَسَنًا هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ .

وَاقْتَرَبَ مِنَ الشَّاوُش وَالْحَنَقُ يَدْفَعُهُ إِلَيْهِ وَأَخَذَ يَنْقُرُ بِإِصْبَعِهِ وَبِشِدَّةٍ صَدْرَ مَعَمَّر الْجَامِدِ فِي تَحِيَّةٍ مُضْحِكَةٍ وَقَالَ لَهُ مُكَشِّرًا عَنْ أَنْيَابِهِ :

ـ أَنْتَ لاَتَصْلُحُ لِأَيِّ شَيْءٍ ... هَذَا هُوَ الشَّاوُشُ (مُشِيرًا إِلَى عَلِي) لاَ أَنْتَ .

وَفِي ذَلِكَ الْحِينِ الْتَحَقَ الْيُوزْبَاشِي وَالْمُلاَزِمُ بِرَئِيسِ الْوَزَارَةِ الْحَرْبِيَّةِ وَدَارَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ بَيْنَهُمْ سَمِعَ عَلِي نُتَفًا مِنْهُ . قَالَ الْكُولُونِيل :

ـ مِسْيُو لِي يُوزْبَاشِي ، الرَّدَاءَةُ لاَ تُفْرِزُ إِلاَّ الرَّدَاءَةَ . وَالْمُجْتَمَعُ الرَّدِيءُ كَمُجْتَمَعِكُمْ لاَ يَقِفُ أَبَدًا إِلَى جَانِبِ الْمُتَفَوِّقِ وَالنَّابِهِ . هَكَذَا وَصَلْتُمْ إِلَى الإِنْحِطَاطِ بَعْدَ الْعَظَمَةِ وَالإِزْدِهَارِ لِأَنَّكُمْ دَأَبْتُمْ عَلَى اضْطِهَادِ الْمُتَفَوِّقِينَ وَالأَذْكِيَاءِ وَالنَّابِهِينَ وَرَضِيتُمْ بِالْجَهَلَةِ وَالأُمِّيِّينَ سَادَةً عَلَيْكُمْ . هَذَا الشَّاوُش الأُمِّيُّ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ حَتَّى الْكُتَّابَ كَيْفَ وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الرُّتْبَةِ ... غَرِيبٌ يَا مِسْيُو الْيُوزْبَاشِي .

ـ مُونْ كُولُونِيل ، الرَّئِيسُ السَّابِقُ لِوَزَارَةِ الْحَرْبِ كَانَ يَنْصَحُنَا بِعَكْسِ

هَـذَا . وَكَـانَ لاَ يَمِيـلُ إلاَّ إلَـى تَرْقِيَـةِ الأُمِّيِّـينَ وَيَتَخَلَّـصُ بِشَـتَّى الطُّـرُقِ مِـنَ النَّـابِهِينَ وَكَـانَ يَقُـولُ : لاَحَاجَـةَ لَنَـا فِـي حَـرَسِ الْبَـاي إلَـى الْمُتَعَلِّمِـينَ ، نَحْـنُ نُطَبِّقُ مَا تُمْلُونَهُ عَلَيْنَا ... مونْ كُولُونِيل ...

ــ آ ... هَكَـذَا ... رُبَّمَـا كَـانَ مَـنْ سَبَقَنِي عَلَى حَقٍّ ... رُبَّمَـا هُـوَ أَعْـرَفُ بِـالْعَرَبِ مِنِّـي ... وَلَكِـنْ هُنَـاكَ حَـدٌّ أَدْنَـى مِـنَ الْجَهْـلِ ... تَصَـوَّرْ أَنَّ كَارِثَـةً كَـانَ مِـنَ الْمُمْكِـنِ أَنْ تَحْـدُثَ عَلَـى يَـدِ هَـذَا الْبُورِيكُـو ... نَحْـنُ عَوَّلْنَـا عَلَيْكُـمْ فِي شَيْءٍ قَلِيلٍ احْتِمَالُهُ وَهُـوَ أَنْ تُغَـامِرَ قِطْعَـةٌ بَحْرِيَّـةٌ عَـدُوَّةٌ وَتَدْخُـلَ مِيَاهَنَـا ... لَقَـدْ زَوَّدْنَـاكُمْ بِـأَحْدَثِ الْمَدَافِـعِ لِهَـذَا الْغَـرَضِ وَعَلَّمْنَـاكُمْ وَدَرَّبْنَـاكُمْ أَحْسَـنَ تَدْرِيـبٍ ... وَمِـنْ حُسْـنِ الْحَـظِّ أَنَّ رَقَابَـةَ بَوَاخِرِنَـا وَغَوَّاصَاتِنَا مُتَوَاصِلَـةٌ هُنَـا ...وَخُلاَصَـةُ الْقَـوْلِ أَنَّـهُ لاَيُمْكِـنُ التَّعْوِيلُ عَلَيْكُـمْ .

لَـمْ يَعْرِفْ عَلِي النَّوْمَ فِي تِلْـكَ اللَّيْلَـةِ بَعْدَ يَوْمِهِ الْمَشْـحُونِ بِالْمُفَاجَـآتِ الْمُثِيرَةِ ، وَلَـمْ يُمْضِ السَّـهْرَةَ فِي لَعِبِ الْـوَرَقِ مَعَ الشَّـاوُش عَمِيرَةَ كَالْعَـادَةِ . وَهَـو الَّـذِي حَقَـدَ عَلَيْـهِ وَاعْتَبَرَ مَـا قَـامَ بِـهِ عَلِي أَمَـامَ الْكُولُونِيـل اعْتِـدَاءً عَلَـى صَلاَحِيَّاتِهِ وَحَطًّـا مِـنْ قِيمَتِـهِ .

وَمَـا أَنْ طَلَـعَ الصَّبَـاحُ حَتَّـى تَلَقَّـى بِالْهَـاتِفِ ، وَهْـوَ الْمُكَلَّـفُ بِـهِ ، أَمْـرًا مُوَجَّهًـا إلَـى الْيُوزْبَاشِـي يَقْضِـي بِإرْسَـالِ الأُمْبَاشِـي الَّـذِي كَـانَ بِالْعَسَّـةِ الْبَارِحَـةَ إلَى بَـارْدُو يَـوْمَ التَّـارِيخِ مَـعَ بَقْطَاجِـهِ . وَالأُمْبَاشِـي بِـالطَّبْعِ هُـوَ عَلِـي الَّـذِي لَـمْ يَسَـعْهُ إلاَّ أَنْ يُبَلِّـغَ الأَمْـرَ إلَـى الضَّـابِطِ ، فَيَأْذَنُـهُ هَـذَا الأَخِيرُ بِـالتَّهَيُّؤِ رَيْثَمَا يَصِلُ التَّخْبِـيرُ الْكِتَـابِيُّ فِـي حُـدُودِ السَّـاعَةِ الثَّانِيَـةِ بَعْـدَ مُنْتَصَـفِ النَّهَـارِ.

قَضَـى عَلِـي سَـاعَاتٍ طِوَالاً وَهْـوَ عَلَـى أَحَـرَّ مِـنَ الْجَمْـرِ وَزَادَهُ عَلَـى مَابِـهِ مِنَ الضِّيقِ لَغَـطُ الضُّبَّـاطِ الصِّغَـارِ وَتَكَهُّـنُ كُـلٍّ مِنْهُـمْ بِمَصِيرِهِ ، هَـذَا يَتَوَقَّـعُ لَـهُ

السِجْنَ لِأَنَّهُ تَجَاوَزَ صَلاَحِيَّاتِهِ وَتَدَخَّلَ فِيمَا لاَ يَعْنِيهِ وَالآخَرُ يَتَكَهَّنُ بِأَنَّ النَّجْمَتَيْنِ سَتَتَحَتْحَتُ وَيُصْبِحُ جُنْدِيًّا مِنْ دَرَجَةٍ ثَانِيَةٍ وَثَالِثٌ يُبَرِّرُ الْهَاتِفَ قَائِلاً :

ـ لَيْسَ هُنَا حَبْسٌ لِلْجُنْدِ ... الْحَبْسُ فِي بَارْدُو ... وَلِهَذَا لاَمَفرَّ لِعَلِي مِنَ السِّجْنِ .

وَرَابِعٌ يَتَحَدَّثُ عَلَى تَجْرِبَةٍ طَوِيلَةٍ وَيَقُولُ :

ـ وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا بِضَابِطٍ يُؤْمَرُ بِالذَّهَابِ إِلَى بَارْدُو مَعَ بَقْطَاجِهِ إِلاَّ لِيُعَاقَبَ .

كَانَ عَلِي يَسْمَعُ كَلَّ هَذَا الْحِوَارِ الْمُؤْلِمِ وَلاَ يُحَرِّكُ سَاكِنًا لِأَنَّهُ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا عُرْضَةً لِمُفَاجَآتٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ لِذَا وَضَعَ نَفْسَهُ بِاسْتِمْرَارٍعَلَى أُهْبَةٍ لِتَلَقِّي تَقَلُّبَاتِ الأَوْضَاعِ . وَهُوَ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ فِي آخِرِ الأَمْرِ إِنْسَانًا خُلِقَ غَيْرَ سَوِيٍّ ، لاَيَدْرِي كَيْفَ يَسِيرُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ إِذْ هُوَ مَا إِنْ خَطَا خُطْوَةً حَتَّى يَغُوصَ فِي الأَسْوَإِ فَالأَسْوَإِ .

وَفِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ جَاءَ التَّخْبِيرُ مِنْ وَزَارَةِ الْحَرْبِ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ ظَرْفٍ يَحْتَوِي عَلَى الأَمْرِ الْيَوْمِيِّ . فَتَحَهُ الضَّابِطُ وَلَمَّا قَرَأَهُ أَشَارَ إِلَى عَلِي لِيَتَقَدَّمَ نَحْوَهُ وَقَالَ :

ـ مَبْرُوك ... مَبْرُوك ... لَقَدْ رُقِّيتَ إِلَى رُتْبَةِ شَاوُش مُكَلَّفٍ بِالْعَمَلَةِ بِبَارْدُو وَتَحْتَ إِمْرَةِ الْبِينْبَاشِي (كُومَنْدَان) الْبَادِرِي .

وَمَا كَانَ لِعَلِي أَنْ يُنَاقِشَ الأَوَامِرَ . وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنَ التَّفْكِيرِ لاَ فِي التَّرْقِيَةِ ، إِذْ هِيَ نَتِيجَةٌ لِتَصَرُّفِهِ الذَكِيِّ أَمَامَ الْكُولُونِيل ، بَلْ فِي تَعْيِينِهِ خَارِجَ طَائِفَتِهِ لِيُشْرِفَ عَلَى أَشْغَالٍ لاَصِلَةَ لَهَا بِالْفَنِّ الْعَسْكَرِيِّ وَإِنْ

هِيَ ارْتَبَطَتْ بِالْحَرْبِ الدَّائِرَةِ فِي فَرَنْسَا . وَفَهِمَ أَنَّ الْكُولُونِيل ، رَغْمَ قَناعَتِهِ بِأَنَّهُ مِنَ الْوَاجِبِ مُكَافَأَةُ النَّابِهِين ، سَارَ سِيرَةً اسْتِعْمَارِيَّةً عِنْدَ إِبْعَادِهِ الْمُتَعَلِّمِينَ عَنْ مَوَاقِعِ الْقَرَارِ . ثُمَّ قَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـ هَذِهِ أُمُورٌ تَتَعَدَّانِي ... فَأَنَا جُنْدِيٌّ مَأْمُورٌ وَعَلَيَّ الطَّاعَةُ وَأَحْمَدُ اللَّهَ أَنَّنِي سَلِمْتُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ مِنَ الْعِقَابِ .

غَيْرَ أَنَّ الَّذِي كَانَ يُحَيِّرُ عَلِي أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ هُوَ حُبُّهُ لِسِيلْفِي . وَكَانَ فِي وِسْعِهِ أَنْ يَسْأَلَ كُلَّ يَوْمٍ عَنْهَا إِذْ أَصْبَحَ رَقِيبًا مِثْلَ زَمِيلِهِ الْفَرَنْسِيِّ فِي الْمُسْتَشْفَى وَأَنْ يَسْمَحَ لِنَفْسِهِ بِأَنْ يُحَدِّثَهُ بِكُلِّ صَرَاحَةٍ وَهُوَ الْعَارِفُ الآنَ بِعَلاَقَتِهِ مَعَهَا ، وَهَذَا مَاكَانَ يَفْعَلُهُ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالأُخْرَى ، فَيَقُولُ لَهُ زَمِيلُهُ فِي الْهَاتِفِ بَعْدَ الْخِطَابِ الطَّوِيلِ :

ـ عَلَى كُلٍّ إِيتِ يَوْمَ عُطلَتِكَ ... فَلَعَلَّهَا تَعُودُ لَهَا الذَّاكِرَةُ عِنْدَ رُؤْيَتِكَ .

وَكَانَ عَلِي يَتَّجِهُ ، فِي يَوْمِ عُطلَتِهِ ، أَوَّلَ مَا يَتَّجِهُ إِلَى الْمُسْتَشْفَى ، فَيَجِدُ سِيلْفِي إِمَّا فِي الْحَدِيقَةِ فَتَنْظُرُ إِلَيْهِ وَتَقُولُ : عَلِي مَات ... عَلِي مَات ، أَوْ فِي غُرْفَتِهَا تَسْمَعُ الْمُوسِيقَى وَلا تَقُولُ شَيْئًا بَلْ لاَ تُلْقِي عَلَيْهِ وَلَوْ نَظْرَةً وَاحِدَةً . وَسَلْوَاهُ الْوَحِيدَةُ بَعْدَ ذَلِكَ هُوَ الْغَرَقُ فِي قَلْبِ الْعَاصِمَةِ مَعَ أَقْرَانِهِ فِي الْقَصْفِ وَاللَّهْوِ .

وَبَعْدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، بَيْنَمَا كَانَ عَلِي فِي مَكْتَبِهِ إِذْ أَتَاهُ قُبْطَانٌ فَرَنْسِيٌّ وَقَالَ لَهُ :

ـ أَتُرِيدُ أَنْ تَرْتَقِيَ إِلَى رُتْبَةِ بَاش شَاوُش (رَقِيبٌ أَوَّلُ) .

ـ مُونْ قُبْطَان ... أَهَذَا سُؤَالٌ ؟ أَكُونُ بَلِيدًا لَوْ لَمْ أَقْبَلْ .

ـ وَلَكِنْ هُنَاكَ شَرْطَانِ ... أَوَّلاً : هَلْ تَعْرِفُ رُكُوبَ الْخَيْلِ ؟

ـ نَعَمْ ... وَلَكِنْ على غَيْرِ الأُسْلُوبِ الْعَسْكَرِيِّ ...
ـ هَـذَا تَتَعَلَّمُـهُ ... وَثَانِيًـا : هَـلْ لَـكَ خِـبْرَةٌ بِمَسْـكِ دَفَـاتِرِ الْمُحَاسَـبَةِ ؟
ـ نَعَمْ ... هَـذَا أَعْرِفُـهُ ... وَكَـانَ دَرَّبَنِـي عَلَـى ذَلِـكَ الْبَاش شَـاوُش مَعَمَّـر .
ـ إِذَنْ تُنْقَلُ إِلَى الْخَيَّالَةِ .

وَاعْـتَرَضَ الْبِيمْبَاشِـي الْبَـادِرِي عَلَـى هَـذَا الْقَـرَارِ ، وَلَكِـنْ لاَحَـوْلَ وَلاَ قُـوَّةَ لَـهُ أَمَـامَ سُـلْطَةِ الْقُبْطَـانِ . وَهْوَمِـنْ غَرِيـبِ الأُمُـورِ عِنْدَمَـا يَنْحَنِـي كُومَنْـدَان أَمَـامَ قُبْطَـان الَّـذِي تَعَلَّـلَ بِـأَنَّ الإِشْـرَافَ عَلَـى الْعَمَلَـةِ لاَ يَتَطَلَّـبُ مَعْرِفَـةً كَـبِيرَةً بَيْنَمَـا مَسْـكُ دَفَـاتِرِ الْمُحَاسَـبَةِ صَعْـبٌ إِذْ هُنَـاكَ شُـغُورٌ فِـي طَائِفَـةِ الْخَيَّالَـةِ لاَ بُـدَّ مِـنْ تَسْـدِيدِهِ .

وَنُقِـلَ عَلِـي إِلَـى الْخَيَّالَـةِ وَأَصْبَـحَ يَقُـومُ بِعَمَلَيْـنِ : مَسْـكِ الدَّفْـتَرِ وَالتَّـدَرُّبِ عَلَى رُكُـوبِ الْخَيْـلِ يَوْمِيًّا . وَرَغْـمَ التَّعَـبِ وَالإِجْهَـادِ فَقَـدْ أَتْقَـنَ فَـنَّ الْفُرُوسِـيَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَصَـارَ رَكَّابًـا . وَلَكِـنَّ رُتْبَـةَ بَـاش شَـاوُشْ ظَلَّـتْ فِـي حُكْـمِ الْعَـدَمِ . وَكَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ وَحْدَهُ لاَ لِأَصْحَابِهِ :
ـ خَدَعَنِـي وَسَخِرَ بِـي الْقُبْطَـان ... وَانْتَقَـمَ مِنِّـي الْبِيمْبَاشِـي ... أَنَـا دَائِمًـا ضَحِيَّـةٌ ... كُـرَةٌ يَتَقَـاذَفُنِي الأَقْوِيَـاءُ مِـنَ التُّونِسِـيِّينَ وَالْفَرَنْسِـيِّينَ .

وَفُوجِـئَ بَعْـدَ أَسَـابِيعَ قَلِيلَـةٍ مِـنِ اجْتِرَارِهِ لِهَـذِهِ الْمَـرَارَةِ بِيُوزْبَاشِـي الطُّبْجِيَّـةِ يُنَادِيهِ وَيَقُولُ لَهُ :
ـ هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَرْتَقِيَ إِلَى رُتْبَةِ بَاش شَاوُش ؟
وَبَعْـدَ أَدَاءِ التَّحِيَّـةِ الْعَسْـكَرِيَّةِ سَـكَتَ عَلِـي وَلَـمْ يَقُـلْ مَـا قَالَـهُ لِلْقُبْـطَانِ الْفَرَنْسِيِّ . فَأَعَادَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ . قَالَ عَلِي :
ـ مُونْ قُبْطَان إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُمْضِيَ وَقْتًا لِلسُّخْرِيَّةِ بِي ...
ـ مَاذَا تَقُولُ ... هَلْ مِنْ عَادَتِي أَنْ أَهْزَلَ مَعَكَ ؟

ــ لاَ ... مُونْ قُبْطَان . وَلَكِنَّ الْقُبْطَانَ الْفَرَنْسِيَّ قَالَ لِي نَفْسَ الْكَلاَمِ ... وَهَا أَنَاذَا أَعْمَلُ عَمَلَيْنِ مُنْذُ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ وَلَمْ يُوفِ بِوَعْدِهِ .

ــ الْمَسْأَلَةُ جِدٌّ ...أَنَا أَخَذْتُ وَعْدًا قَاطِعًا مِنْ رَئِيسِ الْوَزَارَةِ الْحَرْبِيَّةِ .

وَسُمِّيَ عَلِي بَاش شَاوُش بِالطُّبْجِيَّةِ وَهْيَ طَائِفَتُهُ الأَصْلِيَّةُ الَّتِي يَمِيلُ إِلَيْهَا . وَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ حَتَّى أَتَمَّ حِصَّتَهُ مِنَ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَهْيَ ثَلاَثُ سَنَوَاتٍ وَطَلَبَ تَسْرِيحَهُ مِنْ حَرَسِ الْبَايِ. وَكَانَ الْجَوَابُ بَاتًّا : إِمَّا التَّطَوُّعُ لِمُدَّةِ ثَلاَثِ سَنَوَاتٍ أُخْرَى بَالْعَسَّةِ الْمَصُونَةِ أَوِ الاِنْضِمَامِ إِلَى الرَّدِيفِ وَهَذَا يَقْتَضِي الإِحَالَةَ إِلَى عَسْكَرِ التَّرَايُور بَالْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ وَالْحَرْبُ لاَ تَزَالُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى أَشُدِّهَا . وَاضْطُرَّ إِلَى التَّطَوُّعِ لِمُدَّةِ ثَلاَثِ سَنَوَاتٍ . فَاخْتَارَ بِذَلِكَ الْعُبُودِيَّةَ مَعَ الْحَيَاةِ عَلَى الْمَوْتِ الْمَجَّانِيِّ مِنْ أَجْلِ قَضِيَّةٍ لاَ نَاقَةَ لَهُ فِيهَا وَلاَ جَمَلَ . وَأَحَسَّ بِدُونِيَّتِهِ وَتَفَاهَتِهِ . وَسَمَّى ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّنَدُّرِ وَالتَّبَجُّحِ اللَّذَيْنِ يُخْفِيَانِ الشُّعُورَ بِالْعَجْزِ وَالْهَزِيمَةِ ، تَطَوُّعًا إِجْبَارِيًّا . وَهَذَا مِنْ مُفَارَقَاتِ نِظَامِ الْحِمَايَةِ وَالْبَايَاتِ ، نِظَامٍ مُرَكَّبٍ مُعَقَّدٍ جَمَعَ عُيُوبَ نِظَامَيْنِ هُمَا الْحُكْمُ الْمُطْلَقُ الْمُنْهَارُ وَالاسْتِعْمَارُ . وَهْوَ مِنْ أَتْعَسِ الأَنْظِمَةِ سَحْقًا لِلشَّخْصِيَّةِ وَإِذَابَةً لَهَا وَسَلْبًا لِحُرِّيَّتِهَا لِتَكُونَ طَيِّعَةً ، مُسْتَكِينَةً ، مَخْذُولَةً ، مُتَمَلِّقَةً ، مُتَزَلِّفَةً ، مُدَاهِنَةً ، لَحَّاسَةً ، مِنْ بَنِي وِي وِي .

وَأَصْبَحَ عَلِي بِهَذِهِ الصُّورَةِ مِنْ قُدَامَى الضُّبَّاطِ الصِّغَارِ وَاخْتَلَفَ وَضْعُهُ عَنْ وَضْعِهِ السَّابِقِ ، حَالَةِ الْمَطْلُوبِ لِلْجُنْدِيَّةِ الْهَارِبِ . وَفَهِمَ أَنَّ مَاحَاقَ بِهِ فِي تِلْكَ السَّنَوَاتِ الصَّعْبَةِ عَلاَوَةً عَلَى وَضْعِهِ السَّيِّئِ إِنَّمَا كَانَ نَتِيجَةَ صِرَاعٍ بَيْنَ قَادَةِ الطَّوَائِفِ مِنَ الطُّبْجِيَّةِ وَالْخَيَّالَةِ وَالتَّرِيسِ (الْمُشَاةِ) لِلاِسْتِئْثَارِ بِهَذَا النَّزْرِ الْقَلِيلِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ لِلُّغَتَيْنِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ . أَمَّا هُوَ

فَلَمْ يَكُنْ إِلاَّ شَيْئًا مِنَ الأَشْيَاءِ وَكُرَةً يَتَلاَقَفُهَا أَصْحَابُ السَّطْوَةِ وَالنُّفُوذِ .]

(أَنَا النَّاقِلُ لِهَذا الْحَدِيثِ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ عَلَى عَبْدَ اللَّطِيفِ نَسَقَ رِوَايَتِهِ الَّتِي صَاغَهَا مِنْ أَشْرِطَةٍ مُسَجَّلَةٍ وَأُطْلِعَ الْقَارِئَ عَلَى أَنَّنِي عِبْتُ عَلَى عَبْدِ اللَّطِيفِ هَذَا التَّفَلْسُفَ الْمَنْسُوبَ إِلَى جَدِّهِ وَهْوَ الْجُنْدِيُّ الْبَسِيطُ الَّذِي لَمْ يَدَّعِ يَوْمًا أَنَّهُ فَهِمَ الدُّنْيَا فَهْمًا خَاصًّا بَلْ هُوَ لَمْ يَكُنْ حَسْبَمَا صَرَّحَ بِهِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ إِلاَّ ذَاكَ الْعَابِرُ الْمُتَصَارِعُ مَعَ الْحَيَاةِ وَمَعَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تُوَاجِهُهُ طَلَبًا لِلْبُقْيَا وَالنَّجَاةِ بِجِلْدِهِ . فَعَيْبُ عَبْدِ اللَّطِيفِ هُوَ إِثْرَاءُ الأَحْدَاثِ وَتَرْتِيبُهَا وَصَوْغُهَا صِيَاغَةً فِيهَا شَيْءٌ مِنَ التَّنْمِيقِ وَالزُّخْرُفِ بِحَيْثُ تُحْشَرُ حَشْرًا فِي الآثَارِ الأَدَبِيَّةِ وَادَّعَى أَنَّ جَدَّهُ كَانَ يَتَعَمَّقُ فِي الأَحْدَاثِ وَيَتَفَلْسَفُ فِيهَا وَيُعْطِيهَا صِيغَةً أَدَبِيَّةً وَلَكِنْ بِالْعَامِيَّةِ التُّونِسِيَّةِ الْبَلِيغَةِ الَّتِي لاَ تَخْلُو مِنْ فَنٍّ وَصَنْعَةٍ . وَهَكَذَا تُصْبِحُ دَائِمًا رِوَايَةُ الأَحْدَاثِ خَيَالٌ فِي خَيَالٍ لاَمَسَاسَ لَهَا بِالْوَاقِعِ إِلاَّ مِنْ بَعِيدٍ وَخَاصَّةً إِذَا مَرَّتْ بِدَرَجَاتٍ مِنَ اللُّغَةِ مُخْتَلِفَةٍ . وَلَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا أَتْلَفَ عَبْدُ اللَّطِيفِ الأَشْرِطَةَ وَلَمَّا لِيمَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ : فَعَلْتُ مِثْلَمَا فَعَلَ الرُّوَاةُ وَالْجَمَّاعِينَ مَعَ النُّصُوصِ الأَصْلِيَّةِ الَّتِي اعْتَمَدُوهَا . وَآفَةُ الأَخْبَارِ رُوَاتُهَا .)

[وَكَرِهَ عَلِي فِي أَصْحَابِ السَّطْوَةِ وَالنُّفُوذِ تُونِسِيِّينَ كَانُوا أَوْ فَرَنْسِيِّينَ وَخُصُوصًا هَؤُلاَءِ الضُّبَّاطَ شُعُورَهُمْ بِاللَّذَّةِ فِي التَّحَكُّمِ وَالتَّسَلُّطِ وَكَأَنَّهُمْ اِقْتَنَعُوا بِأَنَّ السُّلْطَةَ بِدُون نَخْوَةٍ تُعَزِّزُهَا وَسَكْرَةٍ تَعْضِدُهَا لاَسِحْرَ فِيهَا وَلاَ نَشْوَةَ تَعْقُبُهَا . وَلَوْلاَ رَقَابَةُ الْفَرَنْسِيِّينَ لِهَؤُلاَءِ الضُّبَّاطِ الْجَهَلَةِ لَرَكِبَهُمْ جُنُونُ الْقَهْرِ وَالْبَطْشِ مِثْلَمَا كَانَ شَأْنُ بَعضِ الْحُكَّامِ قَبْلَ الْحِمَايَةِ . وَلَكِنْ

مِنْ حُسْنِ الْحَظِّ أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَصْحَابَ الْقَرَارِ النِّهَائِيِّ . وَلِهَذَا شَعُرَ النَّاسُ عَلَى مُسْتَوَى الأَفْرَادِ بِشَيْءٍ مِنَ الْحُرِّيَّةِ لَمْ يَكُونُوا لِيَتَمَتَّعُوا بِهَا مِنْ قَبْلُ .

فَأَيْنَ هُوَ مِنَ الَّذِي رَآهُ فِي قِلَّةٍ مِنَ الْفَرَنْسِيِّينَ مِنْ مَيْلٍ إِلَى الْعَدْلِ وِالإِنْسَانِيَّةِ ؟ وَهْوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ عِنْدَ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى أُمَّةٍ أَعْلَنَتْ حُقُوقَ الإِنْسَانِ فِي ثَوْرَتِهَا وَنَاضَلَتْ مِنْ أَجْلِ الْحُرِّيَّةِ وَالأُخُوَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ . وَلَكِنَّ الَّذِي لَمْ يَهْضِمْهُ فِي الأَكْثَرِينَ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ الَّذِينَ يَسْتَمِدُّونَ نُفُوذَهُمْ مِنْ كَفَاءَاتِهِمْ فِي الْغَالِبِ وَمِنْ رُسُوخِهِمْ فِي الثَّقَافَةِ وَالْحَضَارَةِ هُوَ أَنْ تُغَيِّرَ مَا بِهِمْ مُمَارَسَتُهُمْ لِلسُّلْطَةِ فِي بَلَدٍ مَايَزَالُ غَارِقًا فِي الْكُلْيَانِيَّةِ وَيَنْسَاقُوا إِلَى تَحْبِيذِ صُوَرٍ مِنْهَا عَلَى أَسَاسِ احْتِرَامِ الْمُعْتَقَدِ وَمَا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ ، وَيَتَشَبَّثُوا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى بِتَكْرِيسِ غَايَاتِهِمْ الإِسْتِعْمَارِيَّةِ وَجَعْلِهَا مَثَلاً أَعْلَى لِلتُّونِسِيِّينَ بِدَعْوَى الرِّسَالَةِ التَّمْدِينِيَّةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي آلَتْ فَرَنْسَا عَلَى نَفْسِهَا أَنْ تَضْطَلِعَ بِهَا .

وَمَهْمَا كَانَ الأَمْرُ فَإِنَّ عَلِي ، بِرُتْبَةِ بَاش شَاوُش وَوَضْعِهِ كَمُتَطَوِّعٍ ، كَسَبَ شَيْئًا مِنَ الإعْتِدَادِ بِالنَّفْسِ وَالشُّعُورِ بِأَنَّ هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ . وَتَغَيَّرَتِ الْمُعَامَلَةُ وَأَصْبَحَ أَكْثَرَ مَعْرِفَةً بِخَبَايَا الأُمُورِ الَّتِي لاَ يَتَحَرَّجُ رُؤَسَاؤُهُ مِنْ إِطْلاَعِهِ عَلَيْهَا بِمَا أَنَّهُ أَصْبَحَ فِي ذِهْنِهِمْ رُوشْكَةً فِي مَكِنَتِهِمْ وَلَكِنَّ عَلِي لَمْ يَعِ أَنَّهُ مَجَرَّدَ رُوشْكَةٍ مِنَ السَّهْلِ تَعْوِيضُهَا .

أَمَّا الَّذِي لَمْ يَدُرْ بِخَلَدِ رُؤَسَائِهِ الضُّبَّاطِ هُوَ أَنَّ عَلِي وَلُوعٌ بِجَمْعِ سَقَطَاتِهِمْ وَتَحْلِيلِ عُيُوبِهِمْ حَتَّى تَكُونَ مَادَّةً لِمَسْرَحِيَّاتٍ هَزْلِيَّةٍ ، نَسِيجُهَا الْجَهْلُ وَالأُمِّيَّةُ الْمُطْبَقَةُ وَالطَّمَعُ وَالْحِقْدُ وَالإِنْخِذَالُ وَالْمُدَاهَنَةُ وَالتَّزَلُّفُ وَالْمَسْكَنَةُ وَالْغَدْرُ . وَكُلَّمَا مَرَّتِ الأَيَّامُ إِلاَّ وَزَادَ نَقْمَةً عَلَى هَؤُلاَءِ الَّذِينَ

وَضَعُوا تَحْتَ جَزْمَاتِهِمْ الْمِئَاتِ مِنْ ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَأَصْبَحُوا زَبَانِيَّةً لِنِظَامٍ لَقِيطٍ هَجِينٍ ، وَلِيدِ زِيجَةٍ قَهْرِيَّةٍ بَيْنَ عِمْلاَقٍ ذِي بَطْشٍ وَقُوَّةٍ وَقَمِيءٍ مُتَنَكِّسٍ .

وَأَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنَ الأُلْفَةِ مَعَ مَرْؤُوسِيهِ مِنَ الْكَبْرَانَاتِ وَالشُّوَّاشِ إِذْ كَانَتْ مُعَامَلَتُهُ لَهُمْ لاَ تُشْبِهُ فِي شَيْءٍ مَا أَلِفُوهُ مِنْ قَبْلُ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُتَسَلِّطِينَ . وَغَلاَ فِي رَأْسِهِ طَيْشُ الشَّبَابِ وَنَسِيَ أَنَّهُ تَحْتَ رَحْمَةِ مَنْ لاَ يَرْحَمُ ، وَانْزَلَقَ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي طَرِيقٍ اخْتَارَهَا هُوَ بِنَفْسِهِ وَلَمْ يَظْلِمْهُ أَحَدٌ .

تَذَكَّرَ أَنَّهُ ، لَمَّا كَانَ بِبَاجَةَ عَوْنًا بِشَرِكَةِ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَقُودَهُ الصَّبَايِحِي أَحْمَد مُسَلْسَلاً إِلَى تُونِسَ ، اِنْضَمَّ إِلَى فِرْقَةِ التَّمْثِيلِ الَّتِي يَسْهَرُ عَلَيْهَا الْبَشِير الْقَعْلُول وَقَامَ بِدَوْرِ كُومَنْدَان فِي مَسْرَحِيَّةِ نَاكِرِ الْجَمِيلِ . وَوَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطَانُ وَقَالَ لَهُ :
ـ لَقَدْ أَظْهَرْتَ بَرَاعَةً فِي التَّمْثِيلِ آنَذَاكَ وَكَمْ صَفَّقَ لَكَ الْجُمْهُورُ وَطَلَبُوا مِنْكَ الإِعَادَةَ . وَلَوْ لَمْ تُقَدْ قَسْرًا إِلَى الْجُنْدِيَّةِ لَكَانَ لَكَ مُسْتَقْبَلٌ زَاهِرٌ فِي هَذَا الْفَنِّ . فَلِمَاذَا ، وَأَنْتَ تَعِيشُ مَلْهَاةً مِنْ طِرَازٍ لاَ مَثِيلَ لَهُ ، لاَ تُؤَلِّفُ مَسْرَحِيَّةً أَبْطَالُهَا هَؤُلاَءِ الضُّبَّاطُ الْجَهَلَةُ ؟

وَانْكَبَّ عَلِي يَكْتُبُ حِوَارًا تَضَمَّنَ مَشْهَدَ الْيُوزْبَاشِي مَعَ الدَّجَّاجَةِ وَفَلاَلِيسِهَا ، وَزِيَارَاتِ الْكُولُونِيل لِلثُّكْنَةِ ، وَ قُدُومِ الْكَلْبَةِ وَالشُّوشَةِ الَّتِي تُحْدِثُهَا فِي الضُّبَّاطِ وَكُلِّ الْكَلاَمِ الْمُحَرَّفِ عَنِ الْفَرَنْسِيَّةِ الَّذِي كَانَ يَحْرِصُ بِالْكِتَابَةِ أَمَامَهُمْ عَلَى الْتِقَاطِهِ مِنْ أَفْوَاهِ أَصْحَابِهِ رَأْسًا فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ وَيَظْهَرُ أَمَامَ هَؤُلاَءِ مَرْؤُوسًا حَرِيصًا عَلَى إِبْلاَغِ الأَوَامِرِ بِدِقَّةٍ . فَهَذَا يَأْمُرُ الْجُنْدَ بِأَنْ يَصْطَفُّوا فَيَصِيحُ بِهِمْ : هَالِينِي ... هَالِينِي بِنَبْرَةٍ بَدَوِيَّةٍ خَالِصَةٍ وَذَاكَ يَأْمُرُهُمْ بِرَفْعِ نْسْلاَحِ فَيَصْرَخُ : بُوزْتِيلْ أَرْمْ . وَثَالِثٌ

تَخْتَلِطُ عَلَيْهِ الأُمُورُ فَيُسَمِّي مَيْدَانَ التَّعْلِيمِ مِيدَايْ التَّعْلِيمِ ظَانًّا أَنَّ الأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِمِيدَالِيَّةٍ وَعُذْرُهُ أَنَّ كُلَّ الْمُصْطَلَحَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فَرَنْسِيَّةُ اللُّغَةِ فَلِمَاذَا هَذِهِ تَخْرُجُ عَنِ الْمَأْلُوفِ ؟ وَرَابِعٌ لاَ يَعْرِفُ مِنَ الْفَرَنْسِيَّةِ إِلاَّ كَلِمَةَ بَرَفْ أَيْ بِاخْتِصَارٍ فَسَمَّوْهُ الْمُلاَزِمَ بَرَفْ . وَخَامِسٌ وَلِعَ بِعِبَارَةِ سِي زِيرُو أَيْ هَذَا صِفْرٌ الْتَقَطَهَا مَرَّةً مِنْ فَمْ ضَابِطٍ فَرَنْسِيٍّ وَتَكَرَّرَتْ مَرَّاتٍ عَلَى لِسَانِهِ عِنْدَ تَفَقُّدِ الطَّائِفَةِ إِغَاظَةً لِمَرْؤُوسِيهِ وَحَطًّا مِنْ قِيمَةِ أَعْمَالِهِمْ ، فَأَخَذَ يُلْقِيهَا صَاحِبُنَا كَمَا اتَّفَقَ فِي حَالاَتٍ لاَ دَخْلَ لِلصِّفْرِ فِيهَا . وَسَادِسٌ لَهُ قِرَاءَةٌ خَاصَّةٌ بِنَحْنُ وَأَنْتُمْ فَيَقُولُ اِحْنُومِلْ وَاِنْتُومِلْ فَيُدَاعِبُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ خُبَثَاءِ الْمُلاَزِمِينَ وَيَقُولُ لَهُ يَا سَيِّدِ الْبِيمْبَاشِي : كَلاَمُكُمْ حُلْوٌ وَسَوِيٌّ إِلاَّ كَلِمَتَيْنِ تَدُلاَّنِ عَلَى نَحْنُ وَأَنْتُمْ . فَيَقُولُ مُسْتَغْرِبًا :

ـ وَاشْ .

ـ اِحْنُومِلْ وَاِنْتُومِلْ .

ـ اِينَعَمْ هَذُوكُمْ لِهُومِلْ .

وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ الْمُبْكِيَاتِ الَّتِي أَلِفَ حِوَارَهَا عَلِي وَاسْتَمْتَعَ بِهَا وَحْدَهُ فِي الأَوَّلِ ثُمَّ أَطْلَعَ عَلَيْهَا بَعْضَ خُلَصَائِهِ مِنْ مَرْؤُوسِيهِ فَاقْتَرَحَ عَلَيْهِ أَنْ يُكَوِّنَ فِرْقَةً مِنَ الْكَبْرَانَاتِ وَالشُّوَّاشِ وَيَتَدَرَّبُوا عَلَيْهَا فِي سَهَرَاتِهِمْ فِي مَاسِّ الضُّبَاطِ الصِّغَارِ عِنْدَمَا يَنَامُ الْجُنْدُ وَتَمُوتُ كُلُّ حَرَكَةٍ . وَبَدَأَتِ التَّمَارِينُ مُكَثَّفَةً مُغْرِقَةً فِي السُّخْرِيَّةِ وَالْهَزْلِ .

وَلَكِنَّ الَّذِي لَمْ يَحْسِبْ لَهُ عَلِي حِسَابًا وَنَسِيَهُ هُوَ أَنَّ الضُّبَّاطَ رَغْمَ أَنَّهُمْ يُغَادِرُونَ الثُّكْنَةَ فِي الْمَغْرِبِ فَإِنَّهُمْ يَتْرُكُونَ دَائِمًا مَنْ يَنُوبُهُمْ . وَلَعَلَّهُ ظَنَّ أَنَّ الْمُلاَزِمَ الْمُعَيَّنَ بِاللَّيْلِ لاَ يَتَحَرَّكُ مِنَ الْمَكَانِ الْمُخَصَّصِ لَهُ وَالْبَعِيدِ

عَنْ جَنَاحِ الْجُنْدِ وَالضُّبَّاطِ الصِّغَارِ بَيْنَمَا الصَّاغْ قُلْ أَغَاصَي (وَكِيلٌ) تَعْمَلُ فِيهِ الْخَمْرُ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فَيَنَامُ إِلَى الصُّبْحِ .

وَكَانَتِ الْكَارِثَةُ . إِذْ دَفَعَ الْفُضُولُ أَوِ الْوَاجِبُ الْمُلاَزِمَ لِتَفَقُّدِ الْجُنْدِ . فَاقْتَرَبَ مِنْ قَاعَةِ الطَّعَامِ وَسَمِعَ ضَجَّةً فَتَسَلَّلَ إِلَى حَيْثُ يُشَاهِدُ وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا يَحْدُثُ وَلاَيَرَاهُ أَحَدٌ . وَانْدَهَشَ لِمَا رَأَى مِنْ فُصُولِ الْمَسْرَحِيَّةِ . وَلَمَّا عَلاَ التَّصْفِيقُ وَضَحِكَ الْقَوْمُ بَرَزَ الْمُلاَزِمُ مِنْ مَكْمَنِهِ وَصَاحَ :
ـ بَارَكَ اللّٰهُ فِيكَ يَا سَيِّد الْبَاش شَاوُش ... هَكَذَا تَسْخَرُ مِنَ الضُّبَّاطِ وَمَعَ مَرْؤُوسِيكَ ... هَاتِ مَا بِيَدِكَ .

وَافْتَكَّ الْمُلاَزِمُ الْحِوَارَ الَّذِي كَتَبَهُ عَلِي بِخَطٍّ يَدِهِ . وَفِي الصَّبَاحِ قَادَهُ الأَجُودَان (وَكِيل) إِلَى سِجْنِ الْوُقُوفِ . وَبَقِيَ هُنَاكَ بَيْنَ جِيئَةٍ وَذَهَابٍ خَاضِعًا إِلَى بَحْثٍ مُعَمَّقٍ ، وَالشُّهُودُ هُمُ الضُّبَّاطُ الصِّغَارُ الَّذِينَ قَامُوا بِالأَدْوَارِ وَالْمُحَقِّقُونَ هُمْ أَبْطَالُ الْمَسْرَحِيَّةِ يَتَدَاوَلُونَ عَلَيْهِ لِيَعْرِفُوا حَقِيقَتَهُمْ ؛ وَالْمُضْحِكُ هُوَ أَنَّهُمْ أَتَاحُوا الْفُرْصَةَ لِعَلِيٍّ لِيَشْهَدَ فُصُولاً أُخْرَى لَيْسَ فِي إِمْكَانِهِ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ تَقْيِيدَهَا .

وَبَعْدَ إِتْمَامِ الْبَحْثِ اِقْتَرَحَ الْمُحَقِّقُونَ أَنْ يَكُونَ الْعِقَابُ كَالآتِي : يُفْسَخُ عَقْدُ التَّطَوُّعِ وَبِهَذِهِ الصُّورَةِ يُصْبِحُ الْمُجْرِمُ رَدِيفًا فَيُحَالُ آلِيًّا عَلَى عَسْكَرِ الطَّرَايُورِ وَمِنْهُ إِلَى الْوَاجِهَةِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ دَرْسًا لاَ يَنْسَاهُ فِي حَيَاتِهِ إِنْ بَقِيَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ .]

8

[وَجدَ عَلِي نَفْسَهُ بَيْنَ أَرْبَعَةِ جُدْران ، فِي خَانَةِ الإنْطِلاَقِ ، عَلَى أَبْوَابِ أَنْ يُصْبِحَ كَمَا كَانَ مُنْذُ ثَلاَثِ سَنَوَاتٍ رِيشَةً فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ مُعَرَّضًا إِلَى التَّلَفِ وَالْهَلاَكِ .

وَحَاسَبَ نَفْسَهُ وَأَنْحَى عَلَيْهَا بِاللاَّئِمَةِ مُعْتَرِفًا بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَنَى عَلَيْهَا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ وَجَرَّ إِلَيْهَا الْمَصَائِبَ . وَقَالَ فِي دَخِيلَتِهِ : مَا زَالَ طَيْشُ الشَّبَابِ مُسَيْطِرًا عَلَيَّ . فَكَيْفَ أَنْسَاقُ إِلَيْهِ وَلاَ أَنْتَبِهُ . إِنَّ الإِنْسَانَ يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ مَا يَعْمَلُهُ الْعَدُوُّ لِعَدُوِّهِ . وَأَخَذَ يَسْتَعْرِضُ غَلَطَاتِهِ السَّابِقَةَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً وَأَمَرَّ عَلَى ذِهْنِهِ صُوَرَ انْقِيَادِهِ لِفَوْرَةِ الشَّبَابِ . وَيَقُولُ : الآنَ عَرَفْتَ ، يَا عَلِي ، أَنَّهَا غَلطَاتٌ بَيْنَمَا كُنْتَ تَتَبَجَّحُ وَتَنْسِبُهَا إِلَى الشَّطَارَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ .

تَذَكَّرَ الْحَالَةَ الَّتِي وَصَلَ فِيهَا إِلَى قَرْيَتِهِ عِنْدَمَا ضَاقَتْ بِهِ السُّبُلُ فِي الْعَاصِمَةِ وَعَرَفَ الْجُوعَ وَاضْطُرَّ إِلَى الْبَقَاءِ عِنْدَ ابْنِ بَلْدَتِهِ حَسَن بنْ عَلِي وَلَمْ يَنْسَ سَفْرَتَهُ عَلَى الْكَرِّيطَةِ وَهُوَ لاَيَمْلِكُ وَلَوْ صُورْدِي لِيَكُونَ فِي آخِرِ الأَمْرِ بَيْنَ أَهْلِهِ ضَيْفًا ثَقِيلاً . إِذْ مَا إِنْ دَفَعَتْ أُمُّهُ أُجْرَةَ الْكَرَارِطِي زِيَادَةً عَلَى مَصَارِيفِ الْمَؤُونَةِ حَتَّى انْبَرَى عَمُّهُ يُضَايِقُهُ :
ـ إِمْشِ هنَا يَا كَلْبْ ... هِزّ الْفطُور لِلْخَدَّامَة يَا كَلْب ... أُوقُفْ عَلَى الْخَدَّامَة يَا كَلْب ...

وَكَانَ بِالطَّبْعِ لاَ يَقْبَلُ ذَلِكَ ، فَيَنْتَقِمُ مِنْهُ عَمُّهُ أَشَدَّ الانْتِقَامِ . يَشْكُوهُ إِلَى جَدِّهِ ، وَيَتَّهِمُهُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ بِالسَّرِقَةِ رَغْمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَخَاهُ

صُوَيلح هُوَ الْفَاعِلُ . وَلَكِنَّهُ يَخَافُ أُمَّهُ فَيَضْرِبُ عُصْفُورَيْنِ بِحَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ : يَكْسِبُ رِضَاءَ وَالِدَتِهِ وَيَنْتَقِمُ مِنِ ابْنِ أَخِيهِ . وَكَانَ سَعْيُهُ الَّذِي لاَ يَنِي هُوَ الظَّفَرُ بِتَجْرِيدِ اِبْنَةِ عَمِّهِ وَأَوْلاَدِهَا مِنَ الإِرْثِ بِالتَّأْثِيرِ عَلَى وَالِدِهِ الشَّيْخِ الْهَرِمِ مُنَاوَشَةً مُتَوَاصِلَةً وَهَرْسَلَةً خَبِيثَةً . وَلَكِنَّ الْحَاج سَالِم كَانَ رَجُلاً مُتَزِنًا يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ نِصْفَ الأَرْزَاقِ الَّتِي يَنْعَمُ بِخَيْرَاتِهَا الْجَمِيعُ هِيَ فِي الْوَاقِعِ مِلْكٌ لِعَامِرٍ وَبِالطَّبْعِ لِأَوْلاَدِهِ وَأَنَّ كِيمَة ، وَإِنْ هِيَ أَعَانَتْ إِخْوَتَهَا ، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تُرَجِّحُ عَاطِفَةَ الأُخُوَّةِ عَلَى الْبُنُوَّةِ اِنْسِيَاقًا لِنَزْعَةٍ غَرِيبَةٍ وَتَنْحَنِي أَمَامَ مَشِيئَةِ أُمِّهَا ضُعْفَ إِرَادَةٍ وَمُيُوعَةَ شَخْصِيَّةٍ . وَكَانَ الْجَدُّ يُدْرِكُ أَيْضًا غَايَةَ حَفِيظ مِنْ هَذِهِ الْحَمْلَةِ الْعُدْوَانِيَّةِ الْمُتَوَاصِلَةِ ، وَالأَبُ هُوَ دَائِمًا أَعْرَفُ النَّاسِ بِحَقِيقَةِ ابْنِهِ أَكْثَرَ مِنَ الأُمِّ وَالإِخْوَةِ وَالزَّوْجَةِ . لِذَا كَانَ لاَ تَفُوتُهُ أَيَّةُ فُرْصَةٍ لِيُنْحِيَ بِاللاَّئِمَةِ عَلَيْهِ وَيَصِفَهُ بِسَفَالَةِ الأَخْلاَقِ وَنُكْرَانِ جَمِيلِ مَنْ كَانَ سَبَبًا فِي دَعْمِ ثَرْوَةِ الأُسْرَةِ وَمُوَاصَلَةِ تَأْثِيلِ مَجْدِهَا .

وَخَافَ عَلِي مِنْ ضُعْفِ جَدِّهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ وَتَكُونُ الْكَارِثَةُ ، فَقَرَّرَ السَّفَرَ إِلَى تُونِسَ مِنْ جَدِيدٍ كَلَّفَهُ ذَلِكَ مَا كَلَّفَهُ .وَيَكُونُ الْبَحْثُ عَنْ شُغْلٍ هُوَ الْغَرَضُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ . وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي بِتَكَالِيفِ السَّفَرِ الْبَاهِضَةِ وَالإِقَامَةِ إِلَى حِينِ الظَّفَرِ بِعَمَلٍ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْخَصَاصَةِ ؟ وَرَأَى أَنْ يَنْضَمَّ إِلَى مَجْمُوعَةِ النِّسَاءِ اللاَّتِي يَلْتَقِطْنَ الزَّيْتُونَ الْمُتَبَقِّيَ الْمُنْتَشِرَ عَلَى الأَرْضِ بَعْدَ عَمَلِيَّةِ الْجَمْعِ . وَأَصْبَحَ يَحْصُلُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ عَلَى نَصِيبٍ مِنْ حَبَّاتِ الزَّيْتُونِ يَبِيعُهَا فِي آخِرِ النَّهَارِ . وَظَنَّ الْمُشْرِفُ عَلَى الْخَدَّامَةِ أَنَّ الْعَمَّ وَالْجَدَّ عَلَى عِلْمٍ بِالأَمْرِ . وَمَرَّتْ أَيَّامٌ عَلَى تِلْكَ الْوَتِيرَةِ وَفَّرَ فِيهَا مَبْلَغًا لَيْسَ بِالْهَيِّنِ كَانَ يُخَبِّئُهُ فِي ثُقْبَةٍ بِجِدَارِ غُرْفَةٍ

مَهْجُورَةٍ بِبَيْتِ جَدِّهِ لِلْأُمِّ . وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ صُدِمَ بِحَدَثَيْنِ مُتَزَامِنَيْنِ : لَقَدْ سُرِقَتِ الْفُلُوسُ مِنَ الثُّقْبَةِ وَعَرَفَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ خَالَهُ حَامِد هُوَ الْفَاعِلُ لِأَنَّهُ وَضَعَ صُرَّةً فَارِغَةً فِي الثُّقْبَةِ وَاخْتَبَأَ مُنْتَظِرًا مَنْ يَسْرِقُهَا فَلَمَحَهُ يَدْخُلُ الْغُرْفَةَ ثُمَّ يَخْرُجُ وَقَدْ رَمَى بِالصُّرَّةِ الْفَارِغَةِ . وَفِي نَفْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ جَاءَهُ عَمُّهُ إِلَى غَابَةِ الزَّيْتُونِ وَأَطْرَدَهُ وَوَبَّخَ الْمُشْرِفَ وَهَدَّدَهُ بِالطَّرْدِ إِنْ تَغَاضَى عَنْ هَذَا الْكَلْبِ مَرَّةً أُخْرَى .

وَرَجَعَ عَلِي إِلَى خَانَةِ الإِنْطِلاَقِ . مَا ذَا يَفْعَلُ ؟ أَصْبَحَ يَعْتَرِضُ الْخَدَّامَةَ عِنْدَ رُجُوعِهِمْ إِلَى الْبَلْدَةِ فِي الْمَغْرِبِ وَيَغْرِفُ مِنَ الأَكْيَاسِ نَصِيبًا مِنَ الزَّيْتُوْنِ وَيَبِيعُهُ . وَمَا أَنْ مَرَّتْ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ حَتَّى جَاءَهُ عَمُّهُ وَقَالَ :
ـ أَنَا أَعْرِفُ مَا بِعْتَهُ مِنَ الزَّيْتُونِ كَذَا ... وَكَذَا... فَإِمَّا أَنْ تَأْتِينِي بِكُلِّ مَا عِنْدَكَ وَإِلاَّ شَكَوْتُكَ إِلَى جَدِّكَ وَسَيَطْرُدُكُمْ مِنَ الْبَيْتِ جَمِيعًا .

وَلَمْ يَجِدْ عَلِي بُدًّا مِنْ تَسْلِيمِ كُلِّ الْمَالِ الْمَوْجُودِ عِنْدَهُ وَرَغْمَ ذَلِكَ قَرَّرَ السَّفَرَ مُسْتَعِينًا بِأُمِّهِ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ قَالَ لَهَا :
ـ تَعْرِفِينَ يَا أُمِّي أَنِّنِي سَأُجَنَّدُ قَرِيبًا . وَلِذَا فَلاَ بُدَّ مِنْ إِجْرَاءِ امْتِحَانٍ فِي تُونِسَ لِلتَخَلُّصِ نِهَائِيًّا مِنَ الْجُنْدِيَّةِ . اِعْطِينِي ثَمَنَ السَّفَرِ بِالرَّتْلِ جِيئَةً وَذَهَابًا وَسَأَرْجِعُ بَعْدَ أُسْبُوعَيْنِ وَإِيَّاكِ أَنْ تَبُوحِي بِذَلِكَ لِأَيٍّ كَانَ لِأَنَّ عَمِّي سَيَمْنَعُنِي مِنَ السَّفَرِ .

وَأَعْطَتْهُ أُمُّهُ ثَمَنَ التَّذْكِرَةِ . وَعَلِمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلَ أَنَّ عَمَّهُ رَغْمَ اغْتِصَابِ الْفُلُوسِ شَكَاهُ إِلَى جَدِّهِ وَبِيَدِهِ دَلِيلُ الْجَرِيمَةِ مُعَرِّضًا بِضُعْفِ وَالِدِهِ دَافِعًا إِيَّاهُ لِأَخْذِ الْقَرَارِ الْحَاسِمِ مُهَدِّدًا بِأَنَّ تَكْرَارَ مِثْلِ هَذَا الصَّنِيعِ وَشُمُولِهِ كُلَّ الأَبْنَاءِ وَالأَحْفَادِ يُدْخِلُ الْفَوْضَى فِي مَسْؤُولِيَّتِهِ

وَيُلْحِقُ بِالْجَمِيعِ الْخَسَارَةَ . وَمَا كَانَ مِنَ الْحَاج سَالِم إِلاَّ أَنْ قَالَ سَاخِرًا مِنْهُ :

ـ مَنْ أَخَذَ مِنْ رِزْقِهِ لاَ يُعَدُّ سَارِقًا . ثُمَّ هَذِهِ عَادَةُ كُلِّ الْبَنَاتِ وَالأَبْنَاءِ أَنْ يُوَفِّرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ . أَلَمْ تَكُنْ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي طُفُولَتِكَ وَمُرَاهَقَتِكَ ؟ أُغْرُبْ عَنْ وَجْهِي وَلاَ تَزِدْ عَلَى وَجَعِ رَأْسِي وَجَعًا آخَرَ . وَثِقْ أَنَّ الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ أَتَرَاجَعُ فِي تَنْزِيلِ أَحْفَادِي مَنْزِلَةَ أَبِيهِمْ فِي الرِّزْقِ فَإِنِّي أَفْسَخُ التَّوْكِيلَ الَّذِي أَصْبَحْتَ بِهِ نِمْرُودًا .

حَلَّ عَلِي بِتُونِسَ وَاتَّجَهَ رَأْسًا إِلَى عُمَر ابْنِ بَلْدَتِهِ وَجَارِهِ الَّذِي يَعْمَلُ بِشَرِكَةِ التَّرَامِ لِأَنَّهُ رَسَمَ خُطَّتَهُ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ قَرَّرَ فِيهِ الرَّحِيلَ . وَأَعَانَهُ عُمَر عَلَى تَحْرِيرِ مَطْلَبٍ لِلْعَمَلِ بِالشَّرِكَةِ وَاتَّجَهَ إِلَى مَقَرِّهَا بِبَاب سَعْدُون وَسَلَّمَ الْمَطْلَبَ إِلَى مُتَفَقِّدٍ فَرَنْسِيٍّ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالرُّجُوعِ فِي الْغَدِ لِيَفْحَصَهُ الطَّبِيبُ . وَبَعْدَ أُسْبُوعٍ أُجْرِيَ عَلَيْهِ امْتِحَانٌ فِي الْحِسَابِ وَالإِنْشَاءِ بِاللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ . وَقُبِلَ خَلاَّصًا بِالشَّرِكَةِ بَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ بِشَرْطِ دَفْعِ ضَمَانٍ قَدْرُهُ خَمْسُونَ فَرَنْكًا لِأَنَّ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْعَمَلَةِ دَأَبُوا عَلَى الاِحْتِفَاظِ بِمَالِ الشَّرِكَةِ الَّذِي يَجْمَعُونَهُ مِنَ الرُّكَّابِ فِي يَوْمِ عَزْمِهِمْ عَلَى مُغَادَرَةِ الشَّرِكَةِ . وَاسْتَعَارَ الْمَبْلَغَ مِنِ ابْنِ بَلْدَتِهِ وَبَدَأَ التَّرَبُّصَ مَعَ أَحَدِ مُوَظَّفِي الشَّرِكَةِ أُسْبُوعًا كَامِلاً . وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ امْتِحَانٌ ثَانٍ شَفَهِيٌّ وَانْضَمَّ إِلَى الشَّرِكَةِ بِصُورَةٍ رَسْمِيَّةٍ .

وَانْدَمَجَ عَلِيٌّ بِكُلِّيَتِهِ فِي هَذَا الْعَمَلِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَتَطَلَّبَ مِنْهُ جُهْدًا كَبِيرًا وَأَعْجَبَهُ مَا فِيهِ مِنْ تَنَقُّلٍ وَمَعْرِفَةٍ لِجُلِّ أَحْيَاءِ الْعَاصِمَةِ

وَضَوَاحِيهَا وَاحْتِكَاكِهِ بِالنَّاسِ عَلَى مُخْتَلَفِ جِنْسِيَّاتِهِمْ وَأَصْنَافِهِمْ وَطَبَقَاتِهِمْ : الْحَضَرُ مِنْهُمْ وَالْبَدْوُ ، وَعِلْيَةُ الْقَوْمِ وَحُثَالَتُهُمْ ، التُّونِسِيُّونَ وَالْفَرَنْسِيُّونَ ، وَالطِّلْيَانُ وَالْمَالْطِيُّونَ وَالْيَهُودُ وَغَيْرُهُمْ مِمَّا يَعُجُّ بِهِمْ التِّرَام . وَكَانَتِ الْعَاصِمَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ جَامِعَةً لِجَالِيَاتٍ عَدِيدَةٍ ، تَعِيشُ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ فِي شِبْهِ وِئَامٍ .

وَكَانَ يُنْصِتُ إِلَى النَّاسِ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِي شَتَّى شُؤُونِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، وَيَحْضُرُ الْمُنَاقَشَاتِ الْحَادَّةَ الْمُفِيدَةَ كَمَا يَشْهَدُ الْخِصَامَ بَيْنَ بُسَطَاءِ النَّاسِ . وَاغْتَنَمَ أَكْثَرَ مِنْ فُرْصَةٍ لِعَقْدِ صَدَاقَاتٍ مَعَ أُنَاسٍ يَحْتَلُّونَ مَنَاصِبَ هَامَّةً فِي الإِدَارَةِ . فَكَانَ كُلُّهُ آذَانًا لالْتِقَاطِ الطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ مِنَ الْكَلامِ والاطِّلاَعِ عَلَى سُلُوكِ سَاكِنِي الْعَاصِمَةِ وَالنَّفَاذِ إِلَى أَسْرَارِهِمْ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ . وَكَانَتِ الْعَجَائِزُ أَكْثَرَ النَّاسِ ثَرْثَرَةً وَأَحَبَّهُنَّ إِلَيْهِ لِأَنَّهُنَّ يُوصِلْنَهُ إِلَى الْفَاتِنَاتِ وَيَفْتَحْنَ فِي وَجْهِهِ الْبُيُوتَ .

وَكَيْفَ لاَيَنْسَاقُ إِلَى نِدَاءَاتِ حَلاَوَةِ الْعَيْشِ وَلَذَائِذِهِ وَهْوَ الَّذِي كَانَ ، إِلَى الْبَارِحَةِ ، مُغْمَضَ الْعَيْنَيْنِ لاَ يَعْرِفُ لِلَّهْوِ مَعْنًى بَلْ سَيْطَرَ الْجِدُّ عَلَى تَفْكِيرِهِ وَسُلُوكِهِ وَأَسْبَلَتْ هُمُومُ الْحَيَاةِ عَلَيْهِ رِدَاءً مِنَ الْقَتَامَةِ وَ التَّجَهُّمِ وَالْفَاقَةِ . وَإِذَا بِهِ يَجِدُ الْمَالَ وَالرُّفْقَةَ وَفُنُونَ اللَّذَةِ وَنَشْوَتَهَا . فَكَانَ لاَ يَهُمُّهُ مِنَ النَّهَارِ إِلاَّ مَا يُهَيِّئُهُ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ الْمُتْعَةِ فِي اللَّيْلِ الْمَشْحُونَةِ مُغَامَرَاتٍ ، السُّكْرُ وَقُودُهَا وَالطَّرَبُ لَهِيبُهَا وَالْجِنْسُ وَالْكَلَبُ شُوَاظُهَا .

وَنَسِيَ أَنَّهُ كَانَ ، فِي بَعْضِ الأَحْوَالِ ، لاَ يَجِدُ صُورْدِي ، وَهْوَ جُزْءٌ مِنْ عِشْرِينَ مِنَ الْفَرَنْكِ ، لِيَشْتَرِيَ بِهِ كَأْسًا مِنَ الْحِمَّصِ الْمُنَفَّخِ الْمَطْبُوخِ

يَكُونُ وَجْبَتَهُ الْوَحِيدَةَ . وَالآنَ يَصِلُ مُرَتَّبُهُ إِلَى خَمْسِينَ أَوْ سِتِّينَ فَرَنْكًا فِي الشَّهْرِ ، جُلُّهَا يَذْهَبُ فِي الْمَلاَهِي وَيَجِدُ نَفْسَهُ فِي أَغْلَبِ الأَحْوَالِ مُضْطَرًّا إِلَى السَّلَفِ ؛ وَيَتَذَمَّرُ هُوَ وَزُمَلاَؤُهُ مِنَ الشَّرِكَةِ الاِسْتِعْمَارِيَّةِ الَّتِي تَعْمَدُ إِلَى تَقْلِيصِ سَاعَاتِ الْعَمَلِ يَوْمِيًّا لِئَلاَّ تَدْفَعَ لَهُمْ الْمُرَتَّبَ كَامِلاً وَهُوَ تِسْعُونَ فَرَنْكًا لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ .

مَا الْعَمَلُ إِذَنْ لِلاِقْتِصَاصِ مِنَ الشَّرِكَةِ ؟ وَتَذَكَّرَ كَيْفَ انْحَدَرَ إِلَى السَّرِقَةِ ، وَهُوَ الَّذِي تَرَبَّى عَلَى الأَخْلاَقِ الْعَالِيَةِ . وَكَانَتِ التَّبْرِيرَاتُ عَدِيدَةً مِنَ الزُّمَلاَءِ :

ـ هَذَا اسْتِعْمَارٌ مِنَ الشَّرِكَةِ حَلاَلٌ سَرِقَتُهَا .

ـ هَذَا اسْتِعْبَادٌ لاَ بُدَّ مِنَ الثَّوْرَةِ عَلَيْهِ .

وَحَلَّ عِنْدَهُمْ التَّحَيُّلُ بِاسْمِ الدِّينِ وَالْوَطَنِ وَمُقَاوَمَةِ الاِسْتِغْلاَلِ وَالاِسْتِعْمَارِ. وَوَجَدَ عَدَدٌ مِنْهُمْ لَيْسَ بِالْقَلِيلِ الطَّرِيقَةَ لِتَنْفِيذِ هَذَا الإِجْمَاعِ . وَهُوَ أَنْ يَأْخُذُوا الْمَالَ مِنْ بُسَطَاءِ الرُّكَّابِ وَلاَ يُسَلِّمُوا لَهُمْ التَّذَاكِرَ . لَكِنَّ الشَّرِكَةَ كَانَتْ بِالْمِرْصَادِ وَمُتَفَقِّدِيهَا يَضْبِطُونَ الْمُخَالِفِينَ بِسُهُولَةٍ وَيَكُونُ الْعِقَابُ الطَّرْدَ وَضَيَاعَ الضَّمَانِ الْمَالِيِّ .

مَا الْعَمَلُ إِذَنْ وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ فِي الْمُقَاوَمَةِ بَاهِضَةُ الثَّمَنِ عَاقِبَتُهَا الْبِطَالَةُ وَلاَ مَنْ يُحَرِّكُ سَاكِنًا لِرَدِّ الْفِعْلِ لاَ مِنَ الْمُتَدَيِّنِينَ وَلاَ الْوَطَنِيِّينَ وَلاَ الْمُدَافِعِينَ عَنِ الْعُمَّالِ ؟ وَوَجَدَ عَلِي الْحِيلَةَ مَعَ زَمِيلٍ مِنْ بِلاَدِ الْقَبَائِلِ ، وَشَعُرَ بِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ التَّضَامُنِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْمَغْرِبِ الْكَبِيرِ وَالْفِكْرَةُ شَائِعَةٌ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ . هِيَ حِيلَةٌ لَمْ يَتَفَطَّنْ إِلَيْهَا أَحَدٌ : أَنْ يُسَلِّمَ إِلَى رَاكِبٍ وَاحِدٍ ثَلاَثَ تَذَاكِرَ أَوْ أَرْبَعَةً نِيَابَةً عَنِ الْمُسَافِرِينَ الْقَرِيبِينَ مِنْهُ وَكَأَنَّهُمْ فِي صُحْبَتِهِ مُتَّجِهِينَ إِلَى مَحَطَّةٍ وَاحِدَةٍ . وَعِنْدَمَا يَهُمُّ بِالنُّزُولِ مَعَهُمْ تُسْتَرْجَعُ

التَّذَاكِرُ بِسُرْعَةٍ وَتُبَاعُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِمُسَافِرِينَ آخَرِينَ . وَلَيْسَ لِلْمُتَفَقِّدِ أَيَّةُ فُسْحَةٍ مِنَ الزَّمَنِ وَلاَ أَيَّةُ طَرِيقَةٍ تُتَاحُ لَهُ لِلْمُرَاقَبَةِ وَضَبْطِ الْمُخَالَفَةِ وَهَكَذَا وَفَّرَ الزَّمِيلاَنِ مَالاً كَثِيرًا ، وَلَكِنَّهُ يَذْهَبُ أَدْرَاجَ الأَهْوَاءِ فِي اللَّيْلِ وَتَفَطَّنَتِ الشَّرِكَةُ إِلَى النَّقْصِ فِي الْمَدَاخِيلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْخَطِّ الَّذِي يَعْمَلُ بِهِ هَذَانِ الأَرْعَنَانِ . وَشَدَّدَتِ الْحِرَاسَةَ وَالرَّقَابَةَ وَلَكِنْ بِدُونِ جَدْوَى . فَعَمَدَتْ مِنْ بَابِ الاحْتِيَاطِ إِلَى نَقْلِهِمَا إِلَى تَرام حَلْقِ الْوَادِي وَالْمَرْسَى . وَالسَّرِقَةُ فِي هَذَا الْخَطِّ تَكَادُ تَكُونُ مُسْتَحِيلَةً . فَالتَّذْكِرَةُ مِنَ الْوَرَقِ الْمُقَوَّى وَعَلَى عَوْنِ الشَّرِكَةِ أَنْ يَثْقُبَهَا بِكَلاَّبَةٍ وَمَعَ الضَّغْطِ يُطْبَعُ عَدَدُ السَّفْرَةِ وَتَارِيخُهَا .

وَكَانَ ذَلِكَ كَارِثَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الزَّمِيلَيْنِ الصَّدِيقَيْنِ . وَتَقَابَلاَ فِي مَقْهَى أَثْنَاءَ فَتْرَةِ الاسْتِرَاحَةِ فَقَالَ زَمِيلُهُ .

ـ إِنَّهَا ضَرْبَةٌ قَاسِيَةٌ لاَ يُمْكِنُ تَلاَفِيهَا .

ـ أَنَا فَكَّرْتُ فِي طَرِيقَةٍ شَيْطَانِيَّةٍ لاَ يُمْكِنُ لِأَيِّ مُتَفَقِّدٍ مَهْمَا كَانَ عَبْقَرِيًّا أَنْ يَتَفَطَّنَ إِلَيْهَا.

ـ كَيْفَ ؟

ـ آخُذُ تَذْكِرَةَ الذَّهَابِ وَالإِيَّابِ الَّتِي يَرْمِيهَا الْمُسَافِرُ عِنْدَ وُصُولِهِ إِلَى مَحَطَّتِهِ وَأُمَرِّرُهَا عَلَى لِسَانِي حَتَّى تَبْتَلَّ شَيْئًا مَا ثُمَّ أَضَعُ التَّذْكِرَةَ بَيْنَ وَرَقَتَيْنِ عَلَى طَاوِلَةٍ وَأُمَرِّرُ عَلَيْهَا الْكَلاَّبَةَ بِشَيْءٍ مِنَ الضَّغْطِ فَيَضْمَحِلُّ تَارِيخُ الإِيَّابِ وَعَدَدُ السَّفْرَةِ . وَعِنْدَمَا يَأْتِي مُسَافِرٌ طَالِبًا تَذْكِرَةَ ذَهَابٍ فَقَطْ أَضَعُ الثُّقْبَةَ فِي مِسْمَارِ الْكَلاَّبَةِ وَأَضْغَطُ فَيُطْبَعُ التَّارِيخُ وَعَدَدُ السَّفْرَةِ الْجَدِيدَيْنِ .

ـ كَيْفَ ؟ لاَ أَظُنُّ أَنَّ الأَمْرَ بِهَذِهِ السُّهُولَةِ .

ـ أُنْظُرْ سَأُطَبِّقُ مَا شَرَحْتُ .

وَتَتَبَّعَ صَاحِبُهُ الْعَمَلِيَّةَ بِإِمْعَانٍ ثُمَّ صَاحَ :

ـ عَالْ ، فِكْـرَةٌ رَائِعَـةٌ سَنَخْتَصُّ بِهَـا وَحْدَنَـا .

وَمِنَ الْغَـدِ بَـدَآ يُطَبِّقَـانِ الْفِكْـرَةَ الْجَدِيـدَةَ. وَنَجَحَـتْ نَجَاحًـا أَدْهَشَـهُمَا إِذْ أَصْبَحَا يَغْنَمَـانِ مِـنَ الْمَـالِ ضِعْـفَ مَاكَانَـا يَحْصُـلاَنِ عَلَيْـهِ فِـي الْخَـطِّ السَّـابِقِ . وَمَضَى عَلَـى ذَلِـكَ شَـهْرَانِ وَالشَّـرِكَةُ فِـي غَفْلَـةٍ عَمَّـا يَفْعَـلُ هَـذَانِ الشَّـيْطَانَانِ . وَكَانَـا يَجْلِسَـانِ بِمَقْهَـى قُـرْبَ قَـوْسِ بَـابِ الْبَحْـرِ يُدْعَـى كَـافِي رِيـشْ (مَقْهَـى الْغِنَـى) وَبِـهِ يَلْتَقِـي أَعْـوَانُ الـتَّرَامِ أَثْنَـاءَ إِسْـتِرَاحَتِهِمْ الَّتِـي تَـدُومُ سَـاعَةً أَوْ سَـاعَتَيْنِ . وَكَـانَ عَلِـي وَزَمِيلُـهُ يَـأْخُذَانِ مَكَانًـا قَصِيًّـا فِـي الْمَقْهَـى ، بَعِيـدًا عَـنِ الأَعْيُـنِ الْفُضُولِيَّـةِ ، وَيَنْهَمِكَـانِ فِـي تَهْيِئَـةِ التَّذَاكِـرِ عَلَـى طَرِيقَتِهِمَـا . وَلَـمْ يَفْطِنَـا إِلاَّ وَخَمَيِّـس 5 (دَرَجَـتْ الشَّـرِكَةُ عَلَـى أَنْ تَدْعُـوَ الْعَـوْنَ بِاسْـمِهِ مَـعَ زِيَـادَةِ رَقْـمٍ فَكَـانَ صَاحِبُنَـا يُدْعَـى عَلِـي 11 وَزَمِيلُـهُ مُحَمَّـد 25) يَنْتَصِـبُ أَمَامَهُمَا وَقَـدْ عَـايَنَ بِـالضَّبْطِ مَاهِيَّـةَ مَـا يَفْعَـلاَنِ وَهُمَـا فِـي غَفْلَـةٍ عَنْـهُ وَيَقُـولُ :

ـ آ ... مَا ذَا تَفْعَلاَنِ يَا مَنَاجِيس ؟

وَأَخْفَيَا التَّذَاكِرَ قَائِلَيْنِ :

ـ لاَ شَيْءَ .

ـ فَهِمْتُ ... فَهِمْتُ ...

وَعِنْدَمَـا تَـوَارَى خَمَيِّـس 5 قَـالاَ سَـاخِرَيْنِ مُعْتَـبِرَيْنِ أَنْفُسَـهُمَا فِـي وَضْـعِ مَـنْ يَحْسِـبُ أَنْ لاَ أَحَـدَ فِـي إِمْكَانِـهِ ضَبْطُهُمَـا وَيَدَاهُمَـا فِـي الشَّـكَارَةِ :

ـ لاَ يُفْقَدُ مِـنْ أُمَّـةِ مُحَمَّـدٍ قَـوَّادٌ .

وَيَظْهَرُ أَنَّ صَاحِبَهُمَا قَدْ وَشَى بِهِمَا إِلَى الشَّرِكَةِ لاَ اسْتِقَامَةً وَغِيرَةً عَلَى أَمْوَالِهَا إِذْ هُوَ مَعْرُوفٌ بِفَسَادِ الأَخْلاَقِ بَلْ تَقَرُّبًا مِنَ الإِدَارَةِ وَطَمَعًا فِي فَائِدَةٍ مِنَ الْفَوَائِدِ .

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، وَقَدْ انْتَظَمَ الأَمْرُ وَأَصْبَحَ التَّحَيُّلُ عَادَةً وَتَقْلِيدًا وَنِظَامًا لاَ غُبَارَ عَلَيْهِ ،وَبَيْنَمَا كَانَ عَلِي مُنْهَمِكًا فِي تَطْبِيقِ مَا ابْتَكَرَهُ فِي طُمَأْنِينَةٍ وَرَاحَةِ بَالٍ وَشَرَعَ فِي إِدْخَالِ مِسْمَارِ الْكَلاَّبَةِ فِي ثُقْبَةِ التَّذْكِرَةِ إِذْ خَاطَبَهُ الْمُتَفَقِّدُ الْمَالْطِيُّ " أَنِيتِي " مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ وَهُوَ طَوِيلُ الْقَامَةِ قَائِلاً فِي سُخْرِيَّةٍ :

ـ لاَ ... مَا هَكَذَا يَكُونُ الْعَمَلُ .

وَحَاوَلَ أَخْذَ التَّذْكِرَةِ ، فَافْتَكَّهَا عَلِي ، وَلَكِنَّهَا أَفْلَتَتْ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ وَسَقَطَتْ عَلَى أَرْضِيَّةِ التِّرَامِ فَانْحَنَى لاِلْتِقَاطِهَا وَإِتْلاَفِهَا فَمَسَكَهُ الْمُتَفَقِّدُ مِنْ كَتِفَيْهِ ، وَأَزَاحَهُ شَيْئًا مَا عَنْ مَكَانِهَا وَكَانَ أَقْوَى وَمَالَ إِلَيْهَا بِكُلِّيَتِهِ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَيْهَا ، فَمَا كَانَ مِنْ عَلِي إِلاَّ أَنْ رَفَسَ الْيَدَ بِشِدَّةٍ بِقَدَمِهِ وَانْشَغَلَ الْمُتَفَقِّدُ بِرُضُوضِهِ وَتَمَكَّنَ صَاحِبُ التَّذْكِرَةِ مِنِ اسْتِرْجَاعِهَا وَتَقْطِيعِهَا بِأَسْنَانِهِ وَرَمْيِهَا صَوْبَ الشُّبَّاكِ ، وَالرَّتْلُ يَسِيرُ ؛ وَظَنَّ أَنَّهَا قَدْ تَلاَقَفَتْهَا الرِّيحُ وَلَكِنَّهَا دَارَتْ دَوْرَةً وَرَجَعَتْ إِلَى الرَّتْلِ بِكُلِّ قِطَعِهَا مِنْ دُونِ أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَى ذَلِكَ صَاحِبُهَا . وَلَمَحَهَا الْمُتَفَقِّدُ وَجَمَعَ خِلْسَةً كُلَّ أَجْزَائِهَا وَأَخَذَ أَسْمَاءَ الشُّهُودِ مِنَ الْمُسَافِرِينَ .

وَبَيْنَمَا كَانَ عَلِي مُنْسَاقًا إِلَى ذِكْرَيَاتِهِ فِي سِجْنِهِ الْحَدِيدِ إِذْ فُتِحَ الْبَابُ وَأَخَذَهُ الأَجُودَانُ مَعَهُ لِلتَّحْقِيقِ . وَكَانَ مُلْتَزِمًا الصَّمْتَ لِأَنَّ كُلَّ الدَّلاَئِلِ تُشِيرُ إِلَى تَوَرُّطِهِ . فَالرِّوَايَةُ مَكْتُوبَةٌ بِخَطِّهِ وَالْعُرَفَاءُ وَالرُّقَبَاءُ هُمُ الَّذِينَ

كَانُوا يُسْأَلُونَ لِيَضْبِطَ كُلٌّ دَوْرَهُ . وَقَلَّ أَنْ يُسْأَلَ فِي جُزْئِيَّةٍ مِنَ الْجُزْئِيَّاتِ لِأَنَّهُ هُوَ مُؤَلِّفُ الْمَسْرَحِيَّةِ وَهُوَ مُخْرِجُهَا وَحُقُوقُهُ ثَابِتَةٌ لاَغُبَارَ عَلَيْهَا ، مُعْتَرَفٌ لَهُ بِهَا ، وَبِودِّهِ لَوْ يَتَخَلَّى عَنْهَا .

كَانَ يُشَاهِدُ مَسْرَحِيَّةً أُخْرَى أَمَامَهُ فِيهَا مِنَ الْمُضْحِكَاتِ مَا جَعَلَهُ يَبْتَسِمُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ . فَيَصِيحُ الْيُوزْبَاشِي :

ـ بَاشْ شَاوُشْ ... مَعَنَا أَنْتَ أَمْ أَيْنَ ؟

ـ مَعَكُمْ ... وَاللَّهِ مَعَكُمْ ، يَاسَيِّدِي الْيُوزْبَاشِي ... وَلَكِنَّ هَذَا الْعَرِيفَ بَالَغَ فِي الدَّوْرِ وَأَضَافَ كَلاَمًا لاَوُجُودَ لَهُ فِي الْمَسْرَحِيَّةِ ... فَحَاشَا عُمَرَ الضَّبْعَة أَنْ يَقُولَ مَا قَالَهُ هَذَا الْعَرِيفُ .

ـ أَنَا بَاشْ تَطَبْعُولِي .

وَيُرَدُّ عَلِي إِلَى سِجْنِهِ وَيَرْجِعُ إِلَى تَهْوِيمَاتِهِ مِنْ جَدِيدٍ . وَيَتَذَكَّرُ كَيْفَ طُرِدَ مِنَ الشَّرِكَةِ وَسَلَّمَ الدَّرَاهِمَ وَالْبَدْلَةَ وَدَخَلَ فِي بِطَالَةٍ بَشِعَةٍ . لَقَدْ عَرَفَ الْهَوَانَ . فَهُوَ يَنْهَضُ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الشُّقَّةِ الَّتِي اكْتَرَاهَا بِبَاب مَنَارَة وَيُيَمِّمُ شَطْرَ كَافِي رِيش لِيَلْتَقِيَ بِزُمَلاَئِهِ السَّابِقِينَ . فَهَذَا يُسَلِّمُهُ عُلْبَةَ سَقَائِرَ وَآخَرُ يَسْقِيهِ قَهْوَةً وَثَالِثٌ يُقَدِّمُ إِلَيْهِ كَأْسَ خَمْرٍ . أَمَّا صَدِيقُهُ الْقَبَائِلِي مُوَاطِنُهُ فِي صَرْحِ الْمَغْرِبِ الْكَبِيرِ ، فَإِنَّهُ يُعْطِيهِ عَشْرَةَ صُورْدَي فِي الْيَوْمِ ، هُوَ رَيْعُهُ مِنْ حُقُوقِ التَّأْلِيفِ . فَيَأْكُلُ عِنْدَ الشَّمِنْكَاجِي صَحْفَةً مِنَ الشَّمِنْكَة بِأَرْبَعَةِ صُورْدِي وَرُبْعَ خُبْزَةٍ بَائِتَةٍ بِصُورْدِيَيْنِ . وَلاَ يَكُونُ نَصِيبُ الْعَشَاءِ إِلاَّ فِنْجَانًا مِنَ الحِمَّصِ الْمَطْبُوخِ بِصورْدِيَيْنِ .

كَانَ عَلِي يَضْحَكُ سِرًّا مِنْ تَضَامُنِ الْقَبَائِلِي مَعَهُ . وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : لِمَاذَا لاَيَدْعُوهُ صَاحِبُهُ إِلَى لَيَالِي الْقَصْفِ وَاللَّهْوِ الَّتِي كَانَا يَقْضِيَانِهَا مَعًا ،

عَلَى

وَلَوْ لَيْلَةً وَاحِدَةً ؟ وَلِمَاذَا يَكْتَفِي بِتَسْلِيمِهِ هَذِهِ الصَّوَارِدَ بَيْنَمَا هُوَ يَغْنَمُ مِنْ فِكْرَتِهِ أَضْعَافَ أَضْعَافَ مَا يُعْطِيهِ ؟ مَا الَّذِي يَجْعَلُهُ يُقَرِّرُ هَذَا الْمَبْلَغَ دُونَ غَيْرِهِ ؟ وَعِنْدَمَا يَحْتَارُ فِي فَهْمِ كَيْفِيَّةِ دَوَرَانِ مُخِّ شَرِيكِهِ كَانَ ، وَلاَ يُتِيحُ لَهُ الْفُرْصَةَ لِيُحَاوِرَهُ فِي الْمَوْضُوعِ إِذْ يَرْمِي لَهُ بِالصَّوَارِدِ عَلَى الطَّاوِلَةِ وَيُحَيِّيهِ عَلَى عَجَلٍ ، يَهْمِسُ عَلِي فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَيَقُولُ : عَلَى كُلٍّ بَارَكَ اللَّهُ فِي أَنفَاسِهِ أَنْ هَدَاهُ إِلَى هَذَا وَأَلْهَمَهُ هَذَا الْقَدْرَ الْقَلِيلَ مِنَ الإِعَانَةِ الدَّائِمَةِ .

لَقَدْ آمَنَ أَنَّ الصَّدَاقَةَ لاَ تَنْشَأُ وَتَتَمَتَّنُ إِلاَّ بَيْنَ مُتَجَانِسَيْنِ طَبْعًا وَوَضْعًا اجْتِمَاعِيًّا . وَنَفَى أَنْ تَنعَقِدَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ فَقِيرٍ وَغَنِيٍّ ، جَائِعٍ وَشَبْعَانَ . وَقَالَ : غَلْطَتِي أَنِّنِي دَلَلْتُهُ عَلَى الْحِيلَةِ وَلَمْ أَحْتَفِظْ بِهَا لِنَفْسِي،ولَمْ أَخْتَلِ فِي تَطْبِيقِهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ جُدْرَانٍ . وَلَمْ يَفْهَمْ بَعْدُ أَنَّ الْمَفْسَدَةَ تَقْتَضِي الشَّرِيكَ . وَلَعَلَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ تَمِيلُ إِلَى التَّخْفِيفِ مِنْ عِبْءِ الْخَطِيئَةِ فَتَحْتَاجُ إِلَى الآخَرِ . وَلَوْلاَ حَوَّاءُ لَمَا انْسَاقَ آدَمُ إِلَى الْخَطِيئَةِ .

وَبَقِيَ عَلِي شَهْرَيْنِ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ حَتَّى ازْوَرَّ عَنْهُ الأَصْدِقَاءُ وَالزُّمَلاَءُ وَذَابَ شَرِيكُهُ الْقَبَائِلِي فِي مَقْهَى كَافِي رِيش كَمَا يَذُوبُ السُّكَّرُ فِي الْقَهْوَةِ بِدُونَ أَنْ يَنْتَفِيَ مَا يَعْقُبُ ذَلِكَ مِنْ طَعْمِ الْمَرَارَةِ ، وَأَصْبَحَ طَيْفًا سُرْعَانَ مَا يَتَلاَشَى إِنْ لَمَحَهُ عَلِي مِنْ بَعِيدٍ أَوْ هُوَ يَنْشَغِلُ بِالْمُسَافِرِينَ مُنْهَمِكًا فِي تَحَيُّلِهِ أَوْ بِعَدِّ حَصِيلَةِ بَيْعِ التَّذَاكِرِ إِنِ امْتَطَى خَدِينَهُ السَّابِقُ الْعَرَبَةَ الَّتِي يَشْتَغِلُ فِيهَا .

. وَرَجَعَ إِلَى خَانَةِ الانْطِلاَقِ وَعَرَفَ الْجُوعَ مِنْ جَدِيدٍ . فَكَانَ يَعَضُّ إِصْبَعَ النَّدَمِ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ مِنْ طَيْشٍ وَرُعُونَةٍ . وَلَكِنْ هَلْ يَنْفَعُ النَّدَمُ

الآنَ ؟ وَهُوَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، وَتَعَدَّدَتِ الْمَرَّاتُ ، يَنْتَقِلُ مِنْ حَالَةِ السَّدَرِ إِلَى حَالَةِ النَّدَمِ وَلاَ يَسْتَخْلِصُ الْعِبْرَةَ . تَمَامًا مِثْلَمَا يَحْدُثُ مِنْ سَدَرٍ لِمَنْ لَمْ يَتَعَوَّدْ رُكُوبَ الْبَحْرِ فَإِذَا غَادَرَهُ نَسِيَ مَا أَلَمَّ بِهِ مِنْ دُوَارٍ وَغَثَيَانٍ . وَالنَّدَمُ سَجِيَّةُ الضُّعَفَاءِ مِثْلَهُ ؛ وَمِنْ طَبِيعَةِ الضَّعِيفِ أَنْ يُعِيدَ الْخَطَأَ نَفْسَهُ . وَلَعَلَّ النَّدَمَ لَيْسَ إِلاَّ خَطْرَةً مِنْ خَطَرَاتِ أَصْحَابِ الشُّعُورِ الْمُرْهَفِ لاَ الْمُتَمَرِّسِينَ بِالْفِعْلِ . فَكَانَ عَلِي يُحِسُّ بِالأَلَمِ يَعَضُّ قَلْبَهُ وَيُعَذِّبُهُ ، وَبِصَدْرِهِ يَضِيقُ ، وَبِالْخَوْفِ يَتَمَلَّكُهُ ، وَبِالْفَزَعِ يَأْخُذُ بِأَنْفَاسِهِ ، بِالضَّبْطِ مِثْلَمَا يَحْدُثُ لَهُ وَهُوَ فِي هَذَا السِّجْنِ الإِيقَافِيِّ وَقَدْ تَلاَقَفَتْهُ حِصَصُ التَّحْقِيقِ حِينًا وَرَمَتْهُ فِي جَحِيمِ الذِّكْرَى حِينًا آخَرَ ؛ وَبَيْنَ النَّدَمِ وَالذِّكْرَى أَوَاصِرُ جِيرَةٍ وَقَرَابَةٌ لاَتُنْكَرُ .

وَالْتَقَى بَعْدَ هَذَيْنِ الشَّهْرَيْنِ بِأَحَدِ الْمُتَفَقِّدِينَ التُّونِسِيِّينَ يُدْعَى حَسَن 2 وَكَانَ يَكِنُّ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْوُدِّ ، قَالَ لَهُ :

ـ إِلَى مَتَى وَأَنْتَ هَكَذَا بَطَّالٌ وَفِي هَذَا الْوَضْعِ .

ـ وَمَاذَا تُرِيدُنِي أَنْ أَفْعَلَ ؟

ـ قَدِّمْ مَطْلَبًا إِلَى شَرِكَةِ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ أَوِ افْعَلْ أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ .

ـ أَتُرِيدُنِي أَنْ أَخْدِمَ فِي الْمَرَمَّةِ وَلاَ أَعْرِفُ مِنْ صَنْعَةٍ إِلاَّ الْخِيَاطَةَ . وَمِائَةُ غُرْزَةٍ لاَتُطْعِمُ خُبْزَةً .

ـ لِي ابْنُ عَمٍّ يَعْمَلُ كَاتِبًا عِنْدَ مُتَفَقِّدٍ بِشَرِكَةِ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ أَدُلُّكَ عَلَيْهِ . اِذْهَبْ إِلَيْهِ وَلَكِنْ قَبْلَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ أَتَّصِلَ بِهِ وَأُوصِيهِ خَيْرًا بِكَ . غَيْرَ أَنَّ هَذَا غَيْرُ كَافٍ لِلْحُصُولِ عَلَى عَمَلٍ . فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يُكَلَّلَ سَعْيُكَ بِالنَّجَاحِ اِشْتَرِ ثَلاَثَ سَرَادِكَ صِغَارًا وَرُبْعَ مِائَةِ بَيْضَةٍ وَسَلِّمْهَا لِعَائِلَتِهِ وَهُوَ يَسْكُنُ قُرْبَ الْمَحَطَّةِ وَعُنْوَانُهُ كَذَا .

واستَعَارَ بِضْعَ فَرَنْكَاتٍ مِنْ أَحَدِ أَبْنَاءِ بَلْدَتِهِ الْقَيِّمِ بِالْمَدْرَسَةِ الصَّادِقِيَّةِ وَأَتَمَّ مَا أَوْصَاهُ بِهِ حَسَن2 . وَفِعْلاً أَجْرَى الْمُتَفَقِّدُ عَلَيْهِ إِمْتِحَانًا بَسِيطًا وَقَالَ لَهُ فِي التَّوِّ :

ـ لاَ وُجُودَ لِشُغُورٍ إِلاَّ بِوَادِي مَلِيزْ .

ـ قَبِلْتُ .

وَتَذَكَّرَ كَيْفَ وَصَلَ إِلَى وَادِي مَلِيزْ ، وَهِيَ مَحَطَّةٌ لَيْسَ بِهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عُمْرَانٌ يُذْكَرُ ، وَكَيْفَ سَكَنَ فِي مُسْتَوْدَعٍ لِلسِّلَعِ ، وَشَاطَرَ فِي الأَكْلِ صَاحِبَ دُكَّانِ تِجَارَةٍ هُنَاكَ ، وَبَقِيَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ عَلَى تِلْكَ الْوَتِيرَةِ . وَكَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

ـ أَصْبَحْتُ مُتَطَيِّرًا مِنْ مُرُورِ كُلِّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ . كُلُّ مَا يَحْدُثُ لِي مِنْ جَدِيدٍ إِلاَّ وَيَكُونُ بَعْدَ انْقِضَاءِ هَذِهِ الْمُدَّةِ .

وَتَذَكَّرَ أَيْضًا أَنَّ رَئِيسَ الْمَحَطَّةِ جَاءَهُ بِالضَّبْطِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَتَوَقَّعُ فِيهِ كُلَّ طَارِئٍ وَقَالَ لَهُ :

ـ يَا أَنْتَ ... يَا عَلِي ... عَمَّار الْخَدَّامُ لَمْ يَأْتِ الْيَوْمَ ... فَأَنْتَ الْيَوْمَ مُكَلَّفٌ بِتَنْظِيفِ الْمَرَاحِيضِ وَالْمَكَاتِبِ وَقَاعَةِ الاِسْتِقْبَالِ .

ـ لَيْسَ هَذَا عَمَلِي الَّذِي انْتُدِبْتُ مِنْ أَجْلِهِ ... مَا عَلَيْكَ إِلاَّ أَنْ تَسْتَأْجِرَ عَامِلاً يَوْمِيًّا آخَرَ ... أَتُرِيدُ أَنْ تَسْتَأْثِرَ بِأَجْرِ عَمَّار وَتُشَغِّلَنِي أَنَا عِوَضَهُ ... أَعْرِفُ أَلاَعِيبَكَ .

وَلَمْ يَفْطِنْ عَلِي إِلاَّ وَعَرْفُهُ يُمْسِكُهُ بِشِدَّةٍ مِنْ كَتِفَيْهِ وَيَدْفَعُهُ دَفْعَةً مُنْكَرَةً إِلَى الأَمَامِ وَيَرْكُلُهُ عَلَى عَجِيزَتِهِ رَكْلَةً مُوحِشَةً . فَطَارَ عَقْلُ عَلِي وَتَمَاسَكَ حَتَّى لاَ يَسْقُطَ ، وَانْقَلَبَ عَلَى عَقِبَيْهِ كَالإِعْصَارِ ، وَأَخَذَ

بتلاَبِيبِ مُهَاجِمِهِ أَخْذَةً عَاتِيَةً وَخَنَقَهُ وَشَرَعَ فِي تَعْنِيفِهِ كَمَا لَمْ يَكُنْ لِيَتَوَقَّعَ ذَلِكَ هَذَا الاِسْتِعْمَارِيُّ الْعَنِيدُ. وَلَكِنْ مِنْ حُسْنِ حَظِّ عَلِي أَنْ مَرَّ قِطَارٌ مِنَ المحطَّةِ بِتُؤُدَةٍ يَرْكَبُهُ عَدَدٌ مِنَ الْعَمَلَةِ الَّذِينَ شَاهَدُوا مَا شَاهَدُوا وَهُوَ الَّذِي مَنَعَهُ مِنَ التَّمَادِي فِي ضَرْبِ مَآلِ الْقَائِمِ بِهِ السَّحْنَ . وَأَوْقَفَ رَئِيسُ الْمَحَطَّةِ الْقِطَارَ ، وَأَخَذَ أَسْمَاءَ الشُّهُودِ ، وَهَتَفَ إِلَى الإِدَارَةِ بِتُونِسَ . وَفِي الْعَشِيَّةِ وَصَلَ الْمُتَفَقِّدُ الَّذِي أَجْرَى عَلَيْهِ الاِمْتِحَانَ وَقَامَ بِبَحْثٍ صُورِيٍّ وَقَالَ لَهُ:

ـ لَمْ تَكُنْ عِنْدَ حُسْنِ الظَّنِّ .

ـ إِنَّهُ أَهَانَنِي بِتَكْلِيفِي أَوَّلاً بِعَمَلٍ لَيْسَ مِنْ صَلاَحِيَّاتِي وَمُسْتَوَايَ الإِدَارِيِّ وَثَانِيًا بِالاِعْتِدَاءِ عَلَيَّ رَكْلاً .

ـ أَنْتَ مَرْؤُوسٌ لِفَرَنْسِيٍّ وَمِنْ وَاجِبِكَ الاِمْتِثَالُ لِكُلِّ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ مَهْمَا كَانَتِ الظُّرُوفُ وَالتَّكَالِيفُ ... بِهَذِهِ الصُّورَةِ تَكُونُ مَقْبُولاً ... والآنَ خُذْ أَدْبَاشَكَ وَارْجِعْ إِلَى تُونِسَ فِي قِطَارِ الثَّامِنَةِ .

وَرَجَعَ عَلِي إِلَى خَانَةِ الاِنْطِلاَقِ مِنْ جَدِيدٍ . وَلَكِنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ لَمْ يَنْدَمْ لِأَنَّهُ دَافَعَ عَنْ شَرَفِهِ وَكَرَامَتِهِ وَخُصُوصًا أَمَامَ مُسْتَعْمِرٍ لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي أَنْ يَقُولَ لَهُ عَلَى مَرْآى وَمَسْمَعٍ مِنَ الْعَمَلَةِ تُونِسِيِّينَ وَفَرَنْسِيِّينَ : هَذَا الْبِيكُو يَضْرِبُنِي ... إِنَّ هَذَا مِنْ غَرَائِبِ الدَّهْرِ ... إِنَّهَا نِهَايَةُ الْعَالَمِ إِذَنْ .

لَمْ يَيْأَسْ عَلِي وَرَجَعَ إِلَى كَاتِبِ الْمُتَفَقِّدِ وَأَلَحَّ عَلَيْهِ لِيَجِدَ لَهُ حَلاً .
سَكَتَ الْمُوَظَّفُ بُرْهَةً ثُمَّ قَالَ :

ـ مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكَ ... إِنَّكَ نَسِيتَنَا ، وَالْحَالُ أَنَّ مَكَانَ عَمَلِكَ زَاخِرٌ بِالْخَيْرَاتِ بِأَرْخَصِ الأَثْمَانِ مِنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ يَعْنِي الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ .

ـ نَعَمْ ... فَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ ... وَلَكِنْ مَعَ مَنْ أُرْسِلُ مَا أُرِيدُ إِرْسَالَهُ ... مَعَ الْمَسْؤُولِ عَنِ السُّفْرَةِ أَوْ مَعَ شَدَّادِ فَرَامِلِ الْقِطَارِ ... تُرِيدُ أَنْ تُتَّهَمَ أَنْتَ وَرَئِيسُكَ بِالرَّشْوَةِ .

ـ الْحَقُّ إِلَى جَانِبِكَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ... وَلَكِنْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ دَبِّرْ أَمْرَكَ ... لَيْسَ لَكَ نَصِيرٌ إِلاَّ تَشْحِيمُ الْعَجَلَةِ ... هُنَاكَ مَحَطَّةٌ جَدِيدَةٌ أُحْدِثَتْ بِمَرْجَى خَيْرِ الدِّينِ بَيْنَ سِيدِي إِسْمَاعِيل وَزِنبِرَّ .

وَتَذَكَّرَ عَلِي كَيْفَ شَدَّ أَدْبَاشَهُ مَرَّةً أُخْرَى وَوَصَلَ هُوَ وَرَئِيسُهُ الْفَرَنْسِيُّ إِلَى مَكَانٍ خَالٍ إِلاَّ مِنَ الْمَحَطَّةِ وَمَرْكَزِ الْبَرِيدِ . وَلَمْ يَنْسَ الْكَاتِبَ فَأَغْدَقَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَ ، خُصُوصًا أَنَّهُ أَصْبَحَ يَقُومُ بِدَوْرِ الْكَاتِبِ الْعُمُومِيِّ لِأَهَالِي تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ ، وَتَكُونُ الْمُكَافَأَةُ فِي الْغَالِبِ بِالنِّسْبَةِ لِلْفَلاَّحِينَ الصِّغَارِ الْعَسَلَ الْمُصَفَّى وَالدَّجَاجَ وَالْبَيْضَ وَالزُّبْدَةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُنْتِجُهُ أَهْلُ تِلْكَ الأَرْضِ الْخِصْبَةِ .

وَبَيْنَمَا كَانَ عَلِي غَارِقًا فِي هَذِهِ الذِّكْرَيَاتِ فُتِحَ الْبَابُ وَدَخَلَ الأَجُودَان وَقَالَ لَهُ :

ـ يَا أَخِي أُمِرْتُ بِأَنْ أُجَرِّدَكَ مِنْ رُتْبَتِكَ .

ـ وَلَكِنَّ التَّحْقِيقَ لَمْ يَتِمَّ ... وَيَجِبُ أَنْ يُدْرَجَ فِي التَّخْبِيرِ الْيَوْمِيِّ الَّذِي يَأْتِي رَأْسًا مِنْ وَزَارَةِ الْحَرْبِ .

ـ عِنْدَي أَوَامِرُ مَضْبُوطَةٌ وَالتَّخْبِيرُ سَيَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ .

ـ أَنَا أُرِيدُ أَنْ أُقَابِلَ الْبِيمْبَاشِي ... وَلاَ أَسْمَحُ لَكَ بِأَنْ تَمَسَّ هَذِهِ النُّجُومَ السِّتَّةَ الَّتِي تَعِبْتُ وَعَانَيْتُ مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَيْهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ نُحَاسٍ .

وَتَقَدَّمَ الأَجُودَان لِيَشْرَعَ فِي نَزْعِ الأَنْجُمِ ، ولَكِنَّ عَلِي قَالَ لَهُ جَادًّا:

ـ مُّونْ أَجُودَان أَنْتَ ضَابِطٌ وَتَعْرِفُ الْقَوَانِينَ وَأَنَا مُهَدَّدٌ بالذَّهَابِ إِلَى الْوَاجِهَةِ ... وإِلَى تَجْرِيدِي مِنْ رُتْبَتِي لِأُصْبِحَ مُجَرَّدَ جُنْدِيٍّ ، وَلِهَذَا ضَرْبُكَ لاَ يزِيدُ فِي عِقَابِي وَالضَّرْبُ سَيَكُونُ شَدِيدًا مُهْلِكًا وَأَنْتَ تَعْرِفُ قُوَّتِي الْبَدَنِيَّةَ .

ـ هَكَذَا تُصْبِحُ صَاحِبَ شَرٍّ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وضُحَاهَا ... تَعْرِفُ أَنِّي صَدِيقُكَ وَعَشِيرُكَ....

ـ إِنِ اعْتَبَرْتَ نَفْسَكَ صَدِيقِي فَاسْعَ لِي فِي مُقَابَلَةِ الْبِيمْبَاشِي .

وَخَرَجَ الأَجُودَان وَرَجَعَ عَلِي إِلَى تَهْوِيمَاتِهِ .]

9

[أفَاقَ عَلِي فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ تَارِيخِ إيقَافِهِ وَأَحَسَّ بِالْقَهَرِ ؛ لَقَدْ فَقَدَ شَهِيَّةَ الطَّعَامِ وَانْهَمَكَ يُدَخِّنُ وَيُدَخِّنُ ... حَتَّى أَصْبَحَ يَغْشَاهُ دُوَارٌ ، فَيَتَمَدَّدُ وَيَسْرَحُ فِي أَحْدَاثِ الْمَاضِي يُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَعْرِضَهَا وَاسْتِخْلاَصَ الْعِبْرَةِ مِنْهَا .

تَذَكَّرَ كَيْفَ كَانَ هَادِئاً مُطْمَئِنًا فِي مَرْجَى خَيْرِ الدِّينِ ، إذْ كَانَ الْمَسْؤُولُ الْفَرَنْسِيُّ عَنِ الْمَحَطَّةِ رَجُلاً فَاضِلاً ، كَارِهًا لِكُلِّ أَلْوَانِ الْعُنْصُرِيَّةِ ، نَابِذًا كُلَّ نُزُوعٍ إلَى التَّفَوُّقِ ، مُتَبَرِّمًا مِنَ الْمُمَارَسَاتِ الاسْتِعْمَارِيَّةِ الَّتِي يَلْمَسُهَا يَوْمِيًّا مِنَ الإدَارَةِ وَمِنْ مُوَاطِنِيهِ الْمُعَمِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ . وَانْسَجَمَ مَعَ عَلِي انْسِجَامًا تَامًّا وَأَحَبَّ فِيهِ صَرَاحَتَهُ وَاعْتِزَازَهُ بِنَفْسِهِ وَبِقَوْمِهِ . فَتَقَاسَمَا الْمَأْكَلَ وَالْمَشْرَبَ وَأَمْضَيَا أَوْقَاتَ الْفَرَاغِ فِي لَعِبِ الأَوْرَاقِ وَتَفْصِيلِ أَطْرَاحِ الشَّطْرَنْجِ . وكَانَ رَئِيسُهُ بَارِعًا فِي هَذِهِ اللُّعْبَةِ ، لَمْ يَكْتَفِ بِالصَّبْرِ عَلَى تَعْلِيمِهِ أُصُولَ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ الْفِكْرِيَّةِ بَلْ كَانَ يَشْرَحُ لَهُ كُلَّ تَحْرِيكَةٍ لِقِطْعَةٍ مِنَ الْقِطَعِ سَوَاءً كَانَتْ بَيْدَقًا أَوْ فِيلاً أَوْ فَرَزًا اَوْ رُخًّا أَوْ غَيْرَهَا ، وَيُبَيِّنُ لَهُ مَا يَنْتُجُ عَنْ تَسَلْسُلِ الضَّرَبَاتِ . وَيَقُولُ لَهُ :

ـــ لُعْبَةُ الشَّطْرَنْجِ هِيَ مَعْرَكَةٌ كَمَعْرَكَةِ الْحَيَاةِ يَجِبُ أَنْ تَرْبَحَ . وَلاَيَكْفِي مَعَهَا الْقَلْبُ الطَّيِّبُ بَلْ الْعَقْلُ هُوَ الْفَيْصَلُ فِيهَا . وَلِهَذَا كُلُّ خُطْوَةٍ

مَحْسُوبَةٌ عَلَيْكَ فَإِمَّا أَنْ تُدْنِيكَ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنَ النَّصْرِ وَالتَّغَلُّبِ عَلَى الْمَشَاكِلِ الَّتِي يُحْدِثُهَا لَكَ خَصْمُكَ أَوْ تَدْفَعُكَ بِلاَ هَوَادَةٍ نَحْوَ الْهَزِيمَةِ . إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَهِينَ بِالتَّحَرُّكَاتِ الأُولَى . وَمِنْ هُنَا جَاءَ التَّبَصُّرُ وَإِعْمَالُ الْبَصِيرَةِ .

وَكَانَ مُولَعًا أَيْضًا بِالْمُطَالَعَةِ وَكَانَ يَقُولُ لِعَلِي :

ــ خُذْ هَذِهِ الْقِصَصَ ... طَالِعْ يَا عَلِي ... لاَشَيْءَ يَفْتَحُ الْبَصِيرَةَ كَقِرَاءَةِ مَا أَنْتَجَتْهُ الْعُقُولُ النَّيِّرَةُ ... اِسْأَلْنِي عَمَّا لاَتَفْهَمُهُ .

وَفِي بَعْضِ الأَحْيَانِ كَانَ يَقْرَأُ بِصَوْتٍ عَالٍ وَيُفَسِّرُ لِعَلِي مَا غَمُضَ وَيَقُولُ لَهُ :

ــ أَنْ أَبْقَى هُنَا خَيْرٌ لِي مِنْ أَنْ أُمْضِيَ الْوَقْتَ فِي اللَّهْوِ وَالْقَصْفِ فِي الْحَانَةِ الْقَرِيبَةِ مَعَ الْمُعَمِّرِينَ ... إِيَّاكَ وَإِيَّاكَ مِنَ الانْزِلاَقِ فِي الْفَسَادِ .

وَكَانَ عَلِي عِنْدَ سَمَاعِهِ لِهَذِهِ النَّصَائِحِ ــ وَكَأَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ جَدِّهِ أَوْ قَرِيبٍ يُحِبُّ لَهُ الْخَيْرَ أَوْ صَدِيقٍ صَادِقٍ لاَ يَتَخَلَّى عَنْ نُصْرَتِهِ ــ يَتَحَسَّرُ عَلَى تِلْكَ الأَيَّامِ الَّتِي قَضَاهَا فِي مَدْرَسَةِ الْفَسَادِ . وَلَمْ تَكُنِ الْحَصِيلَةُ مَعْنَوِيَّةً فَقَطْ بَلْ نَتَجَ عَنْهَا ادِّخَارٌ لِمَالٍ كَثِيرٍ : خَمْسُمِائَةُ فَرَنْكٍ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ يَحْسِبُ لِلصُّورْدِي حِسَابًا خُصُوصًا فِي حَالاَتِ الشَّقَاءِ وَالتَّعَاسَةِ .

وَبَيْنَمَا كَانَ ، وَهُوَ فِي مَدْرَسَةِ الْفَسَادِ ، لاَ يُرَاسِلُ أَهْلَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ، أَصْبَحَ يُفَكِّرُ فِي إِخْوَتِهِ الصِّغَارِ وَاقْتَرَحَ عَلَى جَدِّهِ أَنْ يَتِمَّ الإِعْدَادُ لِخِتَانِ أَخَوَيْهِ عِنْدَ زِيَارَتِهِ لِلْبَلْدَةِ . وَأَرْسَلَ إِلَى جَدِّهِ حَوَالَةً بَرِيدِيَّةً دَسِمَةً وَوَسَقَ عَنْ طَرِيقِ الْقِطَارِ حَقِيبَتَهُ مَعَ هَدَايَا لِكُلِّ مَنْ فِي دَارِ الْجَمَاعَةِ وَلِإِخْوَتِهِ وَأُمِّهِ بِالذَّاتِ . وَامْتَطَى الرَّتْلَ إِلَى مَدِينَةِ سُوسَةَ وَمِنْهَا إِلَى قَرْيَتِهِ عَلَى

درَّاجتِهِ الَّتِي صَحِبَهَا مَعَهُ وكَانَ اشتَرَاهَا لِقضَاءِ بَعْضِ شُؤُونِهِ فِي أَقْرَبِ مَدِينَةٍ ولِيُرَوِّحُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ تَجْوَالاً فِي الْقُرَى الْمُجَاوِرَةِ وَاخْتِبَارًا لِقُوَاهُ الْبَدَنِيَّةِ وتَرْوِيضًا لَهَا .

وَفِيمَا هُوَ مُنْسَاقٌ إِلَى أَطْوَارِ مَاضِيهِ فُتِحَ بَابُ الْغُرْفَةِ الَّتِي سُجِنَ فِيهَا وَدَخَلَ الْجُنْدِيُّ وَوَضَعَ قَهْوَةَ الصَّبَاحِ مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْخُبْزِ الْبَائِتِ عَلَى الطَّاوِلَةِ . فَلَمْ يُحَرِّكْ عَلِي سَاكِنًا ، وَلاَ شَمَّ رَائِحَةَ الْقَهْوَةِ كَالْعَادَةِ عَلَى ضُعْفِ نَكْهَتِهَا ، وَلاَ اسْتَيْقَظَ مِنْ شِبْهِ غَيْبُوبَتِهِ وَإِنَّمَا انْبَرَى فِي اسْتِعْرَاضِ مَا جَرَى لَهُ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَى قَرْيَتِهِ عَلَى دَرَّاجَتِهِ .

وَتَذَكَّرَ أَنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ حَوْلَهُ فِي ضُعْفٍ وَإِعْيَاءٍ . فَلَمْ يَتَبَيَّنْ شَيْئًا . لَكَأَنَّ الْغُرْفَةَ مِثْلَ الَّتِي قَبَعَ فِيهَا عَلَى ذِمَّةِ التَّحْقِيقِ ، سَكَنَتْهَا أَطْيَافٌ وَظِلاَلٌ : هِيَ صُورَةٌ مِنْ نَفْسِهِ فَتَحَ فِيهَا عَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بَحْثًا وَتَقْلِيبًا . وَأَغْمَضَهُمَا فِي بُطْءٍ وَحَذَرٍ وَحَاوَلَ أَنْ يَنْظُرَ فِي نَفْسِهِ لَعَلَّهُ يُلِمُّ بِكِيَانِهِ ، بِفَرْدِيَّتِهِ ؛ فَلَمْ يَعْرِفْ أَهِيَ غَيْبُوبَةٌ أَمْ بَقِيَّةُ نَوْمٍ ؟

وَتَقَاوَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ عِبْئُهَا ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ، فَاتَّضَحَتْ لَهُ مَعَالِمُ الأَشْيَاءِ بِحُدُودِهَا وَأَبْعَادِهَا وَقَدْ تَقَلَّصَتْ عَنْهَا الظِّلاَلُ وَتَبَخَّرَتْ بَيْنَهَا الأَطْيَافُ : غُرْفَةُ الْعَائِلَةِ كَمَا عَرَفَهَا ، دُكَّانَةٌ وَجِرَارٌ وَآنِيَةٌ مِنْهَا الْمُعَلَّقُ وَمِنْهَا الْمُلْقَى ، وَثِيَابٌ مُكَدَّسَةٌ أَوْ مُتَدَلِّيَةٌ مِنَ السَّقْفِ . هِيَ نَفْسُ الْغُرْفَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنْهَا صَوْتَ النَّائِحَةِ تَنْدُبُ أَبَاهُ . لَمْ يُغَيِّرْ مِنْهَا الزَّمَانُ شَيْئًا وَلاَ حَوَّلَهَا عَنْ وَظِيفَتِهَا : قَرَارٌ وَاسْتِقْرَارٌ وَتَرَفُّقٌ وَأَنَاةٌ .

وَأَنِسَتْ عَيْنَاهُ إِلَى النُّورِ الْخَفِيفِ الْمُنْبَعِثِ مِنَ الْبَابِ الَّذِي لَمْ يُحْكَمْ غَلْقُهُ ، فَتَحَوَّلَ نَظَرُهُ إِلَيْهِ ، وَوَقَعَ عَلَى رُؤُوسِ الدَّجَاجِ تَظْهَرُ وَتَخْتَفِي مِنْ فُرْجَتِهِ وَكَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَتَطَلَّعَ إِلَى مَا فِي نَفْسِهِ ، وَأَنْ تَفْهَمَ عَنْهُ مَا عَجَزَ

هُوَ عَنْ كَشْفِهِ . وَأَلْقَى نَظْرَةً مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِ الدَّجَاجِ . فَظَهَرَ لَهُ جَانِبٌ مِنَ الزَّرِيبَةِ : غُبَارٌ وَحَصًى ، وَأَرَانِبُ وَدَجَاجٌ ، وجَمَلٌ وَحِمَارٌ . لَكَأَنَّ سَفِينَةَ نُوحٍ أَرْسَتْ فَلَمْ يُبْلِهَا الزَّمَانُ وَلاَ تَحَوَّلَ عَنْهَا رُكَّابُهَا : قَرَارٌ وَاسْتِقْرَارٌ وَأَزَلٌ فِي أَبَدٍ .

أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَتَحَرَّكَ ، وَمَدَّ رِجْلَيْهِ فَاصْطَدَمَتَا بِالْجِدَارِ . فَتَيَقَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ ذَاكَ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ الَّذِي سَمِعَ النَّائِحَةَ تَنْدُبُ : وَأَحَسَّ بِرِجْلَيْهِ أَنْ لاَقَرَارَ وَلا اسْتِقْرَارَ فَجَزَمَ بِأَنَّ الزَّمَانَ تَحَوُّلٌ وَامْتِدَادٌ . وَنَظَرَ مِنْ جَدِيدٍ فَلَمْ يَتَبَيَّنْ إِلاَّ نِصْفَ عَجَلَةِ دَرَّاجَتِهِ ، سَاكِنَةً ، مُطْمَئِنَّةً ، عِنْدَ ذَلِكَ رَجَعَ إِلَى ذَاكِرَتِهِ يَبْحَثُ عَنْ سَبَبِ وُجُودِهِ فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ وَقَدْ فَارَقَهَا هِيَ وَقَرْيَتَهُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ .

وَتَحَرَّكَ فِي فِرَاشِهِ يَنْشُدُ الطُّمَأْنِينَةَ فَأَحَسَّ بِالأَلَمِ يَطْغَى عَلَيْهِ ، وَجَسَّ أَعْضَاءَهُ فَظَفِرَ بِالْكَدَمَاتِ وَالرُّضُوضِ . وَانْقَشَعَتِ الْغَيْبُوبَةُ ، وَأَفَاقَ وَهَمَسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ : " كُنْتُ الْبَارِحَةَ ضَحِيَّةَ الأَسَدِ ، نَعَمْ ضَحِيَّةَ الأَسَدِ فِي قَرْيَةٍ وُلِدْتُ فِيهَا ، وَرَافَقْتُ بَعْضًا مِنَ الزَّمَانِ بَيْنَ رُبُوعِهَا ، وَاسْتَقَرَّ فِي رِحَابِهَا أَهْلِي ، وَقَرَّتْ بِهَا نَفْسِي ، وَغِبْتُ عَنْهَا كَارِهًا مُكْرَهًا ، وَرَجَعْتُ إِلَيْهَا آمِلاً مُخْتَارًا . كُنْتُ فِيهَا الْبَارِحَةَ ضَحِيَّةَ الأَسَدِ بَيْنَ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي وَالزَّمَانِ " . وَجَمَدَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ شَرِيطُ رَحِيلِهِ إِلَى قَرْيَتِهِ ، مُتَقَطِّعَ الْحَلَقَاتِ ، مُشَوَّشَ الْمَشَاهِدِ ، بَاهِتًا مَيِّتًا ، كَالزَّمَانِ فِي بَلْدَتِهِ .

* * *

رَأَى نَفْسَهُ يُغَادِرُ سُوسَةَ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ مِنَ الْقِطَارِ وَاسْتَرَدَّ دَرَّاجَتَهُ ، وَاتَّجَهَ نَحْوَ قَرْيَتِهِ مُسْرِعًا . وَكَانَ يَسِيرُ وَعَجَلَةُ الدَّرَّاجَةِ تَدُورُ وَشَرِيطُ

أفْكَارِهِ يَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ . كُلُّهُ تَوْقٌ وَأَمَلٌ وَانْدِفَاعٌ ... إنَّ الزَّمَانَ رَغْمَ هَذَا قَدْ تَطَوَّرَ وَلَنْ يَسْتَكِينَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَى عَمِّهِ ، وَسَيَتَزَوَّجُ الْفَتَاةَ الَّتِي أَحَبَّهَا . إِنَّهُ سَيَهُزُّ الْحَيَاةَ فِي بَيْتِهِ وَيَجْعَلُهَا تَدُورُ كَعَجَلَةِ دَرَّاجَتِهِ . وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا وَهِيَ تَطْوِي الأَرْضَ وَتُقَرِّبُهُ مِنْ قَرْيَتِهِ حِيناً بَعْدَ حِينٍ . وَيَصِلُ إِلَى الرَّبْوَةِ الْمُطِلَّةِ عَلَى بَلْدَتِهِ : أَطْلاَلٌ لِلرُّومَانِ قَبَعَ فِيهَا الزَّمَنُ وَسَكَنَ فِيهَا الْقَرَارُ فَاطْمَأَنَّتْ وَلاَ حَيَاةَ . وَيَسِيرُ بِبُطْءٍ ، وَيَنْظُرُ إِلَى بَلْدَتِهِ عَنْ بُعْدٍ فَيَجِدُهَا هَادِئَةً كَعَهْدِهِ بِهَا رَضِيَّةً ، غَبْرَاءَ ، سَاكِنَةً ؛ وَإِذَا بِشَبَحٍ يَنْطَلِقُ مِنْ بَيْنِ الأَطْلاَلِ وَيَقْفِزُ فِي اتِّجَاهِهِ . فَيَفْقِدُ عَلِي تَوَازُنَهُ وَيَسْقُطُ وَيَسْمَعُ ضَحَكَاتٍ مُسْتَرْسِلَةً كَنَبِيبِ تِيسٍ فِيهَا بُحَّةُ الصَّدَى وَيَتَبَيَّنُ صَوْتاً يَقُولُ

ـ يَاعَلِي تِقَلْبِتْ ... يَعْطِيكْ سْلاَمَةْ .

وَيَعُودُ الضَّحِكُ فَيَرْفَعُ عَلِي رَأْسَهُ وَإِذَا بِهِ أَمَامَ سِيدِي عَمَّار مَجْذُوبِ الْقَرْيَةِ : وَجْهٌ أَغْبَرُ أَكَلَتْهُ لِحْيَةٌ شَعْثَاءُ وَخَطَهَا الشَّيْبُ ، وَجِسْمٌ نَحِيلٌ كَسَتْهُ بَعْضُ الأَسْمَالِ ، وَسَوَادٌ مُفْرِطٌ غَطَّى سُمْرَتَهُ ، وَبَاقَةٌ مِنَ الْفُلِّ ذَابِلَةٌ مُشَوَّشَةٌ حَجَبَتْ ثُلُثَ وَجْهِهِ . لَمْ يَجِدْ عَلِي مَا يَقُولُهُ ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ ثُمَّ يُخَاطِبُهُ مُسْتَفْسِرًا :

ـ يَا سِيدِي عَمَّار آشْ تَعْمَلْ هنَا .

وَكَأَنَّ الْمَجْذُوبَ اسْتَغْرَبَ هَذَا السُّؤَالَ ، فَيَنْظُرُ وَكَأَنَّهُ يَنْظُرُ بِزَمَانِ الْقَرْيَةِ وَيَنْطِقُ وَكَأَنَّهُ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ :

ـ مَا تَعْرَفْشْ ... اِنْعِسْ عَلَى جَنَانْ بِنتْ الرَّيْ .

وَيَتَذَكَّرُ عَلِي سِيدِي عَمَّار وَلُزُومَهُ الأَطْلاَلَ كَأَنَّهُ يَحْرُسُ شَيْئًا عَزِيزًا عَلَيْهِ . وَيَسْتَعْرِضُ مَا كَانَ النَّاسُ يَنْسِبُونَهُ إِلَيْهِ مِنْ كَرَامَاتٍ . وَرَغْمَ أَنَّهُ لاَ يُولِيهَا أَهَمِّيَّةً كَبِيرَةً فَقَدْ بَقِيَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنَ الإِجْلاَلِ لِصَاحِبِهَا ، كَإِجْلاَلِهِ لِهَذِهِ الأَطْلاَلِ . وَيَنْظُرُ عَلِي إِلَى هَيْئَتِهِ فَيَنْفُضُ عَنْهُ الْغُبَارَ وَيُصْلِحُ

مِنْ حَالِهِ وَيَرْكَبُ الدَّرَّاجَةَ فَيَصِيحُ سِيدِي عَمَّار صَيْحَةً مُدَوِّيَةً :
ـــ يَـا عَلِـي مَـا تِخَرِبـِشْ بكَرُوسَـةْ الرِّيـحْ ... تَـوَّة تِتْكَسَّـــرْ كَرَايِمَـكْ .
وَمَضَى عَلِي وَلَمْ يَلْتَفِتْ ذَاكِرًا حَادِثَةَ اعْتِزَالِ هَـذَا الرَّجُلِ : لَقَدْ كَانَ رَاعِيًا هَـاجَ عِنْـدَهُ الْبَقَـرُ يَوْمًـا فَتَرَكَـهُ وَمَضَـى ، وَسَـأَلَهُ النَّـاسُ فَقَـالَ :
ـ كِيفْ كَانْ يَعْقِلْ سَرحْتْ بِيهْ أَمَا تَوَّة يِزِّي فِيهْ الْبَرْكَة .

***

وَتَمَلْمَلَ عَلي فِي فِرَاشِهِ وَأَحَسَّ بِقُوَاهُ تَضْعُفُ شَيْئًا فَشَيْئًا .، وَبِالأَلَمِ يَزِيدُ فَتَغَلَّبَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَاوَدَهُ تَفْكِيرُهُ فِي رِحْلَتِهِ :

رَأَى نَفْسَهُ يَدْخُلُ قَرْيَتَهُ آخِرَ عَشِيٍّ ، وَيَسِيرُ بِبُطْءٍ ، وَيَنْظُرُ مِنْ حَوْلِهِ إِلَى الْفَلاَّحِينَ ، مُسْرِعِينَ إِلَى دِيَارِهِمْ ، فَيَشْعُرُ بِأَنَّهُ غَرِيبٌ بَيْنَهُمْ ، وَهُمْ أَيْضًا يَسْتَغْرِبُونَ دَرَّاجَتَهُ ، فَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ عَنْ هَـذَا الْمَخْلُوق الْغَرِيبِ . وَيَسِيرُ فَيُدْرِكُ قَرِيبًا مِنْ أَقْرِبَائِهِ رَاكِبًا حِمَارَهُ وَوَرَاءَهُ امْرَأَتُهُ مَاسِكَةٌ بِذَيْلِ الْحِمَارِ وَهْيَ تُهَرْوِلُ . فَيُوقِفُ دَرَّاجَتَهُ وَيَقِفُ الْحِمَارُ ، فَيَلْمَحُ سَاعَةً شُدَّتْ إِلَى رَقَبَةِ الدَّابَةِ فَيَسْتَغْرِبُ الأَمْرَ وَيُسَلِّمُ عَلَىقَرِيبِهِ الَّذِي بَادَرَهُ قَائِلاً :
ـ تِسْتَغْرِبْ وُجُودِ الْمُنْقَالَة فِي رَقْبَةِ الْبَهِيمْ .
ـ ...

وَيَقُصُّ عَلَيْهِ خَبَرَ الْهِرِلِّي الْعَصَّامْ الَّذِي اشْتَرَى سَاعَةً وَلاَ يَنْفَكُّ طِيلَةَ الْيَوْمِ يُخْرِجُهَا مِنْ جَيْبِهِ وَيَسْأَلُ كُلَّ مَارٍّ بِهِ عَنِ الْوَقْتِ لِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنْ قِرَاءَتِهِ مِنْ خِلاَلِ عَقْرَبَيْهَا فَيَجِدُ تَارَةً مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى رَغْبَتِهِ وَيُصَادِفُ أَطْوَارًا مَنْ يَقُولُ لَهُ :
ـ أَنَا عُقُوبَةَ اللَّهْ كِيفِكْ .

وَيُؤَكِّدُ لَهُ قَرِيبُهُ أَنَّ حِمَارَهُ لاَ يَسْأَلُ أَحَدًا وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى فَهْمِهِ لِلزَّمَنِ أَحْسَنَ مِنَ الْهِرِلِّي الَّذِي لَمْ يُعَبِّئْ سَاعَتَهُ مِنْ يَوْمِ أَنِ اشْتَرَاهَا وَيَتَعَجَّبُ مِمَّنْ يَقُولُ لَهُ مِنَ الْمَارَّةِ :

ـ مُنْقَالْتِكْ سَاكْتَة .

فَيُجِيبُهُ :

ـ غَشَّنِي الْبَيَّاعْ اللَّهْ لاَ تْبَارِكْ لُو .

وَيَلْتَفِتُ إِلَى زَوْجَةِ قَرِيبِهِ وَهْيَ ابْنَةُ عَمِّهِ أَيْضًا فَيَجِدُهَا تَبْتَسِمُ ، وَلَكِنَّ صَاحِبَ الْحِمَارِ السَّاعَاتِيِّ يُعْلِمُهُ ، مِنْ دُونِ أَنْ يُسْأَلَ ، بِأَنَّ زَوْجَتَهُ الْمَاسِكَةَ بِذَيْلِ الْحِمَارِ هِيَ مُنْضَبِطَةٌ مَضْبُوطَةٌ ،كَسَاعَةِ حِمَارِهِ ، لاَ تَمِيلُ لاَ ذَاتَ الْيَمِينِ وَلاَ ذَاتَ الْيَسَارِ ، وَلاَ تَقِفُ مَعَ النِّسَاءِ لِمُحَادَثَتِهِمْ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ فِي السَّابِقِ قَبْلَ اَنْ يَنْزَعَ عَنْهَا حُلِيَّهَا ؛ وَهْيَ الآنَ لَيْسَ لَهَا مَا تَتَبَجَّحُ بِهِ أَمَامَ النِّسَاءِ ، فَتَتَحَاشَاهُنَّ وَتَعْتَصِمُ بِذَيْلِ الْحِمَارِ .

وَيَسْتَغْرِبُ عَلِي مَا قَالَهُ صَاحِبُ الْحِمَارِ ، وَكَأَنَّهُ نَسِيَ قَرْيَتَهُ وَأَهْلَهَا ، وَيَنْسَحِبُ مُسَلِّمًا ، وَقَدْ خَبَا حَمَاسُهُ وَتَوَقَّفَ أَمَلُهُ كَتَوَقُّفِ عَقَارِبِ السَّاعَةِ عِنْدَ الْهِرِلِّي الْعَصَّامْ . وَيَشْعُرُ بِسُكُونِ عَجَلَةِ الزَّمَنِ فَيَنْزِلُ مِنْ دَرَّاجَتِهِ ، وَيَسِيرُ ثَقِيلَ الْخُطَى مُنْهَكًا يُجَرْجِرُ آلَتَهُ . وَيَمُرُّ بِالشَّيْخِ الأَخْتَلِ وَهْوَ رَاكِبٌ حِمَارَهُ الَّذِي عَاجَ بِهِ عَنِ الطَّرِيقِ لِيَأْخُذَ نَصِيبَهُ مِنَ الْحَشَائِشِ ، وَالشَّيْخُ مُنْحَنٍ ، لاَ يَتَحَرَّكُ وَلاَ يَنْهَرُهُ وَقَدْ تَزَحْزَحَتْ الْبَرْدَعَةُ حَتَّى وَصَلَتْ رَقَبَةَ الدَّابَّةِ ، وَيَتَذَكَّرُ عَلِي أَنَّ الشَّيْخَ مِنْ أَصْحَابِ الرِّفْقِ بِالْحَيَوَانِ وَيَدَّعِي مُشَاكِسُوهُ أَنَّهُ بَخِيلٌ يُرْخِي الْعِنَانَ لِحِمَارِهِ حَتَّى لاَ يَدْخُلَ الزَّرِيبَةَ إِلاَّ وَهْوَ شَبْعَانُ لاَ يَحْتَاجُ إِلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْعَلَفِ .بَيْنَمَا يَقُولُ فَرِيقٌ آخَرُ أَنَّهُ خَمُولٌ ، النُّعَاسُ نَائِمٌ فِي عَيْنَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ فَلاَ يَجِدُ

مَجَالاً ، وَهْوَ فِي سُبَاتِهِ ، لِيَنْهَرَهُ أَوْ يَهْمِزَهُ إِذْ لاَ يَهُمُّهُ مَتَى يَصِلَ الْمَنْزِلَ . وَهَلْ يَعْرِفُ الشَّيْخُ الْمَتَى ؟

وَيَتَطَرَّقُ النَّدَمُ إِلَى نَفْسِ عَلِي وَتَثْقُلُ خُطَاهُ ، وَ يَوَدُّ لَوْ يَرْجِعُ أَدْرَاجَهُ . وَلَكِنَّ أَصْوَاتًا رَفِيقَةً ، وَهَيْنَمَةً لَيْسَتْ بَبَعِيدَةٍ تَطْرُقُ سَمْعَهُ ، فَيَقْشَعِرُّ بَدَنُهُ ، وَيَتَوَقَّفُ قَلِيلاً ؛ وَإِذَا بِهِ يَرَى فِي أَقْصَى الشَّارِعِ جَمْعًا غَفِيرًا يَتَقَدَّمُ فِي بُطْءٍ ، أَمَامَهُ رَجُلٌ ذُو وَقَارٍ ، عَمَامَتُهُ كَبِيرَةٌ أَخَذَتْ رَأْسَهُ ، وَجُبَّتُهُ مُطَرَّزَةٌ أَشْنَعَ تَطْرِيزٍ يَعُومُ فِيهَا ، وَشَارِبَاهُ طَالاً فَانْطَلَقَا مِنْ وَجْهِهِ كَسَهْمَيْنِ ؛ وَيَقْتَرِبُ عَلِي مِنَ الْجَمْعِ وَيَتَعَرَّفُ إِلَى الْقَوْمِ فَإِذَا هِيَ حَضْرَةُ سِيدِي بِنْ عِيسَى . أَعْلاَمٌ صَفْرَاءُ وَخَضْرَاءُ وَحَمْرَاءُ وَسَوْدَاءُ تَخْفُقُ ، وَأَهِلَّةٌ وَتَصَاوِيرُ شَتَّى تُزَخْرِفُهَا ، وَتَمَائِمُ عَظِيمَةٌ تَتَدَلَّى ، وَصُفُوفٌ مِنَ الْبَشَرِ مُتَرَاصَّةٌ مُتَقَدِّمَةٌ ، تَنْحَنِي فِي تُؤَدَةٍ عَلَى نَغَمَاتِ الدَّرْبُوكَةِ وَالْبَنَادِرِ . النَّقَرَاتُ رَفِيقَةٌ بَطِيئَةٌ ، وَالرَّقَصَاتُ مُوَقَّعَةٌ مُنَغَّمَةٌ . وَالْقَوْمُ يَتَطَاوَلُونَ حِينًا فَيَقِفُونَ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ أَقْدَامِهِمْ ، وَيَنْحَنُونَ حِينًا آخَرَ انْحِنَاءَةً طَوِيلَةً عَنِيفَةً ، تَخْتَلِطُ لَهَا شَرَّابَاتُ شَوَاشِيهِمْ مَعَ شَوَارِبِهِمْ الْمَفْتُولَةِ ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ قُدَمَاءُ الحَضْرَةِ يُغَنُّونَ فِي أَصْوَاتٍ شَجِيَّةٍ :

ـ يَا مُحَمَّدْ يَا بِنْ عِيسَى يَا مُولَى مِكْنَاسْ .

وَيَقْتَرِبُ الْقَوْمُ مِنْ مَنْزِلٍ مِنَ الْمَنَازِلِ فَيَقْفِزُ فَحَلْ بِنْ عِيسَى أَمَامَ جُمُوعِ النَّاسِ ، وَيُخْرِجُ يَدَيْهِ مِنْ طَوْقِ جُبَّتِهِ وَيُصَفِّقُ شَدِيدًا رَافِعًا يَدَيْهِ صَائِحًا : هَوِّدْ . فَتَصْرَخُ الزُّكْرَةُ ، وَتُسْرِعُ الضَّرَبَاتُ عَلَى الدَّرْبُوكَةِ وَالْبَنَادِرِ ، وَيَتَغَيَّرُ الإِيقَاعُ وَتَتَسَارَعُ الرَّقَصَاتُ ، وَيَدْخُلُ الْقَوْمُ الْمَنْزِلَ وَهُمْ فِي هَيْضَتِهِمْ وَقَدِ انْخَرَمَتِ الصُّفُوفُ ، وَتَشَتَّتَتِ الْجُمُوعُ ؛ وَيَنْسَاقُ عَلِي فِي تَيَّارِهِمْ وَقَدْ جَرَفَهُ السَّيْلُ ، وَخَلَّصَهُ مِنْ دَرَّاجَتِهِ وَأَيُّ خَلاَصٍ . حِينَذَاكَ تَعْظُمُ الضَّجَّةُ وَتَتَعَقَّدُ مُهِمَّةُ شَاوُشْ الْحَضْرَةِ ، فَهْوَ

يُهَدِّئُ هَذَا وَيُسْعِينُ ذَاكَ : هَذَا آكِلُ الْعَقَارِبِ يُكَشِّرُ عَنْ أَنْيَابِهِ وَيَثِبُ وَثْبًا مُوحِشًا تُشَجِّعُهُ عَلَيْهِ الْبَنَادِرُ وَالدَّرْبُوكَةُ حَتَّى يَدِبَّ فِيهِ التَّعَبُ وَيَتَرَنَّحُ مُتَسَاقِطًا ، فَيَقْتَرِبُ مِنْهُ الشَّاوُش وَيَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ هَمَسَاتٍ وَيَتْفُلُ عَلَى جَبِينِهِ تُفْلاَتٍ فَيَهْدَأُ . وَذَاكَ تَأْخُذُهُ الْجَذْبَةُ فَيُمْسِكُ بِهِ الشَّاوُش وَيُدْخِلُ فِي خَدِّهِ مِخْيَطًا يُخَرِّجُهُ لَهُ مِنَ الْخَدِّ الآخَرِ فَيَعَضُّ عَلَيْهِ الْمَطْعُونُ بِكُلِّ أَسْنَانِهِ وَيَدُورُ دَوْرَاتٍ حَتَّى يَتَلَقَّفُهُ الشَّاوُش وَيَجْذِبُ الْمِخْيَطَ مِنَ الْخَدَّيْنِ جَذْبَةً سَرِيعَةً وَيَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ هَمْسَةً مُبْهَمَةً ثُمَّ يُطْلِقُهُ وَدِيعًا سَاكِنًا . وَيَنْظُرُ عَلِي مِنْ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْمَنْزِلِ فَيَتَذَكَّرُ جَعْجَعَةَ الرَّحَى تَدُورُ وَلاَ طِحْنَ ، وَيَتَصَوَّرُ الزَّمَانَ يَدُورُ وَلاَتَحَوُّلٌ وَلاَ تَغْيِيرٌ .

وَبَيْنَمَا هُوَ فِي خَوَاطِرِهِ غَارِقٌ إِذَا بِأَظْلاَفِ الْهِنْدِي تُفْرَشُ وَبِشَخْصٍ يَكَادُ يَكُونُ عَارِيًا يَرْتَفِعُ إِلَى أَعْلَى وَيَنْزِلُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، مُتَمَرِّغًا فِي الأَشْوَاكِ لاَ يُبَالِي ، مُتَسَلِّحًا بِبَرَكَةِ سِيدِي بِنْ عِيسَى ، وَيَتَوَالَى الْقَوْمُ عَلَى زَرْبِيَّةِ الأَشْوَاكِ مُتَمَرِّغِينَ مُتَبَرِّكِينَ ، حَتَّى يُسْعِفَهُمْ الشَّاوُش وَيَرْقِيهِمْ ، وَيُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِمْ ، فَيَتَأَخَّرُونَ فِي أَسْوَإِ حَالٍ .

وَيَفْتُرُ الْقَوْمُ وَتَتَوَانَى الضَّرَبَاتُ عَلَى آلاَتِ الإِيقَاعِ ، وَتَبَحُّ الأَصْوَاتُ زُكْرَةً وَصَهِيلاً ، فَيَقْفِزُ الْفَحْلُ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَتْعَبْ ، وَيُصَفِّقُ شَدِيدًا ، وَيُصَوِّتُ قَوِيًّا ، فَتَعُودُ الْهَمْهَمَةُ ، وَتَشْتَدُّ الْقَعْقَعَةُ ، وَإِذَا بِزَئِيرٍ يُسْمَعُ ، وَطَرَقَاتٍ تُدَوِّي ؛ وَيَلْتَفِتُ عَلِي فَيَرَى رَجُلاً يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ مُكَشِّرًا عَنْ أَنْيَابِهِ ، يَزْأَرُ زَئِيرًا مُنْكَرًا وَأَمَامَهُ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ لَمْ تَمْسَسْهَا نَارٌ يُقَطِّعُهَا بِأَسْنَانِهِ ، وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ يَتَدَافَعُونَ ، خِشْيَةً مِنْ صَوْلَتِهِ وَخَوْفًا مِنْ وَثْبَتِهِ ، هُوَ أَسَدُ الْحَضْرَةِ . وَيَمْتَلِكُ عَلِي الاسْتِغْرَابُ فَيُخْرِجُ سِيكَارَةً وَيُشْعِلُهَا وَإِذَا بِالْمُقَدَّمِ يَخْرُجُ عَنْ وَقَارِهِ وَيُمْسِكُ عَصَاهُ وَيَصِيحُ — يَا كَلْبْ ... يَا كَلْبْ ... تِتْكَيِّفْ ... أَرْمِ السِّيكَارُو ...

وَيَـنْزِلُ عَلَى عَلِي ضَرْبًـا ، فَتَتَحَـوَّلُ إِلَيْـهِ أَنْظَـارُ الْقَـوْمِ ، وَيُزَمْجِرُ الأَسَــدُ ، وَيَقْفِزُ قَفْـزَةً يَطْـرَحُ بِهَـا عَلِي أَرْضًـا ، وَيُشْبِعُهُ لَكْمًـا وَعَضًّـا حَتَّـى يَغِيـبَ عَـنِ الْوُجُـودِ .

وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَنَظَـرَ مَـرَّةً أُخْـرَى إِلَـى الزَّرِيبَـةِ ثُـمَّ تَحَـامَلَ عَلَـى نَفْسِـهِ وَأَصْلَـحَ مِنْ حَالِـهِ مَـا أَصْلَـحَ وَامْتَطَـى دَرَّاجَتَـهُ وَمَضَـى . وَلَـمْ يَكَـدْ يَتَعَتَّـبُ الْبَـابَ حَتَّـى ضَجَّ الْغُبَـارُ مُتَصَـاعِدًا ، مُلْتَوِيًـا كَـالْتِوَاءِ الثَّعَـابِينِ ، ثُـمَّ هَمَـدَ لِحِيـنٍ لِتُعَـاوِدَهُ السَّـافِيَةُ مِـنْ جَدِيـدٍ : فَكَـأَنَّ الأَرْضَ ضَـاقَ بِهَـا الْحَـالُ فَتَنَهَّـدَتْ وَتَـأَفَّفَتْ طَوِيـلاً ثُـمَّ خَمَـدَتْ مِنْهَـا الأَنْفَـاسُ لَحْظَـةً حَتَّـى تَسْتَكْمِلَ قُوَاهَـا فَتَعُـودُ عَاتِيَــةً غَلاَّبَـةً . وَأَغْمَـضَ عَيْنَيْـهِ خَوْفًـا مِـنَ الْقَـذَى وَلَكِنَّـهُ نَالَـهُ ، وَضَـمَّ شَـفَتَيْهِ وَلَكِـنَّ فَمَـهُ امْتَلَـأَ غُبَـارًا ، وَتَنَفَّـسَ فَشَـمَّ رَائِحَـةَ التُّـرَابِ جَافَّـةً لَـمْ تَعْـرِفْ مُنْـذُ زَمَـنٍ طَوِيـلٍ نَعِيـمَ النَّـدَى ، فَتَوَغَّـلَ فِـي الطَّرِيـقِ الرَّئِيسِــيَّةِ وَمَــا أَنْ شَـارَفَ السُّـوقَ حَتَّى سَمِعَ وَرَاءَهُ رَكْضًا وَصَوْتًا يَصِيحُ :

ـ اِبْعِدْ يَا مَحَمَّدْ كَلاَكْ الْبَارُودْ ...

فَـابْتَعَدَ وَإِذَا بِسِـيدِي عَمَّـار يَجْـرِي وَقَـدْ صَـوَّبَ عَصًـا غَلِيظَـةً ، أَمْسَـكَ بِهَـا كَالْبُنْدُقِيَّـةِ كَأَنَّــهُ يُهَــاجِمُ عَـدُوًّا ، ثُـمَّ وَقَـفَ وَأَمَالَهَـا نَحْـوَ الأَرْضِ وَصَـرَخَ بِصَوْتٍ أَجَشَّ يُحَاكِي طَلْقَةً نَارِيَّةً :

ـ بُـوفْ ...

سَمِعَ عَلِي وَهْوَ مَمْـدُودٌ عَلَـى الْفِـرَاشِ فِـي سِـجْنِهِ طَلَقَـاتٍ نَارِيَّـةً آتِيَـةً مِـنْ مَيْـدَانِ التَّعْلِيـمِ بِالثُّكْنَـةِ . لَقَـدْ أَيْقَظَتْـهُ مِـنْ غَفْوَتِـهِ وَأَخْرَجَــتْهُ مِـنْ عَـالَمِ ذِكْرَيَاتِـهِ ، وَأَبْعَدَتْـهُ عِـنْ تَذَكُّـرِ مَـا تَـمَّ فِـي عَوْدَتِـهِ مِـنْ فَـرَحِ أَهْلِـهِ بِقُدُومِـهِ وَانْشِـغَالِهِ بِخِتَـانِ أَخَوَيْـهِ . وَكَـانَتْ تِلْــكَ فُرْصَـةً أُتِيحَــتْ لَـهُ لِلْحَدِيـثِ مَـعَ جَـدِّهِ الَّـذِي أَنْهَكَتْــهُ الشَّـيْخُوخَةُ وَتَرَكَتْــهُ طَرِيــحَ الْفِــرَاشِ . وَاسْــتَدْرَجَهُ لِيَكْشِـفَ لَـهُ عَـنْ أَسْـرَارٍ مَـا كَـانَ لِيَبُـوحَ لَـهُ بِـهَا لَـوْ لَـمْ يَعْتَبِـرْهُ ، خَاطِئًـا

لاَمَحَالَةَ ، قَدْ تَخَطَّى مِنطَقَةَ الْخَطَرِ وَهْوَ الْمُوَظَّفُ الآنَ . وَكَانَتْ مُنَاسَبَةً أَيْضًا لِيَحْتَكَّ احْتِكَاكًا رَفِيقًا بِعَمِّهِ الَّذِي غَيَّرَ مَعَهُ سُلُوكَهُ ، فَصَارَ مُرَاوِغًا يَقْرَأُ حِسَابًا لِوَضْعِ عَلِي الْجَدِيدِ وَأَزَالَ مِنْ خِطَابِهِ كُلَّ مَا يَحُومُ حَوْلَ الْكَلْبِ وَعَائِلَتِهِ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يُفَرِّطْ فِي شَيْءٍ مِنْ تَصَرُّفِهِ فِي أَرْزَاقِ الأُسْرَةِ بِأَكْمَلِهَا . فَلَكَأَنَّهُ الْمَالِكُ الأَصْلِيُّ اللَّهُمَّ إِلاَّ الْبَيْعَ فَذَاكَ أَمْرٌ لاَ قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ وَالْحَاج سَالِم لاَ يَزَالُ حَيًّا .

وَفُتِحَ بَابُ الْغُرْفَةِ وَدَخَلَ الأَجُودَان وَقَالَ :

ــ الْبِيمْبَاشِي يَطْلُبُكَ .

وَتَحَامَلَ عَلِي عَلَى نَفْسِهِ ،فَلَمْ يَجِدْ فِي رِجْلَيْهِ الْقُدْرَةَ الْكَامِلَةَ عَلَى الْمَشْيِ كَمَا كَانَ مِنْ قَبْلُ يَدُقُّ الأَرْضَ دَقًّا بِقَدَمَيْهِ كَكُلِّ عَسْكَرِيٍّ نَشِيطٍ . وَتَصَوَّرَ نَفْسَهُ وَهْوَ يَنْزِلُ مِنَ الْقِطَارِ الآتِي مِنْ بَاجَةَ وَهْوَ مُسَلْسَلٌ يُقَادُ إِلَى رَئِيسِ الْوَزَارَةِ الْحَرْبِيَّةِ . وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي تِلْكَ الْمَرَّةِ يُدَافِعُ عَنْ حَقِّهِ ، وَيَدْحَضُ الظُّلْمَ وَالْعُدْوَانَ وَيَرْفَعُ الْتِبَاسًا عَنْ خَطَإٍ لَمْ يَرْتَكِبْهُ . وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ هُوَ فِي انْتِظَارِ الْعِقَابِ لِذَنْبٍ اقْتَرَفَهُ عَنْ قَصْدٍ وَاسْتِهْتَارٍ .

غَيْرَ أَنَّ الأَجُودَان لَمْ يُعْلِمْهُ أَنَّ تَطَوُّرَاتٍ طَرَأَتْ مُنْذُ الصَّبَاحِ عَلَى وَضْعِهِ . ذَلِكَ أَنَّ الْبِيمْبَاشِي لَمَّا عَلِمَ بِمَا حَدَثَ ، جَمَعَ الْمُحَقِّقِينَ وَضَحَايَا الْمَسْرَحِيَّةِ وَقَالَ لَهُمْ :

ــ أَلاَ تُفَكِّرُونَ فِي عَاقِبَةِ مَا تُرِيدُونَ فِعْلَهُ ... إِنَّكُمْ سَتُصْبِحُونَ سُخْرِيَّةَ الْقَرْنِ عِنْدَ الْفَرَنْسِيِّينَ فِي وَزَارَةِ الْحَرْبِ ، وَسَيَنْتَقِلُ التَّحْقِيقُ هُنَاكَ ، وَتُصْبِحُونَ أَنْتُمُ الْمُمَثِّلِينَ أَمَامَ الضُّبَّاطِ الْفَرَنْسِيِّينَ ... بَلْ إِنَّ ضُبَّاطَ عَسْكَرِ الْبَاي سَيَكُونُونَ أُضْحُوكَةَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ فِي الْعَاصِمَةِ ... سَيُؤَلِّبُونَ عَلَيْنَا الأَطْفَالَ فِي الشَّوَارِعِ وَيَجْعَلُونَنَا فِي الْمَقَاهِي مَحَلَّ تَنَدُّرِ الأَزْفَاتِ وَالأَنْذَال . أَلاَ يَكْفِي مَا يَحْدُثُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ مِنْ مَشَاكِلَ فِي الطَّرِيقِ

الْعَامُّ مَعَ الْجُنْدِ عِنْدَمَا يخْرُجُ الأَطْفَالُ وَيُغَنُّونَ تِلْكَ الأُغْنِيَّةَ الَّتِي تَعْرِفُونَهَا : عَسْكَرِي ... يَا عَسْكَرِي ...يَاخَدِيمِ الْبَيْ ... تَضْرِبْ الْمُوزِيكَا ... وِتْقُولْ طَرَرَيْ ...تُرِيدُونَ أَنْ يُصْبِحَ الضُّبَّاطُ ، بِدَوْرِهِمْ مِنْ هُنَا فَصَاعِدًا ، أُضْحُوكَةً ... بُومْ كَسِيرْ وَمَا إِلَى ذَلِكَ ... نَعَمْ سَتَنْتَقِمُونَ مِنَ الْبَاش شَاوُش وَلَكِنَّ التُّونِسِيِّينَ كُلَّهُمْ وَالْبَايْ نَفْسَهُ نَصَرَهُ اللّهُ سَيَنَالُهُمْ الْخِزْيُ وَالْعَارُ ... اُسْتُرُوا مَا سَتَرَ اللّهُ ... وَرَاجِعُوا أَنْفُسَكُمْ وَاسْلُكُوا سُلُوكًا لاَئِقًا حَتَّى لاَتَكُونُوا مَحَلَّ سُخْرِيَّةٍ ... إِئْتُونِي بِالْبَاش شَاوُش ... هَلْ فِيكُمْ مَنْ لاَ يَرَى رَأْيِي ؟ لِنَتَنَاقَشْ إِذَا أَرَدْتُمْ .

وَقَالَ أَحَدُهُمْ وَغَايَتُهُ هُوَ تَحْرِيضُ الضَّابِطِ عَلَى عَلِي :

ـ سَيِّدِي الْيِمْبَاشِي ... أَيُعْجِبُكَ أَنْ تَقُولَ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ فِي رِوَايَتِهَا عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنْ حَضْرَةِ جَنَابِكُمْ بَهِيمْبَاشِي عِوَضًا عَنْ يِيمْبَاشِي .

ـ أَلاَ تَقُولُونَ جَمِيعًا يَلْعَنْ بُو الْبَيْ فِي غِيبْتُو ...

وَسَكَتَ الْجَمِيعُ وَخَرَجُوا مِنْ مَكْتَبِ الْيِمْبَاشِي وَاعْتَرَضُوا الْبَاش شَاوُش عَلِي فِي الرِّوَاقِ . فَنَكَسَ رَأْسَهُ ، وَسَمِعَ ضَابِطًا مِنْهُمْ يَقُولُ مُتَحَسِّرًا:

ـ صَحَّة لِيهْ ... مَنَعْ .

لَمْ يَفْهَمْ عَلِي مَعْنَى الْعِبَارَةِ . وَأُذِنَ لَهُ بِالدُّخُولِ إِلَى مَكْتَبِ الْيِمْبَاشِي الَّذِي بَادَرَهُ بِالتَّأْنِيبِ وَالتَّوْبِيخِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

ـ نَظَرًا إِلَى أَنَّنِي أَتَوَسَّمُ فِيكَ الْخَيْرَ فَإِنِّي قَرَّرْتُ أَنْ أَعْفُوَ عَنْكَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ بِاتِّفَاقٍ مَعَ الضُّبَّاطِ عَلَى شَرْطِ أَنْ تَطْلُبَ الْعَفْوَ مِنْ كُلِّ أَبْطَالِ مَسْرَحِيَّتِكَ .

وَابْتَسَـمَ الْبِيمْبَاشِـي ، وَشَـكَرَهُ عَلِـي عَلَـى أَرْيَحِيَّتِـهِ ، وَحَيَّـاهُ تَحِيَّـةً عَسْكَرِيَّةً نَشِيطَةً لِأَنَّـهُ شَعُرَ كَأَنَّـهُ وُلِـدَ مِـنْ جَدِيـدٍ . وَأَحَـسَّ مِـنْ ذَلِـكَ التَّـارِيخِ بِـأَنَّ وَضْعَـهُ تَغَـيَّرَ ، فَلَقَـدْ أَصْبَـحَ مُهَابًا مِـنَ الضُّبَّـاطِ لامَحَالَـةَ ، يُقْـرَأُ لَـهُ بَعْـضُ الْحِسَـابِ ؛ وَلَكِنَّـهُ كَـانَ يَفْهَـمُ أَنَّـهُ مُعَـرَّضٌ إِلَـى انْتِقَـامِهِمْ إِذَا صَـدَرَتْ مِنْـهُ أَيَّـةُ مُخَالَفَةٍ ، وَأَنَّهُـمْ كُلُّهُـمْ يَتَرَبَّصُونَ بِـهِ الدَّوَائِـرَ .

وَفِـي تِلْـكَ الأَيَّـامِ تَبَيَّـنَ فِـي نَفْسِـهِ أَنَّـهُ يَحُـثُّ الْخُطَـى فِـي سُـلُوكِهِ نَحْـوَ تَـوَازُنٍ بَـدَأَ يَسْتَحْكِمُ فِيـهِ التَّعَقُّـلُ . وَلَيْـسَ أَحَـقَّ وَأَسْلَـمَ وَأَوْفَـقَ وَأَصْـوَبَ مِـنْ أَنْ يَمِيـلَ الْمَـرْءُ إِلَـى التَّـوَازُنِ ، وَيَنْشُـدَ بِالتَّـالِي كَمَـالَ إِنْسَـانِيَّتِهِ عَاطِفَـةً وَحِكْمَـةً . وَلَكِنَّـهُ كَـانَ يَشْعُرُ بِأَنَّـه كَـالْبَهْلَوَانِ فِـي صِـرَاعٍ دَائِـمٍ لاَ يَعْـرِفُ خَصْمَـهُ الَّـذِي يُصَارِعُـهُ بَـلْ هُـوَ يَمْشِـي عَلَـى حَبْـلٍ مَشْيَ الْحَـذِرِ ، الْمُحَـافِظِ عَلَـى تَـوَازُنٍ مُتَقَلْقِـلٍ أَمَـامَ جَمْـعٍ مِـنَ الْمُشَـاهِدِينَ فِيهِـمْ أَغْلَبِيَّـةٌ تَتَمَنَّـى رُبَّمَـا سُـقُوطَهُ لِتَضْحَـكَ وَلاَ يَهُمُّهَـا مِـنْ أَمْـرِهِ شَـيْءٌ ، أَوْ تَشْـمَتَ بِـهِ لِحِسَـابٍ تُرِيـدُ تَصْفِيَتَـهُ مَعَـهُ ، وَأَقَلِّيَّـةٌ قَلِيلَـةٌ تَحْـرِصُ مِثْلَـهُ عَلَـى أَنْ يَبْقَـى وَاقِفًـا مَحَبَّـةً وَتَعَاطُفًـا أَوْ سَـلاَمَةَ طَوِيَّـةٍ وَكَمَـالَ إِنْسَـانِيَّةٍ .

وَلَكِـنَّ هَـذَا الْمَيْـلَ إِلَـى التَّـوَازُنِ أَعْقَبَتْـهُ مَـرَارَةٌ فِـي الْفَـمِ وَكُرْبَـةٌ فِـي النَّفْـسِ لِأَنَّـهُ لَـمْ يَشْـعُرْ مِـنْ جَرَّائِـهِ بِـالْقُيُودِ الْمَعْنَوِيَّـةِ الْمُكَبِّلَـةِ فَقَـطْ بَـلْ تَفَطَّـنَ إِلَـى مَـا يُهَـدِّدُهُ مِـنَ انْسِـدَادِ نَبْـعِ الْعَفْوِيَّـةِ فِيـهِ ، وَانْطِمَـاسِ تِلْـكَ الْعَيْـنِ الـثَّرَّةِ الَّتِـي تُكْسِـبُهُ طَلاَقَـةً وَطَفْـرَةً وَحَـرَكِيَّةً هِـيَ مِـنْ صُلْـبِ الْحَيَـاةِ ، وَهَـذِهِ لا تَسْـتَقِيمُ إِلاَّ بِالتَّمَسُّـكِ بِالْحُرِّيَّـةِ الْمُنْبَنِيَـةِ فِـي مُعْظَمِهَـا عَلَـى الـرُّوحِ النَّقْدِيَّـةِ وَالضَّحِـكِ وَالسُّخْرِيَّةِ ؛ وَتَمَنَّـى عَلَـى اللَّـهِ أَلاَّ يَصِـلَ إِلَـى " رَوْعَـةِ " تَـوَازُنِ الْبُلْـهِ وَالْغُفَّـلِ .

وَإِذَا أَحَسَّ الْمَـرْءُ بِأَنَّـهُ وُلِـدَ مِـنْ جَدِيـدٍ ، فَقَـدْ شَـعُرَ فِـي الْوَاقِـعِ بِـأَنَّ جُـزْءًا مِـنْ نَفْسِـهِ قَـدْ مَـاتَ ، وَسَـارَ هُـوَ فِـي مَوْكِـبِ جَنَازَتِـهِ ، وَشَـهِدَ دَفْنَـهُ بِعَيْنَيْـهِ وَتَقَبَّلَ التَّعَـازِيَ بَعْضُـهُ لِبَعْضِـهِ مَعًـا .]

10

[ظَلَّ عَلِي عَلَى هَذَا التَّوَازُنِ وَقَدِ اكْتَسَبَ خِبْرَةً ، وَأَصْبَحَ ذَا شَأْنٍ ضِمْنَ طَائِفَةِ الطُّبْجِيَّةِ ، إِذْ كَانَ فِي الْوَاقِعِ يُشْرِفُ عَلَى مَكْتَبِ الْيُوزْبَاشِي رَئِيسِ الطَّائِفَةِ عَلاَوَةً عَلَى نِيَابَتِهِ لِلأَجُودَان (الصَّاغْ قُلْ أَغَاصِي) فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ لِمَيْلِهِ إِلَى فَنِّ الْمِدْفَعِيَّة وَحِذْقِهِ لَهُ . وَلَكِنْ مَا أَنْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ الْعَالَمِيَّةُ الأُولَى أَوْزَارَهَا سَنَةَ 1918 حَتَّى سُحِبَتْ مِنْ عَسْكَرِ الْبَاي الْمَدَافِعُ الْعَصْرِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ نَمَاذِجُهَا أَدَاةً فَعَّالَةً فِي انْتِصَارِ فَرَنْسَا . وَقَلَّتْ التَّدْرِيبَاتُ وَالْمُنَاوَرَاتُ وَبَقِيَتْ بَعْضُ الْمَدَافِعِ الْمُتْحَفِيَّةِ مِنْ مُخَلَّفَاتِ حَرْبِ 1870 لاَ تَحْتَاجُ إِلَى كَبِيرِ عِنَايَةٍ .

وَتَفَتَّحَتْ عَيْنَا عَلِي عَلَى مَا جَدَّ فِي الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ بِالْبِلاَدِ سَنَتَيْ 1919 وَ 1920 . وَلَكِنَّهُ كَانَ يَقْضِي جُلَّ وَقْتِهِ فِي الثُّكْنَةِ وَيَرْعَى كُلَّ أَبْنَاء بَلْدَتِهِ الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا سَالِمِينَ مِنْ قُرْعَةِ الْعَسْكَرِ . وَهُمْ إِمَّا عَجَزُوا عَنْ دَفْعِ التَّعْوِيضِ أَوْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْقِيَامِ بِرَقْصَةِ الرَّشْوَةِ . وَكَانَ مِنْ بَيْنِ أَبْنَاءِ بَلْدَتِهِ صُوَيْلَح ابْنُ عَمِّهِ ، وَعَلِي يَكْبُرُهُ بِسَنَةٍ . وَكَانَ الأَوْلَى أَلاَّ يُحْشَرَ مَعَ الْمُجَنَّدِينَ ، لِأَنَّهُ مَهْمَا كَانَتِ الْحَالاَتُ لاَ بُدَّ أَنْ يَرْفُضَهُ الطَّبِيبُ .هَذَا لَوْ أَنَّ صُوَيْلح لَمْ يَكُنْ لَهُ ابْنُ عَمٍّ اسْمُهُ حَفَيِّظْ .

وَالْقِصَّةُ بَيْنَهُمَا طَوِيلَةٌ دَامَتْ سَنَوَاتٍ كَانَ فِيهَا صُوَيلَح هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي يَتَجَرَّأُ عَلَى حَفَيِّظ ، بِإِيعَازٍ بِالطَّبْعِ ، وَيَكْشِفُ أَلاَعِيبَهُ وَتَصَرُّفَاتِهِ أَمَامَ النَّاسِ جَمِيعًا وَحَتَّى أَمَامَ الْحَاج سَالِم . وَكَانَ الشَّفِيعُ لَهُ دَائِمًا هَرْوَشَتَهُ وَانْحِيَازَ أُمِّهِ لَهُ . فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ رُفِعَتْ عَنْ صُوَيلَح الْحَصَانَةُ وَأَصْبَحَ عُرْضَةً لِنِقْمَةِ حَفَيِّظ الَّذِي لَمْ يَتَرَدَّدْ ، أَثْنَاءَ مَرَاسِمِ الْفَرْق ، أَنْ يَضْرِبَهُ ضَرْبَةً عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ أَسْكَتَتْهُ فِي الْحِينِ ، وَبَقِيَ مِنْ جَرَّائِهَا أَشْهُرًا طَوِيلَةً لاَ يَنْبِسُ بِكَلِمَةٍ ، وَعُولِجَ بِأَلْوَانٍ مِنَ الْحَشَائِشِ اللَّهُ وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِمَفْعُولِهَا ، حَتَّى نَطَقَ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ بِكَلاَمِ الْبُلْهِ وَضَحَكَاتِهِمْ .

لَمْ يَكْتَفِ حَفَيِّظ بِذَلِكَ بَلْ سَعَى لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ نِهَائِيًّا مِثْلَمَا فَعَلَ مَعَ عَلِي . وَلَرُبَّمَا يَكُونُ أَسْعَد حَظًّا مِنْ لُعْبَتِهِ مَعَ عَلِي فَيُسَاقُ صُوَيْلَح إِلَى الْوَاجِهَةِ وَيَنْتَهِي الأَمْرُ . وَرَغْمَ أَنَّ لَجْنَةَ الْقُرْعَةِ رَدَّتْهُ مَرَّةً أُولَى وَثَانِيَةً فَقَدْ أَلَحَّ عَلَى شَيْخِ التُّرَابِ أَنْ يُدَبِّرَ أَمْرَهُ وَيَحْشُرَ صُوَيْلَح مَعَ الْمُجَنَّدِينَ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ مِنْ وَسَخِ دَارِالدُّنْيَا .فَبَذَلَ الْمِسْكِينُ جُهْدًا كَبِيرًا لِلْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ بَعْدَ أَنْ دَارَ حِوَارٌ بَيْنَهُمَا غَرِيبٌ : — يَا سِي حَفَيِّظ النَّاسُ تَبْذُلُ الْمَالَ لِتَخْلِيصِ أَبْنَائِهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ مِنَ الْعَسْكَرِ وَأَنْتَ بِالْعَكْسِ تُسَخِّرُ جُهْدَكَ لِلرَّمْيِ بِأَخِيكَ فِي أَتُونِ الْحَرْب .

— الْجَيْشُ هُوَ الْوَحِيدُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُقَوِّمَ عِوَجَهُ .

وَلَمْ تَخْفَ عَلَى شَيْخِ التُّرَابِ غَايَةُ صَاحِبِنَا وَإِنَّمَا رَجَّحَتِ الْكَفَّةَ أُمُورٌ أُخْرَى لاَ فَائِدَةَ فِي ذِكْرِهَا لِبَدَاهَتِهَا . لِذَلِكَ لَمْ تَشْفَعْ فِي صُوَيلَح عَاهَتُهُ وَلا مُثُولُهُ أَمَامَ لَجْنَةِ الْقُرْعَةِ مَرَّاتٍ بَلْ بِالْعَكْسِ وَجَدَتْ فِي قَامَتِهِ النَّحِيفَةِ وَبُنْيَتِهِ الْقَوِيَّةِ وَفِي صَمْتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مُبَرِّرٍ لِتَجْنِيدِهِ . وَلَكِنَّ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ لَهُ حَفَيِّظ حِسَابًا هُوَ التَّابِعَةُ الَّتِي لاَ تَنْفَكُّ تُمْسِكُ بِخِنَاقِهِ وَالْمُتَمَثِّلَةُ فِي عَلِي .ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ الْمُجَنَّدِينَ يَمُرُّونَ بِثَكْنَةِ بَارْدُو

أَفْوَاجًا بَعْدَ أَفْوَاجٍ ، وَأَنَّ عَلِي بِحُكْمِ وَظِيفَتِهِ هُنَاكَ عَلِمَ بِوُجُودِ ابْنِ عِمِّهِ فَقَامَ بِالْمُسْتَحِيلِ لِإِبْقَائِهِ ضِمْنَ عَسْكَرِ الْبَاي ، وَنَجَحَ وَحَمَاهُ بِأَنْ وَجَدَ لَهُ فِي الْمَطْبَخِ الْمَلْجَأَ الْوَحِيدَ الَّذِي يَحْفَظُهُ مِنْ سُخْرِيَّةِ السَّاخِرِينَ وَبَطْشِ الْجَبَّارِينَ مِنَ الضُّبَّاطِ الصِّغَارِ . فَلَمْ يَتَعَلَّمْ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ إِلاَّ أَصْنَافَ الطَّعَامِ وَالأَفَاوِيهَ ، وَأَسْمَاءَ الأَوَانِي وَالأَشْرِبَةِ . وَكَانَ بَيْنَ حَالَتَيْنِ : فَإِمَّا الْفَرَحُ وَاللاَّمُبَالاَةُ الْمَشْرُوطَانِ بِوُجُودِ الْمَالِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ تَسْمَعُ مِنْهُ ضَحَكَاتٍ مُدَوِّيَةً تَتْبَعُهَا صَيْحَةٌ تُعْلِنُ عَنْ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الطَّعَامِ : ـــ صَحَيِّنْ كُوشَة ... صَحَيِّنْ كُسْكِسِي الخ ...

وَإِمَّا الْغَضَبُ يَصْحَبُهُ سُكُوتٌ وَانْزِوَاءٌ لِفِقْدَانِ الْمَالِ أَوْ مُسَبِّبَاتِهِ وَفِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ يَكُونُ حَفِيظ فِي اللُّعْبَةِ . وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ كَانَ غُنْمُ صُوِيلَح فِي انْفِتَاحِ شَهِيَّتِهِ وَكَسْبِ صِحَّتِهِ ، فَتَضَاعَفَ وَزْنُهُ وَأَصْبَحَ مِنَ الضَّخَامَةِ وَالْبَدَانَةِ يَعْضِدُهُمَا الْعَتَهُ وَالْبَلَهُ مَا أَضْحَكَ عَلَيْهِ الْكِبَارَ وَالصِّغَارَ . وَكَانَ لاَيَنْسَى عِنْدَمَا يَزِنُ فِي الْمَطْبَخِ نِصْفَ الْعِجْلَ أَنْ يَصْعَدَ عَلَى الْمِيزَانِ بِدَوْرِهِ وَيَصِيحَ مَعَ ضَحَكَاتِهِ الْمُدَوِّيَةِ :

ـ لاَيَزِيدُ عَنْ وَزْنِي كَثِيرًا .

أَوْ إِذَا كَانَ الْعِجْلُ صَغِيرًا يَضْحَكُ ضَحَكَاتِهِ الطَّوِيلَةَ الْبَلِيدَةَ وَيَصِيحُ كَمَا يَفْعَلُ الْكَبْرَانُ عِنْدَمَا يَأْمُرُ بِرَفْعِ السِّلاَحِ :

ـ نُوزِنْ أَكْثَرْ .

وَظَلَّ عَلِي يَنْعَمُ بِثَمَرَةِ تَوَازُنِهِ أَكْثَرَ مِنْ سَنَتَيْنِ بَعْدَ تَطَوُّعِهِ حَتَّى جَاءَتْهُ بَرْقِيَّةٌ تُخْبِرُهُ بِوَفَاةِ جَدِّهِ ، فَخَرَجَ فِي إِجَازَةٍ لِبِضْعَةِ أَيَّامٍ هُوَوَعَمُّهُ صُوِيلَحْ . وَدَخَلَ الْقَرْيَةَ وَأَوَّلُ مَنْ صَادَفَ سِيدِي عَمَّار كَأَنَّهُ بَوَّابُهَا فَصَاحَ فِي :

ـ بَالِكْ يَا مَحَمَّدْ كَلاَكِ الْبَارُودْ .

لَمْ يَهْتَمَّ عَلِي بِمَا يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَجْذُوبُ وَبِجَانِبِهِ صُوَيْلِحْ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ . أَمَّا هُوَ فَقَدْ أَصْبَحَ يَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا نَظْرَةً أُخْرَى وَيَرَى مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى رُؤْيَتِهِ مِنْ قَبْلُ . لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ عِنْدَمَا كَانَ صَغِيرًا أَنَّ هَذِهِ الدُّورَ وَالدَّكَاكِينَ الْمُبَعْثَرَةَ عَلَى جَانِبَيِ الطَّرِيقِ صَغِيرَةٌ حَقِيرَةٌ ، تَبْعَثُ فِي النَّفْسِ الْكَآبَةَ ، اللَّهُمَّ إِلاَّ دَارَ الْحَاج سَالِم الْقَدِيمَةَ الَّتِي أَصْبَحَتْ مَقَرًّا لِحَاكِمِ الْبَلْدَةِ إِدَارَةً وَسُكْنَى . إِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ يَوْمًا أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَقْرِبَائِهِ تَذَمَّرَ مِنْ هَذَا الْقُبْحِ وَحَاوَلَ أَنْ يَجِدَ لَهُ تَفْسِيرًا . كُلُّ مَا ظَهَرَ لِلْعَيْنِ بِصُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ هُوَ الْوَاقِعُ الَّذِي كُتِبَ لَهُ أَنْ يَقَعَ ، لاَ رَادَّ لَهُ إِذْ هُوَ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ .

لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِالاِسْتِغْرَابِ عِنْدَمَا كَانَ يَسْمَعُ أُمَّهُ أَوْ بَعْضَ أَصْحَابِهِ أَنَّ الْجَارَ بَاتَ ، هُوَ وَعَائِلَتُهُ فِي مَنْزِلٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنَازِلِ الْحَقِيرَةِ ، يَتَضَوَّرُ جُوعًا وَفِي ظَلاَمٍ دَامِسٍ ، غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى إِشْعَالِ وَلَوْ فَتِيلٍ ، وَلَمْ يَفْطِنْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، وَلَمْ يَدُرْ بِخَاطِرِهِ هُوَ أَنْ يُشْعِرَ أَحَدًا بِذَلِكَ . هُوَ الْحَيَاءُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْجُوعِ وَهُوَ الصَّبْرُ وَالْقَنَاعَةُ . هِيَ خِلاَلٌ مَحْبُوبَةٌ كَمْ دَرَجَ النَّاسُ عَلَى الإِشَادَةِ بِهَا وَخُصُوصًا الأَغْنِيَاءَ مِنْهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَتَرَدَّدُوا فِي ذِكْرِهَا بِكُلِّ إِجْلاَلٍ وَإِكْبَارٍ .

وَهُوَ لَمْ يَكُنْ لِيَسْتَغْرِبَ أَيْضًا عِنْدَمَا يَبْلُغُهُ هَلاَكُ عَائِلَةٍ كَامِلَةٍ مَرَضًا وَرُبَّمَا جُوعًا ، لِأَنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ لَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ قَادِرِينَ عَلَى الاِسْتِغْرَابِ . فَهُمْ يَبْحَثُونَ دَائِمًا عَنْ خَطِيئَةٍ صَدَرَتْ مِنْ رَبِّ الْعَائِلَةِ أَوْ مِنْ أَبِيهِ أَوْ جَدِّهِ لِيُبَرِّرُوا نَقْمَةَ اللَّهِ : كَانَ جَدُّهُ سَرَّابًا يُخْفِي الْمَسْرُوقَ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَسْكُنُهُ حَفِيدُهُ . أَوْ كَانَ أَبُوهُ يَتَزَوَّجُ الأَرَامِلَ وَيَمْتَصُّ ثَرْوَتَهُنَّ وَيُطَلِّقُهُنَّ وَقَدْ قَيَّدَهُنَّ الْفَقْرُ وَالذُّبُولُ . أَوْ كَانَتْ أُمُّهُ شِرِّيرَةً ذَاقَتْ مِنْهَا حَمَاتُهَا الْعَجُوزُ الضَّرِيرَةُ الْوَيْلاَتِ وَالْوَيْلاَتِ ، حَتَّى خَرَجَتْ مِنَ الْغُرْفَةِ رَافِعَةً إِلَى

اللّـهِ يَدَيْهَـا ، شَـاكِيَةً ، بَاكِيَـةً ؛ فَسَـقَطَتْ فِـي الْبِـئْرِ ، وَصَـاحَتْ وَهْـيَ بَيْـنَ الْفَـرَحِ لِرُجُـوعِ بَصَرِهَـا عِنْـدَ الصَّدْمَـةِ ، وَبَيْـنَ الْخَـوْفِ مِـنَ الْغَـرَقِ ؛ فَمَـاتَتْ بَعْدَ يَوْمٍ وَ بِضْعِ لَيْلَـةٍ عَطَشًـا وَظَمَـأً إِلَـى الْحَيَـاةِ .

وَهْوَ لَمْ يَكُـنْ لِيَسْتَغْرِبَ أَيْضًـا عِنْدَمَـا يَمُـرُّ أَمَـامَ بَيْـتٍ مِنَ الْبُيُـوتِ ، وَيَـرَى الصِّغَـارَ يَجِيئُـونَ وَيَذْهَبُـونَ ، وَيَسْـمَعُهُمْ يُـرَدِّدُونَ بِـأَصْوَاتٍ تَـرِنُّ نَشْـوَةً وَسَعَادَةً :

ـ يَا سَعْدَاتْنَا اللِّيلَة عَشَانَا بلْحَمْ وَبَاشِ نْشَعْلُوا فْتِيلَة .

أَوْ يَـرَى بَعْـضَ الصِّغَـارِ وَقَـدْ مَـدَّ كَفَّـهُ وَمَرَّرَهَـا أَمَـامَ أُنُوفِ أَصْحَابِـهِ لِيَشُـمُّوا رَائِحَةَ اللَّحْمِ الَّتِـي حَـاوَلَ الإِبْقَـاءَ عَلَيْهَـا لِيُوهِـمَ نَفْسَـهُ وَيُوهِمَهُـمْ بِـالْغِنَى .

وَهْـوَ لَـمْ يَكُـنْ لِيَـجِدَ فِـي سُـلُوكِ جَـارِهِمْ أَمْـرًا غَرِيبًـا عِنْدَمَـا يَشْـتَرِي اللَّحْـمَ ، وَيَشُـكُّهُ فِـي خَيْـطٍ بَعْـدَ أَنْ يَعُـدَّ الْقِطَـعَ وَيُعَـايِنَ حَجْمَهَـا ؛ وَعَلَـى زَوْجَتِـهِ أَلاَّ تَفُـكَّ عِقَالَهَـا ، وَعَلَيْهَـا أَنْ تَتْرُكَهَـا تَغْلِي فِـي الْقِـدْرِ وَهْـيَ مُقَيَّـدَةٌ ، حَتَّـى تَكُـونَ جَـاهِزَةً لِـلزَّوْجِ الْحَـازِمِ لِيُطْلِـقَ سَـرَاحَهَا ، وَيُدْخِلَهَـا فِـي الْحِـينِ إِلَـى عَـالَمِ الظُّلُمَـاتِ . وَلَـمْ تَنْقُصْـهُ الْحُجَّـةُ لِإِثْبَـاتِ ادِّعَائِـهِ ، إِذْ كَـانَ يَخَـافُ عَلَـى عِيَالِـهِ مِـن ارْتِفَـاعِ ضَغْـطِ الـدَّمِ ، عِنْـدَ الإِكْثَـارِ مِـنْ أَكْـلِ اللَّحْـمِ ، بَيْنَمَـا الْمَـرَقُ وَحْـدَهُ هُـوَ شِـفَاءٌ لِلنُّفُـوسِ وَيَقُـولُ لَهُـمْ فِـي لَهْـجَةِ الْغَيُـور النَّـاصِحِ :

ـ مَرْقْتُـو وَلاَ فُرْقْتُـو .

لَقَـدْ ضَجَّـتْ هَـذِهِ الذِّكْرَيَـاتُ بِنَفْسِـهِ ، كَمَـا ضَـجَّ الْغُبَـارُ ، وَأَخَـذَتْ تَتَـوَارَدُ عَلَيْـهِ مُتَزَاحِمَـةً فِـي غَيْـرِ نِظَـامٍ ، وَهْـوَ بَيْـنَ الْحَنِينِ إِلَيْهَـا لِأَنَّهَـا تُذَكِّـرُهُ بِطفُولَتِـهِ ، وَتَشُـدُّهُ إِلَـى قَوْمِـهِ ، وَتُذِيقُـهُ طَعْمًـا لَـهُ نَكْهَـةُ الْقِـدَمِ ، وَبَيْـنَ الْكُفْـرِ بِهَـذَا الْخُنُـوعِ والاسْتِـسْلاَمِ . شُـعُورٌ مُمَـزِّقٌ ، وَأَسَـفٌ مُمِـضٌّ ، وَضَـرْبٌ مِـنَ الصِّرَاعِ لاَ يَنِـي ، تَغُـورُ لَـهُ عَيْنَـاهُ لِتَنْظُـرَ إِلَـى أَبْعَـدَ مِـنْ مَاضِيـهِ وَتُخْفِـي غَشَـاوَةَ الأَسَـى وَالْحُـزْنِ السَّـاكِنِ بِهِمَـا : صِـرَاعٌ يَخُـدُّ أَيْضًـا جَبِينَـهُ خُصُوصًـا

خدَّتـيْنِ بَـارزَتَيْنِ ، تَنْطَلِقَـانِ مِـنْ بَيْـنِ حَاجِبَيْـهِ ، ذَاتَ الْيَمِــينِ وَذَاتَ الشِّـمَالِ ، كَأَنَّهُمَـا فَرْعَـانِ لِشَـجَرَةِ الْوُجُـودِ ، مُثقَـلاَنِ بِثَمَــرَاتِ أَعْمَـقِ مَـا فِـي عُمْـقِ الْحَيَـاةِ .

أَيْنَ هُـوَ مِنْ طُمَأْنِينَـةِ طُفُولَتِـهِ الْوَادِعَـةِ الضَّحُـوكِ ، بَيْـنَ أَقْرِبَـاءَ يُذِيقُونَـهُ مِـنْ حَلاَوَةِ التَّبْجِيـلِ وَالتَّقْدِيـرِ لِأَجْـلِ مَكَانَـةِ وَالِـدِهِ ، وَهْـوَ فِـي غَفْلَـةٍ غَافِلَـةٍ ، وَمِـنْ هَذَا الْجَحِيمِ الَّـذِي فُتِـحَ لَـهُ بِمَـوْتِ وَالِـدِهِ ؟

رَجَعَ سِيدِي عَمَّار ، وَأَعَادَ مَرَّةً أُخْرَى صَرْخَةَ الْبَارُودِ :
ــ بَـالِكْ يَـا مَحَمَّـدْ (بِتَفْخِيــمِ الْمِيــمِ الثَّانِيَــةِ) كَــلاَكِ الْبَــارُودْ ... بُــوفْ .
ثُمَّ يَخُصُّ صُوِيلَحْ صَارِخًا :
ــ يَـا مَحَمَّـدْ جِيـتْ بَـاشْ تْعِسْ عَلَى جْنَـانْ بِنْـتْ الرَّيْ ... وِيـنْ مُكَحْلْتِـكْ .
ــ مَا نِيشْ مِتْصُولِحْ كِيفِكْ ...
ــ غَالِطْ يَا مَحَمَّدْ ...
كُلُّهُـمْ مُحَمَّـدُونَ عِنْـدَهُ ، اِسْتَوَوْا دِينًـا وَأَخْلاَقًـا وَجَاهًـا وَمَـالاً وَرَهْبَــةً وَخَوْفًـا مِنْهُ وَمِـنْ كَرَامَاتِـهِ وَحَيْرَةً أَمَـامَ غُمُـوضِ شَخْصِيَّتِهِ .

تَذَكَّـرَ جَـدَّهُ فَـنَزَلَتِ الدُّمُـوعُ مُنْهَمِـرَةً . وَتَأَسَّـفَ عَلَـى هَـذَا الرَّجُـلِ الَّـذِي ، وَإِنْ أَخَـذَ مِنْـهُ الْهَـرَمُ مَـأْخذًا عَظِيمًـا فِـي هَـذِهِ السَّـنَوَاتِ الأَخِيرَةِ الْعَدِيـدَةِ، فَقَـدْ بَقِيَ وَفِيًّـا لِقِيَمِـهِ لَـمْ تَفْعَـلْ فِيـهِ الشَّيْخُوخَةُ مَـا يَجْعَلُـهُ لُعْبَـةً فِـي أَيْـدِي الطَّـامِعِينَ وَبِـالْخُصُوصِ عَمُّـهُ ، بَـلْ كَـانَ يُحِـبُّ أَحْفَـادَهُ وَيُفَضِّـلُ عَلِــي وَيَقُــولُ : عَلِـي جَمَـعَ كُـلَّ خِصَـالِ أُسْرَتِنَا رُجُولَـةً وَاسْتِقَامَةً وَأَنَفَـةً وَمُرُوءَةً . وَغَــامَتْ عَلَـى خَاطِرِهِ حَادِثَـةٌ ارْتَعَشَـتْ لَهَـا فَرَائِصُـهُ ، كَـانَ جَـدُّهُ فِيهَـا قَـابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَـى مِنْ حِرْمَانِـهِ هُـوَ وَأُمِّـهِ وَإِخْوَتِـهِ مِـنَ الإِرْثِ .

كَانَ ذَلِكَ عِنْدَمَا كَانَ فِي الْمَرْجَى يَعْمَلُ بِمَحَطَّةِ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ . إِذْ لاَحَظَ رَجُلاً لِبَاسُهُ غَرِيبٌ عَنْ لِبَاسِ أَهْلِ تِلْكَ الْجِهَةِ . وَلَمَّا تَبَيَّنَهُ عَرَفَ أَنَّهُ أَحَدُ أَصْدِقَاءِ وَالِدِهِ فَبَادَرَهُ قَائِلاً :

ــ يَا سِي الْعَرْبِي ، مَا ذَا تَفْعَلُ هُنَا فِي هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي لاَ عُمْرَانَ فِيهِ .

ــ يَاوَلِيدِي الْمَجَاعَةُ كَبِيرَةٌ فِي مِنْطَقَتِنَا وَالْحَيَوَانَاتُ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُ ، فَأَتَيْتُ إِلَى هُنَا وَهُوَ مَكَانُ الْمُعَمِّرِينَ الْفَرَنْسِيِّينَ لِأَشْتَرِيَ الْقَمْحَ وَالشَّعِيرَ وَالْقُرْطَ مِنْهُمْ . فَهَلْ تَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ ؟

ــ أَعْرِفُهُمْ جَمِيعًا ، هُمْ يَتَعَامَلُونَ مَعَنَا كُلَّ يَوْمٍ

ــ رُبَّمَا بِمَعْرِفَتِكَ أَجِدُ مَا أُرِيدُ بِثَمَنٍ مَعْقُولٍ .

ــ سَأُحَاوِلُ .

أَكْرَمَ عَلِي ضَيْفَهُ بِمَا أَمْكَنَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ النَّائِي . وَفِي الصَّبَاحِ تَوَجَّهَ مَعَهُ إِلَى الْمُعَمِّرِ كُولُومْبَا ، وَاشْتَرَى مِنَ الْقَمْحِ حُمُولَةَ عَرَبَةِ قِطَارٍ بِأَكْمَلِهَا وَثَانِيَةً مِنَ الشَّعِيرِ وَثَالِثَةً مِنَ الْقُرْطِ وَالتِّبْنِ . كُلُّ ذَلِكَ بِثَمَنٍ مُنَاسِبٍ لَمْ يَكُنْ لِيَحْلُمَ بِهِ هَذَا الْفَلاَّحُ . . وَتَمَّ وَسْقُ الشَّحْنَةَ عَنْ طَرِيقِ الْقِطَارِ إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي لاَ تَبْعُدُ عَنْ الْمَحَطَّةِ إِلاَّ بِضْعَةَ كِيلُومِتْرَاتٍ . وَرَجَعَ سِي الْعَرْبِي وَهُوَ يَلْهَجُ بِذِكْرِ عَلِي . وَلَمْ يَمُرَّ أُسْبُوعٌ حَتَّى جَاءَتْهُ رِسَالَةٌ كَتَبَهَا حَامِد عَلَى لِسَانِ عَمِّهِ حَفِيظ يَطْلُبُ فِيهَا تَوْجِيهَ نَفْسِ الْحُمُولَةِ مِنَ الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَالْقُرْطِ إِلَى الْعَائِلَةِ .

فَهِمَ عَلِي أَنَّ عَمَّهُ نَصَبَ لَهُ فَخًّا إِذْ يَعْرِفُ أَنَّ حَفِيظ يَتَمَنَّى أَنْ تَصِلَ الْوَسْقَةُ بِاسْمِ حَامِد لِيُدَلِّلَ إِلَى الْحَاج سَالِم بِأَنَّ حَفِيدَهُ مُنْحَازٌ إِلَى أَخْوَالِهِ . فَاحْتَاطَ وَأَرْسَلَ كَمِّيَّةَ الْحُبُوبِ بِاسْمِ عَمِّهِ . وَبَعْدَ أَيَّامٍ بَلَغَتْهُ بَرْقِيَّةٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ تَسْتَفْسِرُهُ عَنِ الْحمولَةِ هَلْ هِيَ مُوَجَّهَةٌ بِاسْمِ حَفِيظ أَمْ

حَامِد ؟ وَأَدْرَكَ أَنَّ الأَمْرَ بَلَغَ مِنَ الْخُطُورَةِ حَدًّا جَعَلَ السُّلْطَةَ تَتَدَخَّلُ . فَأَجَابَ بِأَنَّ الْوَسْقَةَ مُوَجَّهَةٌ إِلَى عَمِّهِ لاَ غَيْرَ .

عَرَفَ عَلِي تَفَاصِيلَ الْقَضِيَّةِ مِنْ رِسَالَةٍ وَصَلَتْهُ بَعْدَ أُسْبُوعٍ مِنْ أَخِيهِ الصَّادِق . " الْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

إِلَى حَضْرَةِ الْمُكَرَّمِ الأَجَلِّ أَخِي عَلِي فِي مَقَامِ وَالِدِي دَامَ بَقَاؤُهُ . بَعْدَ تَقْبِيلِ أَيَادِيكُمْ وَأَطْرَافِكُمْ وَالْتِمَاسِ رِضَاكُمْ ، أُعْلِمُكُمْ أَنَّ الْقِيَامَةَ قَامَتْ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ ، وَكَادَ جَدِّي يُطْرِدُنَا مِنَ الدَّارِ وَيَحْرِمُنَا مِنْ إِرْثِ وَالِدِنَا . وَصُورَةُ الأَمْرِ أَنَّ الْقَمْحَ وَالشَّعِيرَ وَالْقُرْطَ وَالتِّبْنَ الَّذِي بَعَثْتَهُ إِلَى عَمِّي حَفَيِّظ تَلَقَّاهُ خَالِي حَامِد فِي مَحَطَّةِ الْقِطَارِ وَظَنَّ الْمَسْؤُولُ فِي السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ ، وَهُوَ يَعْرِفُهُ ، أَنَّ حَفَيِّظ كَلَّفَهُ بِذَلِكَ وَفِعْلاً دَفَعَ خَالِي الثَّمَنَ وَاسْتَوْلَى عَلَى الْوَسْقَةِ كُلِّهَا وَسَمِعَ عَمِّي حَفَيِّظ بِالأَمْرِ فَقَالَ لَهُ :

ـ إِنَّ الْوَسْقَةَ بِاسْمِي .

ـ أَنَا دَفَعْتُ الثَّمَنَ .

ـ لِمَاذَا دَفَعْتَ الثَّمَنَ ؟

ـ لِنَعْتَبِرْهَا شَرِكَةً تَأْخُذُونَ أَنْتُمْ النِّصْفَ وَنَحْنُ النِّصْفَ .

ـ أَنْتَ تُرِيدُ التِّجَارَةَ أَمَّا نَحْنُ فَلِاسْتِهْلاَكِنَا الْخَاصِّ ، لَنَا وَلِحَيَوَانَاتِنَا .

وَوَقَعَتْ مَعْرَكَةٌ كَلاَمِيَّةٌ بَيْنَ الاثْنَيْنِ .

وَسَمِعَ جَدِّي فَنَادَى وَالِدَتِي وَقَالَ :

ـ اِبْنُكِ بَعَثَ إِلَى أَخِيكِ الْقَمْحَ وَالشَّعِيرَ وَالْقُرْطَ وَالتِّبْنَ فَاذْهَبْ إِلَى أَخِيكِ ... لاَتَلْزَمْنِي لاَ أَنْتِ وَلاَ أَوْلاَدُكِ ... اُخْرُجِي مِنْ دَارِي وَاذْهَبِي إِلَى دَارِ أَخِيكَ .

وَرُفِعَتْ قَضِيَّةٌ إِلَى خَلِيفَةِ الْبَلَدِ وَسَمِعَ خَالِي الْمُؤَدِّبُ ، فَجَاءَ إِلَى جَدِّي وَحَدَّثَهُ حَدِيثًا لَيِّنًا . وَأَرَادَ إِقْنَاعَهُ وَلَكِنْ بِدُونِ جَدْوَى وَأَصَرَّ جَدِّي عَلَى طَرْدِنَا . فَقَالَ لَهُ خَالِي الْمُؤَدِّبُ :

ـ إِنَّ الْقَضِيَّةَ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ وَسَأَتَّصِلُ بِهِ وَأَقْتَرِحُ عَلَيْهِ أَنْ يُرْسِلَ بَرْقِيَّةً ذَهَابًا وَإِيَّابًا إِلَى حَفِيدِكَ عَلِي وَيَسْأَلُهُ فِيهَا عَنْ جَلِيَّةِ الأَمْرِ وَعِنْدَهَا تُقَرِّرُ مَا تَرَاهُ . وَقَبِلَ جَدِّي الاِقْتِرَاحَ بَيْنَمَا عَمِّي شَرَعَ فِي طَرْدِنَا . وَاتَّصَلَ الْمُؤَدِّبُ بِالْخَلِيفَةِ وَكَانَ جَوَابُكَ هُوَ الَّذِي أَنْقَذَ الْمَوْقِفَ وَعَرَفْنَا أَنَّكَ فَهِمْتَ اللُّعْبَةَ . فَقَالَ جَدِّي :

ـ الآنَ تَحَقَّقْتُ أَنَّ هَذَا الشِّبْلَ مِنْ ذَاكَ الأَسَدِ ، فِيهِ كُلُّ خِصَالِ أُسْرَتِنَا . لَقَدْ كُنْتُ مُنْذُ صِغَرِهِ أَتَوَسَّمُ فِيهِ التَّعَقُّلَ وَالذَّكَاءَ . وَعَدَلَ جَدِّي عَنْ قَرَارِهِ وَرَجَعَتِ الأُمُورُ إِلَى نِصَابِهَا . أَخُوكَ الصَّادِق .

هَذَا مُلْحَقٌ خَيْرٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ : قَالَ سِي الْعَرْبِي عِنْدَكُمْ فِي الْجِهَةِ الْعَسَلُ وَالْبَيْضُ وَالزُّبْدَةُ ، إِبْعَثْ لَنَا بِكَمِّيَّةٍ . كُلُّ الْعَائِلَةِ تُبَلِّغُكَ السَّلاَمَ أَطْفَالاً وَرِجَالاً وَنِسَاءً . "]

(يَظْهَرُ أَنَّ عَبْدَ اللَّطِيفِ حَاوَلَ بِقَدْرِ جُهْدِهِ إِدْرَاجَ الرِّسَالَةِ كَمَا هِيَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عَنْ إِدْخَالِ عَلاَمَاتِ الْوَقْفِ . إِذِ الْكِتَابَةُ كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ صَبَّةً وَاحِدَةً : فَلاَ نُقْطَةَ وَلاَ فَاصِلَةَ وَلاَ مَطَّةَ الْحِوَارِ. وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهُ غَيَّرَ الْكَثِيرَ مِنَ التَّرَاكِيبِ الْعَامِّيَّةِ الشَّائِعَةِ آنَذَاكَ وَالَّتِي تَجْعَلُ النَّصَّ غَامِضًا وَلَمْ يُحَافِظْ إِلاَّ عَلَى بَعْضِ الصِّيَغِ) .

[وَصَلَ عَلِي وَصُوَيْلِحْ إِلَى الْمَنْزِلِ ، وَوَجَدَا كُلَّ الأُسْرَةِ فِي انْتِظَارِهِمَا لِلْقِيَامِ بِمَرَاسِمِ دَفْنِ الْحَاجِ سَالِم . وَتَمَّ كُلُّ شَيْءٍ حَسْبَ التَّقَالِيدِ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يَلْفِتُ النَّظَرَ إِلاَّ هَيْئَةَ صُوَيْلِحْ وَكَلاَمَهُ . لَمْ يَبْكِ وَلَمْ يَتَأَثَّرْ وَلَمْ تَسْقُطْ مِنْ عَيْنِهِ وَلَوْ دَمْعَةٌ وَاحِدَةٌ . قَالَ لَهُ عَلِي :

ـ يَا صُوِيلِحْ لِمَاذَا لَمْ تَبْكِ عَلَى أَبِيكَ ؟
ـ حَتَّى هُوَ كِبِرْ وَطَوِّلْ وَخَلَّى حَفَيِّظ إمْحَيِّشْ عَلِينَا .

وَلَمْ يَتَمَالَكْ وَهُوَ يَتَقَبَّلُ الْعَزَاءَ مَعَ سَائِرِ الأُسْرَةِ عَنِ الْقَوْلِ لِبَعْضِ خُلَطَائِهِ :

ـ بَاهِي ... بَاهِي ... يِزَّي مِتْنُوفِيقْ ، مَحْسُوبْ تَأَسَّفْتْ عَلِيهْ يَاسِرْ .
وَلَمَّا تَمَّتْ التَّعَازِي فِي الْجَبَّانَةِ خَاطَبَ أَخَاهُ حَفَيِّظ أَمَامَ النَّاسِ قَائِلاً :
ـ تَوَة يِزَيِّكْ ... هَاتِ الرَّزَيِّقْ ... الْقِسْمَة وَمَا قَالْ الشَّرْعْ ... وَفَاتْ لِكْ هَاكْ الأَيَّامْ . تِإِنْتِ كُنْتْ تِجْرِي بِالطَّبِيبْ وَالدَّوَاءْ إِلْبَابَا مِشْ مَحَبَّة فِيهْ بَاشْ إِيطُولْ عُمْرُو وِيوَنِّسْنَا وَيَحْمِينَا غَايْتِكْ بَاشْ تُقْعُدْ إِتْصُولْ وِتْجُولْ .
أَنَا رَانِي فَايِقْ بِيكْ .
ـ رَبِّي يُخْبُرْ لِكْ .

وَكَانَ عَلِي يُحَاوِلُ أَنْ يُعَقِّلَهُ ، وَهُوَ كَغِرْبَالِ النُّخَالَةِ كُلَّمَا الْجَحْتَ فِي رَصِّهَا إِلاَّ وَفَاضَتْ . وَلَمْ يَهْدَأْ إِلاَّ عِنْدَمَا قَالَ حَفَيِّظْ تَهْدِئَةً لِلْجَوِّ الْمُكَهْرَبِ :

ـ بَعْدَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ يَتِمُّ سَرَاحُكُمَا مِنَ الْعَسْكَرِ وَعِنْدَهَا تَجِدُونَ كُلَّ شَيْءٍ جَاهِزاً ... أَنَا مُنْذُ خَمَسَ عَشْرَةَ سَنَةٍ وَأَنَا تَعْبَانُ وَكُلُّكُمْ تَأْكُلُونَ ثَمَرَاتِ تَعَبِي ... وَلاَ مَنْ يَرْحَمُنِي وَيَقُولُ كَلِمَةَ خَيْرٍ فِيَّ .
ـ إِمَّالاَ قُلْ لِي إِتْحِبْ تَاخُذْ تَعَبْكْ ... إِنْتِ إِكْلِيتْ الدِّنْيَا وِتْسَحَّرْتْ بِلاَخْرَة ... وَاللَّهِ نِشْكِي بِيكْ وِنْشَوَّمْ لِكْ أَيَّامِكْ ... رُدْ بَالِكْ ...

رَجَعَا إِلَى ثُكْنَةِ بَارْدُو . وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ أَكْمَلَ عَلِي مُدَّةَ التَّطَوُّعِ وَقَدَّمَ مَطْلَبًا فِي سَرَاحِهِ ، فَقُبِلَ . وَلَكِنَّ الْكُومَنْدَان الْفَرَنْسِي حَلَّ بِبَارْدُو وَقَالَ لَهُ وَهُوَ مُتَّجِهٌ إِلَى مَكْتَبِ الْيُوزْبَاشِي رَئِيسِ طَائِفَةِ الطُّبْجِيَّةِ الَّذِي إِسْتَقْبَلَهُ هُوَ وَأَعْضَاؤُهُ أَمَامَ الثُّكْنَةِ :

ـ بَاش شَاوُش ... أُهَنِّئُكَ عَلَى مَسْكِكَ الدَّفَاتِرَ بِإِتْقَان ... أَنَا أَعْرِفُ خَطَّكَ الْجَيِّدَ الْوَاضِحَ ... تَقَارِيرُكَ نَظِيفَةٌ وَفَرَنْسِيَّتُكَ مَقْبُولَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَفْكِيرٍ عَقْلاَنِيٍّ مَنْطِقِيٍّ ... مِنْ أَيْنَ تَعَلَّمْتَ هَذَا التَّرْتِيبَ وَالنِّظَامَ وَتَجَنَّبْتَ اللَّخْبَطَةَ الَّتِي تَعَوَّدْنَاهَا ؟ أَمَامَكَ مُسْتَقْبَلٌ زَاهِرٌ ... لِمَاذَا لاَ تُجَدِّدُ تَطَوُّعَكَ ؟

ـ إِخْوَتِي صِغَارٌ وَعِنْدَنَا أَرَاضٍ فِلاَحِيَّةٌ وَزَيَاتِينُ كَثِيرَةٌ لاَ بُدَّ مِنَ الْعِنَايَةِ بِهَا ... وَحُضُورِي مُتَأَكِّدٌ .

ـ لَوْ تَطَوَّعْتَ مِنْ جَدِيدٍ أُرَقِّيكَ إِلَى رُتْبَةِ أَجُودَان .

ـ الْوَاجِبَاتُ الْعَائِلِيَّةُ تَفْرُضُ عَلَيَّ ذَلِكَ .

ـ أَنْتَ مَجْنُونٌ ... سَتَنْدَمُ .

وَحَلَّ عَلِي بِالْقَرْيَةِ بِصُورَةٍ نِهَائِيَّةٍ ، وَوَجَدَ عَمَّهُ قَدْ أَجْرَى الْقِسْمَةَ وَاسْتَأْثَرَ بِالسَّوَانِي الْخِصْبَةِ وَالزَّيَاتِينِ الْمُثْمِرَةِ وَأَعْطَى مَا تَبَقَّى لِأَبْنَاءِ أَخِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَفُتَاتًا لِأَخَوَاتِهِ . وَتَرَكَ تَحْتَ تَصَرُّفِهِ مَعْصَرَةَ الزَّيْتُون وَالدَّكَاكِين وَالدُّور وَالأَجِنَّةِ . قَالَ لَهُ صُوِيلِحْ وَقَدْ تَمَّ سَرَاحُهُ مِنَ الْعَسْكَرِ أَيْضًا بَعْدَ أَنْ أَعْفَتْهُ لَجْنَةٌ طِبِّيَّةٌ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ بِسَعْيٍ مِنْ عَلِي : ـ اِخْذِيتْ أَحْسَنْ الأَرَاضِي وَمَا قَسَمْتِشْ بَقِيَّة الرِّزْقْ بَاشْ تُقْعُدْ تِتْصَرَّفْ فِيهْ أُوتَرْمِيلْنَا مُرْشَانَا ... الْعَدْلْ مَا تَعْرِفُوشْ .

ـ شُوفْ تُسْكُتْ وَإِلاَّ تَوَّة نَضْرِبْكْ عَلَى رَاسِكْ كِي الْمَرَّة الأُخْرَى .

وَسَكَتَ صُوِيلِحْ وَسَكَتَ عَلِي . ثُمَّ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ يَشْرَعُ حَفَيِّظ فِي قِسْمَةِ بَقِيَّةِ الرِّزْقِ وَلَكِنْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَفْسُدُ الْعَمَلِيَّةُ . فَعَلَ ذَلِكَ تَقْرِيبًا عَشْرَ مَرَّاتٍ بِحُضُورِ بَعْضِ الشُّيُوخِ الْحُكَمَاءِ . هُوَ يَعْرِفُ كَيْفَ يُنَاوِرُ حَتَّى يَكُونَ الْمَسْؤُولُ عَنْ إِفْسَادِ الْقِسْمَةِ غَيْرُهُ .

وَتَأَمَّلَ عَلِي جَيِّدًا عَمَّهُ فَوَجَدَهُ يَخُوضُ الْمَعَارِكَ وَيَخْرُجُ مُنْتَصِرًا . وَفِي قَضِيَّةِ الْحَالِ يَنْصَبُّ هَمُّهُ فِي جَعْلِ الْحَكَمِ يَنْسَحِبُ مِنَ الْقِسْمَةِ وَهُوَ مُتَيَقِّنٌ أَنَّ الإِفْسَادَ لَمْ يَتَسَبَّبْ فِيهِ حَفِيظ بَلْ الْوَرَثَةُ . ذَلِكَ أَنَّهُ حَذِقَ حِذْقًا عَجِيبًا سِرَّ تَلاَفِي الصُّعُوبَاتِ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، وَأُسْلُوبَ تَجَنُّبِ الْفِخَاخِ . فَكَانَ يَرُوغُ رَوَغَانَ الثَّعْلَبِ وَيَعْمَدُ إِلَى إِثَارَةِ الْخُصُومِ مِنْ أَصْحَابِ الإِرْثِ وَتَقْسِيمِ صُفُوفِ الْمُتَّفِقِينَ مِنْهُمْ ، وَيَتَفَنَّنُ بِكَلْبِيَّةٍ خَبِيثَةٍ ، وَمِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ ، فِي تَشْجِيعِ مَنْ طَمِعَ فِي بَعْضِ النُّفَايَاتِ يَرْمِيهَا لَهُ بِالْوُعُودِ الْخَلاَّبَةِ وَيُغْرِقُ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمُخْطِئِ بِحَثِّهِ عَلَى الإِمْعَانِ فِي الْخَطَإِ بِأَسَالِيبَ شَيْطَانِيَّةٍ . فَهِمَ عَلِي أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ حَذِقَ الإِسْتِرَتِيجِيَا وَالتَّكْتِيكَ مِنْ دُونَ أَنْ يَسْمَعَ بِهِمَا ، وَتَذَكَّرَ الضَّابِطَ الْفَرَنْسِيَّ الَّذِي حَدَّثَهُمْ ، فِي مَدْرَسَةِ الضُّبَّاطِ الصِّغَارِ ، عَنْ حَنْبَعْلَ الْقَائِدِ الْقَرْطَاجِي الَّذِي بَرَعَ فِي هَذَا الْفَنِّ .

وَرَأَى عَلِي أَنَّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَلاَّ يُثِيرَ كُلَّ الْمَشَاكِلِ دُفْعَةً وَاحِدَةً وَسَطَّرَ خُطَّةً ذَاتَ رُكْنَيْنِ : أَنْ يَقْتَصِرَ الآنَ عَلَى اسْتِغْلاَلِ مَا أُعْطِيَ لَهُ وَلِإِخْوَتِهِ مِنْ ضَيْعَاتٍ وَزَيَاتِينَ ثُمَّ يُمْهِلُ عَمَّهُ فِي خُصُوصِ بَقِيَّةِ الإِرْثِ مِنْ دُونِ أَنْ يُخَفِّفَ عَلَيْهِ الْخِنَاقَ وَمِنْ دُونِ السُّكُوتِ عَنِ الْمُطَالَبَةِ بِمَنَابِهِ فِي الْمَحَاصِيلِ هُوَ وَإِخْوَتُهُ . وَشَمَّرَ عَلَى سَاعِدِ الْجِدِّ هُوَ وَأَخُوهُ الصَّادِقُ : هَذَا يَكُونُ دَائِمًا عَلَى عَيْنِ الْمَكَانِ ، فِي الْمَيْدَانِ ، يَتَفَقَّدُ الْعُمَّالَ وَيُشْرِفُ عَلَى كُلِّ الْمَوَاسِمِ وَيُجَسِّمُ الثَّرْوَةَ مِنْ زُيُوتٍ وَغِلاَلٍ وَحُبُوبٍ وَغَيْرِهَا . وَهُوَ يَهْتَمُّ بِكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُعَامَلاَتِ ، وَفَضِّ مَشَاكِلِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ، وَالتَّصَدِّي لِعَرَاقِيلِ الإِدَارَةِ وَالْقِيَامِ بِخُطَّةِ أَمِينِ فِلاَحَةٍ ، وَالانْصِرَافِ إِلَى الْعَمَلِ الاجْتِمَاعِيِّ نَظَرًا لِقُرْبِهِ مِنَ السُّلْطَةِ وَحِنْكَتِهِ .

وَسَارَتِ الأُمُورُ عَلَى أَحْسَنِ مَا يُرَامُ سَنَةً وَبِضْعَ سَنَةٍ .وَدَرَّتْ عَلَيْهِمْ الْمَوَاسِمُ الْفِلاَحِيَّةُ الْمُتَعَدِّدَةُ خَيْرًا كَثِيرًا : فِي الْخَرِيفِ وَجُزْءٍ مِنَ الشِّتَاءِ ، الزَّيْتُونُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الزَّيْتُونُ وَزَيْتُهُ النُّورَانِيُّ ؛ وَفِي الرَّبِيعِ وَالصَّيْفِ ، الْفُولُ وَالْحِمَّصُ وَالذُّرَةُ الصَّفْرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ وَالْقَمْحُ وَالشَّعِيرُ وَالْفُلْفُلُ وَالطَّمَاطِمُ وَالدَّلاَّعُ وَالْبِطِّيخُ وَاللَّوْزُ وَالْعِنَبُ وَالتِّينُ وَالرُّمَّانُ وَغَيْرِهَا . وَبَدَأَتْ أَمَارَاتُ النَّعِيمِ تَظْهَرُ عَلَى عَائِلَةِ عَلِي الْمَحْرُومَةِ مُنْذُ أَكْثَرِ مِنْ عِقْدٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَوِيًّا وَمَادِيًّا مِمَّا أَثَارَ حَفِيظَةَ حَفَيِّظ فَقَرَّرَ أَلاَّ يَبْقَى مُتَفَرِّجًا . وَلَئِنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى افْتِكَاكِ الرِّزْقِ فَهُوَ فِي اسْتِطَاعَتِهِ ، عَلاَوَةً عَلَى تَعْطِيلِ نَسَقِ قِسْمَةِ بَقِيَّةِ الإِرْثِ ، تَنْغِيصُ عَيْشِ أُسْرَةِ أَخِيهِ وَمَنْعُهَا مِنِ اسْتِغْلاَلِ مَنَابِهَا فِي دَعَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ وَرَاحَةِ بَالٍ .

هَذَا كُلُّهُ مَدْعَاةٌ لِتَحَرُّكِ حَفَيِّظ ؛ وَلَكِنَّ الَّذِي أَثَارَ عَجَبَهُ بَلْ قَلَقَهُ وَأَكْثَرَ مِنْ ظَنٍّ مِنْ ظُنُونِهِ السَّيِّئَةِ هُوَ سُكُوتُ عَلِي عَنْ قِسْمَةِ بَقِيَّةِ الرِّزْقِ . وَخَرَجَ مِنْ مَوْقِفِهِ السَّلْبِيِّ وَحِيَادِهِ الْخَانِعِ إِلَى رَسْمِ وَتَنْفِيذِ خُطَّةٍ جَهَنَّمِيَّةٍ ظَاهِرُهَا خَيْرٌ وَبَاطِنُهَا شَرٌّ مُسْتَطِيرٌ . كَانَ فِي الْعَادَةِ يَحْتَقِرُ حَامِد وَلاَ يَرُدُّ عَلَيْهِ سَلاَمًا إِلاَّ بِبَرْطَمَةٍ وَاضِحَةٍ وَإِذَا بَاشَرَهُ فِي مَوْضُوعٍ يَزْوَرُّ عَنْهُ قَائِلاً :

ـ خَلْوَاضْ ... مُوشْ ثِيقَة ، خَبِيثْ خُو الشِّيطَانْ .

فَيَرُدُّ حَامِد بِازْدِرَاءٍ :

ـ مُنَافِق ... تَعَامِلْتْ مَعَايَ فِي السَّابِق ... وِاللِّي يِتْعَامِلْ مَعَ خُو الشِّيطَان هُوَ الشِّيطَانِ بْنَفْسُو .

وَإِذَا بِحَفَيِّظ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ يَشْرَعُ فِي مُلاَطَفَةِ نَظِيرِالسُّوْءِ فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ ؛ وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي يُنَادِيهِ وَهُوَ فِي الْمَقْعَدِ وَيَسْقِيهِ قَهْوَةً ؛ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَتْرُكُهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَشَارِيعِهِ الْمُخْتَلَقَةِ وَيُصْغِي فِي انْتِبَاهٍ إِلَى كَلاَمِهِ النَّاضِحِ كَذِبًا وَمُدَاهَنَةً لِأَنَّ حَامِد يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا الشِّيطَانَ لاَ بُدَّ أَنَّهُ يُبَيِّتُ

شَرًّا ؛ وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ قَالَ لَهُ حَفِيّظ :

ـ يَا رَجُل ... إِلَى مَتَى وَأَنْتَ رَاقِدٌ عَلَى أُذُنَيْكَ ... بَنَاتُكَ كَبُرَتْ وَلَمْ تزَوِّجْهُمْ ... وَاللّهِ أَنَا ابْنُ عَمِّكَ وَمَا يُفرِحُكَ يُفْرِحُنِي وَمَا يُحْزِنُكَ يُحْزِنُنِي ... لِمَاذَا لاَ تُوعِزُ إِلَى أُخْتِكَ كِيمَة بِتَزْوِيجِ ابْنِهَا الصَّادِق مِنْ مَرْيَم اِبْنَتِكَ... الصَّادِق كَبُرَ وَهْوَ الآنَ لَهُ رِزق :

ـ الصَّادِق يخْدِمْ كِالْخَمَّاسْ ... وَاشْ يَرَى مِالرِّزْقْ ... سِيدُو عَلِي يِتْبَخْتَرْ فِي الْجَبَايِبْ مَعَ الأَعْيَانْ أُو هُوَ فِي كَدْرُونْ يَقُومْ الْفَجْر وَمَا إِيفُكْ مِلْخِدْمَة إِلاَّ ظَلاَمْ اللِّيلْ .

ـ أَنَا فِي الْوَاقِعْ هَا الأَمْرْ هَذَا مَايِهِمْنِيشْ ... أَنَا حَبِّيتْ نَكَلِّمْكْ عَلْ لَبْنَاتْ إِلِّي هومَا كِيفْ بَنَاتِي .

عَرَفَ حَفِيِّظ أَنَّهُ عَبَّأَ حَامِد كَالسَّاعَةِ رَغْمَ حَذَرِهِ وَحِيطَتِهِ . وَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى شَاهَدَ خُطَّتَهُ وَهْيَ تَتَبَلْوَرُ وَبِالطَّبْعِ عَادَ إِلَى ازْوِرَارِهِ عَنْ حَامِد وَإِلَى تَحَاشِي الْكَلاَمِ مَعَهُ . أَمَّا الصَّادِق فَقَدْ أَصْبَحَ يُمْضِي السَّهْرَةَ مَعَ أَبْنَاءِ خَالِهِ حَامِد وَأَعْجَبَهُ مَا أَسَرَّتْ لَهُ بِهِ أُمُّهُ مِنْ تَزْوِيجِهِ مِنْ مَرْيَمَ . فَأَصَابَهُ شَيْءٌ مِنَ الاِرْتِخَاءِ يَزِيدُ كُلَّ يَوْمٍ عَقْدَةً وَوَغَرَ صَدْرُهُ عَلَى أَخِيهِ عَلِي وَدَبَّ فِي نَفْسِهِ الْحَسَدُ تُجَاهَهُ حَتَّى صَارَ يَتَلَكَّأُ عَنِ النُّهُوضِ بَاكِرًا فَيُضْطَرُّ عَلِي إِلَى تَعْوِيضِ الصَّادِق فِي أَكْثَرِ مِنْ مُهِمَّةٍ .

وَفِي يَوْمٍ مِنْ الأَيَّامِ الَّتِي تَعَوَّدَ عَلِي شُؤْمَهَا ، نَهَضَ كَالْعَادَةِ بَاكِرًا وَأَيْقَظَ الصَّادِق بِحَزْمٍ وَحَاوَلَ تَعْقِيلَهُ وَتَحْرِيضَهُ عَلَى اجْتِنَابِ الْوُقُوعِ فِيمَا يَجْلِبُ شَمَاتَةَ حَفِيِّظ وَأَوْعَزَ إِلَى أُمِّهِ بِتَأْنِيبِهِ وَحَثِّهِ عَلَى الاِلْتِحَاقِ بِالْخَدَّامَةِ ، وَخَرَجَ لِشُؤُونِهِ الْمُتَأَكِّدَةِ . وَأَلَحَّتِ الأُمُّ الْمِسْكِينَةُ عَلَى ابْنِهَا الْكَسُولِ بِطَاعَةِ أَخِيهِ الأَكْبَرِ وَكَلَّمَتْهُ بِلُغَةٍ زَادَتْهُ حَنَقًا عَلَى أَخِيهِ وَأَيَّدَتْ لَهُ مَا وَسْوَسَ لَهُ شَيَاطِينُ الإِنْسِ مِنْ حَقَارَتِهِ وَتَدَنِّي شَأْنِهِ بِالنَّظَرِ إِلَى عَلِي .

أَتَتْهُ كِيمَة بِفَطُورِ الصَّبَاحِ : بَسِيسَةٌ تَفُوحُ زَيْتًا وَأَفَاوِيهَ مُنْتَقَاةً وَشَرِيحَةُ تِينٍ لَمْ يَزُلْ عَنْهَا عَسَلُهَا . وتَرَكَتْ وَلَدَهَا الْعَزِيزَ الَّذِي سَيَتَزَوَّجُ بِنْتَ أَخِيهَا الأَثِيرِ لِنَفْسِهَا ، يَتَهَيَّأُ لِمَلْءِ بَطْنِهِ وَرَاحَتْ مَعَ نِسَاءِ الدَّارِ تَحْمِي الْخُبْزَ . وَسَكَنَ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْغُرْفَةِ إِذْ كَانَتْ بَيْنَ الْحِينِ وَالآخَرِ تُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهَا : يَا صَادِق ... يَا صَادِق ... وَلاَ مِنْ مُجِيبٍ . وَظَنَّتِ الْمِسْكِينَةُ أَنَّ ابْنَهَا قَدْ غَادَرَ الْبَيْتَ . وَلَمَّا أَخَذَتْ حِصَّتَهَا مِنَ الْخُبْزِ وَدَخَلَتِ الْغُرْفَةَ وَجَدَتْهُ مُنْتَصِبًا أَمَامَ السُّفْرَةِ وَهُوَ يُلَقِّمُ الْبَسِيسَةَ بِشَرِيحَةِ التِّينِ فِي تُؤَدَةٍ وَرَاحَةِ بَالٍ فَصَاحَتْ فِيهِ وَخَبَطَتْ فَخِذَيْهَا قَائِلَةً :

ـ يَا صَادِق ... عَلاَشْ مَا تَجَاوُبْنِيشْ ... تَوَّة إِيجِي خُوكْ وِيتْغَشَّشْ ... أَنَا بَاشْ إِنْمُوتْ مِلْخُلْفْ مَا بِينِكْ وَمَا بِينْ خُوكْ .

ـ أَتْحِبْنِي إِنْغَصْ بِالْبَسِيسَة أُو نِشْرِقْ .

وَانْحَنَى عَلَى الْمَائِدَةِ وَأَخَذَ خُبْزَةً تَفُورُ نُضْجًا وَصُنْعًا ثُمَّ حَلَقَ ذَقْنَهُ وَسَوَّى شَارِبَيْهِ وَلَبِسَ أَحْسَنَ جُبَّةٍ وَتَبَرْنَسَ . عِنْدَ ذَلِكَ دَخَلَ عَلِي وَهُوَ يَرْتَعِدُ غَضَبًا ، فَقَالَ لَهُ الصَّادِق بِبُرُودَةِ دَمٍ لاَ مَثِيلَ لَهَا :

ـ مَانِيشْ خَمَّاسْ .

وَغَلَى فِي عَلِي مِرْجَلُ الْغَضَبِ وَبَاتَ لَيْلَتَهُ وَالْحَسْرَةُ عَلَى جُهُودِهِ الذَّاهِبَةِ سُدًى تُقَلْقِلُهُ ، وَفِي الصَّبَاحِ وَجَدَ نَفْسَهُ مَشْلُولاً .]

*للكاتب أيضا :

* اللّغة العربيّة ومشاكل الكتابة ، الدار التّونسيّة للنشر ، تونس ،1971-1985

* الشّخصيّة التّونسيّة ، مؤسّسة عبد الكريم بن عبد اللّه، تونس ، 1974 .

*النّظريّة التّاريخيّة في الكفاح التّحريري التّونسيّ ، مؤسّسة عبد الكريم بن عبداللّه ، تونس ، 1977 .

* قضايا ، الدّار العربيّة للكتاب ، تونس - ليبيا ، 1977 - 1985 .

* نظريّة التّطعيم الإيقاعيّ ، الدار العربيّة للكتاب ، تونس - ليبيا ، 1985 .

* عائشة ، (رواية) ، الطّبع على حساب المؤلّف ، تونس ، ثلاث طبعات : 1982، 1983 ، 1986 .

* تاريخ إفريقيا الشّماليّة ، ترجمة عن شارل أندري جوليان بمعيّة الأستاذ محمّد مزالي الدّار التونسيّة للنشر ، تونس ، عدّة طبعات ابتداء من 1969 .

* المعمّرون الفرنسيّون و الشّباب التّونسيّ ، الشّركة التّونسيّة للتّوزيع ، 1970

* في رحاب الفكر والأدب ، الهيئة المصريّة للكتاب ، القاهرة ، 1986

* خير الدّين والبلاد التّونسيّة ، ترجمة عن كريكن ، دار سحنون ، تونس ، 1988

* نحو هويّة بشريّة ملائمة للواقع ، ترجمة عن المنصف القيطوني ، دار الآداب ، بيروت ، 1990 .

* سليمان القانوني ، ترجمة عن كلو ، دار الجيل ، بيروت ، 1991 .

* عادل (رواية) مؤسّسة عبد الكريم بن عبد اللّه ، تونس ، 1991 .

* معجم اللّغة العربيّة - المحيط ، في ثلاثة أجزاء ، ومع 150 لوحة مصوّرة ملوّنة ، التّأليف بالاشتراك ، دار المحيط ، باريس ، الطبع ببيروت ، 1993 .

* في رحاب الثّقافة ، تحت الطّبع .

* ليلة الفلق ، محمّد والبيان الإسلاميّ ، ترجمة عن فتحي بن سلامة ، تحت الطّبع .

* اللّهو الصّفر ، مخطوط .

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٢٢٠١

I.S.B.N. 977-01-4271-9



نَعَمْ كَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ أَفَاقَ فِيهِ عَلِي مَذْعُورًا مِنْ حُلْمٍ مُرْعِبٍ . لَقَدْ رَأَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ أَنَّ مَوْجَ الْبَحْرِ طَفِقَ يَعْلُو شَيْئًا فَشَيْئًا وَأَخَذَ عَلِي يَتَعَلَّقُ بِعُنُقِ جَمَلِهِ الْمُحَبَّبِ إِلَيْهِ هَرَبًا مِنَ اللُّجَجِ الْمُتَعَاظِمَةِ . وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَإِذَا بِهَا تَقْتَرِبُ مِنَ الأَرْضِ وَيَعُمُّهَا سَوَادٌ مُفْجِعٌ . فَتَعْظُمُ الشَّمْسُ فِيهَا وَتَتَحَرَّكُ ثُمَّ تُسْرِعُ فِي الْحَرَكَةِ ثُمَّ تَجْرِي إِلَى أَنْ تَسْتَقِرَّ بِالْبَحْرِ وَتَنْطَفِئُ فِيهِ .فَتَشْتَدُّ حَرَارَةُ الْمَاءِ وَيَتَعَاظَمُ الْمَوْجُ فَيَقْتَرِبُ مِنْ قُبَّةِ السَّمَاءِ وَتَتَزَحْزَحُ السَّمَاءُ وَتَدْنُو مِنْهُ . ثُمَّ يَلْتَقِيَانِ فِي صَخَبٍ وَلَجَبٍ وَحَرَارَةٍ مُتَنَاهِيَةٍ وَيَتَشَبَّثُ عَلِي فِي مَرَارَةٍ بِعُنُقِ الْحَيَوَانِ وَيُحَاوِلُ رُكُوبَهُ وَإِذَا بِهِ يَلْمَحُ مُؤَدِّبَ الْقَرْيَةِ مُنْتَصِبًا فَوْقَ الْجَمَلِ مُتَحَدِّيًا الْمَوْجَ : الْوَجْهُ مُتَجَهِّمٌ وَالْجَبِينُ مُقَطَّبٌ وَالْعَيْنُ حَوْلاَءُ مُخِيفَةٌ ، فَيُنَادِيهِ عَلِي وَيَمُدُّ إِلَيْهِ يَدَهُ وَلَكِنَّ الْمُؤَدِّبَ يَرْكُلُهُ بِقُوَّةٍ فَيَصْرَخُ عَلِي بَاكِيًا وَيَهْدِرُ الْجَمَلُ إِعْيَاءً ثُمَّ تَغْمُرُهُمَا اللُّجَّةُ .

٩٠٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب